تاريخ

أسلاف الكورد

تاريخ

أسلاف الكورد

د. أحمد محمود الخليل



اربيل- ٢٠١٣



دار موكريانى للبحوث والنشر

- **تاريخ أسلاف الكورد**

- د.أحمد محمود الخليل

- التصميم الداخلي: ريدار جعفر

- الغلاف: ريمان

- السعر: (٣٥٠٠) دينار

- الطبعة الاولى: ٢٠١٣

- العدد: ٥٠٠

- المطبعة : موكريانى (اربيل)

- رقم الايداع (٢٨٨) في مدرية العامة للمكتبات لسنة (٢٠١٣)

تسلسل الكتاب (٧٣٧)

الموقع: www.mukiryani.com

ئيميل: info@mukiryani.com

الفهرست

المقدمة ٧
الفصل الأول: الجيل الأول من أسلاف الكورد ١١
(١) فجر الحضارة في كوردستان ١٣
(٢) الكوتيون ٢٩
(٣) اللوللوبيون ٥١
(٤) السوباريون ٦١
الفصل الثاني: الجيل الثاني من أسلاف الكورد ٦٩
(١) الانتشار الآري فى عربى آسيا ٧١
(٢) الكاشيون ٨١
(٣) الحوريون ١١٣
(٤) الميتانيون ١٥٣
الفصل اثالث: الجيل الثالث من أسلاف الكورد ١٩٣
(١) الخلديون ١٩٥
(٢) المانـنايون ٢٢٧
(٣) الميديون. ٢٤٣
الخاتمة: التكوين الكوردي من الأسلاف الي الآحفاد ٢٩٣
١. التكوين الكوردي ٢٩٥
٢. اشكالات واضاءات ٣٠١
فهرس المصادر والمراجع ٣٠١٥



تقديم

الأمة الكوردية من الأمم العريقة فى غربى آسيا، ومع ذلك قلّما تتوافر فى المكتبة الغرب آسيوية مؤلفات خاصة بالتاريخ الكوردى، والأسباب متعدّدة، وهى فى جملتها سياسية فى الدرجة الأولى، فإن صنّاع اتفاقية سايكس- پيكو فى القاهرة يوم ١٦ مايو/أيار ١٩١٦م، ومن انتفع من تلك الاتفاقية، حكموا على الكورد أن يبقوا محرومين من حقوقهم السياسية والثقافية، وفى ظل هذه الاتفاقية مورست مختلف أشكال التعتيم والتغييب على الثقافة الكوردية، وكان من الطبيعى أن يكون نصيب التاريخ الكوردى كبيراً من جميع ذلك.

وللمساهمة فى تحرير تاريخ الكورد من تابو التعتيم والتغييب، باشرت كتابة سلسلة من الدراسات فى التاريخ الكوردى، وفى هذا الكتاب ألقى الضوء على فترة مهمّة من تاريخ أسلاف الكورد تمتد على مدى عشرين قرناً من الزمان، وكان من الضرورى أن أعود إلى العديد من المصادر بعين فاحصة، وبمنهج علمى يقوم على الرصد الدقيق والتمحيص والمقارنة، وها أناذا أقدّمه إلى الأحبّة- قارئاتٍ وقرّاءً- موظِّفاً فيه جهود حوالى عشرة أعوام من الجمع والتصنيف، وآملاً أن يكون فيه قدرٌ من الفائدة، وأن يكون فيه الجواب عن بعض التساؤلات.

ولعل من المفيد ذكرُ بعض الصعوبات التى واجهتنى خلال رحلتى مع هذا الكتاب، فقد تفيد مَن يسير فى الطريق ذاته، وأبرزها أن البحث عن المعلومات الخاصة بأسلاف الكورد أشبه بالبحث عن مجموعة من الإبر فى أكوام ضخمة من القَشّ، ولست مبالغاً. والصعوبة الثانية هى مشكلة أسماء الأشخاص والأماكن، وهذه المشكلة ليست خاصة بتاريخ أسلاف الكورد، وإنما هى متأصلة فى مصادر تواريخ شعوب غربى آسيا عامة، فكثيراً ما يُذكَر الاسم الواحد بصيغ متعدّدة ومختلفة، وأحياناً يكون الاختلاف شديداً ومُربِكاً.

ويرجع ذلك- فيما أرى- إلى الترجمات الأولى من السومرية والهيروغليفية والسِّنْسكريتية والبابلية والآشورية والحُورية والحثّية والكنعانية والفينيقية والآرامية والپهْلوية واليونانية واللاتينية، وغيرها من الكتابات القديمة، كما أن بعض الكتّاب والمترجمين أضفوا على ما نقلوه من أسماء طابعَ صوتيات لغاتهم وقواعد خطوطهم، فاليونان مثلاً- ومنهم هيرودوت-

زادوا اللاحقة اليونانية (s) فى نهايات أسماء الأعلام، فنطقوا (دَياكو) بصيغة (ديوسيس)، و(فراوُرْت) بصيغة (فراروتيس)، وكذلك فعل المؤلفون والمترجمون العرب والمستعربون، فأشبعوا حرفى (ت، د)، وجعلوه (ط، ض)، فكتبوا (فراورطيس) و(أنطونيو)، و(أناضول)، وأحلّوا حرف (ص) محل حرف (س)، فقالوا (نَبُوخَذ نَصَّر) بدل (نبوخَذْ نَسَّر)، وزادوا التاء المربوطة (ة) فى نهايات أسماء الأعلام والأماكن بدل حرف الألف (ا)، فكتبوا (آسية، مَلَطْية، كيليكية، أُورْمِية)، بدل (آسيا، ملتيا، كيليكيا، أورميا)، مع أن القاعدة الإملائية الصحيحة فى العربية هى كتابة نهايات أسماء الأعلام الأعجمية (غير العربية) الممدودة بالألف الطويلة، ما عدا (موسى، يَحيى، مَتّى، كِسْرى).

ومن الصعوبات التى تعترض طريق الباحث فى التاريخ القديم عامة وجود التبادلات الصوتية فى الترجمات بين الأحرف (ج، غ، گ، ک)، فعاصمة الأكّاديين هى (Aggad)، وإليها نُسب الأكّاديون، لكنها تُكتب فى الغالب (أكّاد)، وكُتب اسم (تِغْلات) بصيغة (تِجْلات) وبصيغة (تِگلات).

ومن الصعوبات أيضاً النطق الصحيح لحركات الحروف، وهذه فى حدّ ذاتها مشكلة المشاكل، خاصة إذا كان الاسم قد مرّ بعدد من الترجمات، مثلاً من السومرية إلى الألمانية فالإنكليزية فالعربية، ولنأخذ على سبيل المثال اسم أول ملک لمملكة ميديا (دَياكو)، فجاء ذكره بالصيغ الآتية (دِياكو، دِيوكو، دَهَيک، دَهْياوكو).

ومن المعضلات ذات الصلة بالصوتيات أيضاً نطق الحرف (أ) فى بدايات بعض الأسماء، فمنهم من كتبها بالفتحة مثل (أگباتانا)، ومنهم من كتبها بالكسرة (إگباتانا)، ومنهم من يتركها غفلاً من الهمزة (ا)، والسبب- حسبما أرى- هو إشكالية صوتية الحرف (e) فى اللغات الآرية، ومنها الكوردية، فهى تقع- من حيث المخرج الصوتى الدقيق- بين الفتحة والكسرة، ويسمّى فى علم التجويد بـــ (الإمالة). وأما عن التبادلات فى الترجمات بين (ب، پ)، و(ج، چ)، و(ز، j)، و(س، ص، ش)، و(ف، ڤ)، و(ق، ک)، و(i، î)، و(o، u)، فحدّث ولا حرج.

وزاد الأمرَ تعقيداً أن عدداً غير قليل من المؤلفين لم يصرفوا الاهتمام الكافى إلى ضبط الأسماء القديمة، وتركوها عرضة لعدد من الاحتمالات، فتجد نفسک حائراً فى كيفية نطق اسم العاصمة الميتّانية، ترى هل هى (وَشّوكانى) أم (واشّوكّانى)، أم (آشّوكّانى)، أم (آشوكانى)؟ كما أن بعض المؤرخين العرب والمستعربين والأوربيين أطلقوا على بعض الأماكن القديمة أسماء لم تظهر إلا بعد قرون، وأسماء لم تظهر إلا فى العصر الحديث، ومثال ذلک إطلاق اسم (العراق) على (ميزوپوتاميا)، وإطلاق اسم (فارس) و(إيران) على البلاد التى

تتألف فى الأصل من كوردستان الشرقية وفارس وبارثيا وبُلوشِسْتان، وإطلاق اسم (الوَرْكاء) على المدينة السومرية القديمة (أُوروك)، وهكذا دواليك.

وقد حاولت جهدى التقليل من هذه الإشكالات، وحرصت على ضبط الأسماء فى حدود ما توافر بين يدىّ من المصادر، ووضعت أمام القارئ الصيغَ المختلفة لبعض الأسماء، سواء أكانت أسماء أشخاص أم أسماء أماكن، واضطررت إلى ترك بعض الأسماء- وهى قليلة- من غير ضبط؛ لافتقارى إلى معرفة الضبط الصحيح الدقيق، ووضعت بعض التعريفات والتوضيحات القصيرة بين قوسين [...] خلال المعلومات المقتبسة حرفياً؛ لأسهّل على القارئ الاطّلاع عليها، أما الشروح الطويلة فرحّلتها إلى الهوامش، وآمل أن تتحقق الفائدة فى جميع ذلك.

أما المنهج المتّبَع فى الكتاب فهو تقسيم أسلاف الكورد إلى ثلاثة أجيال: الجيل الأول يضم الگُوتيين واللّولوبيين والسُّوباريين. والجيل الثانى يضمّ الكاشّيين والحُوريين والمِيتّانيين. والجيل الثالث يضم الخَلْديين والماننايين والمِيديين. ويقوم هذا التقسيم على أساس هو مزيج من العناصر السلالية والثقافية والسياسية، ففى البداية كانت القيادة فى مجتمعات أسلاف الكورد بأيدى الزاغروسيين (الگوتيين واللولوبيين والسوباريين)، ثم تولّى القيادة الزاغروس- آريون (الكاشّيون والحوريون والميتّانيون)، ثم أصبحت القيادة فى أيدى الآريين (خَلْدى، مانناى، ميدى).

وللبحث فى التاريخ- فيما أعلم- منهجان رئيسان:

١ - منهج سرد المعلومات التاريخية أحداثاً وأشخاصاً وأمكنة، وهو المنهج المتّبَع عند معظم كتّاب التاريخ.

٢ - منهج فلسفة التاريخ، وهو يقوم على الدمج بين سرد المعلومات وفلسفة الأحداث، وقد اتّبعه المؤرخ البريطانى أَرْنولد تُويْنبى فى (مختصر دراسة للتاريخ)، والمؤرّخ الأمريكى وِلْ دِيورانْت فى (قصّة الحضارة).

وأجدنى فى كتاباتى التاريخية ميّالاً إلى النهج الثانى؛ لأنه يتميّز بكشف العلاقات الخفيّة بين الأحداث والحضارات، وملء الفجوات، وتوضيح المسارات والخطوط العامة، ولفت الانتباه إلى المتشابهات والمفارقات، وفتح آفاق التفكير التأملى أمام القارئ، وحفزه إلى الانتقال من مستوى تلقّى المعلومات، إلى مستوى تحليلها وتركيبها والحكم عليها، والخروج منها بنتائج محدّدة.

وفى الختام أقدّر صبر أسرتى الطويل علىّ، وأشكر لهم حرصهم على توفير المناخ المناسب للدرس والبحث والكتابة، وأشكر ولدى جوان لمساعدتى فى تنسيق الصور والخرائط، وبالله التوفيق.

أحمد محمود الخليل - الإمارات- العين — السبت ٢٥ — ٦ — ٢٠١١.

الفصل الأول

الجيل الأول من أسلاف الكورد

١

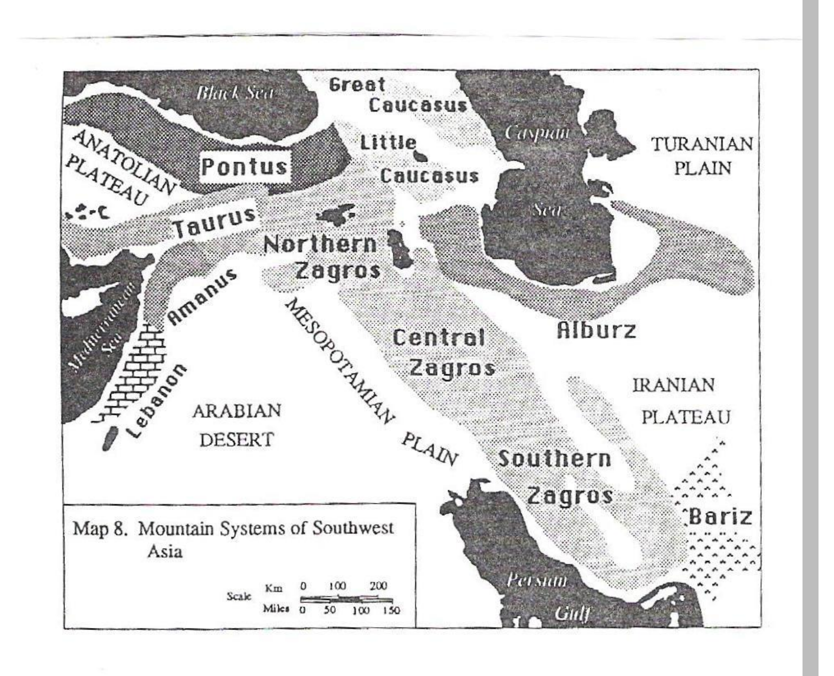
فجر الحضارة في كوردستان

يسمّى وطن الكورد (كوردستان)، وهو يقع فى قلب منطقة غربى آسيا، ويمتد- بشكل متجاور ومتواصل فى الغالب- من بحيرة أُورْمِيَه شرقاً إلى منطقة كورد داغ Efrin (عَفْرين) ضمناً غرباً، ومن جبال آرارات (آگرى) شمالاً إلى لُورِستان ضمناً جنوباً، وتشكل أضخم السلاسل الجبلية فى غربى آسيا (زاغروس[1]، آرارات، طوروس) العمود الفقرى لموطن الكورد، ويقتضى منطق العلم أن يتمّ البحث فى تاريخ أسلاف الكوردالأقدمين على ضوء هذه المعطيات الجغرافية.

وإلى الآن يبدو، من خلال المكتشفات الأثرية والدراسات التاريخية، أن سلسلة جبال زاغروس- وخاصة المناطق الغربية منها- كانت الحاضنة الأولى للحضارة فى غربى آسيا، وبما أن أسلاف الكورد ذوو تاريخ عريق فى هذه المنطقة، فمن الطبيعى أن تكون لهم إسهامات فى بواكير الحضارة، فماذا عن ذلک؟

---

١ – سلسلة جبلية طويلة فى غربى آسيا، تمتد من جبل آرارات فى الشمال الغربى، وتقترب من الخليج الفارسى (العربى) فى الجنوب الشرقى.



عصور ما قبل التاريخ

أولاً – العصر الحجري القديم:

يسمّى هذا العصر (الباليوليثى) Paleolithic، وهو يبدأ منذ أقدم ظهور للإنسان، وينتهى بحدود الألف العاشر (١٠ ق.م)، وقد عاش إنسان العصر الحجرى فى كوردستان ، وظهرت آثاره فى كثير من المواقع، كالتالى:

– شرقى كوردستان : فى موقع گلى سُور قرب بَهَسْتُون وكَرْمَنْشاه، وفى جبال بَخْتِيارى.

– جنوبى كوردستان : فى موقع بَرده بَلْكَه، الواقع على بعد ميلين شمال شرقى چَمْچَمال على الطريق المؤدى إلى مدينة سُليمانية، وآثار كهف زَرْزى وكهف هَزارمَرْد جنوبى سليمانية، وفى كهف شانَدَر (شانيدار) بجبال برادُوسْت، وهو يطلّ على وادى نهر الزّاب الأعلى.

– كوردستان الوسطى والشمالية: فى جبل نَمْرود داغ غربى بحيرة وان، وفى جبال هَكارى وقارْص.

– كوردستان الغربية: فى كهف دُودَرى Duderî (البابَيْن) فى جبل لَيْلُون المطلّ على الجهة الشرقية من حوض نهر عِفْرين.

وقد سكن الإنسان الباليوليثى الكهوف فى المنطقة الجبلية، وكان يعيش حياة بدائية، ويعتمد فى معيشته على صيد الحيوانات، وجمع ثمار النباتات وجذورها، وليس على الزراعة وتدجين الحيوانات كالثيران والغنم والماعز، وقد استخدم النار فى أغراض التدفئة والطهو، واستخدم الحجارة لصنع آلاته وأدواته البسيطة، وكان بعض تلك الأدوات خاصاً بالصيد وجمع القوت، ومنها مثاقب حجرية مثلّثة، ومَقاشط صغيرة مستديرة، ونِصال دقيقة، وفؤوس، وبعض تلك الفؤوس غليظة وساذجة الشكل، وبعضها رقيقة وحسنة الصنع[١].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٣٩٨/١– ٤٠٨. فاضل عبد الواحد، وعامر سليمان: عادات وتقاليد الشعوب القديمة، ص ١٠.

ثانياً – العصر الحجري الوسيط:

يسمّى هذا العصر (الميزوليثى) Mesolithic، وهو يبدأ من حدود الألف العاشر (١٠ ق.م)، وأبرز المواقع التى ظهرت فيها آثار هذا العصر موقع زاوى چَمى شانَدَر قرب كهف شانَدَر بحوالى (٤) كم على نهر الزاب الأعلى. ومستوطنة كريم شار (كريم شَهر) على ضفة نهر چَمى گَوْرَه، على مسافة ميل شرقى جَرْمو قرب چَمْچَمال. ومستوطنة بالى گَوْرَه، وتقع جميع هذه المواقع فى جنوبى كوردستان .

وفى هذا العصر شرع الإنسان فى تدجين الحيوانات كالغزال والأَيِّل والغنم، واتخذها، إلى جانب جمع النباتات، مصدراً أساسياً لحياته الاقتصادية، كما أنه بدأ يعتمد بالتدريج على الزراعة التجريبية المحدودة، والدليل على ذلك وجود أحجار الرَّحى والمِدقّات والمَساحق والسِّلال، وغير ذلك من الأوعية المترلية المستعملة فى موقع تهيئة الحبوب، وقد شوهدت أقدم أصناف هذه الأدوات بكثرة فى المستوطنة المعروفة باسم زاوى چَمى شانَدَر، قرب كهف شانَدَر على نهر الزاب الأعلى، وتمّ الكشف فى هذا الموقع عن أقدم بقايا البيوت التى شيّدها الإنسان، وتتألف بقايا المساكن من جدران من الطين غير منتظمة، شُيّدت على أسس من حجارة الحصى الكبيرة، ووُجدت فيه معالم أكواخ مستديرة.

وثمة أدلة على أن صناعة الأدوات فى هذا العصر شهدت تطوّراً ملحوظاً؛ إذ صُنع بعضها بطريقة الضغط والصقل والنقر، وشوهدت بعض الأدوات المصنوعة من العظام مثل المخارز، وآلات القَشْط، والأزاميل الصغيرة، والسكاكين، ومقابض المناجل ونِصالها المُثبَّتة بالقِير

(الزِّفت)، وصُنع كثير من الأدوات العظمية على هيئة أشكال هندسية استُعمل بعضها للزينة، ومنها قلائد مصنوعة من العظام وأسنان الحيوانات، وبعضها مصنوع من خام النحاس**١**.

ثالثاً – العصر الحجري الحديث:

يسمّى هذا العصر (النيوليثى) Neolithic، وهو يبدأ فى حدود الألف التاسع (٩ ق.م)، وقد عُثر على آثار هذا العصر الحجرى الحديث فى جنوبى كوردستان فى مواقع عديدة، منها جَرْمُو القريب من كركوك، وتَپَه سَراب، وتَيلْكى تَپَه، وتل حَلَف، وفى الطبقات السفلى من موقع شَمْشارة، وفى موقع حَسُّونة القريب من الموصل.

وفى هذا العصر احترف الإنسان الزراعة، وطوّر تدجين الحيوانات، وتحوّل من (جمع القوت) إلى (إنتاج القوت)، وأدّى ذلك إلى الانتقال من طور التنقل والارتحال بحثاً عن القوت، إلى طور الاستقرار وظهور المجتمع القروى، وظهرت بوادر الشعور بالانتماء إلى الوطن، ونشوء الملكية الفردية، وكان ذلك التحول ثورة ثقافية واجتماعية واقتصادية بمقاييس ذلك العصر، أدّت إلى البدء بإرساء القواعد الأولى للحضارة، منها تقسيم الزمن، وبدايات التقويم السنوى الشمسى، ونشأة المفاهيم الأولية للميثولوجيا، وبدايات التوجّه إلى عبادة الآلهة، وخاصة (الإلهة – الأم)، وظهور العقائد الدائرة فى فلك منظومات آلهة الخصوبة، والإيمان بالبعث بعد الموت، ونشوء تصوّرات خاصة بالخلود فى العالم الآخر.

ونتيجة للدراسات الأركيولوجية فى سهول ميزوپوتاميا (بلاد الرافدين/العراق حالياً)، وبادية الشام، وشبه الجزيرة العربية، وسواحل البحر الأبيض المتوسط، وشرقى البحر الأسود وبحر قَزْوِين، وشمالى إفريقيا، تبيّن أن الثورة الزراعية فى مرتفعات جبال زاغروس وكوردستان سبقت مثيلاتها فى تلك المناطق بعشرات القرون؛ والسبب فى ذلك أن الحيوانات التى دُجّنت، وفى مقدّمتها الغنم والماعز والبقر والخنزير، وكذلك النباتات التى دُجّنت، وعلى رأسها القمح والشَّعير والعَدِس

---

١ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٣٢– ٣٤. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فــى التاريخ، ٤٠٨/١ – ٤١٤. فاضل عبد الواحد، وعامر سليمان: عادات وتقاليد الشعوب القديمة، ص ١١.

والحُمُّص، كانت متوافرة فى المنطقة الممتدة من هضبة الأناضول غرباً، إلى جبال هندوكوش فى الهند شرقاً، مروراً بكوردستان ، وكان ذلك فى حدود (٦٧٥٠ ق.م) وعلى العموم فإن مرتفعات زاغروس كانت أقدم مهد لتدجين الحيوانات والنباتات التى فى غربى آسيا على أقل تقدير، وأقدم نقطة لاستقرار البشر فى مساكن مستقرة.

وفى هذا العصر بدأ الإنسان باستثمار الإمكانيات المتاحة فى بيئته، لصناعة أدواته، وتشييد منازله، فشيّدها فى البداية من الطين المتوافر فى بيئته الزراعية، وصنع الأدوات ذات الصلة بالمجتمع الزراعى؛ منها رَحى الطحن، والمَعازِق، والمحاريث الحجرية، ورؤوس النبال، والمناجل المكوَّنة من نصال صغيرة من حجر الصَّوّان. أما الأوانى الفخّارية فكانت فى البداية ساذجة الشكل، غُفْلاً من الزخرفة والألوان، والأرجح أن الإنسان مارس فى هذا العصر عمليات الغزْل والحياكة، لصنع الملابس، ويدل على ذلك وجود أقراص المغازل**١**.

رابعاً – العصر الحجري المعدني:

يُعَدّ هذا العصر تطويراً للعصر الحجرى الحديث، وقد شغل الفترة بين (٥٦٠٠ ق.م) وحتى استخدام الكتابة فى أواسط الألف (٤ ق.م) تقريباً، واستخدم الإنسان فيه المعادن، إلى جانب الحجارة، لصنع الآلات المنزلية والزراعية. وتظهر آثار المرحلة الأولى من هذا العصر فى عدد من المواقع بجنوبى كوردستان ، وهى تدل على تقدم الإنتاج الزراعى، وزيادته عن حاجة المُزارِع، وظهور بوادر التخصص فى العمل؛ إذ اهتم بعض الناس بالزراعة، وعمل آخرون فى صناعة الآلات والأدوات المنزلية والزراعية، ونشأت أولى المعاملات التجارية عن طريق المقايضة**٢**.

---

١ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٣٢. جمال رشيد أحمد: ظهور الكـــورد فـــى التاريخ، ٤١٥/١، ٤١٦. فاضل عبد الواحد، وعامر سليمان: عادات وتقاليد الشعوب القديمة، ص ١١– ١٢.

٢ – فاضل عبد الواحد، وعامر سليمان: عادات وتقاليد الشعوب القديمة، ص ١٢ – ١٣.

بواكير الحضارة في كوردستان

أولاً . حضارة موقع تاوره- زاغروس:

أصبحت منطقة تاوره- زاغروس المركز الأساسى لتدجين الماعز والأغنام؛ إذ ظهر الرعى فى الألف الثامن (٨ ق.م)، وانحصرت عملية تدجين الماعز فى جنوبى جبال زغروس، بينما كان تدجين الأغنام يجرى فى شمالها. أما فى جنوبى الأناضول، وربما فى شرقيه أيضاً، فكان الناس قد دجّنوا التيوس الجبلية، على تخوم الألفين الثامن السابع والثامن (٨، ٧ ق.م)، ثم انتقلوا إلى تربية الأبقار**١**.

ثانياً ــ حضارة موقع تَپَه جِيان Tepe Giyan:

ظهرت حضارة تَپَه جِيان فى منطقة زاغروس، والأرجح أنها قامت بدور مهم فى نقل الحضارة من منطقة حضارة حَلَف إلى منطقة سوسا فى جنوب غربى إيران حالياً، وسيطرت حضارة موقع تَپَه جيان على البوّابات الفارسية والطرق العامة فى ميزوپوتاميا حتى كَرْمَنْشاه وهَمَذان (أَگباتانا، عاصمة ميديا)، كما أنها تحكّمت فى المنطقة الواقعة شمالى ميزوپوتاميا حتى خُوزِستان**٢**.

---

١ - بونغارد — ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٦٢.

٢ - جيمس ميلارت: أقدم الحضارات فى الشرق الأدنى، ص ٩٣. وأگباتانا تُلفَظ بصيغة (إگباتانا) أيضاً فى بعض المصادر.

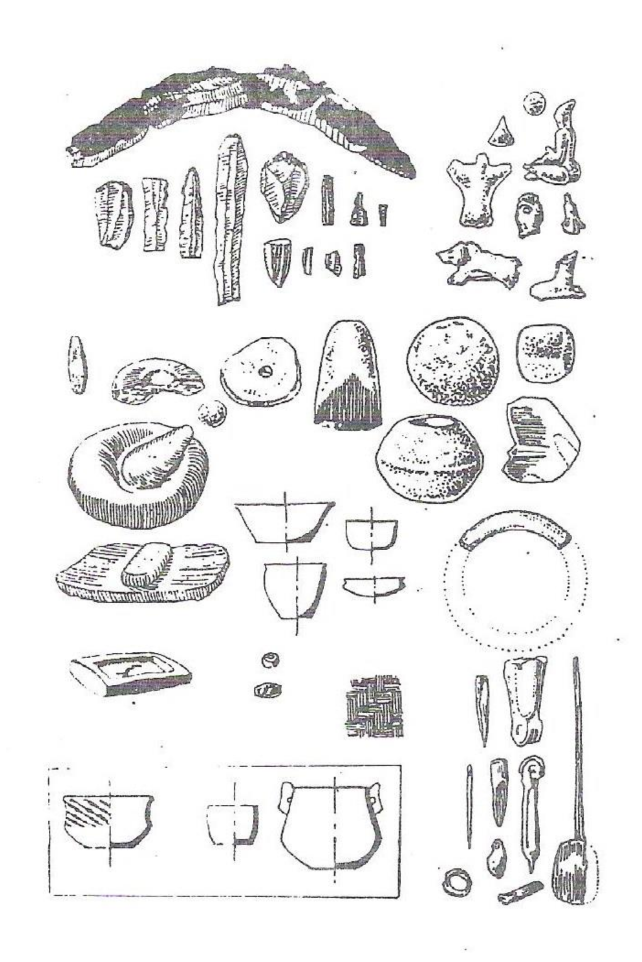
ثالثاً . حضارة موقع جَرْمو Jarmo:

تقع جَرْمو (جارمو) قرب كركوك، على طرف واد عميق فى سهل چَمْچَمال بجنوبى كوردستان ، وهى مثال جيد للمستوطنات الفردية المبكِّرة، وقد كُشف فيها عن اثنتى عشرة طبقة أثرية، وفيها بيوت بسيطة مشيَّدة بكتل من الطين، وبأسس من الحجارة غير المهندَمة، ولكل بيت عدّة غرف مستطيلة، والأرجح أنه كان فى كل موقع حوالى (٢٠ – ٢٥) بيتاً، مما يجعل تقدير سكان القرية حوالى (١٥٠) شخصاً، وتتميّز الطبقات الخمس العُلوية بوجود أنواع متطورة من الفخّار، وفيها أوانٍ من الحجارة، وسلال مبطَّنة بالقار (الزفت) والجلد، والبيوت مصنوعة من الغُضار، واعتمد اقتصاد جَرْمو على القمح والشعير والعدس والجُلْبان الأخضر، وكان السكان يأكلون الفستق والبَلُّوط، وقاموا بتدجين الماعز والكلب**١**.

وذكر جيمس ميلارت أن الصناعة الحجرية فى جَرْمو كانت متطوّرة، فبالإضافة إلى الفؤوس ذات النهايات الحادة، والجَواريش، والمطاحن، والهَواوين، والمِدقّات، والكرات الحجرية، ومحاور الأبواب، وُجدت صفائح حجرية لطحن المُغْرة الحمراء، وملاعق، وأقراص مثقوبة، وعدد من الخواتم والأساور المصنوعة من الرخام والمرمر، وكثير منها يحمل تزيينات مثلّمة أو منقوشة**٢**.

١ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٣٤. جيمس ميلارت: أقدم الحضارات فى الشرق الأدنى، ص ٦١ – ٦٢.

٢ – جيمس ميلارت: أقدم الحضارات فى الشرق الأدنى، ص ٦٢.



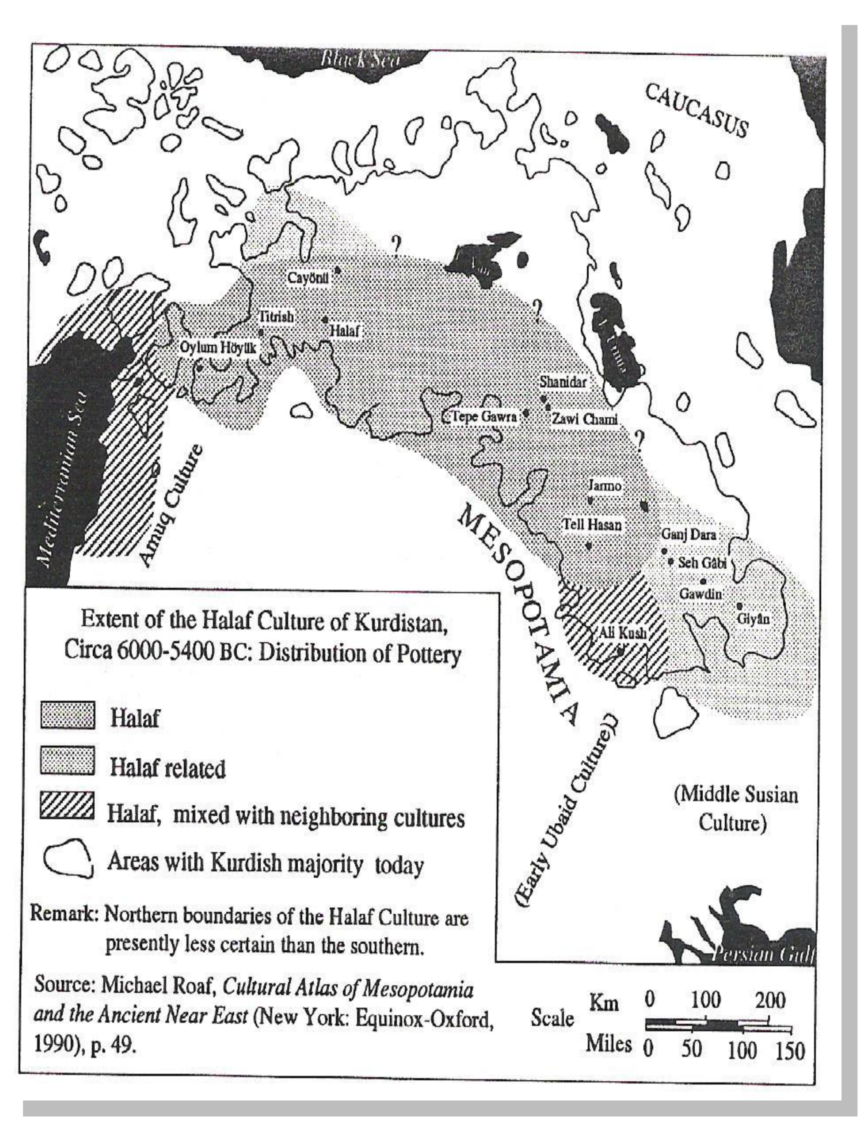
مجموعة من الأدوات المنزلية أكتشفت في قرية جرمو

رابعاً . حضارة حَلَف Halaf:

نُسبت هذه الحضارة إلى (تل حَلَف) الذى يقع فى أعالى نهر الخابور، واسمه القديم (گوزانا) Guzana، وهو يقع على مسافة حوالى (١٤٠ ميلاً/ ٢٢٠ كم) شمال غربى نينوى، قرب الحدود السورية التركية. وذكر جيمس ميلارت أن هذه الحضارة انتشرت على شكل قوس من نهر الفرات إلى الزاب الكبير (الأعلى)، ومن المحتمل أن تكون جبال طوروس حدودها الشمالية، مع جيوب منتشرة فى الهضبة الأناضولية إلى الشمال من هذه الجبال، وقد اندثرت حضارة حلف فى الفترة بين (٤٤٠٠ - ٤٣٠٠ ق. م)[١].

---

١ - المرجع السابق، ص ١٥٧.



جغرافيا انتشار حضارة حلف

وقال الدكتور محمد بَيُّومى مَهْران بشأن حضارة حلف:

"تشغل حضارة حلف الفترة منذ أواخر الألف السادسة، وحتى أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد، وقد انتشر إنتاجها فى الشمال خاصة، وفى مساحة تمتد من الزاب الأعلى، وسفوح جبال زاغروس شرقاً، إلى ما وراء الفرات غرباً، وإلى الحدود التركية وسفوح جبال طوروس شمالاً، وأما من ناحية الجنوب والجنوب الشرقى فكان من المعتقد أنها لم تتجاوز موقع سامرّاء [= شمالى بغداد]، غير أن الحفريات كشفت حديثاً عن فخّار حلف فى الطبقتين العلويتين فى تل الصوان، وفى أعلى تل Chga- Mami فى إقليم مَنْدَلى"**١**.

وخلاصة ما تفيده المعلومات الدائرة حول حضارة حلف؛ هى أن معظم المناطق التى نشأت فيه هذه الحضارة- إن لم يكن جميعها- تقع ضمن جغرافيا كوردستان حالياً، وضمن الجغرافيا التى سكنها أسلاف الكورد كما سنرى لاحقاً، وما زال الكورد يسكنون معظم تلك المناطق. وكان سكان حضارة حَلَف يعملون فى الزراعة؛ بدليل وجود المناجل ذات النِّصال المصنوعة من الصَّوّان بالمئات فى هذا الموقع، كما أنهم زرعوا الشعير والقمح، وأنتجوا الخيوط الكَتّانية، واستخرجوا زيت بذر الكَتّان، وقاموا بتدجين المواشى كالماعز والغنم**٢**.

وفى مجال الصناعة من خصائص حضارة حلف استخدام النحاس، ولذلك فهى تُعتبَر، بحسب التقسيم التقليدى لعصور ما قبل التاريخ- ممثِّلةً للعصر الحجرى النحاسى فى ميزوبوتاميا، وقد ذكر وليام لانجر أن أقدم الحضارات التى عُثر فيها على النحاس توجد فى الشرق الأدنى، ويرجع زمنها التقديرى إلى ما بين (٤٠٠٠ – ٣٥٠٠ ق.م)، ولم يوجد النحاس فى أوربا قبل سنة (٢٠٠٠ ق.م). ورجّح لانجر أيضاً أن تكون آسيا الصغرى وأرمينيا والقوقاز أولى المناطق التى ظهرت فيها صناعة استخراج النحاس وتطورت فيها، وأن النحاس كان واسع الاستعمال فى الشرق الأدنى عام (٣٠٠٠ ق.م)، ولا يخفى أن منطقة حضارة حلف تقع إما فى قلب المناطق التى ذكرها لانجر بشأن النحاس، وإما على أطرافها**٣**.

---

١ – محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٢٠.

٢ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٢٧. جيمس ميلارت: أقدم الحضارات فـــى الشـــرق الأدنى، ص ١٥٧، ١٦١، ١٦٣.

٣ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/ ٢٤.

وفى مجال العمارة اشتهرت حضارة حَلَف أيضاً بالأبنية الدائرية، وهى مبانٍ أساسها- فى الغالب- من حجر، وحيطانها من طين، وتتكوّن من حُجرة دائرية قطرها خمسة أمتار ونصف المتر، يتصل بها ممر مستطيل، وكان للحجرة الدائرية سقف مقبَّب. وأما فخّار حضارة حلف فتميّز بألوانه وزيناته التى تمثّل تفوقاً نوعياً، ولُوّن الفخار بألوان مختلفة، منها البرتقالى والقرمزى والأحمر والبنّى والأصفر، وغطّت الزينات كل سطح الإناء الفخارى الخارجى، كما اشتملت الزينة على مجموعات مختلفة من رسوم هندسية ذات أشكال مثلثة ومربعة، وذات خطوط متعرجة ومستقيمة**1**.

وقال جين بوترو وزملاؤه بصدد حضارات غربى آسيا:

"إن فخّار هذه الحضارات ليس ذا صناعة تقنية فقط، بل إنه جميل للغاية، وغالباً ما تكون الزخارف الملوَّنة هندسية، ولكن هناك بعض الأشكال الطبيعية وأشكال مشتقة من الطبيعة. وأكثرها انتشاراً هو فخّار تل حلف، حيث يصل من مركزه فى ما بين النهرين إلى سوريا وسيليسيا [= كيليكيا]، وإلى الشرق من بلاد آشور، بل حتى إلى أرمينيا. وقد لُوّن فى قمّة تطوّره الفنّى بألوان متعدّدة"**2**.

وأنتجت حضارة حلف عدداً من الأوانى الحجرية، ورؤوس المغازل وغيرها، مما يعبّر عن تفوق فى تشكيل المادة الحجرية، ويتجلّى ذلك بوضوح فى أدوات الزينة التى شكّلت من الحجر، كما استخدم سكان حضارة حلف الطين فى صناعة المسامير الملوّنة والخواتم، هذا إلى جانب إنتاج بعض الأختام التى استُخدمت، ربما لأول مرة، فى الطباعة على قطع من طين مجفَّف، وأخيراً عُثر على بعض المصنوعات النحاسية كالدبابيس والأزاميل، غير أن عددها كان محدوداً، رغم توافر النحاس فى منطقة دياربكر ومَلاطِيا، فى شمال وشمال غربى منطقة حضارة حلف**3**.

وأما على الصعيد الميثولوجى فظهرت فى حضارة حلف تماثيل آلهة الأمومة، وقد اعتنى الفنّان بإبراز مظاهر الخصوبة فى أجسامها، بتضخيم وطلاء ثدَيى الإلهة وساقيها، فضلاً عن تمثيلها وهى تضم ذراعيها أسفل ثدييها. وكانت المدافن تحت أرضية المساكن فى الغالب،

---

١ - محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٢١- ٢٢

٢ - جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٣٦.

٣ - محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٢٢ — ٢٣.

وكان الميّت يُرقَد على جنبه الأيمن، فى وضع المُقَرْفِص، ويكون الرأس فى جهة الغرب، واحتوت المقابر على بعض المتاع الشخصى؛ كالآنية الحجرية الصغيرة والأكواب والأوانى الفخارية، وحبّات العقود المرمرية، إضافة إلى دلاّيات من حجر، زُيّنت إحداها بصور لطيور ورؤوس حيوانات**١**.

والأرجح أن لوضع رأس الميّت- عند الدفن- فى جهة الغرب علاقةً بتقديس جهة الشرق، الجهة التى تشرق منها الشمس، ولعله دليل على بدايات تشكّل البنى الميثولوجية الشمسانية، وسنجد لاحقاً أن هذه الميثولوجيا كانت سائدة بين سكان جبال زاغروس منذ الألف الثالث ق.م. كما أن لوجود بعض المتاع الشخصى مع المتوفّى علاقة بعقيدة وجود العالم الآخر، وربما كان سكّان حضارة حلف يؤمنون بأن الحياة تعود إلى المتوفّى بطريقة من الطرق، يحتاج معها إلى استخدام بعض تلك الأمتعة، ومثل هذا الاعتقاد موجود عند معظم الأقوام التى عاشت فى فترة ما قبل العصور التاريخية، وليس من المستبعَد أيضاً أن القوم كانوا يضعون بعض أمتعة المتوفّى معه فى القبر، خشية من أن تطاردهم روحه، وتنكّد عليهم العيش.

وعلى العموم لا يمكن إغفال دور حضارة حلف فى تطوير الثقافة البشرية، وخاصة فى المجال الميثولوجى، وهذا واضح على الأقل فى قصة الطوفان، فقد جاء فى الرواية السومرية أن سفينة زِيُوسُودْرا Ziusudra (أُوتْنابِيشْتِم Utnapishtim فى الرواية السامية) استقرت على جبل نِيسِير Nisir، وهو جبل پِيرَه مَگْرُون Pire megrun فى جنوبى كوردستان ، وهناك اختبر زِيُوسُودْرا انحسار المياه؛ فأطلق حمامة فعادت، ثم أطلق سنونو فعاد أيضاً، ثم أطلق غراباً، فرأى الغراب أن المياه قد انحسرت، فحطّ وأكل و لم يعد**٢**.

ومعروف أن قصة الطوفان وردت فى (العهد القديم) الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين، ووردت فى (القرآن) الكتاب المقدس عند المسلمين، لقد جاء فى (العهد القديم) أن سفينة النبى نوح رست على إحدى قمم جبل آرارات (آگرى)، وجاء فى (القرآن) أنها رست على قمة جبل جُودى، وبالمقارنة بين موقع كل من جبل نِيسِير وجبل آرارات وجبل

---

١ - المرجع السابق، ص ٢٣.

٢ - جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٢٤. فاضل عبد الواحد على: من سومر إلى التوراة، ص ٢١٠ – ٢١١.

جُودى من جهة، ومنطقة حضارة حلف من جهة أخرى، يتضح أن جبل نِيسير يقع فى الجزء الشرقى من منطقة حضارة حَلَف، ويقع جبل آرارات فى حافتها الشمالية، فى حين يقع جبل جُودى فى صميم تلك المنطقة.

إن الأدلة السابقة- وقد حاولنا عرضها بإيجاز- تؤكد حقيقتين اثنتين:

الحقيقة الأولى: إن كوردستان ، ومنذ العصر الحجرى القديم، لم تكن أرضاً خالية قطّ، وإنما كانت مسكونة بجماعات من البشر، أما ما هى الهوّية السلالية لتلك الجماعات؟ ومنذ متى استقرّت هناك؟ وهل وُجدت أصلاً فى تلك المنطقة، أم قدمت إليها من مناطق أخرى؟ فلم نجد فى المصادر التى اطّلعنا عليها إجابات دقيقة عن هذه الأسئلة؛ لأن العصور التى ظهرت فيها تلك الجماعات هى سابقة على عصر هجرة السلالات الآرية والسامية وانتشارها، كما أنها سابقة على عصر ظهور الكتابة؛ وقد أطلق عليهم بعض الباحثين اسم (الجنس القوقازى) تجاوزاً، والصواب أن نطلق عليهم اسم سكان زاغروس القدماء**١**.

الحقيقة الثانية: إن ظهور بوادر الحضارة فى موطن أسلاف الكورد، منذ العصر الحجرى القديم، دليل على أن الشروط المُناخية والبيئية فى تلك المنطقة كانت ملائمة لذلك بصورة عامة، وأن تلك الشروط استمرّت قائمة فى العهود التالية، وإلا لما استمر تطور الحياة البشرية بعد العصر الحجرى الأول، وكان من الطبيعى- والحال هذه- أن تصبح تلك المنطقة خزّاناً يفيض بمكوّناته البشرية والحضارية على المناطق المجاورة، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكان السومريون من أوائل تلك المكوّنات، ولعل من المفيد فى هذا المجال أن نسرد القول التالى لأرْنُولد تُوينْبى:

"إن المنطقة التى اختُرعت فيها الزراعة وتربية المواشى والتعدين لأول مرة كانت تشمل- إضافة إلى الجزيرة الفراتية (ميزوپوتاميا) وسوريا وفلسطين- جزءاً على الأقل من جنوب آسيا الصغرى، وغرب إيران وتركمانستان. والحبوب والحيوانات التى دُجّنت فى هذه المنطقة، خلال زمن العصر الحجرى من تاريخها، كانت موجودة من قبل فى حالتها البرية. أما فى الأماكن الأخرى فإن هذه النباتات والحيوانات بالذات يبدو أنها نُقلت من جنوب غرب آسيا؛ إما بواسطة مستعمِرين خرجوا من هذه المنطقة ذاتها، أو عن طريق شعوب محلية أصلية، هى التى اقتبست هذه الاختراعات"**٢**.

---

١ - أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١٩٥.

٢ - أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، ٦٩/١.



٢

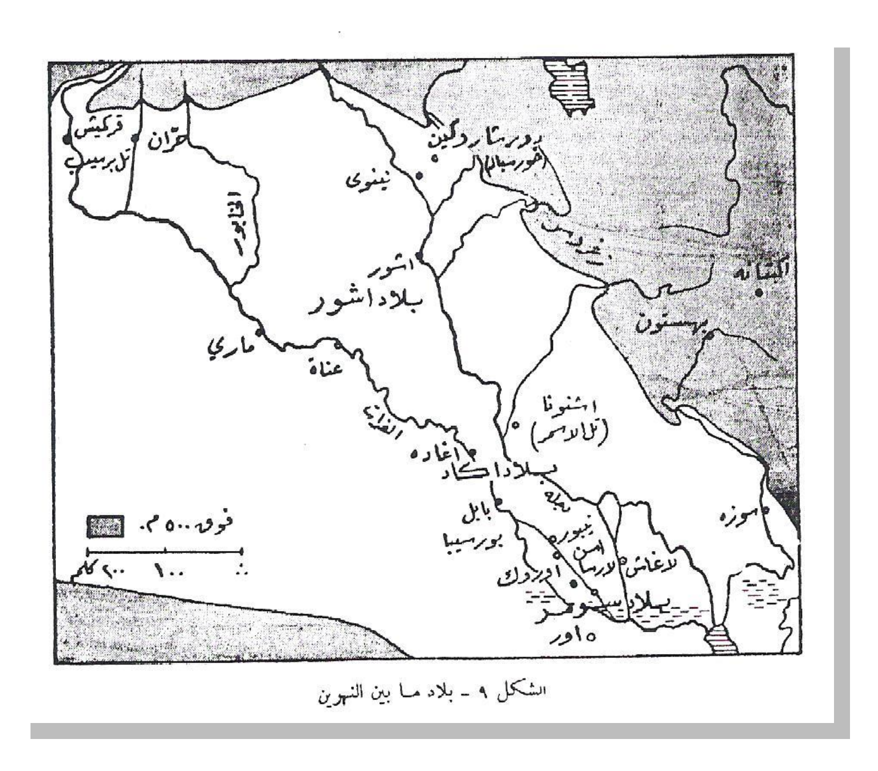
الگوتيون Guti

الهوية والجغرافيا

قبل البحث فى أصل الگوتيين، تبدو الحاجة ماسّة إلى استعراض سريع للسلالات (المجموعات) البشرية، فقد قسّم معظم علماء الأنثروپولوجيا النوع البشرى إلى ثلاث سلالات رئيسة؛ هى السلالة المنغولية، والسلالة الزنجية، والسلالة القوقازية. وأطلق بعض العلماء على السلالة القوقازية اسم (الجنس الآسيوى) أو (الآسيانى)، وسمّوه أحياناً (الجنس القزوينى)، وسُمّى فى (العهد القديم) بنو يافِث.

وذكر علماء الأنثروپولوجيا أيضاً أن الجنس الآسيانى لا ينتمى إلى السلالة السامية، أو السلالة الهندو- أوربية، وصنّفوا فيه الكاشّيين (الكاسّيين) والعيلاميين والحُوريين والخَلْديين (الأورارتيين)، إلى جانب شعوب أخرى منها الكاريين (سكان غربى آسيا الصغرى)، والكريتيين والإيبيريين (سكان إسبانيا حالياً)، وشعب الباسک، وذكروا أن جميع شعوب هذه السلالة كانت تتكلم فى الأصل لغة واحدة، ومن المحتمل أن يكون السومريون فرعاً منهم، انفصل عن مجموعته منذ أزمان سحيقة، وتطور تطوراً خاصاً به، وهؤلاء الآسيانيون هم أصل حضارة غربى آسيا[١].

١ – م. نستورخ: أجناس البشرية، ص ٢٦، ٣٣ – ٣٨. آشيلى مونتاغيو: الدحض العلمى لأسطورة التفوق العرقى، ص ٧٤. أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١٩٥.



الشكل ٩ - بلاد ما بين النهرين

والگوتيون (غوتى= جوتى) Guti قوم جبليون، من أصل آسيانى، أو Zagro-Elamite، أقاموا فى الجزء الأوسط من جبال زاغروس، وجاء فى المصادر المسمارية أنهم عاشوا فى المناطق الواقعة بين نهر الزاب الأسفل ونهر دِيالى، وكانت كركوك الحالية مركز بلادهم، وقد اندفعوا إلى ميزوپوتاميا فى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وظهر اسم (گوتى)

فى الألف الثالث والثانى قبل الميلاد، وأُطلق على قبائل ذات أصول مشتركة، وسُمّيت مواطنهم باسم گوتيوم[1].

وكانت گوتيوم (بلاد الگوتيين) معروفة بنفسها، وغير داخلة ضمن (سوبارتو)، وجاء ذكرها أول مرة فى لوح يعود إلى فترة حكم الملك السومرى لوگال آنى موندو (من الجيل التاسع بعد الطوفان حسب الأساطير السومرية)، حاكم مدينة آدابا (تل بَسْمايَه حالياً) ، خلال الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت گوتيوم- حسبما ورد فى النصوص الآشورية- تقع بين ماراهْشى (پاراهشى Parahshi فى شمالى عيلام) وپاراهسو Parahs-u أو Pars-u (منطقة كَرْمَنْشاه فى كوردستان الشرقية)، وكذلك سوبارتو (كوردستان الشمالية)، وتمركزت فى أَرّاْبْخا (كركوك وحواليها). واستناداً إلى السجلات الأكّادية، شملت گوتيوم الأراضى الواقعة بين أوربيللوم فى الشمال، وجبال حَمْرِين، فى حين كان رعاتهم، فى زمن ملك أكّاد شاركالى شارّى Sharkali Sharri (٢٢٢٣ – ٢١٩٨ ق.م)، يصلون بمواشيهم حتى شمالى بابل[2].

وفى عهد آگوم كاكْريمى (١٦٠٢ – ١٥٨٥ ق.م) الذى اعتُبر ملكاً على گوتيوم، حدّد الدارسون موقع سكنى الگوتيين فى منطقة أَرّاْبْخا، وكانت كركوك عاصمة گوتيوم، وفى بعض المصادر امتدّت گوتيوم إلى اتجاه أكثر شرقاً[3].

وذكر جرنوت فيلهلم أن مواطن الگوتيين كانت تقع فى الجنوب والجنوب الغربى من مناطق اللولوبيين؛ أى فى المنطقة التى يخترقها نهرا دِيالى والعُظَيْم، ثم انتشروا جنوباً. وعلى أية حال كانت مناطق نفوذ الگوتيين تتوسّع وتتقلّص بحسب قوة وضعف القوى المجاورة، فقد ذكر دياكونوف أنهم كانوا يقيمون فى الشرق والشمال الغربى من شعب لوللو، ثم أصبح اسم (گوتى) يطلق على جميع الأقوام التى كانت تعيش فى الشمال الشرقى من بابل، وفى الألف

---

١ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٦١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٤٧/١.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٥٩/١- ٤٦٠.

٣ – المرجع السابق، ٤٦١/١.

الأول قبل الميلاد أطلق اسمهم على جميع سكان أورارتو وميتّانيا وميديا، وبعبارة أخرى: صار اسم (گوتی) يطلق على معظم الأقوام التی كانت تسكن كوردستان قديماً[1].

وقد دوّنت سجلات الملک الآشوری تِغْلات پِلاسَر الثالث Tiglathpileser 111 (٧٤٤ – ٧٢٧ ق.م)، ضمن أحداث عام (٧٣٨ ق.م)، أن بعض الگوتيين الأسرى استوطنوا فی شمالی سوريا وفينيقيا الشمالية، وكانوا يُلقَّبون بأسماء أقوامهم وقبائلهم أو محل ولادتهم، مثل: إيلی لی، ناكابی، بودی ئی، دونی ئی، بانی تی، بيلی سانگيلی. ومن المحتمل أن البوديين كانوا من أقوام ميديا (بودی)، أو من سكان قرية بودو على الحدود البابلية–العيلامية، وقد احتلها تِغْلات پِلاسَر الثالث عام (٧٤٠ ق.م)[2].

الصراع الگوتی – الأكّادی

حينما سيطر الأكّاديون على بلاد سومر، فی جنوبی ميزوپوتاميا، بقيادة سرجون (سرگون) الأول ١ Sargon (٢٣٥٠ – ٢٢٩٤ ق.م)، صارت بلاد الگوتيين هدفاً للغزوات الأكّادية، وثمة إشارات بأن سرجون فتح بلاد سوبارتو Subartu، وكان اسم (سوبارتو) يُطلق على معظم المناطق التی يسكنها أقوام زاغروس (أسلاف الكورد القدماء)، بما فيهم الگوتيون واللوللوبيون، ويمتد شمالاً وغرباً نحو أعالی ما بين النهرين، فيصل إلى نهر الخابور أو نهر البَلِيخ، وكان الأكّاديون يأسرون الگوتيين، ويبيعونهم فی أسواق النخاسة بسومر[3].

وخلال غياب سرجون الأول فی حروبه اشتعلت الثورات ضده فی گوتيوم (تسمی سوبارتو أيضاً)، لكنه تمكّن من القضاء عليها بعنف وقسوة، وأحرق الحقول والمزارع، ودمّر

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣١، هامش ٢. دياكونوف: ميديا، ص ١٠٩.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ١٩١.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فی التاريخ، ٥٤٧/١. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ١١٢.

المدن، إلى درجة أنه "**لم يعد بإمكان الطيور أن تجد لها مأوى فيها**"، حسبما ذكر سرجون نفسه فى بعض سجلاته[1].

وبعد عهد سرجون الأول ظل الأكّاديون يفرضون نفوذهم على مناطق مهمة من گوتيوم، وذكر دياكونوف أنه فى القرن الثالث والعشرين ق.م كان الگوتيون تحت حكم الملك الأكّادى نارام سين Naram Sin (٢٢٧٢ – ٢٢٣٥ ق.م) حفيد سرجون الأول، واشتبك هذا الملك فى معارك ضد الگوتيين، وقُتل فى إحداها، ولم يكفّ ملوك آشور عن الهجوم على گوتيوم ، فقد وجّه الملك الأكّادى شاركالى شارّى Sharkali Sharri حملة ضد الگوتيين، وأسر أحد ملوكهم واسمه سارلاگ (سار لگب)[2].

ورغم قسوة ملوك أكّاد، وتفوّق جيوشهم الغازية، ما كان الگوتيون الجبليون يسكتون على اعتداءات الأكّاديين الصحراويى الأصل، وكانوا يشعلون الانتفاضات ضد الغزو الأكّادى، مؤكدين بذلك جدلية الصراع على السهول بين أقوام الجبال وأقوام الصحراء، وصحيح أن أسلحة الگوتيين كانت بدائية قياساً إلى أسلحة الجيش الأكّادى، وأن الجيش الأكّادى كان أكثر عدداً من الجيش الگوتى، لكنّ الگوتيين حققوا النصر، ويعود الفضل فى ذلك إلى أن القادة الگوتيين جمعوا شمل قبائلهم فى اتحاد قوى تام، وحاربوا الجيش الأكّادى تحت لواء واحد[3].

وبعد موت الملك الأكّادى شاركالى شارّى، دبّ الضعف فى الحكم الأكّادى، وحكم بعضُ القادة الگوتيين بلاد گوتيوم، واستقل الگوتيون عن السلطات الأكّادية، وزحفوا على العاصمة (أكّاد)، وأسقطوا الدولة الأكّادية عام (٢٢٣٠ ق.م) حسب أرجح الروايات، وكان ذلك تحت راية القائد الگوتى إيرريدوپيزير (أنريدا وازير) الذى احتل مدينة نيپور المقدسة فى سومر[4].

---

١ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ١٢٥.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ١٠٩. محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٥٦.

٣ – دياكونوف: ميديا، ص ١١٠، ١١٤. محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٣١.

٤ – دياكونوف: ميديا، ص ١٠٩، ١١٠. محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦٢ – ١٦٣.

ويبدو أن انتقام الگوتيين من السلطات الأكّادية كان قاسياً، حتى إن بعض كهّان سومر وأكّاد عزوا الغزو الگوتى إلى غضب الإله إنليل على العاصمة أگّاد Aggad وأهلها، وأنزل عليها لعنته، وأرسل ضدها جحافل الگوتيين، وقال الشاعر السومرى واصفاً الگوتيين:

"قومٌ لا يُحصَون، وبلاد لا يُحصى أهلُها.
بلادُ الگوتيين بلادٌ لا يُكبَح جماحُها.
هؤلاء جاء بهم إنليل من الجبال.
فغطّوا الأرض بأعداد ضخمة كالجراد.
وكأنها مصيدة للبهائم.
فلم يفلت من يدهم شيء.
ولم يهرب من يدهم أحد.
فلا رسولَ على الطريق.
ولا ملاّحَ فى قاربه على النهر.
لقد وضعوا الرقباء على قمم الأشجار عند ضفاف الأنهار.
ووضعوا اللصوص على الطرقات.
ومداخلُ المدينة أصبحت أبوابُها تحت التراب.
وأطلقت البلادُ صرخةَ حزن من داخل أسوارها"[1].

وقال الدكتور توفيق سليمان يصف هجوم الگوتيين على مملكة أكّاد:

"كانت هذه القبائل من أشرس أعداء الأكّاديين، وأكثرهم استعداداً لتدمير إمبراطوريتهم... لقد كان الهجوم الجوتى على أواسط وجنوب بلاد ما بين النهرين من أسوأ ما عرفته هذه البلاد من كوارث خلال تاريخها الطويل؛ إذ نهب هؤلاء المتوحشون معابدها وقصور ملوكها، ومنازل سكانها، وأسروا عدداً كبيراً من الناس، وعملت سيوفهم فتكاً فى رقاب الآخرين المقاومين، ثم ختموا فصول أعماهم بتدمير العاصمة أگّاد، وأضرموا النيران فى أنقاضها"[2].

---

١ - فاضل عبد الواحد على: من سومر إلى التوراة، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

٢ - توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ١٤٠ – ١٤١.

وأضاف الدكتور توفيق سليمان قائلاً:

"وقد خلّف أحد الأمراء السومريين، الذى قاد حملة تحرير البلاد من التسلط الجوتى الذى دام قرناً من الزمن، وصفاً دقيقاً مختصراً للهجوم الجوتى بقوله: "ثعابينُ الجبال، لقد اختطفوا الزوجةَ من بعلها، والأطفالَ من آبائهم، ونقلوا المَلَكية من سومر إلى الجبال". ولم يكتف الجوتيون بسفك دماء السكان الآمنين، بل دمّروا أيضاً الحقول والمزارع القائمة، وأتلفوا المحاصيل الزراعية... ويحدّثنا أحدهم فى كتابة يرقى تاريخها إلى عصر الملك الكلدانى (نَبُونِيد) أن الجوتيين خرّبوا معبد الربّة (أنونيت) فى مدينة (سِپار)، ونقلوا تمثالها إلى (أرّابْخا) فى مناطق أعالى نهر الزاب [= الأسفل] **الجبلية"**[1].

إن الوصف السابق يترك- بلا شك- انطباعاً بأن الگوتيين كانوا فى الغاية من القسوة والهمجية، وأن الأكّاديين كانوا فى الغاية من الرقة والوداعة والبراءة، وأنهم وقعوا ضحايا للهمجية الگوتية. لكن هل كانت هذه هى الحقيقة؟ إن جميع الأدلة تؤكد أن الأكّاديين كانوا أصحاب مشروع توسّعى إمبراطورى، أنهم تسلّطوا على الگوتيين وعلى غيرهم من أقوام زاغروس طوال قرنين، فكانوا يغزون ديارهم، وينشرون فيها الدمار، ويبطشون بهم، ويسلبونهم ممتلكاتهم، ويسفكون دماءهم، ويأخذونهم أسرى، ويذلّونهم، ويبيعونهم عبيداً فى أسواق أكّاد وسومر، وقد غضّ القدماء والمحدثون النظر عن السلوك الأكّادى الغزواتى، وكأنهم يعتبرون ذلك السلوك عادياً ومشروعاً، فى حين ينعتون ردّ الفعل الگوتى بأقسى النعوت.

وقد تنبّه أرشاك سافراستيان بدوره إلى تضخيم وصف قسوة الگوتيين فقال:

"وقد جاء وصف تلك المملكة الكوردية الگوتية الأولى بصورة غير طيبة من قِبل المدوَّنات السومرية المعاصرة لها، وجاء فى تلك المدوَّنات أنه حينما بسط الگوتيون نفوذهم على سهول بابل [= أكّاد] **شرعوا يسلبون ويحرقون ويدمّرون مدن سومر وأكّاد**

١ - المرجع السابق، ١٤٠ – ١٤١.

المزدهرة، إنهم نهبوا كنوز المعابد، وحملوا تماثيل الآلهة والقدّيسين إلى عاصمتهم أَرّابْخا، وتعالى النواح، وأقيمت الصلوات فى المعابد للخلاص من قبضة أولئك الحكام القساة"[1].

وعلّق أرشاك على القول السابق فقال:

"هكذا قُدّمت صورة الگوتيين، ومن العدل– على أية حال– أن يتساءل المرء إن كان إطلاق هذه الأحكام على مملكة گوتيوم غير متأثّر بتجارب الرحّالة فى القرون الثلاثة الماضية"[2].

ويقصد أرشاك تحامل معظم الرحّالة الأوربيين الذى زاروا كوردستان فى القرون (١٧، ١٨، ١٩)، وكتبوا عن الكورد بكثير من التحامل، وأطلقوا عليهم أوصافاً متسرّعة، ووصفوهم بالقسوة والهمجية، وعمّموا بعض المواقف الفردية على جميع الكورد، إما انطلاقاً من وجهات نظر دينية تبشيرية، إذ كان بعض أولئك الرحّالة مبشّرين، وإما انطلاقاً من نقمة الدوائر السياسية الأوربية من العصور الوسطى على الكورد بسبب وقوف السلطان الكوردى صلاح الدين الأيوبى ضد الحملات الصليبية، وإما لأن أولئك الرحّالة وقعوا تحت تأثير بعض جيران الكورد، وأخذوا رواياتهم بشأن الكورد من غير تدقيق.

ونحن لا ننكر أن يكون الگوتيون قد بطشوا بالأكّاديين، وعاملوهم بقسوة، انتقاماً من التسلط الأكّادى عليهم، وتلك كانت سُنّة معهودة فى العصور القديمة، لكن لا ننس فى الوقت نفسه أن معظم أخبار الگوتيين التى وصلتنا وردت فى كتابات أعدائهم، ومن الطبيعى أن يبادر هؤلاء إلى التحامل عليهم، وتضخيم تصرفاتهم، والعمل بكل وسيلة لوصفهم بأبشع الصفات، ولا يخفى أن هذا نهج يتّبعه معظم كتّاب الإمبراطوريات التوسعية المتوحِّشة حينما تثور عليهم الشعوب المستضعفة، وتردّ على تلك الإمبراطوريات بالمثل. وقال دياكونوف فى هذا الصدد:

"لو نظرنا إلى المسألة بحياد وموضوعية، نجد أن اتحاد جميع أنحاء منطقة بين النهرين، التى كانت ترزح تحت سيطرة حكم السلسلة الأكّادية الظالم والعبودى، كان يرغب فى الانتصار والتقدم والتحرر. والناس المظلومون كانوا يهدفون إلى تأسيس نظام موحّد، وتكوين قوة فاعلة ذات سلطة، ليكونوا قوة إنتاجية قوية"[3].

---

١ – أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٣٨.

٢ – المرجع السابق نفسه.

٣ – دياكونوف: ميديا، ص ١١٥.

وذكر دياكونوف أن هجوم الگوتيين أصبح سبباً لتدمير منطقة ما بين النهرين، وتعرّضِ المواطنين للسلب والنهب، وتعرّضت عدّة مدن للتدمير مثل: أگّاد، وكشاک، وخُورْساک، وأُوروک، ونيپُور (نُفَّر، حوالى مئة ميل جنوبى بغداد)، وتهدّمت المعابد والأوقاف التابعة لها، وكان الهمّ الوحيد لقادة القبائل الگوتية هو الحصول على السلطة والقوة، والسيطرة على البلاد، وانتزاعها من قبضة الملوک السومريين والأكّاديين، وأصبحت سلطة الگوتيين لا تُطاق، وقد أوكل الملوک الگوتيون الشؤون الإدارية إلى الزعماء المحلّيين، مقابل دفع جزية وضرائب محدّدة[١].

وعلى أية حال لم تكن هذه الصورة القاتمة هى الصورة الوحيدة للحكم الگوتى فى بلاد سومر وأكاد، ولعلها كانت الصورة الغالبة على العهد الأول من الغزو الگوتى لسومر وأكّاد، وهو عهد الانتقام من السلطات الأكّادية التى كانت قد بالغت فى غزو بلاد الگوتيين، وأسرفت فى ظلمهم وإذلالهم، وحوّلت قسماً منهم-رجالاً ونساء- إلى عبيد. إن ثمة ملوكاً گوتيين مارسوا السلطة بصورة أفضل، ومنهم الملک (كوده آ)، إنه سمّى نفسه (راعياً ومخلّصاً، وليس ملكاً على البلاد)، وكان الملک شيليكو يسيّر الشؤون برحابة صدر، ويعتبر نفسه عاملاً لشؤون الگوتيين، ووفّر للشعب الاستقرار والأمن، وأقام فى مدينتى لَگَش (لَجَش) وأُور كثيراً من الأبنية الفخمة، وكان يستورد موادّ البناء من سواحل الخليج الذى سُمّى بعد زمن طويل باسم (الخليج الفارسى)، ومن الفرات الأوسط وشمالى سوريا، وكان يستأجر العمال من عِيلام المجاورة[٢].

النظام السياسى الگوتى

لم يكن للگوتيين فى بداية عهدهم ملوک، وإنما كان لهم قادة عسكريون قَبَليون، شأنهم فى ذلک شأن جميع الأقوام القَبَلية الطابع، وكان يتم اختيار أولئک القادة لفترات محدَّدة على أساس القدرة والكفاءة. ويبدو أنهم تأثروا بعدئذ بالثقافة السياسية المجاورة فى سومر وأكّاد، فانتخبوا ملوكاً لفترات محدّدة، ومع ذلک يبدو أنهم سُمّوا ملوكاً من باب التجاوز، وأنهم

---

١ - المرجع السابق، ص ١١٥ – ١١٦.

٢ - المرجع السابق، ص ١١٦.

كانوا فى الحقيقة قادة يُنتخبهم زعماء القبائل، وكانت المدة القانونية لحكم كل ملك ستة أعوام، وكانت المَلَكيّة عند الگوتيين مقيّدة وغير مطلقة[1].

وكانت مدة حكم الملوک الگوتيين من الملک الثانى إلى السابع ست سنوات فقط لكل ملک، وكانت مدة حكم الملوک من الثالث عشر إلى السادس عشر، أقل من عامين لكل ملک، ومدة حكم الملوک من السابع عشر إلى التاسع عشر هى سبعة أعوام لكل ملک، وكان الاستثناء الوحيد هو فترة حكم الملک الثامن يارلاگاب (بارلاگاب)، فقد أعادوا انتخابه ثلاث مرات، وأنقصوا ثلاث سنوات من مدة حكمه، وحكم (١٥) عاماً[2].

وكان النظام السياسى الگوتى أوليغارشيّاً، يقوم على الانتخاب الحر، وكان زعيم الاتحاد القَبَلى الگوتى يُنتخَب من قبل زعماء القبائل فيما يشبه (مجلس الشيوخ) لمدة قصيرة، كى يقوم بإدارة الأمور السياسية والعسكرية. ومعروف أن الثقافة السياسية فى أكّاد، وفى سومر التى صارت تابعة للسلطة الأكّادية، كانت مختلفة عن الثقافة السياسية الگوتية، كان الملک الأكّادى يحكم حكماً مطلقاً طوال عمره، إلى أن يُتوفّى أو يُقتَل، ولذلک استغرب الأكّاديون والسومريون النظام السياسى الگوتى، حتى إن كاتباً سومرياً راح يتساءل قائلاً:

" a- ba- am Lugâl a- ba – am nu Lugâl، من هو الملک؟ من هو غير الملک؟ هل كان إيگيگى هو الملک؟ هل كان نانوم هو الملک؟ هل كان إيمى هو الملک؟ هل كان إيلولو؟ الذين حكم كلٌّ منهم ثلاث سنوات"[3].

ويرجع الاختلاف بين النظام السياسى عند الگوتيين من جانب، وعند الأكّاديين والسومريين من جانب آخر، إلى نمط الحياة عند هؤلاء وأولئک، فقد كان النمط القَبَلى الرَّعَوى هو السائد فى المجتمع الگوتى، باعتبار أن الگوتيين كانوا جبليين قَبَليين، ومعروف أن المجتمع القَبَلى الرَّعَوى ينفر من الاستبداد والحكم المطلق، ويترع إلى الديمقراطية واللامركزية. أما فى أكّاد وسومر فكان النمط الزراعى الطبقى العبودى هو السائد، وهذا النمط بيئة صالحة جداً لظهور النظام السياسى المركزى الاستبدادى، وولادة الحكم الملكى المطلق؛ مع الأخذ فى

---

١ – المرجع السابق، ص ١١١.

٢ – المرجع السابق، ص ١١١ – ١١٢.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٤٩/١، هامش (٦).

الحسبان أن الثقافة السياسية السومرية الأصيلة كانت تترع إلى اللامركزية، وكان نظام (المدينة- الدولة) هو الغالب على تاريخ بلاد سومر، قبل أن يحتلّها الأكّاديون، لكن السومريين خسروا هذه الترعة، بعد أن وقعوا تحت تأثير الثقافة الأكّادية الساميّة.

أجل، إن نفور الأكّاديين والسومريين من الحكم الگوتى لم يكن سياسى الطابع فقط، وإنما يرجع إلى اختلاف ثقافى عميق، فقد كان الگوتيون ينعمون فى مجتمعهم القبلى بقدر كبير من الحرية الفردية، وما كانت العلاقات فى المجتمع الگوتى قائمة على المفاهيم الأسطورية التسلطية التى كانت سائدة فى مدن سومر وأكّاد، والتى توحّدت فيها السلطتان الروحية والمدنية فى يدى الملك الكاهن، كما أن الحياة الرعوية الگوتية لم تكن بحاجة إلى استخدام العبيد، ولذلك كان الحكم الگوتى فرصة للعبيد فى مدن أكّاد وسومر كى يتحرروا، وكان القسم الأكبر من أولئك العبيد هو من الأسرى الذين كان الغزاة الأكّاديون يجلبونهم من مناطق الگوتيين واللوللوبيين وغيرهم من أقوام زاغروس، ويبيعونهم فى أسواق العبيد[1].

وأول ملك گوتى ورد اسمه فى الكتابات المسمارية هو إيرريدوپيزير، وكان معاصراً للملك الأكادى نارام سين، ويبدو أنه فرض سيطرته لفترة قصيرة على المدينة السومرية المقدسة نيپور (نُفَّر على بعد حوالى مئة ميل جوبى بغداد) وقد ترك فيها كتابة مطوّلة، وصف فيها نفسه بأنه "**ملك الجهات الأربع**"؛ وهذا يعنى أنه كان قد تشرّب الثقافة السياسية الأكّادية؛ لأن ملوك أكّاد أول من أسس الحكم المركزى فى غربى آسيا، وأول من دشّن المشاريع الاستعمارية الإمبراطورية، وإن الملك الأكّادى شاركالى شارّى بن نارام سين (٢٢٢٣ – ٢١٩٨ ق.م)، أول من منح نفسه لقب "**ملك الجهات الأربع**"[2].

ومن الملوك الگوتيين الذين ورد اسمهم فى النصوص المسمارية الملك الرابع سارلاگ (سار لاگَاب Sarlagab)، وكان معاصراً للملك الأكّادى شاركالى شارّى، وكانت فترة حكم سارلاگ تشكّل خطراً على المشروع التوسعى الأكّادى، فشنّ الملك الأكّادى شاركالى شارّى حملة على گوتيوم لإخضاعها، ولإيقاف تسرّب الگوتيين إلى بلاد سومر وأكّاد[3].

---

١ – المرجع السابق ٥٥٠/١.

٢ – المرجع السابق، ٥٤٧/١ – ٥٤٨. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ١١٥.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٤٨/١.

والملک الگوتی السادس الذی ذکرته النصوص المسمارية هو الملک الشهير إيلولوميش، وقد قام هذا الملک بتهديد مملكة أکّاد بعد وفاة الملک شارکالی شارّی، وظل يضغط فی ذلک الاتجاه حتی أسقط مملكة أکّاد، وسيطر عليها، ومنح نفسه لقب "**الملک القوی لأکّاد**"[1].



رأس برونزي لأحد ملوك الكوتيين

---

١ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/٥٥.

ويُفهَم من كتابات السومريين والأكّاديين أنهم اعتبروا العهد الگوتى فترة مظلمة فى تاريخ بلادهم، والحقيقة أن الگوتيين لم يسيطروا على جميع مناطق أكّاد وسومر، لقد كان مركز حكمهم يقع فى أَرّابْخا (منطقة كركوك حالياً)، وتركّزت سيطرتهم فى المدن الأكّادية، ولم يبسطوا سلطانهم على الجنوب، واكتفوا باستلام الجزية، تاركين تسيير دفّة الأمور للحكام المحليين، ولذلك تمتّعت المدن السومرية بقسط من الحرية السياسية والتجارية؛ الأمر الذى أدّى إلى تطور كبير فى مدائن الجنوب، وعلى رأسها مدينتا لَجَش وأُوروك (الوَرْكاء)[1].

وكانت حدّة الگوتيين وخشونتهم الجبلية قد خفّت رويداً رويداً، بعد أن عاشوا فى سهول ميزوپوتاميا، وصاروا على تماسّ مع بيئات المدن المتحضرة، واقتبسوا من حضارة بلاد سومر وأكّاد، وحمل بعضهم منذ النصف الثانى من حكمهم لبلاد أكّاد وسومر أسماء ساميّة، منها: كُورُوم Kurum، وخابِل – كِن Khabil- Kin، وإبْرانُم Ibranum، وبُوزور- سِن Puzur-Sin، أو أسماء گوتية ذات طابع سامى منها: لا- إرابُم La erabum، وإرارُوم Irarum. وكتب الگوتيون باللغة الأكّادية والخط المسمارى، وعبدوا- إلى جانب أربابهم- بعض المعبودات السامية كالإلهة عَشتار والإله سِين[2].

ودام الحكم الگوتى فى سومر وأكّاد حوالى (٩١) عاماً، وذكر وليام لانجر أن الگوتيين حكموا مدة (١٢٥) عاماً، وذكر الدكتور محمد بَيُّومى مَهْران أنهم حكموا بين عامى (٢٢٣٠ – ٢١٢٠ ق.م)، أى حوالى (١١٠) أعوام، وذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أنهم حكموا بين (٢٢٣٠ – ٢١٣٠ ق.م)، أى حوالى (١٠٠) عام، وكان آخر ملوك الگوتيين يدعى تيريجان (تيريكان) Tiriqan، وقد ثار عليه الأمير السومرى أوتو – هَيگال Utu-hégal (أوتو- خَيجال) حوالى سنة (٢١٣٠ ق.م)، وحاربه وأخذه أسيراً، وانسحب الگوتيون إلى

١ - دياكونوف: ميديا، ص ١١٠. محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦٢ – ١٦٣.

٢ - محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦٢ – ١٦٣. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ١٢٣.

مناطقهم الأصلية فى جبال زاغروس، وترجع سهولة انتصار أوتو – هيگال إلى أن جنوده كانوا يقاتلون بإخلاص ضد الگوتيين الذين احتلوا بلادهم[1].

ووصف أحد القدماء انتصار أوتو هيگال على تيريجان قائلاً:

"فى اليوم الخامس من مسيرته من أوروك أسر (أور نينار) و(نابو أنليل) قائدَى تيريجان اللذين أرسلهما إلى سومر كسفراء، ووضع أوتو خيجال قيوداً خشبية فى أيديهما، وفى اليوم السادس وصل أوتو خيجال إلى (كاركار)، ووقف أمام الإله أَشْكور وناداه: أيها الإله أشكور! لقد أعطانى الإله إنليل السلاح، فكن عونى فى مهمتى، ... وكان الجوتيون قد جمعوا قواهم فى ذلك المكان، ... غير أن أوتو خيجال، الرجل العظيم، تمكّن من دحرهم وأسر قائدهم. وعندئذ فرّ تيريجان، والتجأ إلى مدينة (دبروم)، وعامله الناس بعطف، ولكن عندما علم رجال دبروم أن أوتو خيجال هو الملك الذى منحه الإله إنليل القوة، لم يطلقوا سراح تيريجان، وجاء رُسل أوتو خيجال، وأخذوا تيريجان وأُسرتَه أسرى، ووضعوا القيود الخشبية فى يديه، وعصبوا عينيه، ولما أحضروه أمام أوتو خيجال ألقى بنفسه عند قدميه، فوضع أوتو خيجال قدمه على رقبته، ... وهكذا عادت الملكية إلى سومر"[2].

وباختصار: إن غزو الأكّاديين المستمر لگوتيوم واحتلالها، وممارسات عمليات السلب والنهب، وإخضاع الگوتيين لمختلف أصناف القهر والإذلال والأسر والاستعباد، دفع بالگوتيين إلى النقمة والثورة على الأكّاديين، وبعد أن قهروا الجيوش الأكّادية وجدوا الطريق مفتوحاً أمامهم لأن يعاملوا الأكّاديين بالمثل، فغزوا أكّاد، وغزوا سومر التى كانت تابعة للحكم الأكّادى، ومارسوا عمليات الانتقام من الأكّاديين، ومارسوا فى البلاد المحتلة ما كان يمارسه جميع المحتلين فى العصور القديمة، وإذا أخذنا فى الاعتبار أنهم كانوا ذوى ثقافة رعوية جبلية، فلنا أن نتوقع منهم أن يكونوا قساة فى معاملة أعدائهم، وأن ينبهروا بالثروات التى كانت تتوافر فى مدن ميزوپوتاميا، وينشغلوا بحيازتها، وأن تتفرق بهم الأهواء، وينتهى بهم الأمر إلى الفرقة والضعف والهزيمة.

---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ١١٠، ١١٧. أرشاک سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٣٧. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/٥٥.جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١/٥٤٧، ٥٥٢.

٢ – محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦٩. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/٥٥.

الگوتيون فی العهود اللاحقة

بعد أن قضى الأمير السومری أوتو- هيگال على حكم الملك الگوتی الأخير تيريجان ، غادر الگوتيون المدن السومرية والأكّادية، وانسحبوا إلى مناطقهم فی جبال زاغروس، كما أنهم انتشروا فی أجزاء مختلفة من كوردستان الحالية، ومنها المناطق التی اشتهرت فيما بعد باسم (بلاد آشور). ومنذ أواسط الألف الثانی ق.م دخلت بلاد الگوتيين ضمن مملكة ميتّانی، وتوزّع الگوتيون فی مختلف أنحائها، حتى إن الملك الآشوری شَلْمانَسَر الأول (١٢٨٠ – ١٢٦١ ق.م) دوّن خلال إحدى حملاته على مواطن أسلاف الكورد قائلاً: "**إن دم الگوتيين يسيل كالمياه، من حدود أُورارتو حتى كُوثْمُوخی**"، وذكر الملك الآشوری تُوكُولْتی نِينُورْتا بعد أحد عشر عاماً، أی عام (١٢٥٠ ق.م)، فی حولياته أن الگوتيين يعيشون على ضفاف نهر الزاب الأسفل[١].

وتوضّح سجلاّت مملكة ماری Mari الأمورية أن قبائل تُورروكی الگوتية الجبلية- وكانت حينذاك ضمن النفوذ الحوری/الميتّانی- وقفت ضد الآشوريين، وهدّدت النفوذ الآشوری فی مدينة شَوْشاره (شَمْشاره قرب رانِيَا فی جنوبی كوردستان حالياً)، وقضت فی النهاية على ذلك النفوذ، وإن الرسائل المتبادلة بين الملك المحلی الحوری كواری فی شَوْشاره- وكان تابعاً للآشوريين- وبين الملك الآشوری شَمْشی حَدَد الأول Shamshî – Adad 1 (حكم بين ١٨١٥ – ١٧٨٢ ق.م)، تَبيّن أن القائد الآشوری شَمْشی داغان حاول التفاهم مع خصمه ليدايا قائد التورروكيين فی مدينة أوتا، وهذا يعنی أن التورروكيين كانوا عقبة خطيرة فی طريق السلطة الآشورية[٢].

وتفيد الرسائل المتبادلة بين الملك شَمْشی حَدَد الأول وتابِعه كواری ملك شَوْشاره أن قائداً گوتياً آخر شكّل خطراً كبيراً على السلطات الآشورية، وعزّز موقعه العسكری فی مدينة شيكشابُّوم Shikshabbum (يُحتمَل أنها تقع فی الجهات الجنوبية الشرقية من سهل رانية)،

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فی التاريخ، ٥٥٩/١.

٢ – المرجع السابق، ٥٦١/١.

وكان التورروكيون متحالفين مع سكان مدينة شَوْشاره، ويتربّصون بالآشوريين، وينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض عليهم، وكانوا يسبّبون أزمة حقيقية لنفوذ السلطات الآشورية[1].

وبعد موت الملك الآشورى شمشى حَدَد الأول، قام الملك البابلى الشهير حمورابى Hammurapet (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م) بغزو قبائل التورروكيين الگوتية، والمناطق المجاورة فى گوتيوم التى باتت تُعرَف بأنها جزء من سوبارتو، لنهب ثرواتها المعدنية، وتفيد إحدى الرسائل ضمن أرشيف قصر كوارى أن النفوذ البابلى كان قد حلّ محلّ النفوذ الآشورى فى گوتيوم. وبعد سقوط بابل فى قبضة الملك الحثّى مورشيلى (مورسيلى) الأول Mersilis1 (١٥٣٠ – ١٥١٠ ق.م)، واضطرارها إلى الانسحاب منها، ملأ الميتّانيون الفراغ، وانتشر النفوذ الميتّانى بين الگوتيين، كما انتشر بين أقربائهم اللولوبيين[2].

وخلال العهد الآشورى الوسيط، ونظراً لسياسة التوسع الآشورية، كان من المحتوم أن يحدث الاصطدام بين السلطات الآشورية والگوتيين، وقد وردت فى كتابات الملك الآشورى حَدَد نيرارى الأول Adad- nirari (١٣١٠ – ١٢٨١ ق.م)، تقريراً عن انتصاراته على أقوام كاشّو وگوتى ولوللو وسوبارتو[3].

وتابع الملك الآشورى شَلْمانَسَر الأول (١٢٨٠ – ١٢٦١ ق.م) أو (١٢٦٣- ١٢٣٤ ق.م) الغارات على خانيگالْبات (دُور عابْدِين) وأوروآترى (أورارتو)، ولكن الگوتيين لم يخضعوا له، وكتب قائلاً:

"عقب ذلك نجح الگوتيون الذين يُعَدّون كنجوم السماوات، ومتضلّعين فى القتال، وفى التمرد علىّ، وأقاموا العداوة معى"[4].

وجاء فى التقرير ذاته أن الدم الگوتى جرى كالمياه من حدود أورارتو حتى كُوتْمُوخى Kutmuhki، وقد أطلق الآشوريون على كُوتْمُوخى اسم (كُوموخ)، وهى منطقة تقع على

---

١ – المرجع السابق نفسه.

٢ – المرجع السابق، ٥٦٣/١.

٣ – المرجع السابق، ٥٦٤/١.

٤ – المرجع السابق نفسه.

ضفتى نهر الفرات فى كوردستان الشمالية الغربية، ومن مدنها القديمة الباقية بَيرَه جيک، وآمِد (دياربكر)، ومَرْعَش، وميليتينى (مَلاطيا الحالية). وهذا دليل على سعة المناطق التى كان الگوتيون يقيمون فيها، بدءاً من أرّابْخا (منطقة كركوک حالياً) جنوباً حتى أورارتو (أرمينيا حالياً) شمالاً، وفى المناطق الواقعة بين أرمينيا حالياً وسلسلة جبال طور (دور) عابدين فى كوردستان الغربية، وهو دليل أيضاً على قوة الگوتيين الكبيرة، وصلابة موقفهم ضد الغزو الآشورى.

وظل الصدام قائماً بين السلطات الآشورية والگوتيين، فقد ذكر الملک الآشورى تُوكُولْتى نِينُورْتا الأول (١٢٣٣ – ١١٩٧ ق.م) أنه التقى بالگوتيين على نهر الزاب الأسفل (الصغير) شمالى أرّابْخا، وهذا دليل على أن مواطن الگوتيين كانت تقع بين جبل لارلار قرب شَوشاره (شَمْشاره) فى شمالى شَهْرَزُور (منطقة سليمانية حالياً)، حتى الجزيرة وبلاد كُوتْمُوخى، وهذا يعنى أن معظم مناطق كوردستان كانت موطناً للگوتيين، قبل أن تحصل التغيّرات الإثنية واللغوية فيها خلال الانتشارى الآرى[١].

الأوضاع الحضارية الگوتية

فى مجال المجتمع والإدارة:

اشتهر الگوتيون فى نظر السومريين والأكّاديين بأنهم جنس أبيض وأشقر، ولذلک كان الإقبال شديداً على شراء العبيد الگوتيين الذين كانوا فى الأصل أسرى الحروب. ولم يكن الگوتيون من خرّيجى ثقافة النظام العبودى، إنهم كانوا محبين للحرية، وينفرون من الخضوع لأية سلطة، ولعل هذا هو السبب فى أنهم بادروا إلى تحرير الإماء فى سومر وأكّاد حينما احتلوها، وكانت الأَمَة (العبدة) تسمّى (نامروتى) namrûtî، وهذه الكلمة مشتقة من كلمة (نامرو)؛ وهى تعنى (عبد من الشمال) باعتبار أن الإماء كن فى الغالب من الگوتيين[٢].

---

١ – المرجع السابق، ١/٥٦٥.

٢ – المرجع السابق، ١/٥٥٦.

ولم يكن الگوتيون يؤمنون بالعقائد السائدة فى أكّاد وسومر إلا نادراً، ولم يمارسوا الشعائر والطقوس السائدة فى المعابد السومرية والأكّادية، ومع ذلک فإنهم كانوا يمتلكون قابلية التأثر الحضارى حينما احتكوا بالسومريين والأكّاديين، وحمل بعضهم ألقاباً ساميّة الجذور مثل: إيبرانوم، حابليوم، كوروم، سيئوم، وصحيح أنهم احتفظوا بلغتهم المستقلة عن اللغات الساميّة، لكن ذلک لم يمنعهم من الاندماج تدريجياً فى الثقافة السومرية والأكّادية، وخاصة فى الفترة الواقعة بين عهد الملک الثانى وعهد الملک السابع، وكانوا يمنحون المحكومين قسطاً وافراً من الحرية، ولم يتدخّلوا فى الشؤون الخاصة بأهل البلاد الأصليين، وأبقوا عليهم فى مناصبهم الإدارية، بل إنهم أبقوا عليهم فى المناصب العسكرية أيضاً، ومنهم القائد نبى إنليل الأكّادى، والقائد أورنينازو السومرى، غير أن الجنود كانوا من الگوتيين[1].

فى المجال الفنى:

تعبّر الآثار الفنية عن المستوى الحضارى للگوتيين فهى نادرة جداً، ويبدو أن السومريين والأكّاديين حطّموا أغلبها بعد رحيل الگوتيين إلى مواطنهم الجبلية، أو قضى عليها البابليون والآشوريون خلال غزواتهم لبلاد الگوتيين، ويعتقد دياكونوف أن اللوحة المكتشفة فى كوردستان ، والمعروفة باسم (لوحة شَيْخان)، هى من أعمال الگوتيين، وتدلّ الكتابات التى عليها أنها تعود إلى الألف الثانى ق.م، أو إلى فترة أقدم من ذلک، وهى تصوّر شخصاً- ربما ملكاً- باسم (لى شير- بيرانى) منتصراً على أعدائه. وثمة كتابة تذكارية أخرى تعود إلى عهد الملک الگوتى فى سومر لاسيراب، أرسلها إلى سِپار، جاء فيها: "**إنّ إلاهَىْ الگوتيين هما عَشْتار وزِن**"، وثمة رأس برونزى لأحد الملوک الگوتيين، اكتُشف قرب مدينة هَمَذان، وهو محفوظ فى متحف برايْمر گالرى بنيويورک[2].

وقد اكتُشف تمثال من الحجارة لإنسان شبيه بالناس الذين لا زالوا يعيشون حتى الآن فى جبال زاغروس، ويرتدى ذلک الشخص عمامة كبيرة، تشبه عمامة العيلاميين قليلاً، ويظهر

---

١ - المرجع السابق، ١/٥٥٦ – ٥٥٧.

٢ - المرجع السابق، ١/٥٦٥.

تحت العمامة قليل من الشعر، وعيناه لوزيتان محفورتان من مادة أخرى، ووجهه واسع وبيضوى الشكل، وبمناسبة ظهور قليل من الشعر تحت العمامة عند الگوتيين نجد هذه الظاهرة بعدئذ فى صور الميديين، ونجدها الآن بوضوح عند بعض رجال الدين الإسلامى الكورد فى جنوبى كوردستان ، وعند معظم رجال الدين الإسلامى الفرس من أتباع المذهب الشيعى، وسنجد لاحقاً أن الفرس احتلوا ميديا عسكرياً وسياسياً، لكنهم تأثّروا بحضارتها وأزيائها.

ويوجد فى (شيخان)، فى الجزء الأعالى من دِيالى، تمثال آخر منقوش فى الحجر مشابه للنموذج السابق، وتوجد فى الحجر المنقوش صورة رجل يلبس ثوباً حتى الركبة، ويرتدى عمامة تشبه الطاقية البابلية، ويلفّ شالاً حول عنقه، ويحمل قوساً باليد اليسرى، ويُخرج بيده اليمنى نبالاً من كنانته، ويضع قدمه اليسرى على عدوّه الأسير الذى يرفع يديه طالباً للعفو، واسم صاحب الصورة هو (لى شير- بيرآنى)[1] .

فى مجال اللغة الگوتية:

كل ما نعرفه عن اللغة الگوتية وصلنا من خلال الألقاب الملكية غالباً، إذ وردت تلك الألقاب فى السجلات المسمارية السومرية بشكل منظَّم، وضمن قائمة خاصة، وهى توضّح جانباً مهماً من خصوصيات اللغة الگوتية، فهناک ثلاثة ألقاب تبدأ مقاطعها الأولى ب (وارلا، إيارلا، أرلا). والمقطع الثانى من هذه الألقاب هو (-لاگا)، إلا أن هذه الألقاب تنتهى عادة إما بحرف (ب، ش، ن)، كالأسماء (إيارلاگاب، غيارلا، إيارلاگان- دا)، وقد سُجّلت هذه الألقاب بصيغ أخرى، منها: وارلگاب، إيارلگاش، إيارلگان. واللقب الأخير هو من نمط لقب (تيريجان) آخر ملک گوتى حكم فى أكاد وسومر، وهذا يعنى أن بعض هذه الألقاب كانت تنتهى بحرف (ن)، وكانت شائعة بين سكان جبال زاغروس، فى حين كانت ألقاب گوتية أخرى، تأتى بصيغة (لاسيراب، شارلاک). والحقيقة أن اللاحقة (ان) ما زالت مسموعة فى الأسماء الكوردية المعاصرة، مثل:(Dîl-an, Ser-an, Seyr-an, Soz-an) ، وكذلک اللاحقة (اک) مثل (Rûn-ak, Zîr-ak, Ser-ak)[2].

---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ١١٩.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٥٣/١ – ٥٥٤.

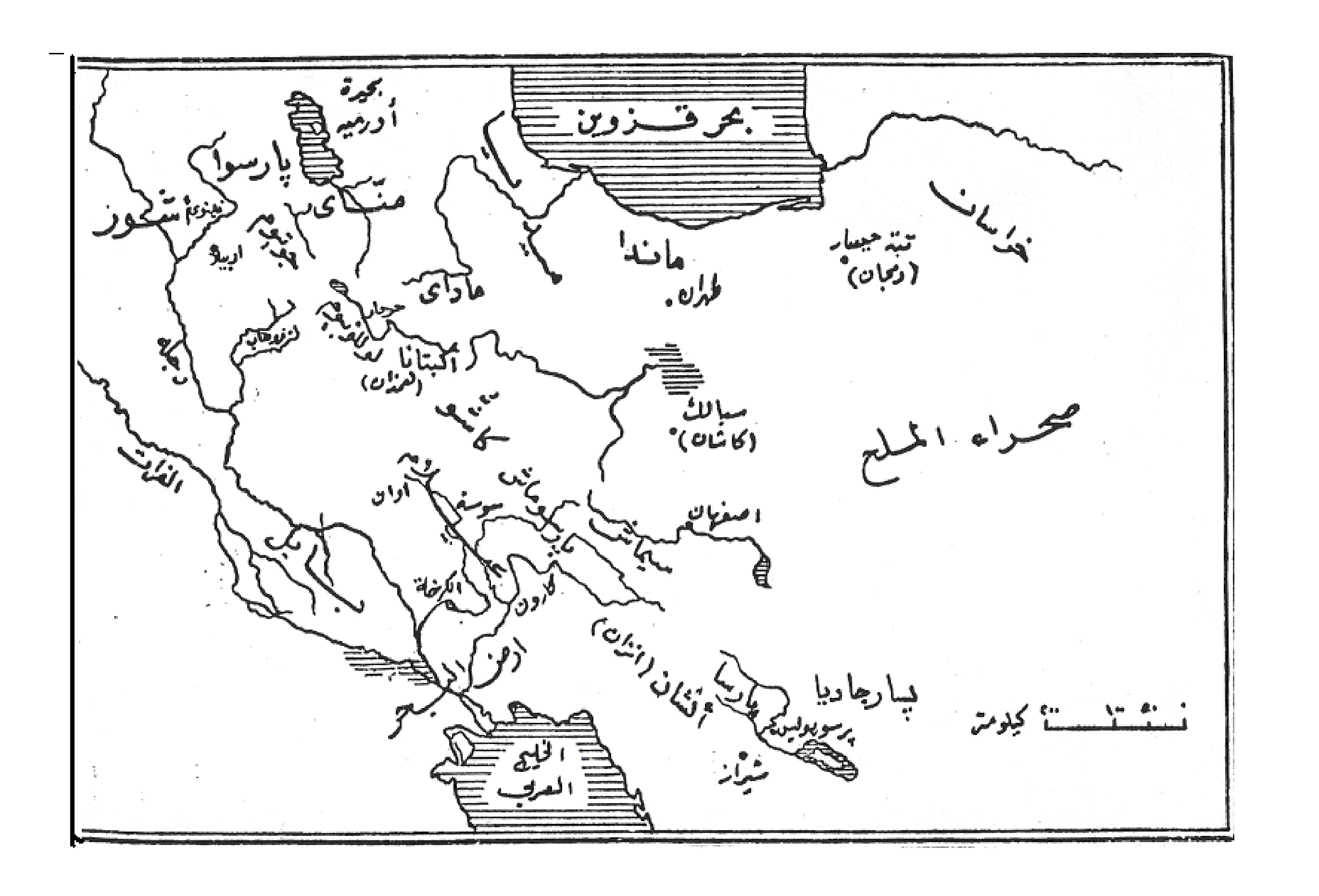
وذكر دياكونوف أن اللغة الگوتية كانت مستقلة، ولها قواعدها الخاصة، وكان السومريون والأكّاديون يتعلمون اللغة الگوتية بصعوبة بالغة، وهذا أحد أسباب قلة الكتابات الگوتية وسرعة زوالها، ومن المحتمل أن توجد علاقة بين اللغة الگوتية ومجموعة لغات أقوام زاغروس (العيلامية، اللوللوبية، الكاشّية)[1].

وجدير بالذكر أن نهاية الأسماء الكاشّية (- أش/- ياش) المشابهة للشين الگوتية- وكانت تعنى (الإله)- استُعملت لتبريك ألقاب الملوک مثل (گانْداش، بُوگاش، كاشْتِلْياش)، وأسماء الأماكن مثل (توپلياش، كارْدُونْياش)، وثمة علاقة بين اللاحقتين (ش، س) الگوتية واللوللوبية مع لاحقة (ياش) الكاشّية[2].

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ١١٣.

٢ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١/٥٥٥.


بحر قزوين
خراسان
مادای
صحراء الملح
سيالك
(كاشان)
اصفهان
بحيرة
أورمية
پارسوا
اكبتانا
الفرات
دجلة
بابل
سوسة
الكرخة
كارون
پارسا
شيراز
الخليج
العربي
كيلومتر

٣

اللولوبيون Lullubi

الهوية والجغرافيا

لوللو Lullu من أقدم أقوام جبال زاغروس، ويسمّون لوللوبى Lullubi، ولوللومى Lullumi، وورد اسمهم فى النصوص المسمارية الأكّادية بصيغتين: الأولى هى لولوب LU.LU.B، أو لولوبوم LU.LU.BUM، والثانية هى لولو LU.LU، وإن اللاحقة الصوتية (بى، مى) فى اسم لوللو تدل على حالة الجمع، أى قوم لوللو، أو شعب لوللو[١].

وكان قوم لوللو يقيمون فى القسم الشمالى من مرتفعات زاغروس، ويكوّنون جزءاً من مجموعة الأقوام التى سُمّيت Zagro- Elamite، وتمركزوا بشكل رئيسى فى مناطق چَمْچَال، وبازِيان، وسُلَيمانية (زامْوا القديمة)، وفى سهل شَهْرَزُور، وفى أَلْوَنْد وزَهاو، وتقع هذه المناطق فى كوردستان الجنوبية والشرقية، وكانت مناطق انتشارهم تتأثّر توسّعاً وتقلّصاً بالحملات الأكّادية والآشورية والأورارتية، وكانوا يسيطرون على المنطقة التى يمر منها طريق

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٦٧/١.

التجارة العالمى (طريق الحرير) الموصل بين بغداد وطهران ماراً بكَرْمَنْشاه وهَمَذان، والعابر إلى وسط آسيا، ومن هناك إلى شرقى آسيا حتى الصين ضمناً[1].

وذكر جرنوت فيلهلم أن اللولوبيين كانوا يقيمون فى المناطق المحيطة بمدينة سُليمانية، وتعود أقدم الإشارات إليهم فى الكتابات المسمارية إلى أواخر القرن الثامن والعشرين ق.م، وازداد شأنهم فى عصر سلالة أور الثالثة (٢١١٢ – ٢٠٠٤ ق.م)، واتسعت دلالة اسمهم فى العصر البابلى القديم (١٩٠٠ – ١٦٠٠ ق.م) لتشمل كل القبائل الجبلية هناك، وانتشروا خلال هذا العصر غرباً. وفى العصر الآشورى الوسيط (١٣٦٣ – ٩١٢ ق.م) أُخضعت معظم مناطقهم للنفوذ الآشورى[2].

وذكر مؤرخون آخرون أنه فى العصر الآشورى كانت مناطق انتشار قوم لوللو تمتد من بحيرة أُورْمِيَه شمالاً وشرقاً حتى نهر سَيرَوان (أحد فروع نهر دِيالى) فى جنوبى كوردستان ، وكان مركز بلادهم يقع على ضفاف نهر الزاب الصغير (الأسفل)، فى شمال شرقى سيمورروم وگوتيوم (شَهْرَزُور حالياً)[3].

وفى القرن الثامن عشر ق.م طغت تسمية زامْوا Zamwa على المناطق الغربية من بلاد لوللو، وحلّت محل اسم (لوللوبى). وفى عهد مملكة أورارتو (من القرن الثامن إلى القرن السابع ق.م) كانت تُعرف بلادهم باسم (زامْوا) Zamwa، وكان فى الغالب اسم إحدى قبائلهم، ورويداً رويداً اختفى اسم (لوللوبى) نهائياً، وحل محله اسم (زامْوا)[4].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٦٩/١. أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١٩٩، هامش (١).

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣١، هامش (١).

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٦٩/١. وانظر جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ١٣١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٦٢.

٤ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣١، هامش ١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٦١ – ٥٦٢. دياكونوف: ميديا، ص ١٠٧، ١٠٨.

الأوضاع السياسية اللولوبية

حينما سيطر الأكّاديون (من أقوام الصحراء الساميين) على بلاد سومر، بقيادة الملك سرجون (سرگون) الأول Sargon 1 (٢٣٥٠ – ٢٢٩٤ ق.م)، وصاروا سادة بلاد الرافدين، أصبحت بلاد لوللو عرضة لغزواتهم المتواصلة، بدءاً من عهد سرجون الأول، ومروراً بعهد مانِشْتُوسو Manishtusu (٢٢٨٧ – ٢٢٧٢ .م) ابن سرجون، وانتهاء بعهد نارام-سين Naram - Sin (٢٢٧٢ – ٢٢٣٥ ق.م) ابن مانِشْتُوسو، وكان الأكّاديون يستعبدون اللوللوبيين، ويجلبون منهم أعداداً كثيرة إلى أكّاد، لبيعهم واستخدامهم[١].

ورغم الحملات الأكّادية المتكرِّرة على مواطن قوم لوللو، حافظ اللوللوبيون على استقلالهم السياسى، ويظهر ذلك فى إحدى الرسائل المدوَّنة بالخط المسمارى، والمكتشفة فى موقع إيبْلا (تل مَرْدِيخ ٧٠ كم جنوبى حلب فى شمالى سوريا)، ويُستدَلّ من تلك الرسالة على وجود علاقات دبلوماسية بين قوم لوللو (مملكة خَمازى) Hkamazi، والكنعانيين (مملكة إيبْلا)، ويعبّر فيها ملك إيبْلا المدعوّ أَرْكَب- دِيمُو عن رغبته فى أن يمدّه اللوللوبيون بجنود أقوياء مدرَّبين، وأرسل مقابل ذلك إلى زيزى ملك لوللو عشر قطع من الأثاث مصنوعة من الخشب، مع حليتين ثمينتين[٢].

وبعد سقوط الأكّاديين على أيدى الگوتيين تحسّنت أوضاع اللوللوبيين، وارتفع شأنهم فى عصر سلالة أور الثالثة (٢١١٢ – ٢٠٠٤ ق.م)، واتسعت دلالة اسمهم فى العصر البابلى القديم (١٩٠٠ – ١٦٠٠ ق.م) لتشمل كل القبائل الجبلية هناك، وانتشروا خلال هذا العصر غرباً. وكانت لهم مملكة قوية فى نهاية الألف الثانى ق. م، ويبدو أن اللوللوبيين انقسموا

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٦٧/١. عامر سليمان، وأحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٠٢.عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٧٥. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ١٣٢.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٧٢/١.

إلى مجموعات قَبَلية عديدة بعد زوال الحكم الگوتى، و لم تجمعهم دولة مركزية واحدة، وهذا واضح فى رسالة موجّهة إلى كوارى ملك شَوشاره (شَمْشاره) ذكر فيها مرسلُها شِيبْراتو أن ملوك اللوللوبيين- وليس ملكاً واحداً- يعانون نقصاً فى الحبوب[١].

وفى العصر الآشورى الوسيط (١٣٦٣ – ٩١٢ ق.م) خضعت معظم مناطق قوم لوللو للنفوذ الآشورى. وفى نهاية القرن العاشر ق.م غزا الملك الآشورى حَدَد (أَداد) نيرارى الثانى Adad- nirari ١١ (٩١١ – ٨٩٠ ق.م) بلاد لوللو، بدءاً من ضفاف نهر الزاب الأسفل (الصغير)، وحتى نهر الزاب الأعلى (الكبير)، ووصل إلى السواحل الغربية لبحيرة أُورْمِيَه، وسار ابنه تُوكُولْتى – نِينُورْتا الثانى Tukulti Ninurta 11 (٨٩٠ -٨٨٤ ق.م) على نهج والده فى غزو بلاد لوللو، وكان الهدف من الحملات الآشورية هو السلب والنهب، والحصول على الثروات الحيوانية، وأخذ الأسرى وتحويلهم إلى عبيد[٢].

و عند اقتراب الجيش الآشورى من مواطن لوللو، كان السكان يشعلون النيران فى قمم الجبال، ويعمّمون بهذه الطريقة خبر الغزو فى مختلف أنحاء المنطقة التى يتوجّه إليها الغزاة، فكان السكان يتخذون الاحتياطات اللازمة، ويهجرون قراهم، ويتجهون مع عائلاتهم وحيواناتهم إلى قمم الجبال، ويتحصّنون هناك فى الأماكن الوعرة التى يصعب على العدو الوصول إليها، كى يكونوا فى منجاة من ملاحقتهم وسلب ثرواتهم[٣].

وسار آشور ناسِرْپال الثانى Ashur Nasirpal 11 (٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م) على نهج والده تُوكُولْتى – نِينُورْتا الثانى، وعلى نهج جده حدد نيرارى الثانى، فغزا بلاد لوللو خلال الأعوام (٨٨٣، ٨٨١، ٨٨٠ ق.م)، وكانت حملاته العدوانية أشدّ، ووصلت غزواته إلى السواحل الغربية لبحيرة أُورْمِيَه، وكان المواطنون يضطرون إلى تقديم الهدايا إليه، وهى تتألف من الخيل والبغال والمواشى والأوانى المعدنية، والفضة والرصاص والنحاس والقطع المعدنية

---

١ – المرجع السابق، ١/٥٧٦.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ١٥١.

٣ – المرجع السابق، ص ١٥١.

الأخرى، لكن آشور ناسِر پال الثانى ما كان يكتفى بذلك، بل كان يفرض عليهم دفع الجزية والضرائب[1].

وأدرك قوم لوللو أن هذه الحملات هى خطوات تمهيدية لفرض الاحتلال الآشورى عليهم، وممارسة عمليات السلب والنهب، وأخْذ الأسرى وتحويلهم إلى عبيد، فوحّدوا صفوفهم عام (٨٨١ ق.م) واهتموا بتقوية نفوسهم، لمقاومة الغزو الآشورى. وكما هى عاد أسلاف الكورد القدماء، وعادة الكورد بعد الميلاد، وحتى العصر الحديث، برز من بين قوم لوللو زعيم قبيلة ناسِّيكو Nassiku، وكان يلقّب باللغة الأكّادية (نور- أداد)، فجمع حوله جميع مواطنى زاموا، وكان هذا هو الاسم الغالب على بلاد لوللو حينذاك، وشكّل جيشاً ضخماً، وترأّس قيادته. لكن الملك آشور ناسِر پال الثانى لم يمهله، وشنّ عليه الهجوم بجيش أكثر عدداً وأقوى عُدّة، واحتلّ المراكز الرئيسة فى زاموا، ووضعها تحت قبضته.

ونتيجة للهجوم الآشورى الكاسح اضطر القائد اللولوبى ناسِّيكو (نور أداد) إلى الانسحاب واللجوء إلى الجبال، وتلك هى عادة معظم قادة الثورات الكوردية حينما يعجزون عن ردّ الهجوم المعادى، ويأبون الاستسلام للعدوّ، ولاحقه آشور ناسِرپال إلى جبل نِيسير، وكان اللوللوبيون يسمّونه جبل (كِى نى با)، ويسمّى الآن جبل (پيرَه مَگْرُون)، وقتل آشور ناسِرْپال الثانى فى طريق سير حملته ثلاثة ملوك صغار فى زاموا، ومثّل بجثثهم[2].

وفى النهاية نجح آشور ناسِرپال فى إخضاع نور أداد ملك داگار dagar، وأخضع أيضاً ملك موساسينا Musasina الذى كان مركزه قلعة بوتاسى، وأخضع ملك كيرتيارا الذى كان مركزه قلعة لارْبُوسا، وكانت هاتان المملكتان تقعان فى شمالى بلاد لوللو (زاموا)، وكان القسم الشمالى من هذه البلاد يسمّى (ميثانيا) حسب قول دياكونوف، فى حين يسمّيها معظم المؤرخين (ماننای)، ولم يكتف الملك الآشورى بذلك، بل سلبهم جميع أموالهم ومواشيهم، وألحق بلادهم بمملكة آشور، وفرض على المواطنين جزية كبيرة، وكثيراً من الضرائب، تشمل الخيول والذهب والفضة والغنم والملابس والحبوب والتين وموادّ البناء[3].

---

١ - المرجع السابق، ص ١٥١ – ١٥٢.

٢ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٧٨/١. دياكونوف: ميديا، ص ١٥٢ – ١٥٣.

٣ - دياكونوف: ميديا، ص ١٥٣.

وعلى أية حال لم تكن الأمور، فى زاموا، تسير على الدوام كما كان يريدها ملوك آشور، فقد رفضت إمارتان من جنوبى زاموا- هما إمارة آمْكا وإمارة آراشْتُوا- تقديم الجزية والضرائب المفروضة عليهم فى العام التالى للغزو الآشورى؛ أى فى عام (٨٨٠ ق.)، وأثار ذلك غضب آشور ناسِرپال الثانى، فلم ينتظر وصول قوات المشاة ووصول الآليات العسكرية، وإنما شن الهجوم على الثوّار بقوات الفرسان وبالعربات الحربية، وحاصر جيش الثوار فى زاموا، واحتل قلاع آمالى وآراشْتُوا، وقتل أمراء كيريتارا، وكان مركز إمارتهم هى بارا Bara، واحتل سابينا (مركز خودون)، وبوتاسى (مركز موساسينا)، ونفّذ عمليات السلب والنهب، حتى وصل إلى سفوح جبل خاشْمار[١].

ووسّع آشور ناسِرپال الثانى نطاق غزواته، فأخذ بعض السكان أسرى، لاستخدامهم فى أعمال السخرة، وأحرق أطفالهم بالنيران، وتوجّه بجنوده نحو إمارة آمْكا، فلجأ سكانها إلى الجبال، غير أن الآشوريين هدّموا قلعتهم (زارو)، وسلبوا القرى المحيطة بها، وقتلوا خلال حملاتهم العشرات من مقاتلى آمْكا الذى وقعوا فى الأسر، بعد أن أنزلوا بهم أقسى العقوبات[٢].

ويبدو من سياق الأحداث أن زامْوَا ما كانت تخضع للآشوريين خضوعاً تاماً، وكانت تثور عليهم بين حين وآخر، فيضطر حكام آشور إلى غزوها وإخضاعها ثانية، وما كان آشور ناسِرپال ليسكت على العصيان اللولوبى فى زاموا، فحاول القبض على أهالى زاموا الذين هربوا إلى الجبال، واتخذ قلعة (أنليل) مركزاً لجمع الضرائب والجزية المأخوذة من الولايات التى أسسها بعد احتلال تلك المناطق، واتخذ فيها مخازن للعلف والذخيرة، وساق بعض الصنّاع الحِرَفيين الماهرين إلى عاصمته الجديدة كَلْخُو (نَمْرُود)، وترك الملوك الصغار فى زاموا فى مناصبهم، لكنه عيّن بعض أعوانه مراقبين عليهم، وجهّز هؤلاء المراقبون جيشاً لجمع الضرائب والجزية، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت زاموا جزءاً من بلاد آشور. ومع ذلك لم تخمد رغبة أهالى زاموا فى التحرر، واستعادوا استقلالهم ثانية، فبادر شَلْمانَسَر الثانى حسب قول

---

١ - المرجع السابق نفسه.

٢ - المرجع السابق، ص ١٥٤.

دياكونوف، (وشَلْمانَسَر الثالث حسب قول معظم المؤرخين)، إلى غزوها عام (٨٥٩ ق.م)، وإعادتها إلى دائرة النفوذ الآشورى[١].

وكانت ثمة مقاطعات لوللوبية أخرى، تقع على سواحل بحيرة أُورْمِيَه، وسمّاها دياكونوف (زاموا الداخلية)، كانت خارج دائرة النفوذ الآشورى، وبقيت وحدها لمواجهة الدولة الآشورية، وكان أهم ملوك زاموا الداخلية حينذاك يدعى (نيک- ديارا) أو (مکت- يارا)، وكان له أعداء كثيرون يترَبَصون به. وفى عام (٨٥٥ ق.م) هاجم شَلْمانَسَر الثانى زاموا الداخلية، وأراد الملک نيک- ديارا الهرب عبر بحيرة أُورْمِيَه، بقوارب مصنوعة من أشجار الحور، لكن شَلْمانَسَر لاحقه، حتى وصل إلى البحيرة، واشتبكا هناک فى معركة حامية، و لم يحقق نيک- ديارا نصراً كبيراً على شَلْمانَسَر الثانى، لكن يبدو أنه استطاع الاحتفاظ بنفوذه السياسى؛ إذ تأسست فى مناطق أُورْمِيَه ونهر جَغْتُو، خلال الربع الأول من القرن التاسع ق.م، عدة دويلات، وكان نيک- ديارا يقودها جزئياً[٢].

الأوضاع الحضارية اللوللوبية

على الصعيد الاجتماعى:

الأخبار المتعلقة بالجانب الاجتماعى والحضارى لقوم لوللو قليلة جداً، ويستفاد منها أن مجتمع لوللو كان يتألف، فى النصف الثانى للألف الثالث ق.م، من عدة طبقات اجتماعية، و لم تظهر القوانين والمؤسسات الرسمية والأعلام إلا فى بداية الألف الأول ق.م، حسبما جاء فى المصادر الآشورية. وكان اللوللوبيون يلبسون ملابس خفيفة وطويلة، ويضعون قطعة جلد على أكتافهم، وهذه بحد ذاتها كانت ملابس الكاشّيين والمانايين والميديين الغربيين فى الألف الأول ق.م، وكان شعرهم طويلاً، وكانت لحاهم قصيرة. أما فى الرسوم المحفورة للملک اللوللوبى (آنوبانى نى) فإن الملک يظهر فى ملابس أكّادية، وهى تتألف من طاقية عالية من

---

١ - المرجع السابق، ص ١٥٤ — ١٥٥.

٢ - المرجع السابق، ص ١٥٦.

اللبّاد، ونهايات مُشَرْشَرة، مع حزام عريض، وحذاء من الجلد على شكل صَنْدَل، ويظهر الأسرى أيضاً وهم يلبسون الطاقيات[1].

ويبدو أن مجتمع زاموا كان يختلف بعض الشيء عن المجتمع اللولوبى، ويقول دياكونوف فى هذا الشأن:

"**إن مجتمع زاموا– كما جاء فى التقاويم السنوية لآشور ناصرپال** [= الثانى]**– كان مجتمعاً غير طبقى، إن نور– أداد لم يُلقَّب بالملك، بل كان قائداً للقوم ملقّباً بـــ** (**ناسِّيكو**)، **... وبدأ النظام الطبقى بالظهور فى هذا المجتمع بالرغم من أنهم كانوا فى مرحلة التنقل، بينما كانت الدولة فيها مؤسسة ضعيفة؛ لذلك نجد وجود عدة دول صغيرة متفرقة على تلك الأراضى، حيث إن هذه الدول لم تتمكن من الوقوف فى مواجهة الحملات العسكرية الآشورية بسبب ضعفها، ولذلك فإننا نستطيع القول: إن ظهور المجتمع الطبقى بدأ عندهم وترعرع فى النصف الثانى من الألف الثانى ق.م، بعد أن احتل الكاسّيون** [= الكاشّيون] **بابل وحكموها**"[2].

أما فيما يتعلق بنمط حياة قوم لوللو، خلال الألف الثالث ق.م، فتفيد النصوص أنهم كانوا يعيشون على تربية الحيوانات والمتاجرة بها، وهذا يعنى أنهم كانوا يعيشون فى إطار الحياة الرعوية أكثر من العيش فى إطار الحياة الزراعية، والدليل على ذلك أن التجار كانوا يعتبرون منطقة لوللو سوقاً رائجة لبيع الحبوب، ومر قبل قليل أن ملوك لوللو كانوا يشكون من نقص فى الحبوب. وجدير بالذكر أنه برز بين قوم لوللو نحّاتون ماهرون أقاموا منحوتات دَرْبَنْدى رامْكان، ودَرْبَنْدى گاوِر، وزَهاو، وهُورِين، وشَيخان، وقد استغل ملوك آشور قدراتهم لإقامة المنحوتات فى المدن الآشورية، وجلب الملك الآشورى آشور ناسِرپال الثانى عدداً كبيراً من البنّائين اللوللو إلى عاصمته كَلْخُو (نَمْرُود)[3].

---

١ – المرجع السابق، ص ١٠٧، ١٠٨.

٢ – المرجع السابق، ص ١٥٥.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٧٨/١ – ٥٧٩.

على الصعيد الديني:

كان قوم لوللو يعبدون آلهة متعددّة، فقد جاء فى إحدى حوليات الملك الآشورى تِغْلات بِلاسَر الأول (١١١٤ – ١٠٧٦ ق.م) أنه غزا بلاد لوللو، وأخذ (٢٥) تمثالاً من المعبودات اللوللوبية معه، ووزّعها على المعابد الآشورية، وأقلّ ما يُفهم من هذا الحدث أن المعبودات اللوللوبية كانت تحظى بمكانة روحية مرموقة، حتى إن ملوك الآشوريين ما كانوا يدمروها، وإنما كانوا يسلبوها ويضمّوها إلى معابدهم، ولعل ملوك آشور اعتقدوا أهم بسلب التماثيل يجرّدون قوم لوللو من القوة الروحية المستمدة من تلك الآلهة[1].

على صعيد اللغة اللوللوبية:

فيما يتعلق باللغة اللوللوبية المعلومات قليلة جداً، وثمة أدلة على أن لغة سوبارتو ولغة لوللو كانتا متشابهتين، والحقيقة أن المقاطع القليلة الباقية من لغة لوللو لا تساعد على معرفة بناء الجمل فى اللغة اللوللوبية، ومع ذلك فقد بقيت بعض الأسماء الجغرافية اللوللوبية فى اللغة الكوردية، ومنها لاحقات صوتية من نمط (ك- ر- س – ان)، بقيت فى اسم سلسلة جبال سيم- أكى (فى الكوردية المعاصرة: سُمّاقَه) فى زاموا، وسلسلة آز- يرو قرب سليمانية (يسمّيها الكورد: أزمر)، وفى اسم جبل كولل- ار (كولار)، ومدينة تسمى ميسو (فى الكوردية الحديثة: مه صو)، وفى اسم نهر زاب (زا- با أو زا- بان)[2].

---

١ – المرجع السابق، ٥٧٦/١.

٢ – المرجع السابق، ٥٨٠/١.

٤

السوباريون Subartu

الهوية والجغرافيا

ثمة اختلافات واضحة في صيغ أسماء الأماكن والأعلام القديمة، بغربي آسيا، ويرجع السبب في ذلك إلى أن تلك الأسماء عبرت رحلة طويلة لا تقلّ عن أربعة آلاف عام، تعرّضت خلال ذلك لتبدّلات صوتية بتأثير الكتابات التي وردت فيها تلك الأسماء، وبتأثير اللغات التي نُطقت بها، فبعض تلك اللغات ساميّة، وأخرى آريّة شرقية (آريانية)، وبعضها الآخر آريّة غربية (أوربية).

وكان من الطبيعي أن يخضع اسم (سوبارتو) Subartu لتلك الاختلافات، فهو يُلفَظ بصيغة سُوبارو، وشُوبارو، وصاغه الأكّاديون بصيغة سوبارو Subaru و Subartu و Subartum ، مع الأخذ في الاعتبار أن المقطع tu والمقطع tum لاحقتان سومريتان تلحقان الأسماء الجغرافية، ومنها سوبارتوم Subartum، وگوتيوم Gutium، واستُعملت في الأكّادية باختزال الحرف (m) لتبقى (tu) فقط، ومنها على سبيل المثال: سُوبارْتو، وإيلامْتو، وأورارتو[1].

واعتقد C.J.Gadd أن صيغة (سوبارتو) من الناحية اللغوية والإثنية أكثر ملاءمة لتسمية المناطق الشمالية والشرقية لبلاد الرافدين، مستشهداً على ذلك برسائل (تل العَمارِنَة) في

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ١/٤٢٧.

مصر، التى ورد فيها هذا الاسم، وعُرف فيها الحوريون بالسوباريين الذين يعيشون فى مملكة ميتّانى، ويتألف اسم (سوبير) من مقطعين: الأول (سو) ذو الدلالة الإثنية، والثانى (بير) ذو الدلالة الجغرافية بمعنى (الخارج)[١].

ويبدو أن أصل كلمة (سوبارتو) سومرى الأصل، وقد جاء بصيغة Su- ki، أى (أرض سو)، والأرجح أن صيغة (ki) محرَّفة من الصيغة (gi)، وهى تعنى فى عدد من اللغات الآرية، ومنها الكوردية، (مكان/أرض). كما أن اسم سوبارتو جاء بصيغة Su-Bir لأول مرة فى نص يرجع إلى عصر لوغال آنّى موندو Lugal-anni-mundu الذى حكم مدنية أدابا (تل بَسْمايه الحالى) خلال الربع الأول من الألف الثالث ق.م؛ أى قبل عصر الملك الأكادى سرجون (سرگون) الأول Sargon١ (٢٣٥٠ – ٢٢٩٤ ق.م).

وقد استعمل الأكّاديون اسم (سوبارتو) بصيغ عدّة، منها (شوبارتوم، سوبارتوم، شوبارتو) وكانوا يعنون بها المقاطعات الشمالية الواقعة بين مرتفعات عِيلام (جنوب غربى إيران حالياً) فى الشرق، وبلاد آمورو (سوريا حالياً) فى الغرب، وكان اسم (شوبارو) عندهم يعنى (خورى/حورى)؛ لأن أغلبية سكان سوبارتو- حسبما يظهر- كانوا فى نهاية الألف الثالثة ق.م من الحوريين[٢].

وقد دخل اصطلاح (سوبير) Subir أو (سوبارتوم) Subartum إلى التاريخ منذ الألف الثالث ق.م، وكانت تقع بين پاراهشى Parahshi فى شمالى عيلام جنوباً وشرقاً، وجبال أمانوس فى شمال غربى سوريا الحالية المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط غرباً. وكانت دلالة (سوبارتو) الجغرافية- مثل مواقع قديمة أخرى فى غربى آسيا- تتّسع وتضيق بحسب الأحوال السياسة إقليمياً، فقد كانت تُطلَق فى عهد الملك الأكّادى نارام سين Naram - Sin (٢٢٦٠ – ٢٢٢٣ ق.م) على مناطق من جبال زاغروس تشمل مواطن الگوتيين واللوللوبيين، وحكمها زعماء يحملون لقب (إنسى سوبارتو)، مع العلم أن (إنسى) لقب سومرى، ويعنى (حاكم)، والدليل على أن اسم (سوبارتو) كان يشمل مناطق واسعة من جبال زاغروس وجود

---

١ - المرجع السابق، ١٢٥/١. وانظر هامش (١٢) من الصفحة نفسها.

٢ - المرجع السابق، ١٢٦/١.

نصّ بابلىّ قديم ذُكر فيه أن "**سوبارتو ظهر أخيراً بكثرة سكانها، حيث امتلكوا بالقوة أكّد**"[1].

ويقول جرنوت فيلهلم:

"**إنّ التسمية الجغرافية سوبارتو (فى السومرية: سوبر) لم تكن تشير دائماً إلى مناطق محدَّدة بدقة فى شمالى بلاد بابل، بل كانت فى الأصل تدل على جزء من منطقة شرقى دجلة الشمالية، ثم اتسعت دلالتها لتشمل بلاد آشور وشمالى بلاد الرافدين، وأضحت أخيراً فى النصوص البابلية الحديثة وصفاً أدبياً لبلاد آشور**"[2].

وقال الدكتور محمد بَيُّومى مَهْران:

"**ومهما يكن الأمر، فإن الآشوريين لم يحلّوا فى أرض فضاء، وإنما سكنوا بقاعاً سبقهم إليها قوم آخرون، عرفنا منهم (سوبارتو) Subartu الذين كانوا يَشغلون من قبلُ الإقليمَ الواقع بين دجلة وزاغروس، وهم ليسوا بساميّين على أية حال، ومن ثَمّ نستطيع أن نتخيّل صراعاً ينشب إثر تقدم موجات الساميّين الزاحفة من الغرب أو الجنوب، أو منهما معاً، بينهم وبين المواطنين الأصليين من السوباريين، وقد انتهى هذا الصراع بغلبة العناصر الوافدة واستقرارها هناك، وإنْ ظل البابليون فيما بعد لا يفرّقون كثيراً بين الآشوريين والسوباريين، ويعتبرونهم جنساً واحداً، وربما كان سببَ ذلك الاندماجُ المباشر بين العنصرين على مر العصور، بل يرجّح البعض أن السومريين نزلوا فى هذه النواحى قبل الساميّين الغربيين، وجعلوا منها مراكز لحضارتهم الشمالية**"[3].

وقال الدكتور عامر سليمان وأحمد مالك الفِتْيان:

"**لم يكن اسم آشور معروفاً فى القسم الشمالى من العراق قبل الألف الثالث قبل الميلاد، بل كان يُطلق على السكان القاطنين فى المنطقة اسم (سوباريين)، بينما أُطلق على**

---

١ – المرجع السابق، ٤٣١/١.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٢٩.

٣ – محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٢٥.

البلاد اسم (سوبارتو). وعند مجىء الآشوريين إلى المنطقة غلب اسم الآشوريين وبلاد آشور، وانصهر السوباريون مع الآشوريين، بينما نزح البعض منهم إلى المناطق الجبلية"[1].

وقال الدكتور سامى سعيد الأسعد:

"أسماءُ كثير من المدن السومرية لم تكن بأسماء سومرية، بل سوبارية (الفراتيون الأوائل)، أمثال مدن: أُور، أَريدو، أُوروك، سِپار، لارْسا، لَگَش، وما إلى ذلك، وإذا ما تصفّحنا الكثير من الكلمات السومرية نرى أن منها ما قد يكون كلمات سوبارية"[2].

وذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أن أغلب المناطق الشمالية لميزوپوتاميا عُرفت فى المصطلحات البابلية بـــ (سوبارتو)، وأن سكانها غير الساميين وغير الهندو أوربيين- سواء أكانوا من الگوتيين واللوللو وغيرهم- شملهم اصطلاح (سوباريين)، ومن ثَمّ فإن (سوبارتو) اسم جغرافى يعنى (الشماليين) أو (سكان المناطق العليا)، وليس اسماً لقوم، وأطلق الفرس على تلك المنطقة اسم (كُوهِسْتان)، ودخل المصادر العربية باسم (قُوهِسْتان)، وعُرّب إلى (إقليم الجبال) و(بلاد الجبل)[3].

واستعرض الدكتور جمال رشيد أحمد المعلومات التى ذكرها المؤرخون بشأن مواطن قوم سوبارتو، وقال موضّحاً:

"بناء على هذه الأقوال، فإن الأراضى الكوردية الحالية، فيما بين بحيرة وان فى الشمال، والحَسَكَة فى الجنوب، سُمّيت فى النصوص المسمارية السومرية والأكّادية ببلاد سو وكوردا التى شملت مقاطعة كوردا (قَرْدَى)، وهذه المصادر تشير إلى ارتباط المقاطعات الشمالية لسوريا مع سوبارتو التى شكّلت المركز"[4].

---

١ – عامر سليمان وأحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٤٣.

٢ – سامى سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضارى، ص ٤٧.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٢٩/١ – ٤٣٧. سامى سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضارى، ص ٤. محمد بَيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٤٢، ٢٢٦.

٤ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٣٣/١.

ونخلص مما سبق إلى أن السوباريين هم من أقوام زاغروس القدماء، وأن المنطقة التى سكنوها- سواء حينما كانت أكثر أم أقل اتساعاً- هى المنطقة ذاتها التى كان أسلاف الكورد قد استقروا فيها منذ العصور الحجرية، وأن ثمة صلة وثيقة بين السوباريين والسومريين، وهذا دليل على وجود علاقة إثنية وثقافية بين السومريين والزاغروسيين من أسلاف الكورد.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن السوباريين أقاموا مملكة قوية فى الشمال، اشتملت ضمناً على المناطق التى سمّيت بعدئذ (بلاد آشور)، ومن بين ملوكها إيلو- شوما، وكان معاصراً لمؤسس أسرة بابل الأولى سومو- آبوم Sumu- Abum (١٨٩٤ – ١٨٨١ ق.م)[١].

ونفى الدكتور جمال رشيد أحمد أن يكون ثمة قوم باسم (سوبارى)، وقال:

"ومهما يكن، فإن أغلب المناطق الشمالية لوادى الرافدين عُرفت فى المصطلحات البابلية بسوبارتو. ومختلفُ السكان من غير الساميين- سواء كانوا من الخوريين (الحوريين) أو اللوللو أو من غيرهم- شملهم اصطلاح (سوباريين) الذى كان يعنى فى الوقت نفسه (الشماليين) أو (سكان المناطق العليا). وبكلمة أخرى: فإن التفتيش عن قوم معيّن باسم سوبارى هو جهد عقيم؛ لأنه كان يعنى موقعاً جغرافياً واسع الأرجاء لا غير. أما التأكيد على العلاقات الإثنية فيمكن أن يكون من خلال المسمّيات الأخرى. واليوم يمكن تمييز سكان سوبارتو من الخوريين واللوللوبيين والگوتيين الذين أصبح أحفادهم يُعرَفون عند الإيرانيين بأهل كُوهِسْتان (سكان ميديا)؛ الاصطلاح الجغرافى الذى ترجمه العرب فى بداية العصر الإسلامى إلى (بلاد الجبل)"[٢].

وأكد الدكتور جمال رشيد أحمد رأيه هذا قائلاً:

"عنى سكان وادى الرافدين القدماء من مفهوم سوبارتو كل المناطق الشمالية الشرقية التى احتوت مقاطعة پاراهْشى، وأورگيش، ونَوار، وگوتيوم، وزاموا، وسيمورروم، وأوربيللوم، وحتى آشور، وأطلقوا عليها أحياناً اصطلاح Alim- Hurra-ki (أرض خورّا العالى)، ... ومهما يكن فإن بروز جذور أسماء الأعلام السوبارية لا يدل على وجود عنصر إثنى باسم سوبارى، وأن الدلائل الجغرافية التى ظهرت فى المكتشفات الأثرية تقدّم

---

١ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٨١. محمد بَيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٢١٨.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٣٦/١ – ٤٣٧.

لنا حقيقة واضحة مفادها أن سوبارتو، بنظر البابليين كانت أرضاً واسعة الأرجاء تبدأ من حدود عيلام إلى جبال أمانوس شمال غرب سوريا"[1].

وختم الدكتور جمال رشيد أحمد رأيه فى هذا الموضوع قائلاً:

"وفى نفس الوقت، فإن اصطلاح (سوبارتو) أصبح يعنى تدريجياً عند السومريين والأكّاديين جهة (الشمال) التى كانت تسكنها مجموعات إثنية متنوّعة، وكان أغلب هذه المجموعات غير سامية وغير هندية آرية، تكلموا بلغات محلية غريبة، لم يكن يفهمها سكان المناطق السفلى من وادى الرافدين، وبسبب غارات وغزوات الملوك السومريين والأكّاديين نحو المناطق الشمالية لبلادهم، واتساع معلوماتهم الجغرافية عن تضاريسها وطبيعة سكانها، تغيّر معنى سوبارتو على ما يبدو منذ العصر الأكّادى المبكّر، فسمّاها نارام سين (كَلام سوبور) Kalam Subur، أو سوبارتيم Su-bar- tim"[2].

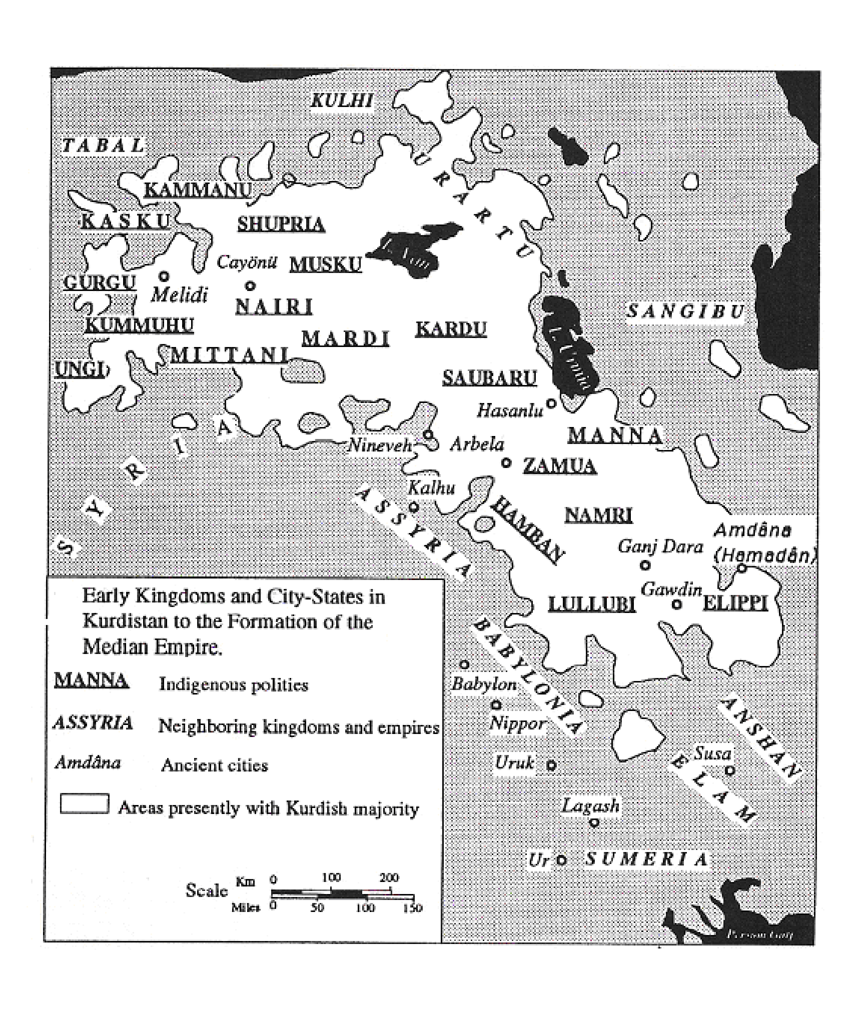
كما أن ما لفت انتباه الملك الأكّادى نارام سين هو وجود خيول متميّزة فى سوبارتو، وسمّاها (حمير سوبور) Ensi Subur ki، وهذا يدل على أن الخيول وصلت إلى بلاد سوبارتو مع قدوم الآريين إليها، منذ النصف الثانى من الألف الثالث ق.م، فى حين كانت تُعتبَر حيواناً غريباً عن الأكّاديين والسومريين. ويتضح من خلال المعلومات الواردة فى سجلات ملوك أكّاد أخبار سعة بلاد سوبارتو وغناها، وكانت تصل الأناضول وسوريا فى وقت مبكّر من تاريخ غربى آسيا[3].

---

١ - المرجع السابق، ١/٤٤١ – ٤٤٢.

٢ - المرجع السابق، ١/٤٤٣ – ٤٤٥.

٣ - المرجع السابق، ١/٤٤٥.


KULHI
TABAL
URARTU
KAMMANU
KASKU
SHUPRIA
Cayönü
MUSKU
GURGU
Melidi
NAIRI
SANGIBU
KUMMUHU
MARDI
KARDU
UNGI
MITTANI
SAUBARU
Hasanlu
MANNA
SYRIA
Nineveh
Arbela
ZAMUA
Kalhu
ASSYRIA
HAMBAN
NAMRI
Ganj Dara
Amdâna (Hamadân)
Gawdin
LULLUBI
ELIPPI
BABYLONIA
Babylon
Nippor
ANSHAN
Susa
Uruk
ELAM
Lagash
Ur
SUMERIA
Early Kingdoms and City-States in Kurdistan to the Formation of the Median Empire.
MANNA Indigenous polities
ASSYRIA Neighboring kingdoms and empires
Amdâna Ancient cities
Areas presently with Kurdish majority
Scale Km 0 100 200
Miles 0 50 100 150

الفصل الثاني

الجيل الثاني من أسلاف الكورد

١

الانتشار الآرى فى غربى آسيا

جغرافيا التكوين الآري

لم تكن الأرض فى العصور القديمة كما هى الآن، إنها مرت بأدوار مناخية سُمّيت (العصور الجليدية)، فكان المناخ الجليدى يبدأ بالظهور، ثم يتنامى ويهيمن على المكان، ثم يبدأ الدفء بالظهور ويزداد تدريجياً، وينحسر المناخ الجليدى نحو الشمال والجنوب، وفى كل عصر جليدى كانت الكائنات الحية مضطرة إلى التأقلم مع التبدلات المناخية للاستمرار فى البقاء. وإضافة إلى التحولات المناخية الدورية كانت الأزمات الطارئة، والزلازل والبراكين والأوبئة والتصحّر، تجبر البشر على الهجرة، والهروب من المكان الطارد، واللجوء إلى المكان الواعد، للتمكن من البقاء.

تلك كانت الحقيقة فى العصور القديمة جداً، وفى البداية كان البشر يعيشون على شكل جماعات محدودة العدد، لكن بعد آلاف السنين تكاثروا، وأصبحوا يشكّلون مجموعات عرقية كبرى. وقد قسّم المؤرخون الشعوب إلى مجموعات أهمها: الشعوب الآريّة (الهندو- أوربيّة)، والشعوب الساميّة، والشعوب الحاميّة، والشعوب الأورال ألطائيّة، وشعوب جنوب شرقى آسيا، وشعب الإسكيمو، وذكروا أن الشعوب الآريّة تضم الأوربيين والأمريكيين، والسلاف، والأرمن، والفرس، والكورد، وآخرين، وذكر جيمس هنرى برستد، أن مصطلح (الآريين) يُطلَق على الفرع الشرقى من الشعوب الهندو-أوربية، وهم: الأرمن، والفرس، والميد، والبُلوش والباشْتو، وغيرهم ممن استقر فى أفغانستان وشمالى الهند. أما الأوربيون والأمريكيون فهم من الفرع الغربى؛ أى أن الآريين هم أبناء عمومة الأوربيين، وليسوا أجدادهم[١].

---

١ – جيمس هنرى برستد: انتصار الحضارة، ص ٢٤٥ – ٢٤٦.



وكلمة (آرى) فى اللغة السنسكريتية تعنى (أشراف)، وتسمّى جغرافيا التكوين الآريانية باسم (آريانا فيجو)، ومعناه (الوطن الآرى)، ويفيد معظم المؤرخين أن مهد الشعوب الآرية (الهندو أوربية) The Indo- Euroean كان يقع فى وسط آسيا، وتحديداً شرقى بحر قَزْوِين،

وذكر ول ديورانت أن (زَنْد أَفِسْتا)، وهو الكتاب الزردشتى المقدس، يأتى على ذكر هذا الموطن القديم، "**ويصفه بأنه جنّة من الجِنان**"[1]. فهناک تحدّ جبال تيان شان وجبال ألتاى أقاليم الإستبس من ناحية الشرق، وتفصلها عن الهضبة المغولية الممتدة شرقاً، وكانت تلک الجبال حاجزاً طبيعياً بين بيئتين وحضارتين مختلفتين اختلافاً كبيراً: بيئة وحضارة توران شرقاً، وبيئة وحضارة آريان غرباً.

وقد اكتشف الأمير الروسى پيير كروپوتكين Pierre Kropotkine فى سهول وسط آسيا غابات واسعة يابسة، واستدل منها على أن تلک المنطقة عانت من أزمة مناخية حادّة خلال الألف الثالث ق.م؛ أى أن المكان أصبح معادياً وطارداً، ولم يعد يتيح لسكانه إمكانية البقاء على النحو الأفضل، وطبعاً كان الحل هو الانزياح من (المكان الطارد)، والانتقال إلى (المكان الواعد)، فتوجّه بعض الآريين جنوباً نحو شمالى شبه القارة الهندية، وتوجّه آخرون نحو غربى آسيا، وتوجّه فريق ثالث شمالاً وغرباً نحو أوربا الشرقية فالغربية.

وكانت التضاريس الغالبة على جغرافيا التكوين الآريانى (الهندو أوربى) جبلية أو سفحية، وكانت أحياناً أراضى منخفضة متاخمة للمرتفعات، تحظى بالريّ الكافى والمراعى الكثيرة، وأدّى ذلک إلى وجود اقتصاد قائم على منتجات الألبان وزراعة الحبوب، ويمكن تسمية حضارة بلاد آريان باسم (حضارة الماشية)[2].

وقال بونغارد- ليفين فى وصف مهد الآريين:

"**يجرى رسم إيكولوجيا موطن الأجداد الهندو أوربى؛ بموجب المفردات الهندو أوربية السلفية التى رمّمها اللغويون؛ والخاصة بالتضاريس والمناخ وعالم النبات والحيوان، وتصف معطيات علم اللغة الخاصة بالبيئة الإيكولوجية لموطن الأجداد الهندو أوربى هذا الموطن بأنه بلد ذو تضاريس جبلية، وشبكةٍ متشعّبة من الأنهار، وطقسٍ معتدل، وتشابکٍ نباتى مدهش، مما لازم المناطق الجنوبية والمعتدلة**"[3].

وأضاف بونغارد- ليفين يقول:

---

١ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٣٩٩.

٢ - رالف لنتون: شجرة الحضارة، ٢/١٦٢. بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٢٧٣.

٣ - بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٢٧٣.

"إن التضاريس الجبلية لموطن الأجداد الهندوأوربى أمرٌ أكّده عدّة باحثين، وبعد ظهور دراسات غامكريليدزه وإيڤانوف لم يعد يثير الشك، فإن القائمة التى وضعاها للمفردات الهندو أوربية السلفية تقنعنا بأن الهندو أوربيين كانوا يقيمون فى مناطق جبلية أو سفحية (قمة الجبل)، جبل، صخرة، حجرة، (جبل، هضبة)، (عال)، (بلوط)، (صخرة)، (بلوط جبلى)، (ريح شمالية جبلية)"[1].

أما السهوب المغولية فكانت أكثر جفافاً، وفيها مناطق واسعة جدباء مثل صحراء جوبى Gobi، وكانت فى الوقت ذاته كافية لرعى الأغنام والجمال والخيول. ولما كان الجواد أهم تلك الحيوانات شأناً فى الاقتصاد المحلى، ففى استطاعتنا أن نطلق على حضارة هذه المنطقة اسم (حضارة الخيل)، وكانت الصراعات تنشب بين الأقوام الآرية والأقوام التورانية (المغولية)، ويبدو أن الآريين اكتسبوا طريقة استخدام الخيل فى الركوب والحرب من التورانيين[2].

خصائص حضارية آرية

لقد فصّل ول ديورانت القول فى الحديث عن الآريين الذين هاجروا إلى شمالى الهند، وما ذكره عنهم يفيدنا فى معرفة أحوال الآريين بشكل عام، وقد أفاد أن الآريين كانوا ذوى أجسام قوية، وشهيّة عارمة للطعام والشراب، وذوى بأس ومهارة وشجاعة فى الحروب، وكانوا يحاربون بالقِسِىّ والسهام، يقودهم مقاتلون مدرَّعون فى عربات حربية، أدواتهم فى القتال هى الفؤوس إن كانوا على مقربة من العدو، والحراب يقذفون بها إن كانوا على مَبْعدة منه، وكانوا من الأخلاق البدائية على درجة لا تسمح بالنفاق.

وذكر ول ديورانت أيضاً أن الآريين الذين غزوا شمالى الهند تحوّلوا من ممارسة الحرب إلى زراعة الأرض والاستقرار فيها، وشكّلت قبائلهم بالتدريج دويلات، يحكم كلاً منها ملك يقيّده مجلس من المقاتلين، وكلٌّ قبيلة يقودها (راجا)، أو رئيس يحدّد قوته مجلس قبلى، وكلٌّ

---

١ - المرجع السابق نفسه.

٢ - رالف لنتون: شجرة الحضارة، ١٦٢/٢. هـــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٠٩/٢.

قبيلة تتألف من جماعات قروية مستقلٌّ بعضُها عن بعض استقلالاً نسبيّاً، ويحكم الجماعةَ القروية مجلسٌ من رؤوس العائلات، ويُروى عن بوذا أنه قال لصاحبه المقرَّب جداً (أناندا):

"هل سمعت– يا أناندا– أن الفاجيين يجتمعون عادة ليتشاوروا فى الأمر قبل الحسم فيه، وأهم يرتادون الاجتماعات العامة التى تعقدها قبائلهم؟ فما دام الفاجيون– يا أناندا– يجتمعون هكذا عادة، ويرتادون الاجتماعات العامة التى تعقدها قبائلهم، فتوقّعْ منهم ألاّ يصيبهم انحلال، بل يصيبهم النجاح"[1].

وكان البناء الاجتماعى عند الآريين (الهندوأوربيين) يقوم على التمييز والتدرج بين الوظائف الثلاث: الكهّان، والمحاربون، والمنتجون (الرعاة)، وكان نظامهم الاجتماعى قَبَلى الطابع، شأهم فى ذلك شأن معظم المجتمعات القديمة، وقال رالف لِنْتون بشأن النظام القَبَلى الآرى:

"أمّا رئيس القبيلة الآرية فلم يكن إلاّ زعيمَ أغنى وأهمّ عائلة فى القبيلة، وكان بيت زعيم القبيلة، كبيت أىّ رئيس عائلة، فيما عدا أن بيته كان أكبر حجماً، وفيه عدد أكبر من الأتباع المتطوعين، وكان الكثيرون من هؤلاء الأتباع من بين الأقارب البعيدين للزعيم، ولكن كثرة عدد الرجال كانت على درجة كبيرة من الأهمية"[2].

وقد قال الدكتور فيليب حِتّى وزميلاه متحدّثين عن تدجين الخيل:

"ويرجع الفضل فى تدجينها إلى الشعوب الآرية، فقد كان منهم فى الأزمان القديمة رعاة من القبائل الهندية– الأوربية يتنقلون فى الأراضى الواقعة إلى الشرق من بحر قَزْوِين، وكانوا أول من دجّن الخيل، ثم استوردها بعد ذلك الكاشّيون والحثّيون على نطاق واسع، وانتقل هذا الحيوان بواسطتهم إلى آسيا الغربية قبل الميلاد بنحو ألفى عام، ثم أُدخل قبل العصر المسيحى من سورية إلى الجزيرة العربية، ... ونقل الهكسوس (الرعاة) الحصان من سورية إلى مصر، ونقله الليديون من آسيا الصغرى إلى اليونان"[3].

لكن للمؤرخ هـــ. ج. ولز رأى آخر، فقد ذكر أن مغول العصر الحجرى الحديث كانوا شعباً من الفرسان راكبى الخيل، فى حين كان آريو العصر الحجرى الحديث يستخدمون

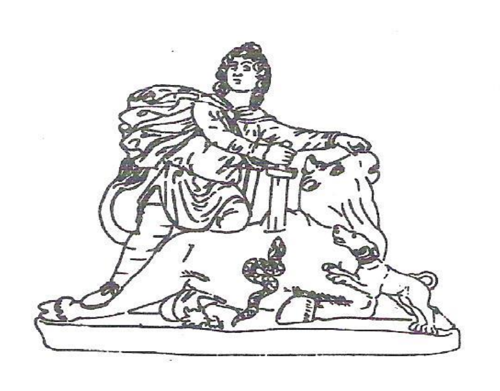
---

١ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢١/٣.

٢ – رالف لنتون: شجرة الحضارة، ص ١٥٤. وانظر صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٣٠٤.

٣ – فيليب حتّى وآخران: تاريخ العرب، ص ٤٧ – ٤٨.

البقر[1]. وهذا يعنى أن الشعوب التورانية عامة- ومنهم المغول- كانت سبّاقة إلى تدجين الخيل، وقد فعلت عوامل الجوار والصراع على الجغرافيا فعلها بين الآريين والتورانيين، فأخذ الآريون عن التورانيين تدجين الخيل، وحينما انتشروا نحو أوربا وغربى آسيا، نقلوا معهم الخيول إلى البلاد التى حلّوا فيها، واستخدموها فى الحروب.







مجموعة من تماثيل الإله ميثرا في القرن الرابع الميلادي

---

١ - هـــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣١١/٢.

وفى جغرافيا التكوين (آريانا فيجو) نشأت اللغة الآرية المشتركة، وظهر طابعها الهندوإيرانى منذ عام (١٨٠٠ ق.م)، وهذا واضح فى كلمات مشتركة كثيرة، منها الكلمة الكاشّية شورياش (سورياس الهندية) تعبيراً عن الشمس، فضلاً عن عدد من أسماء الأعلام فى الأناضول ترجع إلى ما يقرب من ذلك الزمان، ثم ظهرت بعد أربعة قرون (حوالى ١٤٠٠ ق.م) أسماء آلهة هى مِيثرا، وڤارونا، وإنْدرا، وناسايتا[١].

وفى عام (١٧٨٦ م) أشار الحقوقى والمستشرق الإنجليزى جونس، فى تقرير ألقاه فى الجمعية الآسيوية فى كُلْكُتا بالهند، إلى الصلة بين السنسكريتية واليونانية واللاتينية والسلتية والغوطية (القوطية) والفارسية القديمة، كما أشار إلى التوافق المنتظم بين الكثير من المؤشرات النحوية فى هذه اللغات. وإن التشابه بين الصيغ النحوية فضلاً عن الجذور والأصول يدل بلا شك على أن كل هذه اللغات تعود إلى مصدر مشترك ربما لم يعد موجوداً[٢].

وكذلك فى جغرافيا التكوين نشأت عقائد الشعوب الآرية بصيغها الميثولوجية المتنوعة، ومن المظاهر البارزة فى ديانة الآريين أنه لم يكن فى تلك الديانة آلهة من الحيوانات أو شياطين على صورة الحيوانات؛ وكانوا يتصوّرون كائنات مثل (روح الثور) Ox Spirit فى بلاد فارس القديمة، على الأرجح، فى شكل غير حيوانى[٣].

وكانت الشعوب الآرية تحرق موتاها، وهى عادة لا يزالون يراعونها فى الهند، غير أن أسلاف الآريين، أصحاب القبور المستطيلة، كانوا يدفنون موتاهم راقدين على جنوبهم فى هيئة الجالسين. وبإحراق جثث الموتى كان الآريون يعتقدون أن ذلك يحطم الروابط التى تربط الموتى بالأرض تحطيماً كاملاً، وتحول دون رجوع الأشباح، وكما هو متوقَّع فى مثل هذه الظروف فإنهم لم يعرفوا عبادة الأجداد، ويبدو أن جميع الآريين كانوا يعتقدون وجود القضاء والقدر، ويرون فيه شيئاً غير مجسَّد، يفوق كلاً من الآلهة والبشر، ولا يمكن أبداً أن يتأثر

---

١ – صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٩٣.

٢ – بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٢٥٠.

٣ – رالف لنتون: شجرة الحضارة، ص ١٥٨.

بتلاوة الصلوات أو بتقديم القرابين أو حتى بالسحر، وظلّ كثير من العقائد الآرية باقياً فى الزردشتية[1].

التنافس الآري – السامي

لم تكن الأقوام الآرية فى استقرار دائم، إنها كانت تغيّر مواطنها باستمرار، وتخوض صراعات على محورين: محور داخلى فيما بينهم، بسبب ازدياد أعدادهم، وتصارعهم على الموارد. ومحور خارجى يتمثل فى صراعهم الطويل مع الأقوام التورانية الطامعة فى التمدد نحو الغرب.

ومنذ الألف الثالث ق.م، ونتيجةً للصراعات على ذَيْنك المحورين، وربما لأسباب مُناخية أيضاً، انتشرت الأقوام الآرية جنوباً باتجاه شبه القارة الهندية، كما أسلفنا، وشهد القرن الثامن عشر ق.م هجرات آرية واسعة باتجاه الغرب، فاستقر الخاتيون (الحثيون) فى آسيا الصغرى، والحوريون (الخوريون) فى المناطق الشمالية الغربية من نهر الفرات، والكاشّيون (الكاسّيون) فى مرتفعات بلاد النهرين، ودار بعضهم حول البحر الأسود، أو عَبَروا مضيقَيْ البُوسفور والدَّرْدَنيل، ووصلوا إلى البَلْقان، ونزل بعضهم فى مناطق من سوريا وفلسطين، وامتزجوا بأهلها، ثم اتخذوا طريقهم غرباً، واحتلوا مصر، وعُرف هؤلاء باسم (هِكْسُوس)[2].

وفى عهود القنص والرعى كانت السهوب وسفوح الجبال هى (الجغرافيا) الفضلى لممارسة مشروع البقاء، لكن مع تزايد السكان، واكتشاف إمكانية إنبات البذور للحصول على الغذاء، انتقلت البشرية إلى العهد الزراعى، وأصبحت السهول وأحواض الأنهار هى الأمكنة الصديقة الواعدة، ولذا أصبحت سهول جنوبى ميزوپوتاميا (جنوبى العراق حالياً)- وهى متاخمة شرقاً

---

١ – هـــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣١٢/٢. رالف لنتون: شجرة الحضارة، ص ١٥٨.

٢ – هـــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٠٨/٢. محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العراق القـــديم، ص ٢٩٦. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢٣٣/٢– ٣٤. أحمد فخرى: دراسات فـــى تـــاريخ الشـــرق القديم، ص ٢٠٨.

لسفوح جبال زاغروس، ومتاخمة غرباً وجنوباً لبلاد العرب- المكانَ الذى يستقطب الشعوب الجبلية والصحراوية التى كانت تقيم على تخومها.

وكان السومريون أقدم شعب جبلى الأصل ترك بصماته فى معالم غربى آسيا، وقد انحدروا من جبال زاغروس فى الشمال، بحثاً عن الغذاء الأوفر، ربما بسبب التكاثر، أو هرباً من ضغط جماعات بشرية أخرى قادمة من الشرق أو من الشمال، واستوطنوا سهول ميزوپوتاميا (بلاد الرافدين)، حيث التربة الخصبة والمياه الوافرة، وأقاموا دول- مدن فى الفترة (٢٨٠٠ – ٢٣٧٠ ق.م).

وفى الجنوب الغربى من ميزوپوتاميا كانت القبائل البدوية الساميّة تجوب برارى شبه الجزيرة التى عُرفت بعدئذ باسم شبه الجزيرة العربية، وكانت تلك البرارى تلبّى حاجات المعدة حينما كانت تحظى بنسبة معقولة من الأمطار، وبغطاء نباتى مناسب لتربية الحيوانات، لكن تراجع نسبة الأمطار رويداً رويداً أدّى إلى تراجع الغطاء النباتى، وتحولت تلك المساحات الشاسعة إلى (جغرافيا الجوع)، ومعروف أن الجوع وانعدام الأمن رفيقا درب طوال عهود التاريخ، وكذلك كانا فى شبه الجزيرة العربية، وخاصة مع تكاثر السكان وقلّة الموارد.

وكان من الطبيعى أن تولّى بعض القبائل الساميّة وجهها نحو (جغرافيا الشِّبَع) على التخوم الشمالية الشرقية من بلادها؛ نقصد ميزوپوتاميا، وكان الأكّاديون هم الطليعة السامية التى بدأت الزحف، وكان ذلك قبل لا أقل من (٢٥٠٠) عام قبل الميلاد، واستقرت القبائل الأكّادية بدايةً فى غربى نهر الفرات، بجوار المناطق التابعة لدول المدن السومرية فى أَرِيدو ونِيپُور وأُور وغيرها، وتعلمت من السومريين كيف تنظم نفسها، وتنتقل من نظام القبيلة إلى نظام الدولة، ثم ما لبثت أن توحّدت تحت قيادة سرجون الأول، وخاضت الصراع ضد دول المدن السومرية، وسيطرت عليها، وأسست أول دولة سامية فى بلاد الرافدين، هى الدولة الأكّادية بين (٢٣٧٠- ٢٢٣٠ ق.م)، بل امتد النفوذ الأكّادى أحياناً إلى عيلام أيضاً[١].

لكن أقوام جبال زاغروس وأطرافها أعادوا الكرّة على جنوبى ميزوپوتاميا، وكان شعب غوتى (گوتى، جودى) هو الرائد هذه المرة، وسيطر الگوتيون على سومر وأكّاد حوالى قرن من الزمان (٢٢٣٠ – ٢١٢٠ ق.م)، كما مر القول، ثم انسحبوا إلى جبالهم ثانية، تحت ضغط

١ – رينيه لابات وآخرون: سلسلة الأساطير السورية، ص ١٤.

قوة أكّادية سومرية جديدة، قادها أُور– نامّو Ur- Nammu السومرى (٢١١٢ – ٢٠٩٥ ق.م)، مؤسساً سلالة أور الثالثة (٢١١٢ – ٢٠٠٤ ق.م)[١].

وقد انضمّت الأقوام الآرية القادمة من الشرق إلى أقوام جبال زاغروس، واستقرت فى غربى الهضبة الآريانية وجنوبها الغربى، وظهرت أخبــارها فى عهود متواكبة تارة، وفى أزمنـــة متلاحقة أحيـــاناً، وكان ذلك مرهوناً بالمرحلة التاريخـــية التى كان يلمع فيها اسم كل فرع سياسياً، فتشير إليه المدوَّنات السومرية أو الأكّادية أو البابلية أو الآشورية أو الحِثّية أو المصرية، وتمازجت الأقوام الآرية والزاغروسية عبر القرون فى الجغرافيا التى عُرفت بعدئذ باسم (كوردستان)، وتوحّدت سياسياً وحضارياً تحت راية أقوام رأينا أن نسمّيهم (زاغروس– آريين)، وأقام أولئك الأقوام ممالك، كانت القيادة فيها للعناصر الآرية، وأبرز أولئك الأقوام هم: كاشّو (كاسّو/كاسيت)، وحُورى (مِيتّانى) Mittani وخَلْدى (أورارتو/نايرى)، ومننايى وميدى. ونستعرض فيما يلى تواريخهم.

١ – سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، ص ٩٦. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العـــالم، ١/٥٥. دياكونوف: ميديا، ص ١١٠، ١١٧ – ١١٨.

٢

الكاشّيون Kashshu

الهوية والجغرافيا

كاشّو Kashshu (كاشّى، كيشّى، كوشّو) قوم جبليون، يسمّون كاسّو Kassu (كاسّى، كاسّاى، كوسّو)، ويسمّون أيضاً كاسّيت Kassites، ويدعوهم اليونانيون (كاسّيوى) Kassaioi، ويُنسب اسمهم إلى إلههم (كاش/كاشّو)، ويعنى (السيّد)، وقد يكون لهذا الاسم علاقة باسم (كاش) الذى يطلقه الكورد على الجبال المرتفعة الوعرة، ومعروف أن معظم أسماء مظاهر الطبيعة فى الثقافة الكوردية تعود إلى الجذور الزاغروسية والآرية العريقة، وإذا صحّ ذلك فمن الممكن أن اسم الإله (كاش) يعنى إله الأراضى المرتفعة (إله الجبال).

وقد جاء اسم الكاشّيين بصيغة (كاسّو) أول مرة فى النصوص العيلامية فى نهاية الألف الثالث ق.م، منتهية باللاحقة الأكادية (– وُ/ u)، وظهر هذا الاسم فى سجلاّت أرّابْخا (منطقة كركوك حالياً) بصيغة (كوشّو– خاى)، وجاء اسمهم بصيغة (كُوش) فى التوراة، ولا ريب فى أنها مقتبسة من الكتابات البابلية (كاشّو) التى ظلّت مستعملة حتى العصر الهيلليني Hellênes (٤٣١ ق.م – ٣١ ق.م)[١].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٨١/١.

ولا يوجد اتفاق بين المؤرخين على أصل الكاشّيين، فهناك من يردّهم إلى المرتفعات الشرقية، وينسب اسمهم إلى معبودهم (كاشّو)، ويربط بينهم وبين جماعات متأخرة عنهم فى الزمن ذكرهم الجغرافى بَطْلَيموس باسم (Kossaens)، وذكرهم غيره باسم (Kissians)، ويرجّح بعض المؤرخين أنهم من منطقة لُورِستان الجبلية. ويرى آخرون أن الكاشّيين من العناصر الزاغروسية، امتزجوا، فى النصف الأول من الألف الثانى ق.م، بالعناصر الآرية (الهندو- أوربية)، وربما اكتسب الكاشّيون اسمهم من إقليم فى شمالى عِيلام يدعى (كاش شن)، ويرجّح البعض أنهم آريون، وربما كانوا من أقرباء الميتّانيين الذين حكموا فيما بعد، وفرضوا أنفسهم وثقافتهم على العناصر غير الآرية فى سُوبارْتو شمالى بلاد النهرين[1].

وبشأن أصل الكاشّيين قال الباحث الأرمنى أرشاك سافراستيان:

"تختلف آراء الباحثين قليلاً فيما يتعلق بهوية الكاسّيت (كاشّو)، ويبدو أنهم كانوا من الشعوب الجبلية ذاتها، كالقبائل الكوردية فى لُورِستان بجنوب غربى بلاد فارس، فى سلسلة زاغروس. أما اسمهم (كاشّو) الوارد فى الكتابة المسمارية فربما يكون باقياً فى اسم إقليم خُوزسْتان الفارسى؛ إنهم كانوا من الشعوب الهندو أوربية، وهم مقاربون جغرافياً وإثنولوجياً لشعب گوتيوم"[2].

وهكذا فالخلاف قائم بشأن الأصل الدقيق للكاشّيين، وقد ساد الاعتقاد مدة من الزمن بأنهم هندو أوربيون، وأن حضارتهم مستقاة من الحضارة الهندو أوربية، وأنهم انحدروا من السهوب الواقعة بين بحر قَزْوِين وبحر آرال، واتجهت نحو الغرب، وضغطت على مراكز الحضارة فيه كالأقوام الحورية والحثّية، لكن ثمة آراء أخرى لا تعطى أيّة قيمة للعلاقة بين الكاشّيين والهندو أوربيين.

والأرجح أن الكاشّيين زاغروسيون قدماء، امتزجت بهم أقوام آرية (هندو- أوربية) وافدة من مركز الانتشار الآرى فى أوراسيا (ملتقى أوربا وآسيا)، وأصبحوا فى عهد الملك البابلى حَمْورابى Hammurapet (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م) شعباً واحداً، وكان المهاجرون قد

---

١ – محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٢٩٨. أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٢٠٥

٢ – أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٤١.

تأثروا بحضارة الزاغروسيين الأصليين، واقتبسوا منهم لغتهم وبعض عاداتهم، وكوّنوا طبقة حاكمة بين أقوام زاغروس القاطنين هناك، وأدخلوا على البلاد روحاً حربية جديدة تتمحور حول استخدام الخيول، كما أنهم جلبوا معهم روحاً دينية جديدة تتمحور حول تقديس الشمس[١].

أما بالنسبة إلى جغرافيا الكاشيّين فذكر دياكونوف أنها البلاد الجبلية الباردة، أى القسم الشمالى من عيلام، والذى سُمّى بعدئذ لُورِستان Luristan، وهى المنطقة التى يقع فيها الطريق التجارى الشهير (طريق الحرير)، و هى مشهورة بإنتاج أفضل الخيول فى العالم، وكانوا يعيشون حياة رعوية، ومهنتهم تربية الحيوانات، ويتكلمون لغة شبيهة كثيراً باللغة العيلامية، وأضاف دياكونوف قائلاً:

"ومن المحتمَل جداً أن أقوام اللور الحالية فى المناطق الباردة، مشغولين بتربية الحيوانات والأغنام، ويعيشون عليها، هم بقايا أولئك الكاشّيين"[٢].

وقال جين بوترو وزملاؤه:

"وكما هى الحال مع المهاجرين من الشرق دائماً، فإننا لا نعرف شيئاً عن الموطن الأصلى للكاشّيين، كما أننا لا نتمكّن من تحديد الطريق الذى سلكوه حتى وصلوا إلى وادى الرافدين، ويبدو محتمَلاً أن اسم الإقليم الحالى (خُوزِستان) فى إيران قد يرجع بأصوله إلى الاسم العرقى (كاشّى)، وقد سَمّى الكتّاب الإغريق إحدى القبائل الجبلية الإيرانية باسم (كسّايوى) kassaioi، أى كوسّيين Casseans، ومن هنا يظهر أن قسماً من الأقوام الكاشّية ظل فى إيران"[٣].

وجملة القول أن ثمة شبه اتفاق بين المؤرخين على أن مواطن الكاشّيين كانت تقع فى شرقى بابل وشمالها الشرقى، وكانت مواطنهم تمتد حتى الضفة الشرقية لنهر دجلة، ويبدو أنه

---

١ – أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٢٠٥ – ٢٠٦.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ١٢٤ – ١٢٥. وانظر محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العراق القـــديم، ص ٢٩٨. عامر سليمان وأحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٣. أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٢٠٥.

٣ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٢١١ – ٢١٢.

عند نزولهم إلى سهول ميزوپوتاميا، خلال الألف الثانية ق.م، إنما كانوا ينطلقون من سلسلة زاغروس الوسطى، والمعروفة باسم (لُورِسْتان) Luristan إلى الجنوب من هَمَذان مباشرة، ومن ثَمّ فهى محطة أقاموا فيها حيناً من الدهر، ومدّوا سلطانهم على أجزاء أخرى من المناطق المجاورة، وفى وقت من الأوقات اتخذوا المدينة التى عُرفت بعدئذ باسم (أَگباتانا) عاصمة لهم، ومكانها الآن على الأرجح مدينة هَمَذان.

ولم يترك المؤرخ الأرمنى أرشاک سافراستيان مجالاً للشک فى العلاقة الوثيقة بين الكاشّيين والكورد، وأن الكاشّيين هم أسلاف الكورد، فقال بعد حديثه عن الملک الكاشّى غانداش gandash الذى سمّى نفسه "**ملک الممالک الأربع**".

"وإن ملكاً كاشّياً آخر، هو آغوم الثانى Agum، سمّى نفسه (ملک أرض گوتى)، بالإضافة إلى بلدان أخرى، وهذا يعنى أن مملكة الكاشّيين كانت قد أُخضعت مملكة گوتيوم القديمة، وهذا ما كان يحدث مراراً خلال التاريخ الطويل للشعب الكوردى، إن قبيلة عظيمة كانت تحكم القبائل الأخرى كلما سنحت الفرصة، وتفرض سيادتها على كل الشعب"[١].

الكاشّيون في بابل

ثبت طوال التاريخ أن مراكز الحضارة والمدنية تقوم فى السهول وعلى ضفاف الأنهار، أكثر من قيامها فى الجغرافيا الجبلية والصحراوية، وثبت أيضاً أن تلك المراكز تصبح- بما تتوافر فيها من ثروات متنوعة ومرافق العيش الهانئ- مطمعاً للأقوام البدوية الرعوية سواء أكانوا جبليين أم صحراويين. وسهول ميزوپوتاميا أبرز دليل على ذلک، فقد مر أن السومريين أقاموا فى جنوبيّها مراكز الحضارة والتمدّن فى الألف الثالث ق.م، وبعد بضعة قرون صارت بلادهم عُرضة لأطماع البداة الأكّاديين الساميين القادمين من الغرب، وبعدئذ أصبحت سومر وأكّاد نفسها عرضة لأطماع الجبليين الگوتيين القادمين من جبال زاغروس فى الشمال الشرقى.

---

١ - أرشاک سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٤٣.

وقد دأبت العادة على أن جيران ميزوپوتاميا الأقلّ ثروة وتمدّناً- جبليين وصحراويين- كانوا يرتادون مدن ميزوپوتاميا بحثاً عن العمل والعيش بمستوى أفضل من العيش فى أوطانهم، ثم كانت الأمور تتطوّر، وتتضافر عوامل سياسية واقتصادية لأن يشنّ الجيران البداة الحرب على ميزوپوتاميا، ويسيطروا عليها. وقد مرّت سيطرة الكاشّيين على بابل بهذا المسار، ويقول جين بوترو وزملاؤه:

"**وحيثما وجدنا كاشّيين فى النصوص البابلية القديمة، حتى عهد سَمْسُو- دِيتانا Samsu- Ditana، فإنهم عبارة عن عمّال، دخلوا البلاد بسلام، باحثين عن العمل والعيش**"[1].

وقد بدأ أول ظهور كاشّى ضاغط على مملكة بابل منذ عهد الملك البابلى آمى زادوكا (الملك الرابع بعد حَمُورابى)، فقد عقد هذا الملك اتفاقية مع عيلام لصدّ هجمات الكاشّيين، وثمة ذكر للهجمات الكاشّية فى السنة التاسعة عشرة من حكم الملك البابلى سَمْسُو- إيلُونا Samsu – Iluna (١٧٤٩ – ١٧١٢ ق.م)، و سمّاه أرشاك سافراستيان (شامْشو إيلّونا) Shamshu- Illuna، ومن أبرز ملوك الكاشّيين فى تلك الفترة ملك اسمه گانداش (غانداش/جانداش)، حكم بين (١٧٤١ – ١٧٢٦ ق.م)، وأطلق على نفسه لقب "**ملك جهات العالم الأربع**"[2].

وثمة ظاهرة تاريخية مطّردة بالنسبة إلى أسلاف الكورد، هى أنه فى كل مرة يبرز فرع منهم، ويمتلك أسباب القوة، ويبسط نفوذه على الفروع الأخرى المجاورة خاصة، ويصبح فى موقع السيادة على الصعيد السياسى والثقافى، وتصبح الجغرافيا التى تقيم فيها الفروع الأخرى معروفة باسم الفرع صاحب السيادة، وهذا ما حدث عندما برز الفرع الگوتى فى البداية، ثم جاء دور الفرع الكاشّى، ولذا قال دياكونوف فى حديثه عن الملك الكاشّى آگوم الثانى: "**يظهر أن الملك الكاشّى كان يملك حكومة، ويحكم قسماً كبيراً من أرض ماد** (**ميديا**)

---

١ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٢١١.

٢ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٢١١. أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٤١. دياكونوف: ميديا، ص ١٢٧.

المستقبلية"[1]؛ مع الأخذ فى الحسبان أن (أرض ماد) هى معظم الجغرافيا التى استقر فيها أسلاف الكورد، وهى معظم الجغرافيا التى يقيم فيها الكورد حالياً.

ودعونا نقرأ ما كتبه وِلْ دِيُورانْت بشأن الكاشّيين ومملكة بابل، إنه قال:

"**وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال، هى قبيلة الكاشّيين، تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم. فلم يمض على موت حمورابى إلاّ ثمانى سنين حتى اجتاحت رجالها دولته، وعاثوا فى أرضها فساداً يسلبون وينهبون، ثم ارتدّوا عنها، ثم شنّوا عليها الغارة تلو الغارة، واستقروا آخر الأمر فيها فاتحين حاكمين؛ وهذه هى الطريقة التى تنشأ بها عادة طبقة السَّراة** [= العليا] **فى البلاد. ولم يكن هؤلاء الفاتحون من نسل الساميين، ولعلهم كانوا من نسل جماعة المهاجرين الأوربيين، جاؤوا إلى موطنهم الأول فى العصر الحجرى الحديث، ولم تكن غلبتهم على أهل بابل الساميين إلا حركة أخرى من حركات الهجوم والارتداد التى طالما حدثت فى غربى آسيا. وظلت بلاد بابل بعد هذا الغزو عدة قرون مسرحاً للاضطراب العنصرى والفوضى السياسية؛ اللذين وقفا فى سبيل كل تقدم فى العلوم والفنون**"[2].

وقد تغلغل الكاشّيون فى بلاد بابل خلال عهد سلالة بابل الأولى، ولما صدّ ملوك تلك السلالة هجماتهم توجّه الكاشّيون نحو الشمال الغربى، وأقاموا فى منطقة خانا (عانَة حالياً) كياناً سياسياً مستقلاً عن النفوذ البابلى. وحوالى سنة (١٥٩٤ ق.م) أو فى سنة (١٥٣١ ق.م) شنّ الملك الحثّى مورشيلى الأول Mersilis 1 حملة فجائية على بلاد بابل، وأنهى حكم سلالة بابل الأولى، ثم عاد بسرعة إلى عاصمته خاتوسّا (حاتوشّا/بوغاز كُوى) للقضاء على مؤامرة حِيكت ضدّه، تاركاً وراءه فى بابل فراغاً سياسياً، فاستغل الكاشّيون الفرصة،

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ١٢٩.

٢ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ١٩٤/٢ — ١٩٥.

وتحركوا بقيادة ملكهم أگوم (آغوم) الثانى Agum 11 للسيطرة على بابل، وملء ذلك الفراغ، والأرجح أن تحرّكهم كان ذا طابع سياسى، و لم يكن عسكرياً[1].

ويقول الدكتور جمال رشيد أحمد بشأن سيطرة الكاشّيين على بابل:

"لم يترامَ إلينا أىُّ خبر مكتوب عن احتلال كاشّى عسكرى لبابل، وبما أنه لم تصلنا أخبار مدوَّنة من الكاشّيين أنفسهم قبل حكمهم لبلاد بابل، فتعترضنا مشاكل تأريخية تتعلق بأحوالهم السياسية قبل القرن الخامس عشر ق.م، فعلى ما يظهر أن الملوك السبعة الأوائل من السلالة الكاشّية، ابتداء من گانداش Gandash المعاصر لسَمْسُو– إيلونا، قد حكموا فى منطقة الفرات الأوسط خارج بابل، وأن السلالة الكاشّية بدأ حكمها فى بابل ابتداء من الملك آگوم الثانى (آگوم كاكْرِمَى Agum Kakrime)، وهو الذى انتهز فرصة الغزو الحثّى، فأثبت حكمه هناك فى حدود عام (١٥٩٠ ق.م)"[2].

وأحياناً منح ملوك الكاشّيين الأوائل، گانْداش وآگُوم وكاشْتِلْياش Kashtiliashu، أنفسهم لقب "**ملك جهات العالم الأربع، ملك سومر وأكّاد، وملك بابل**"، مع أن حكمهم ما كان قد استقرّ بعدُ، وقد وطّد الملك الكاشّى الثانى عشر أُولام بُورْياش الحكم فى مملكة واحدة، من أقصى الجنوب إلى حدود بلاد آشور شمالاً، واشتهرت تلك المملكة باسم مملكة كارْدُونْياش (بلد الرب دُونْياش) ودُونْياش هو أحد آلهة الكاشّيين. ويمكن القول إن العهد الكاشّى الحقيقى فى بابل بدأ منذ حكم الملك آگُوم الثانى (آگوم كاكْرِيمَى)، وقد وصف نفسه بأنه ملك الكاشّيين والأكّاديين، وملك بلاد بابل الواسعة وأَشْنُوناك، وملك پادان وألمان، وملك گوتيوم، ووصفه الملك الآشورى آشور بانيپال بالفاتح العظيم[3].

وحكم بعد آگوم الثانى تسعة ملوك، ولا يُعرَف ترتيب عهودهم بدقة، ثم حكم الملك بُورْنا بُورْياش الأول، وخَلَفه فى الحكم أُولام بُورْياش فى حدود عام (١٥٠٠ ق.م)، ومن

---

١ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكّرة، ص ١٧٣. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٦. عامر سليمان وأحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٤. محمد بَيُّومى مَهــران: تــاريخ العراق القديم، ص ٣٠٥.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٨٥/١ – ٥٨٦.

٣ – المرجع السابق، ٥٨٦/١ – ٥٨٧.

الإنجازات السياسية البارزة فى عهد هذا الملك أنه قضى على آخر ملوك سلالة القطر البحرى (جنوبى ميزوپوتاميا)، أى سلالة بابل الثانية، وأعاد توحيد ميزوپوتاميا بأكملها[1].

وقد اتخذ الكاشّيون مدينة بابل (على الفرات، ٩٠ كم جنوبى بغداد) عاصمة لهم، ثم أسس الملك كارِيجالْزو (كارِيگالْزو) الثانى (١٣٤٥ – ١٣٢٤ ق.م) عاصمة جديدة اسمها (دُور كاريجالزو)، وتعنى (مدينة أو حِصن كاريجالزو)، وتقع فى مكان عَقَرْقُوف الحالية، على مسافة (٣٢) كم غربى بغداد. وأطلق الكاشّيون على بلاد بابل اسم (كارْدُونْياش)؛ أى (بلد الرب دُونْياش) وهو إله آخر للكاشّيين، ومارس الملوك الكاشّيون سياسة اللين والترضّى تجاه سكان بابل المحليين، وألغوا كثيراً من الضرائب والخدمات المفروضة على السكان.

وفى الوقت نفسه حرص الملوك الكاشّيون على سياسة التعايش السلمى مع البلدان المجاورة، وعدم الدخول فى صدامات مسلّحة قدر المستطاع، وخاصة ضد بلاد آشور المجاورة، وكان لتوازن القوى بين الدولتين الجارتين تأثير كبير فى ذلك، كما أن الكاشّيين أقاموا علاقات وطيدة مع فراعنة مصر وممالك سوريا، فكانت فترة حكمهم فى بلاد الرافدين فترة هدوء نسبى على الرغم من طولها[2].

وأشهر ملوك الكاشّيين هم:

١. گانداش Gandash (غانداش/جانداش)، ويسمى (جانديش) أيضاً Gandish، حكم بين (١٧٤١ – ١٧٢٦ ق.م)، وأطلق على نفسه لقب "ملك جهات العالم الأربع".

٢. آگُوم Agumm (أجُوم) الكبير، حكم بين عامى (١٧٢٥ – ١٧٠٥ ق.م)، ولقبه هو بوكاشوم Bukashum الذى يعنى لقباً قريباً من لقب (دُوق).

---

١ – المرجع السابق، ١/٥٨٧ – ٥٨٨.

٢ – فاضل عبد الواحد وعامر سليمان: عادات وتقاليد الشعوب القديمة، ص ٢٣. محمد بيُّومى مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠٥ – ٣٠٦. سامى سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضارى، ص ٥. عامر سليمان وأحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٧.

٣. كاشْتِيلْياشو Kashtiliashu الأول، حكم بين عامى (١٧٠٥ – ١٦٨٣ ق.م)، ولعله كان من أسرة كاشّية قوية، حتى إنه استطاع أن ينتزع العرش لنفسه.

٤. آوشى، حكم بين عامى (١٦٨٢ – ١٦٧٤ ق.م).

٥. آبى- راناش، حكم بدءاً من حوالى منتصف القرن السابع عشر ق.م.

٦. أُورشى- كُوروماش، حكم فى نهاية القرن السابع عشر ق.م.

٧. آگُوم Agumm (أجُوم) الثانى، وهو أول ملك كاشّى سيطر على كل بلاد بابل.

٨. أُولام – بُورْياش.

٩. آگُوم Agumm (آجُوم) الثالث.

١٠. كاريگالْزو (كاريجالزو) الأول، يُنسَب إليه تأسيس العاصمة الجديدة دُور كاريجالزو (عَقَرْقُوف حالياً).

١١. كَرَنْداش (كاraنداش)، اشتهر بكثرة مبانيه فى المدن البابلية.

١٢. كاداشْمان- خاربى الأول Kadashman- harbe، حكم بين (١٤١٠ – ١٣٨٦ ق.م).

١٣. كاداشْمان – إنليل الأول Kadashman- Enlil (١٣٨٦ – ١٣٦٧ ق.)، بقيت بعض رسائله إلى الفرعون أُمُنْحوتب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م).

١٤. بُورْنا- بُورْياش الثانى (١٣٦٧ – ١٣٤٦ ق.م).

١٥. كاداشْمان – خاربى الثانى (١٣٤٦ - ١٣٤٣ ق.م).

١٦. نازى- بوجاش (بوگاش)، مغتصب للعرش.

١٧. كاريگالزو (كاريجالزو) الثانى، حكم بين (١٣٤٣ – ١٣٢١ ق.م).

١٨. ملك مجهول الاسم، أو أكثر من ملك (١٣٢١ - ١٢٤٢ ق.م).

١٩. كاشْتِيلْياش الرابع (١٢٤٢ – ١٢٣٥ ق.م).

٢٠. كاداشْمان- خاربى الثالث (١٢٤١ – ١٢٣٨ ق.م)، ويسمّى فى بعض المصادر (كاشْتيلياش الرابع)، وقد هزمه الجيش الآشورى فى عهد الملك (تُوكُولْتى – نِينُورْتا) الأول، وأنهى الحكم الكاشى المستقل فى ميزوپوتاميا.

٢١. أَدَد- شُوما- أُوسَر (١٢١٨ – ١١٨٩ ق.م).

٢٢. زابايا – شُوما – أَدِينا، فى عهده احتل العيلاميون بابل، بقيادة ملكهم شُوتْراك ناخُونتَى Shutrauk Nakhunte (١٢٠٧ – ١١٧١ ق.م)، وذبحوه.

٢٣. إنْليل- نادِين- أهى Enlil- Nadin- Ahhe (١١٥٩ – ١١٥٧ ق.م)، آخر ملوك الكاشّيين[١].

العلاقات الكاشّية- الآشورية

كان فى غربى آسيا عدوّتان رئيستان للمملكة الكاشّية، الأولى هى مملكة آشور، والثانية هى مملكة عيلام، ولم تفلح سياسة الكاشّيين السلمية فى الحدّ من أطماع ملوك آشور وعيلام، واستغل هؤلاء كل فرصة للهجوم على بابل، وتهديد السلطة الكاشّية، وكان الآشوريون أكثرهم نشاطاً فى هذا المجال، لأنهم كانوا أقرب إلى بابل جغرافياً، وكان يهمّهم أن يسيطروا على مراكز الحضارة والثروة فى سهول بابل وسومر، ويصلوا إلى مياه الخليج جنوباً.

ورغم النوايا الطيبة التى أبداها الملوك الكاشّيون إزاء مملكة آشور، فإن ملوك آشور كانوا مصرّين على التوسّع على حساب جارتهم المسالمة، وكانوا يخطّطون فى البداية لأن يجعلوا مملكة كاشّو تدور فى فلكهم بشكل غير مباشر، وفى إطار هذه السياسة قام الملك آشور أوبالّيت الأول Assur Uballit 1 (١٣٦٥ – ١٣٣٠ ق.م) بتزويج ابنته من كاداشْمان – خارْبى الثانى ابن الملك الكاشّى بُورْنا بُورْياش الثانى، وبذلك ضَمِن آشور أوبالّيت تحالف مملكة كاشّو معه. لكن هذه الصداقة لم تلق التأييد المطلوب فى البلاط الكاشّى، فوقعت مؤامرة أودت بحياة صهر الملك الآشورى الوارث الشرعى للعرش، ونصب المتآمرون بدلاً منه غاصباً للعرش يدعى نازى- بُوجاش (بُوگاش)، وسرعان ما تدخّل آشور أوبالّيت، وقضى على المتمردين، ونصب كاريكالزو الثانى (١٣٤٥ – ١٣٢٤ ق.م) ملكاً على بابل[٢].

---

١ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى، ص ٢١٣، ٢١٣. دياكونوف: ميديا، ص ١٢٧. محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠٤ – ٣٠٧. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٥٢.

٢ – هديب غزالة: الدولة البابلية الحديثة، ص ٢٢- ٢٣.

واستمر المخطّط الآشورى للسيطرة على بابل؛ إذ هاجم الملك الآشورى تُوكُولْتى نِينُورْتا الأول Tukulti Ninurta 1 (١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق.م) بابل، فى عهد الملك الكاشّى كاشْتِيْلياش الرابع (١٢٤٢ – ١٢٣٥ ق.م)، واستولى عليها، وعزل الملك الكاشّى عن الحكم، وجعل كارْدُونْياش (اسم الأقاليم البابلية فى العهد الكاشّى) ولاية من ولاياته، واستعمل الآشوريون القسوة فى بابل، فدمروها وسلبوا كنوزها[١].

وحينما تململ الكاشّيون، وحاولوا الاستقلال عن النفوذ الآشورى، هاجم الملك الآشورى حَدَد نيرارى الأول Adad- nirari 1 (١٣٠٥ – ١٢٧٤ ق.م) المملكة الكاشّية، وفرض عليها التبعية للتاج الآشورى من جديد، ثم اتجه غرباً وغزا المنطقة الممتدة من حَرّان (حاران) Harran حتى كِرْكِميش، وسيطر على الطريق التجارية التى كانت تصل ميزوپوتاميا بالأجزاء الغربية من آسيا الصغرى[٢].

وفى عهد الملك الآشورى شَلْمانَسَر الأول Shalmaneser (١٢٧٤ – ١٢٤٥ ق.م) ازدادت حدود المملكة الآشورية اتساعاً، حتى شملت منطقة أورارتو، وأقام هذا الملك على حدودها الجنوبية مستوطنات آشورية دائمة، ثم هاجم كركميش، واصطدم بالجيش الكاشّى، لأنه انقلب ضد الآشوريين، وألحق به هزيمة نكراء، فى حين وقف الحثيون موقف المتفرج، وسبب ذلك – على ما يبدو- أن الملك الكاشّى لم يأخذ بنصيحة الملك الحثى خاتّوشيلى الثالث فى الانضمام إلى جانب الحثيين فى صراعهم ضد الآشوريين، وتمسّكه بالحياد بين الفريقين المتنافسين.

لكن الكاشّيين ما لبثوا أن ثاروا على الملك الآشورى بقيادة أَدَد – شُوما أُوسَر (١٢١٨ – ١١٨٩ ق.م)، واستردّوا استقلالهم، وطاردوا الآشوريين حتى مشارف آشور نفسها، وتابع خليفتاه سياسته التحريرية والاستقلالية بين عامى (١١٧٣ – ١١٦١ ق.م)، ومع ذلك ظلّت السيطرة على بابل من الثوابت الإستراتيجية فى مخططات ملوك آشور، وأفلح الملك آشور- دان الأول (١١٧٩ – ١١٣٤ ق.م) فى أن يوقع الهزيمة بالملك الكاشّى (زبابا- شوما- أدينا) عام (١١٦٠ ق.م)، واحتلال الأقاليم المجاورة لها. وفى الوقت نفسه كان العيلاميون

---

١ – محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣١٢.

٢ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٢١.

يهاجمون الدولة الكاشّية، وأفلحوا فى احتلال بابل بقيادة ملكهم شُوتْراک نَاخُونْتَى Shutrauk Nakhunte (١٢٠٧ – ١١٧١ ق.م)، واحتلوا العاصمة، وذبحوا الملک الكاشّى (زابابا – شوما – أدينا)، ثم انسحبوا[١].

وعرف ملوک آشور أن الاحتلال العسكرى وحده لا يحقق دوام سيطرهم على بابل، فاتّبعوا سياسة التدخل فى شؤون المملكة الكاشّية، واغتنموا فرصة نشوب التراعات على العرش فى البلاط الكاشّى، وتمكنوا أخيراً من تنصيب كاريجالزو الثانى على العرش الكاشّى، وبذلک ضمنوا وقوف المملكة الكاشّية إلى جانبهم ضد المملكة الحثّية، وازداد تدخّل ملوک آشور فى شؤون المملكة الكاشّية مع الزمن، وكان آخر ملوک الكاشّيين هو (أنليل- نادين- أخَى) Enlil- Nadin- Ahhe (١١٥٩ – ١١٥٧ ق.م)، وفى النهاية صارت مملكة الكاشّيين جزءاً من المملكة الآشورية. وقد استمرت المملكة الكاشّية حوالى ستة قرون، أما حكمهم فى بلاد بابل فاستمر حوالى أربعة قرون[٢].

وعلى العموم لا تترک أخبار الكاشّيين- على قلّتها- انطباعاً بأهم كانوا أصحاب سياسات البطش والتنكيل، وهى سياسات اشتهرت به الإمبراطوريات التى قامت فى ميزوپوتاميا، إن سياساهم الداخلية والخارجية كانت أقرب إلى المسالمة والموادعة[٣]. وسنجد لاحقاً أن هذا النهج كان هو الغالب على سياسات أسلاف الكورد فى الدول التى أقاموها، يقول الدكتور عامر سليمان والأستاذ أحمد مالک الفِتْيان بصدد سياسات الكاشّيين فى بابل:

"اتصفت السياسة الكاشّية فى الداخل والخارج باللين، والميل إلى عدم الدخول فى صدامات مسلحة مع البلدان الأجنبية، أو إثارة السكان المحليين، فكانت فترة حكم الكاشّيين فى العراق فترة هدوء نسبى على الرغم من طولها، فقد حاول الملوک الكاشّيون ترضية السكان المحليين والتخفيف عنهم، بتقليص أو رفع بعض الضرائب والرسوم

---

١ - محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣١٢ – ٣١٣.

٢ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١/٦٠٠. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٢٠ - ٣٢١. محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠٧. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٥٠.

٣ - أرشاک سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٤٣ – ٤٤.

والخدمات، كما حافظوا على حقوق السكان المحليين المكتسَبة خلال العصور السابقة. ويفسر لنا ذلك عدم وقوع ثورات وتحركات كثيرة فى البلاد، كما يفسّر قدرةَ الكاشّيين على القضاء على سلالة القطر البحرى التى كانت تهدد الحكومة المركزية فى بابل"[1].

العلاقات الكاشّية – المصرية

تقع مصر فى الزاوية الشمالية الغربية من قارة إفريقيا، وصحيح أنها تنتمى إلى إفريقيا جغرافياً، لكن موقعها الجيوسياسى فرض عليها أن تنتمى إلى غربى آسيا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً إلى حدّ كبير، واجتماعياً وثقافياً إلى حدّ ما، وكذلك كان الأمر فى الألف الثانى ق.م، ففى الوقت الذى سيطر فيه الكاشّيون على بابل، منحدرين من جبال زاغروس وتخومها الغربية، كانت مصر تُحكَم من قِبل ملوك الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ – ٩٥٠ ق.م)، وكان معظم هؤلاء الملوك يحرصون على أن يكون لمصر نفوذ قوى فى غربى آسيا.

وكان على ملوك مصر أن يأخذوا فى الاعتبار نفوذ الحثّيين المتمركزين فى الأناضول، ونفوذ الحوريين/الميتّانيين المتمركزين فى شمالى سوريا وأعالى نهر الفرات (شمالى كوردستان حالياً)، ونفوذ الآشوريين فى الجزء الشمالى الغربى من إقليم كوردستان العراق حالياً، ونفوذ الكاشّيين فى بابل، وكان عليهم أيضاً أن يبنوا تحالفات مع بعض هذه القوى الإقليمية ضد قوى أخرى، وكان الحثيون ألدّ أعداء الدولة المصرية، وكانت سوريا وفلسطين موضوع الصراع الأبرز بين ملوك مصر وملوك الحثيين، ولا يخفى أن سوريا وفلسطين كانتا ملتقى شبكات طريقى التجارة العالميين؛ طريق الحرير القادم من الشرق عبر ممرات زاغروس، وطريق البخور القادم من الجنوب عبر شبه الجزيرة العربية، والأهم من هذا أن سواحل سوريا وفلسطين كانت منفتحة على جنوبى أوربا عبر البحر، وكانت تربط آسيا بأوربا بحراً.

وحينما كان الكاشّيون هم الأقوياء فى ميزوپوتاميا كان من مصلحة ملوك مصر أن يبنوا علاقات حسنة معهم، وإذا كانت المملكة الحثية هى مشكلة المصريين فإن مملكة آشور كانت

---

١ – عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٧. وسلالة القطر البحرى هى سلالة بابل الثانية الحاكمة فى جنوبى ميزوپوتاميا.

مشكلة الكاشّيين، وفى الوقت نفسه كان العداء قائماً بين الكاشّيين والحثّيين، وهكذا فإن المصالح المشتركة كانت عاملاً مهماً فى نشوء علاقات طيبة بين الكاشّيين والمصريين، ووصلت تلك العلاقات إلى درجة المصاهرة بين الأسرتين المالكتين فى كارْدُونْياش (بابل) ومصر، وتزوّج بعض ملوك مصر من أميرات كاشّيات، وكان لعنصر البياض والشقرة فى الكاشّيين تأثيراً مهماً فى ذلك، ويبدو من سياق المراسلات بين الفريقين أن الملوك الكاشّيين كانوا سعداء بعلاقات المصاهرة، ويطمحون إلى أن يتزوّج بعض أفراد الأسرة المالكة الكاشّية من أميرات مصريات، لكن ملوك مصر كانوا يتمنّعون، اعتقاداً منهم بأنهم من سلالة الآلهة.

ونستعرض فيما يلى بعض نصوص الرسائل التى دارت بين الفريقين.

كتب الملك الكاشّى كاداشْمان- خاربى الأول (١٤١٠ – ١٣٨٦ ق.م) رسالة إلى الملك المصرى أمنُوفيس (أمُنْحُوتب) الثالث (١٤٠٥ – ١٣٧٠ ق.م)، يعاتبه لعدم موافقته على زواج أميرة مصرية من أخيه، ويطلب منه فى الوقت نفسه أن يرسل إليه كميّات من الذهب:

"انظر، ... إنك لم توافق على زواج ابنتك من أخى، وكتبتَ... "منذ القدم لم تُزوَّج قطّ ابنةُ ملك مصرى لإنسان". لماذا تقول ذلك؟ أنت الملك، وتستطيع أن تتصرف كما يحلو لك، فمن هو الذى سيعارضك إذا أعطيتَها؟ عندما بلغ ذلك مسمعى كتبت إلى أخى [= ملك مصر] **ما يلى: عندك بناتٌ بالغات ونساء جميلات، أرسل امرأة جميلة تختارها، من الذى سيقول: إن هذه ليست ابنة ملك؟ ولكنك لم ترسل، لأنك قررت ذلك ... لماذا لم يرسل لى أخى ولو امرأة واحدة؟ حقاً إنك لم ترسل لى امرأة، هل على أن أتخذ منك الموقف نفسه، ولا أرسل لك امرأة؟ كلا، ستكون بناتى لديك، لن أبخل عليك بهن... أرسل إلىّ ذهباً كثيراً، وبكميات كبيرة، قبل أن يأتى رسولك إلىّ، أرسل بسرعة خلال هذا الصيف، وليكن فى شهر تمّوز، وليكن فى شهر آب، كى أستطيع إنجاز المشروع الذى صمّمت على تنفيذه"**[1].

وقال أرشاك سافراستيان معلّقاً على المراسلات الكاشّية- المصرية:

١ - توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٥٣- ٢٥٤.

"إن كاداشْمان– إنليل Kadashman- Inlil، أحد ملوك الكاشّيين، كان غالباً ما يطلب هدايا الذهب من فرعون مصر فى ذلك الحين. لكن تلك الفترة من العهد الكاشّى– البابلى قلّما تُحسَب فى حياة الشعب الكوردى؛ لأن الكاشّيين كانوا قد أصبحوا بابليين فى نواياهم وأهدافهم"[1].

ويبدو من سياق المراسلات أن ملوك الكاشّيين لم يكونوا يزوّجون ملوك مصر من الأميرات الكاشّيات عبثاً، وإنما كانوا يتطلّعون إلى أن تكون تلك الأميرات سفيرات لهم فى البلاط المصرى، وأن يتوصّلوا من خلالهن إلى التأثير فى السياسات المصرية، والإبقاء على العلاقات الوثيقة بين الطرفين، وكانوا يترعجون جداً إذا عرفوا أن الأميرات الكاشّيات لا يحظين بالتكريم فى البلاط المصرى، وقد بعث الملك كاداشْمان – خاربى الأول إلى الملك المصرى أمنوفيس (أمُنْحُوتب) الثالث يتّهمه فيها بأنه يعامل رسله فى بلاطه معاملة سيئة، وأن أخته ربما لم تكن على قيد الحياة بين حريم فرعون مصر، فأجابه فرعون مصر رسالة حاول فيها أن يبدّد ظنون كاداشْمان خارْبى، وكتب يقول:

"إلى كاداشْمان – خاربى ملك كاردونياش[2] أخى: هكذا يقول نيبو– آريا[3] الملك الكبير، ملك مصر: كلُّ شيء عندى بخير، وعسى أن يكون كلُّ شيء عندك بخير، عسى أن يكون بيتك ونساؤك وأطفالك وشيوخك وأحصنتك وعرباتك وبلدانك بخير. إن حالتى جيدة، وبيتى ونسائى وأطفالى وشيوخى وأحصنتى وعرباتى وجنودى بخير، وكذلك بلدانى بخير.

انظر، لقد بلغنى الأمر الذى كتبت حوله، قولك: "انظر، تريد الزواج من ابنتى، ولكن أختى التى أعطاكها والدى هى عندك، ولم يرها إنسان بعد ذلك، هل هى على قيد الحياة أم ماتت؟". هذه هى كلماتك التى كتبتَها على لوحتك. ولكن متى أرسلتَ

---

١ – أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٤٤.

٢ – كاردونياش: اسم بلاد بابل فى العهد الكاشى.

٣ – نيبو– آريا: اسم أمنوفيس الثالث قبل تولّيه العرش المصرى.

كاميرو[1] كى يتعرّف على أختك، ويستطيع التحدث إليها، أو يجدّد التعرّف إليها، كى ندعه يتحدث معها. أما هؤلاء الناس الذين أرسلتَهم ... فأحدهما سائق حمير من بلاد... أما الآخر... ولم يكن بينهما أحد يمتّ بصلة قربى لوالدك"[2].

وقد مرّ أن الفراعنة المصريين كانوا يعملون لبسط نفوذهم على سوريا وفلسطين، والحقيقة أهم كانوا أكثر حرصاً على فلسطين خاصة، باعتبارها بوّابة مصر إلى غربى آسيا عامة، ومر أيضاً أن الحثيين والمصريين كانوا على خصومة مستمرة بسبب سوريا وفلسطين، وكان كل فريق يحرص على أن يكون حكام فلسطين تابعين له، وكان حكام فلسطين الكنعانيون بدورهم ينتهزون كل فرصة للخلاص من النفوذ المصرى. وفى عهد الملك الكاشّى كاريجالزو الثانى راسله الكنعانيون، لإقامة تحالف معه ضد المصريين، لكن كاريجالزو الثانى أبى أن يخون حليفه المصرى، ورفض التحالف مع الكنعانيين.

ومرّ أيضاً أن ملوك آشور كانوا يعملون للقضاء على المملكة الكاشّية، كى يتمكّنوا من السيطرة على ميزوپوتاميا جميعها، وفى إطار هذه السياسة حاول الملك الآشورى آشور أوبالّيت الأول (١٣٦٥ – ١٣٣٠ ق.م) إقامة حلف مع الفرعون المصرى أَمُنْحُوتَبْ الرابع المعروف باسم أَخْناتون (١٣٧٠ – ١٣٥٢ ق.م)، وبعث وفداً إلى مصر لتحقيق هذا الهدف، تمهيداً لعقد اتفاقية عسكرية يقف كل منهما بجانب الآخر، فى حال اعتداء دول أجنبية على أىّ منهما، وكان الآشوريون يقصدون المملكتين الحثية والكاشّية[3].

وعرف الملك الكاشّى بُورْنا بُورْياش الثانى (١٣٦٧ – ١٣٤٦ ق.م) أخبار الوفد الآشورى، فأرسل رسالة إلى أخناتون، يطلب فيها ذهباً كثيراً، لينفّذ المعبد الذى بدأ بتشييده، ويعاتبه فى الوقت نفسه على استقبال الوفد الآشورى؛ واعتبر ذلك عملاً غير ودّى، وذكّره بأن والده الملك الكاشّى كاريجالزو رفض أن يتحالف مع (الكنعانيين) فى فلسطين ضد فرعون مصر السابق.

---

١ – كاميرو: لقب أحد كبار موظفى البلاط الكاشّى، ويشبهه الاسم الكوردى (كاميران).

٢ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٥٤ – ٢٥٥.

٣ – المرجع السابق، ص ٣٢٠.

والمعروف أن والد بورنا بورياش الثانى هو كاداشْمان إنليل الأول (١٣٨٦ – ١٣٦٧ ق.م)، وليس كاريجالزو، ومعروف أيضاً أن عهد كاريجالزو الأول كان سابقاً جداً على عهد أمُنْحُوتب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٧٠ ق.م، وكان عهد كاريجالزو الثانى متأخراً عن عهد أمنحوتب الثالث، فكيف يكون كاريجالزو والد بورنا بورياش الثانى؟ ثمة اضطراب فى الأمر، والصواب أن كاداشْمان إنليل الأول هو المعاصر لأمنحوتب الثالث، ولعل هذا الاضطراب ناجم عن التداخل بين الأسماء والألقاب الملكية، ولعل الاسم الحقيقى للملك كاداشْمان إنليل الأول كان (كاريجالزو)، وقد جاء فى رسالة بورنا- بورياش ما يلى:

"إلى نيخور أوريا ملك مصر، هكذا يتكلم أخوك بورنا – بورياش ملك كارادونياش، إنى بخير، عساك وبيتك ونساؤك وأطفالك وبلادك وشيوخك وأحصنتك وعرباتك فى أحسن حال. عندما كان والدى ووالدك فى علاقة صداقة جيدة بينهما، تبادلا الهدايا والأشياء الجميلة التى تمنّاها كلٌّ منهما، ولم يمنع أحدهما شيئاً عن الآخر. وقد أرسل أخى حتى الآن ٢ مِينه من الذهب هدية. ولّما كان الذهب متوفّراً عندك بكميات كبيرة، أرسل لى كما كان يرسل والدك، لماذا لم ترسل سوى ٢ مينه من الذهب؟ إنى مصمّم على القيام بأعمال كثيرة متنوعة فى المعبد، وبدأتُ بتنفيذها، ابعث لى ذهباً كثيراً، واكتب لى ما تحتاجه من بلادى ليُرسَل إليك.

وفى عهد أبى كاريجالزو كتب إليه جميع الكنعانيين قائلين: "سنستوطن كل حدود البلاد... وسننهض، نودّ التحالف معك". أما والدى فقد كتب إليهم: "ابتعدوا عن فكرة التحالف معى، فإذا نهضتم ضد ملك مصر، أخى، واتصلتم بآخر، فلن أوافقكم. بل إنى سأدمّركم، لأنه (ملك مصر) متحالف معى". وبسبب والدك لم يسمع والدى كلامهم، والآن لم أُرسلْ إليك أتباعى الآشوريين كما ادّعوا؟ ولماذا قَدِموا إذن إلى بلادك؟ فإذا كنت تحترمنى وتحبّنى لا تعقدْ معهم أية اتفاقية، لكى يعود الرسل بدون نتيجة، أرسلهم صِفْر اليدين، وها أنا أرسل إليك ٣ مينه هدية من حجر اللازَوَرْد، وخمسةَ أزواج من الأحصنة لخمس عربات"[١].

١ – المرجع السابق، ص ٢٥٨.

وفى عهد الملك الكاشّى بورنا بورياش الثانى، والفرعون المصرى أمُنْحُوتب الرابع (أخناتون)، ظهرت بعض الاضطرابات فى أرض كنعان (فلسطين)، وتعرض قائد إحدى القوافل الكاشّية للنهب مرتين من قِبل الأمراء الكنعانيين الخاضعين للفرعون، وفى حادث آخر قُتل بعض رجال الملك الكاشّى، فأرسل إلى أخناتون يطلب منه تأديب هؤلاء الأمراء، قائلاً: "**كنعانُ أرضُك، وملوكُها خدمُك**"[1].

الأوضاع الحضارية الكاشّية

منجزات حضارية عامة:

رغم طول المدة التى حكم فيها الكاشّيون بابل- مركز الحضارة فى ميزوپوتاميا حينذاك- فإن أخبارهم قليلة، وخاصة الأخبار المتعلقة بمنجزاتهم الحضارية، وهذه الظاهرة- نقصد ظاهرة قلة المعلومات بشأن المنجزات الحضارية- واضحة المعالم فى تاريخ معظم الدول والممالك التى أقامها أسلاف الكورد الأوائل، والغريب أن معظم أخبارهم- إن لم يكن جميعها- وصلت إلى العصر الحديث من خلال ما دوّنه خصومهم، ومتى كان الخصم السياسى أميناً فى ذكر الحقائق التى تمجّد عدوّه؟

وبالنسبة إلى قلّة أخبار الكاشّيين ليس من المستبعد أن يكون للخصوم الآشوريين الذين أطاحوا بهم دور كبير فى ذلك، ويبدو أن ملوك آشور عملوا بجدّ للقضاء على كل ما يذكّر بأمجاد الكاشّيين، والحقيقة أن عمليات طمس أخبار الخصوم كانت مألوفة جداً فى الدول والممالك القديمة، بل إنها ما تزال مألوفة فى كثير من دول غربى آسيا فى عصرنا هذا.

وقد عزا بعض المؤرخين قلّة المعلومات بشأن المنجزات الحضارية فى العهد الكاشّى إلى أصول الكاشّيين البدوية الجبلية، لكن هذا التفسير لا يصمد أمام منطق الواقع، فقد مرّ أن الكاشّيين حكموا بلاد بابل لا أقل من أربعة قرون، وكانت بابل مركزاً مهماً من مراكز الحضارة فى العالم القديم، وكانت هذه المدة الطويلة كافية لأن تجرّد الكاشّيين من عقلية البداوة، ومن سلوكهم الجبلى، وأن تفرض عليهم التلاؤم مع الظروف الحضارية الجديدة؛

---

١ - محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣١٠.

وهذا ما توحى به الأخبار القليلة التى وصلتنا؛ وقال الدكتور عامر سليمان، والأستاذ أحمد مالک الفِتْيان:

"لم يكن الكاشّيون ذوو حضارة زاهرة تضاهى حضارة العراق القديمة، بل كانوا أقواماً جبلية متنقلة، تميّزت بقابليتها للقتال فحسب، وعندما سيطرت على بلاد بابل أخذت عن الحضارة البابلية الزاهرة الشيءَ الكثير، بل إن الكاشّيين اعتمدوا على ما كان موجوداً فى البلاد، ولم يضيفوا إليها إلا أشياء طفيفة"[1].

وقال الكاتبان أيضاً:

"كان العهد الكاشّى استمراراً للعهد البابلى القديم من الناحية الحضارية بصورة عامة، حيث استمرت حركة التأليف والترجمة والاستنساخ التى بدأت منذ العهد البابلى القديم، وقام عدد من الكتّاب والمؤلفين باستنساخ العديد من القصص والأساطير والملاحم البابلية، كما دُوّنت العديد من النصوص الفلكية ونصوص التنجيم والمعاجم اللغوية"[2].

وذكر بعض المؤرخين أن ما أشيع بشأن قلة المنجزات الحضارية الكاشّية ليس صحيحاً دائماً، وأفادوا أن الكاشّيين لم يكونوا منغلقين على أنفسهم، إنهم انفتحوا على المجتمع البابلى المحلّى وعلى الحضارة البابلية، وتكلموا بلغة السكان المحليين، وكتبوا بخطهم، وقدّسوا معتقداهم، واتّبعوا نُظُمهم وقوانينهم، وأدخلوا بعض العناصر الحضارية الجديدة إلى البلاد، وقال جين بوترو وزملاؤه فى هذا الصدد:

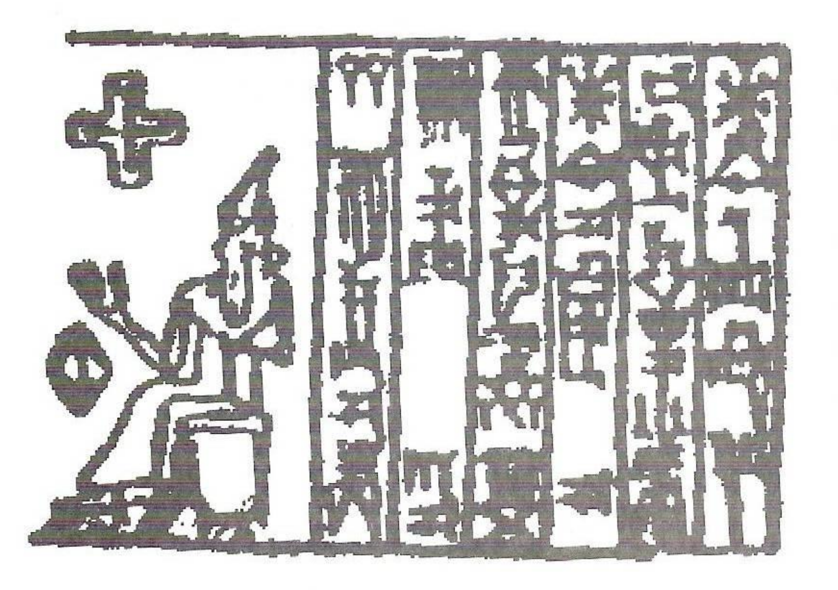
"ومن نتائج رغبتهم فى الاقتباس أن الحكم الكاشّى فى بلاد بابل لم يُعَدّ إطلاقاً تسلّطاً أجنبياً، كما كان الحكم الگوتى فى الماضى"[3].

---

١ – عامر سليمان، أحمد مالک الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٤.

٢ – المرجع السابق، ص ١٣٨.

٣ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٢١٢.



نموذج ختم محفور من عهد الكاسيين مكتشف في بابل الربع الثالث من الألف الثاني قبل الميلاد

وفى حديث دياكونوف عن "**حضارة ومدنية الكاشّيين**"- حسب قوله- ذكر أن آثار الكاشّيين تسمى "**آثار لُورِسْتان**"، وهى ترجع إلى الأقوام الكاشّية الشمالية، وهى تحفٌ مصنوعة اكتُشفت فى منطقة لورستان الإيرانية (غرب إيران حالياً)، وتعود إلى منتصف الألف الثانى وبداية الألف الأول ق.م، ومن تلك الآثار: أدوات مستخدمة للخيل مثل اللجام، ومصنوعات خاصة باستخدام العربات، وبعض الأسلحة المستخدمة حينذاك، وأشياء جميلة خاصة بالطقوس الأسطورية والدينية، مثل عصا الساحر، وصورة الإنسان مدمجةً مع الماعز البرّى والنمر والأسد، ومع الثور والحصان وأبى الهول (رأس إنسان، وجسد أسد)، وكريفون (كائن له جسد أسد، وجناحا صقر، وأذنا حصان، وعُرْف شبيه بزعنف السمكة)[1].

فنّ العمارة الكاشّية:

كانت الحركة العمرانية فى العهد الكاشّى نشيطة، وامتاز الفن المعمارى الكاشّى بالتزيينات الجدارية البارزة المشيَّدة بالآجُرّ، وهو أسلوب شاع استخدامه فى بلاد بابل فى عهدها المتأخر، كما قام الكاشّيون بتأسيس عاصمة جديدة لهم هى مدينة دور كاريگالزو (عَقَرْقُوف حالياً)، وأقاموا فيها زَقُّورة ضخمة لا زالت بقاياها تدلّ على ضخامتها[2].

وذكر الدكتور محمد بَيُّومى مَهْران أن الملك كارانداش اشتهر بكثرة مبانيه فى المدن البابلية، وكانت تماثيل الأرباب والربّات تبرز من جسم البناء، "**مع تشكيل رأس كل معبود وجذعه الأعلى تشكيلاً كاملاً، والاكتفاء بتشكيل الخطوط العامة لبقيّة جسمه على هيئة الثوب الطويل المحبوك، وتشكيل لَبنات هذا الثوب بما يرمز إلى مدرّجات الجبال بالنسبة للأرباب، وتموّجات الماء بالنسبة للربّات**"[3].

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ١٣١ – ١٣٢.

٢ - عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٨.

٣ - محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠٥.

وفى المعمار الكاشّى يظهر المعبود والمعبودة وقد أمسك كل منهما بيده- وأمام صدره- إناءً يتدفّق منه الماء الذى سال على هيئة جداول جارية، نُقشت على هيئة خطوط بارزة ومتعرجة على فواصل الواجهة، والمعبود هنا هو (إله الجبل)، وقد مُثّل وهو يرتدى ثوباً مزيّناً على هيئة حراشف؛ هى رمز الجبل[1].

وكان المخطّط العام للبناء الكاشّى يتألف من غرفة طولانية الشكل مع صالة أمامية، ويحيط بالأولى قاعات جانبية صغيرة، وكان المعبد يتميّز بارتفاع واجهته الأمامية المبنية من آجُرّ يؤلف صفوفاً متناوبة، بأشكال بارزة تمثّل آلهة الجبال والمياه. وكان أسلوب التزيينات الجدارية شبيهاً بأسلوب الزخارف الجدارية فى باب معبد الإلهة عَشتار بمدينة بابل فى عهد متأخر. وعلى العموم شَغَل معظم الملوك الكاشّيون أنفسهم بالمشاريع العمرانية فى مختلف المدن البابلية المهمة، وفى مقدّمتها تجديد المعابد فى المدن السومرية القديمة نِيپور وأُور ولارْسا وأُوروك (الوركاء) بفن معمارى متميّز، ورثه فيما بعد الفرس الأخمين، واستعملوه فى بناء عاصمتهم الإمبراطورية پِرْسُوپوليس[2].

وفى منتصف العهد الكاشّى أسس الملوك الكاشّيون مدينة جديدة ضخة على بعد حوالى (٢٠) كم غربى بغداد حالياً، تُعرف بقاياها باسم عَقَرْقُوف، وأطلقوا على تلك المدينة اسم (دُور كاريگالزو)، وأصبحت العاصمة الثانية للملكة الكاشّية إلى جانب العاصمة الأولى بابل. وكان المؤسس الأول لتلك المدينة هو الملك كاريگالزو الأول فى القرن الخامس عشر ق.م، وصحيح أن الطابع المعمارى البابلى القديم تجلّى فى كثير من معالم هذه المدينة، لكن ثمة ميزات فنّية خاصة بالكاشّيين، منها الرسوم الملوّنة على الجدران[3].

والأرجح أن الملك كاريگالزو الثانى هو الذى شيّد برج المدينة (الزَّقُورة)، ووسّع معابدها وقصورها، ويُعتبَر هذا البرج حلقة مهمة فى تطور الزقورات بين بداية ظهورها فى عهد سلالة أور الثالثة؛ إذ كانت مؤلفة من ثلاث طبقات (لاحظوا هنا الكلمة الكوردية سَى قُور sê qor)، وبين شكلها فى العهود المتأخرة، وخاصة فى العهد البابلى الحديث (القرن السادس ق.م)،

---

١ - المرجع السابق، ص ٣٠١.

٢ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٨٩/١.

٣ - المرجع السابق، ٥٨٩/١ - ٥٩٠.

فأصبحت فى الغالب ذات سبع طبقات، وبُنيت فى المدينة الجديدة معابد واسعة وضخمة الجدران، خُصّصت لعبادة الإله إنْليل، وزوجته الإلهة ننْليل، وابنهما نِينُورْتا، وقد وُجدت فى أنقاض هذه المدينة قِطع كثيرة من تمثال ضخم للملك كاريگالزو (لعله الأول أو الثانى)، وهى منقوشة بخط مسمارى وباللغة السومرية[1].

شواهد حضارية بارزة:

إضافة إلى ازدهار فن العمارة، ساهم الكاشّيون فى رفد الحضارة الإنسانية بإنجازات متميّزة، نستعرضها فيما يلى بإيجاز:

١ – استخدام الخيل: إن البابليين لم يستخدموا الخيول قبل عهد الملك حَمُورابى، وكانوا يسمّونه (الحمار الجبلى)، وأحياناً (الخيول الوحشية)، وإن الكاشّيين هم الذين أدخلوا إلى ميزوپوتاميا سلالات جديدة من الخيول، واستخدموها فى نقل الأمتعة والبضائع، إضافة إلى جرّ العربات الحربية، وكان لاستخدام الخيل أثر كبير فى تطوير أسلوب تنظيم الجيش وفن الحرب وسرعة حركة القوات المسلحة، وخفّتها فى الهجوم والانسحاب.

وكانت للكاشّيين عناية فائقة بتربية الخيل، ويظهر ذلك كثيراً فى كتاباتهم ومراسلاتهم مع الملوك، وقد وضعوا فهارس للكلمات الفنّية الخاصة بتربيتها وتحسين سلالاتها، وفى عهدهم أصبحت الخيول تصدَّر من ميزوپوتاميا إلى مصر، وثمة من يذهب إلى أن الكاشّيين قد أدخلوا الحصان والعربة إلى العراق القديم، كما فعل الهكسوس فى مصر، وثمة من يرى أنهم كانوا يتخذون من الجواد والشمس رموزاً مقدسة لديهم؛ وهذا دليل قوى على سيادة الثقافة الآرية فى المجتمع الكاشّى[2].

---

١ – المرجع السابق، ١/٥٩٠.

٢ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٢١٢. محمد بيّومى مهران: تاريخ العـراق القديم، ص ٣٠٠. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٦٢. أحمـد فخـرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٢٠٣، ٢٠٥– ٢٠٦. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٧١.

٢ – طريقة تأريخ جديدة: استخدم الكاشّيون طريقة جديدة فى تأريخ السنين، تعتمد على تسلسل سنوات حكم الملوك، فقد كانت الطريقة البابلية السائدة تعتمد طريقة تأريخ السنين بالنسبة لأهم الأحداث التى تقع فيها، وظل استخدام هذه الطريقة الكاشّية فى تأريخ السنين شائعاً إلى أن أدخل الآشوريون طريقتهم فى التأريخ تعتمد على جداول الليمّو، غير أن التأريخ حسب الطريقة الكاشّية لم يندثر، وظل مستخدماً إلى أن ابتدع السلوقيون طريقة تعتمد على نقطة ثابتة فى التاريخ؛ هى تاريخ سيطرة السلوقيين على بلاد بابل عام (٣١١ ق.م)[١].

٣ – حجارة الطّابو: شاع فى العهد الكاشّى استخدام حجارة خاصة؛ لتثبيت مُلكية الإقطاعات الزراعية بأسماء أصحابها، وهى طريقة لم تكن معروفة فى غربى آسيا قبلهم، وهى أقدم أصل معروف لما نسمّيه فى عصرنا الحاضر (حجارة الطابو)، وكانت تُعرف فى اللغة الكاشّية بـــ (كودورّو)، وهى مسلاّت صغيرة غير منتظمة الشكل، لا يتجاوز ارتفاع الواحدة منها المتر، وكانت تُدوَّن عليها أوصاف وحدود الأراضى التى كان الملك يُقطعها للأفراد أو الجماعات، وتودَع عادة فى معبد المدينة، لإضفاء القداسة على ما دُوّن عليها، ولعل للمقطع (دورو) فى اسم حجارة الطابو هذه علاقة بالإله الكاشّى (دُور)، من باب التبريك.

وكان يُنقَش على هذه الحجارة اسمُ مالك الأرض، واسمُ الملك الذى منح الإقطاعة، وحدودُ الأرض وامتيازاتها، وأسماءُ الشهود، وكان يُكتَب عليها أيضاً تحذير الملك ولعناته على كل من يحاول أن يكسر أو يبدّل ما ورد فيها. وغالباً ما كان يُنقش على الوجه الثانى من الحجر رموز الآلهة الرئيسة، وكثيراً ما ارتبطت تلك الحجارة بامتيازات خاصة؛ كعدم دفع الرسوم والضرائب عن الأراضى التى تحدّدها.

كما أن تلك الحجارة كانت تشتمل على قيمة فنية، إذ كان يُنحت عليها بعض الرموز الدينية، كقرص الشمس رمز الإله (شِمِش)، والهلال رمز الإله (سين)، والفأس أو المحراث

---

١ – محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠٠. عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٩ – ١٤٠.

الصغير رمز الإله مَرْدُوخ، والكوكب رمز الإلهة عشتار، مع صور الحيوانات العائدة إلى هذه الإلهة، وفى ختام النص كانت تدوَّن لعنات الآلهة على من يكسر الحجر أو يبدّل نصوصه[١].

٤ – الحركة الأدبية: لقد ازدهرت الحركة الأدبية فى العهد الكاشّى، وتمّ استنساخ النصوص السومرية والأكّادية القديمة المشهورة، مثل ملحمة جلْجامِش، ونسخة من قصة الطوفان التى عنوانها (أترا– حاسيس) ويسمّى (أَتْراخاسيس) أيضاً، والقصة الأدبية التى سُمّيت قصة أيّوب البابلى، لشبهها بقصة أيّوب التوراتية، كما وصلت إلينا من العهد الكاشّى نصوص طبية مهمة، ونصوص فلكية، إلى جانب الكتابات الخاصة بالتنجيم، ولا سيّما خصائص الأيام المختلفة، وما يُتوقَّع من سعد ونحس، وظهر اهتمام ملحوظ بأساليب ونصوص التعاويذ والرُّقى، ووصلت إلينا مجموعة من المعاجم بالعلامات المسمارية وصيغها السومرية والأكّادية، ويتضمّن بعضها شرح المفردات الكاشّية باللغة البابلية[٢].

اللغة الكاشّية:

الغريب أن الدكتور عبد الحميد زايد يقول بشأن الكاشيين:" **ولم يكن لهم لغة خاصة بهم، بل استخدموا اللغة البابلية الساميّة، وكذلك اللغة السومرية فى الوثائق الدينية**"[٣]. فهل ثمة شعب من غير لغة خاصة به؟ وكيف كان الكاشّيون يتخاطبون ويتفاهمون إذن قبل أن يسيطروا على بابل؟

ولعل الصواب القول بأن الكاشّيين لم يفرضوا على سكّان بابل لغتهم الخاصة بهم، وصحيح أنهم اعتبروا أنفسهم طبقة أرستقراطية حاكمة بين السكان الأصليين فى ميزوپوتاميا، لكنهم لم يتقوقعوا كما أسلفنا القول، واعتبروا اللغة البابلية السامية لغة الكتابة الراقية إلى

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١/٥٩١ – ٥٩٢. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٦١. عامر سليمان، أحمد مالک الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٩.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١/٥٩٢ – ٥٩٣.

٣ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٧٨.

جانب لغتهم الخاصة. واستخدموها فى شؤون الحكم والثقافة عامة، وهذه عادة معروفة فى تاريخ معظم الشعوب البدوية التى سيطرت على مراكز الحضارة فى العصور القديمة، ما عدا الشعوب التى اقترنت فيها اللغة بالنصوص الدينية المقدسة، كما هو شأن اللغة العربية وارتباطها بالقرآن.

وتميّز العهد الكاشّى بانتشار استخدام الخط المسمارى واللغة الأكّادية خارج البلاد، وأصبحت اللغة الأكّادية أشبه باللغة الدبلوماسية التى يتفاهم بها حكام وملوك الشرق الأدنى القديم. وقال جين بوترو وزملاؤه فى هذا الشأن:

"عندما استقرّ الكاشّيون فى بلاد بابل، فإنهم لم يحاولوا أن يدوّنوا لغتهم بالخط المسمارى فى أىّ وقت؛ ولذلك فإنهم اختلفوا عن الخوريين"[1].

أما بشأن اللغة الكاشّية نفسها فقال جين بوترو وزملاؤه:

"ليس لدينا إلا معلومات غامضة جداً عن طبيعة اللغة الكاشّية، فإننا نعرف أسماء بعض الأشخاص والخيول، والقليلَ من أسماء الآلهة الكاشّية، كما يمكن أن نشخّص بعض المفردات اللغوية الكاشّية الدخيلة فى اللغة الأكّادية. وقد قام الكتبة ببعض المحاولات لترجمة العناصر المكوّنة لأسماء كاشّية معيّنة إلى اللغة الأكّادية؛ ومن هذه المادة يمكن أن نستنبط نتائج سلبية فقط: فلم تكن اللغة الكاشّية لغة سامية أو هندو أوربية، وليس لها علاقة باللغة السومرية، أو العيلامية، أو الخورية"[2].

ويبدو أن جين بوترو وزملاءه كانوا متسرّعين فى إصدار هذا الحكم بشأن اللغة الكاشّية، والاعتقاد بأنه لا علاقة لها ببقية لغات زاغروس، وخاصة العيلامية والحورية، وقدّم الدكتور جمال رشيد أحمد من الأدلة ما يؤكد عكس ذلك، فقال:

---

١ – عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٨. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٢١٢. والخوريون هم الحوريون.

٢ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٢١٢.

"أما اللغة الكاشّية فكانت لها صلة باللغة العيلامية على ما يبدو، بل قد اعتبرها هوزينگ اللهجةَ الشمالية لها... ومن خلال دراستنا للقاموس الكاشّي- البابلي استطعنا التأكد من الخلفية الزاغروسية للمفردات الكاشّية"[1].

وبعد أن قدّم الدكتور جمال رشيد أحمد ثبتاً ببعض الكلمات الكاشّية، ومثيلاتها بالبابلية، أضاف يقول: **"كانت هناك لاحقات مشتركة في كل من الكاشّية والعيلامية، مثل: – مان mân** (العون)، **و – اک ak، والنهاية الاسمية – ياش yãš، وعدد من السابقات مثل: ميري-** (في العيلامية مورو-)، **كما في اسم ميرياش Mîri-yãš ، وكيدار-** (في العيلامية كوتور-)، **وداكيگي** (في العيلامية كيگي)، **وبورنا-"**[2]. وجدير بالذكر هنا أن نتذكر أن موطن الكاشّيين الزاغروسي الأصلي كان يقع في شمالي عيلام مباشرة (لُورِسْتان بعدئذ)، ومن الطبيعي أن يكون ثمة تشابه بين اللغتين الكاشّية والعيلامية.

وقال الدكتور محمد بيّومي مهران:

"يذهب البعض إلى أن اللغة الكاشّية إنما ترجع إلى مجموعة اللغات التي تأخذ بطريقة الإلصاق Agglutination، مثل المجموعة الأسيائية، وإن كنا على غير يقين من ذلك؛ إذ لم تَرِد إلينا حتى الآن أيّةُ نصوص مدوّنة باللغة الكاشّية حتى نتعرّف على قواعدها"[3].

ولعل الأكثر دقةً في تحديد الهوية الحقيقية للغة الكاشّية هو القول بأنها من اللغات الزاغروسية الأصلية، خالطتها لغة الأقوام الآرية التي استقرت في جبال زاغروس قادة من الشرق، وفي ضوء هذا التفسير نفهم قول دياكونوف:

"يوجد اعتقاد بأن المجموعتين العرقيتين المذكورتين (الكاشّي والگوتي) **تتقارب من بعضها من الناحية اللغوية، وإن النهايات** (ش، آش) **الخاصة باللغة الكاشّية يمكن مقارنتها مع** (أُوش، إيش) **والتي هي كلمات گوتية"**[4].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٥٩٣/١.

٢ – المرجع السابق، ٥٩٤/١.

٣ – محمد بيوّمي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٢٩٩.

٤ – دياكونوف: ميديا، ص ١٣٠.

وصحيح أن ملوك الكاشّيين فى كاردونياش (بابل) أبدوا الاهتمام بثقافة البابليين ولغتهم، باعتبار أنها كانت لغة الحضارة والثقافة والإدارة، لكنهم لم يتخلّوا عن استعمال مفرداتهم وأسمائهم الزاغروسية فى التراث الأدبى لحضارة ميزوپوتاميا، حينما بدأوا بإحيائه، فحفظوا تلك المفردات فى أرشيفهم الخاص، باستعمال الأنماط الكتابية القديمة التى تشبه فى علاماتها المسمارية خطَّ حضارة ميزوپوتاميا من عصر فجر السلالات (مطلع الألف الثالث ق.م)[١].

الميثولوجيا الكاشّية:

كانت عقائد الكاشّيين مزيجاً من عقائد أقوام زاغروس القديمة وعقائد الأقوام الهندو أوربية التى استقرت فى زاغروس، وشكّلت الطبقة الأرستقراطية، وفيما يلى أبرز الآلهة الكاشّية بحسب الترتيب الأبجدى العربى:

- **إيميريا:** الإله الراعى للأسرة الكاشيّة المالكة.
- **بَگاش:** وهو (بَگا) الآريانى، و(بوگ) السلاڤى، واشتُقّ منه اسم بغداد (باغ داد/باگ داد)، واسمه موجود فى اسم الملك الكاشّى نازى- بوگاش (بوجاش).
- **بُورْياش:** إله العواصف، وقد ذكره اليونان بصيغة (بورياس)، باعتبار أن اللغة اليونانية لا تشتمل على حرف (ش)، واسمه موجود فى اسم الملك أولام – بُورْياش، والملك بُورْنا- بْورْياش الثانى.
- **خاربى** (هاربى) Harbe: ويبدو أنه كان من الآلهة المهمة؛ إذ كان بعض أسماء ملوك الكاشّيين مركّبة منه، منهم كاداشْمان- خاربى الأول، وكاداشْمان- خاربى الثانى، وكاداشْمان- خاربى الثالث.
- **خُود** Khud: وما زال اسم هذا الإله مستعملاً عند الكورد بصيغة (خُودا) Khuda للدلالة على (الله) بالمعنى التوحيدى.
- **دُور:** إله الخير والبركة، واسمه موجود فى حجارة (كودورّو) كما مرّ

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٥٩٧/١.

- **سُورْياش** Suriash: إله الشمس المضاهى للإله الميتّانى (آسورا)، وللإله الهندى (سوريا) Surye، وللإله الآريانى (آهورا).
- **شُوكامون** (شومو): إله النيران تحت الأرض.
- **شيپاک** Shipak: لم نجد معلومات عنه.
- **شيماليا** Shimaliya: سيدة الجبال المشرقة، والتى تسكن القمة، وكان لهذا الإلهة اسم آخر هو (شيبارو).
- **كاشُّو** Kashshu: إله الكاشّيين الرئيسى، وإليه ينتسبون.
- **مارُوتاش:** إله الحرب، وهو (ماروتاس) اليونانى، و(ماروت) Marut الهندى، ولعله تحوّل عبر القرون إلى الشخصية الأسطورية (مارُوت) المقرونة باسم (هارُوت) فى القرآن **{وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ }**[1].
- **مِيريزِير:** لعله إله الذهب[2]، والمقطع (مَير) يعنى بالكوردية (أمير، زعيم)، والمقطع (زَير) يعنى (ذهب).

وقد دخلت أسماء بعض هذه الآلهة فى تركيب أسماء عدد من الملوک الكاشّيين، مثل الملک بورنا- بورياش الثانى، و نازى- بوگاش (بوجاش)، و أدد- شوما- أوسَر، و زابايا – شوما – أدينا، كما أن الإله شيمالى والإله كاشّو، كانا يُحترَمان كثيراً حتى بعد انقضاء الدولة الكاشّية.

ومن الأدلة البارزة على التجانس الثقافى بين الكاشّيين وأقوام زاغروس الأخرى هو التطابق بين الآلهة الكاشّية والآلهة العيلامية، وأن قسماً من أسماء آلهة الكاشّيين تحمل أسماء آلهة الكوتيين. كما ساوى الكاشّيون بين آلهتهم وبين الآلهة البابلية، فجعلوا (شيپاک) مساوياً لـــ (مردوخ)، و(خاربى) مطابقاً لـــ (إنليل)، وكانوا غيورين على الآلهة البابلية كغيرهم على

---

١ – سورة البقرة: الآية ١٠٢.

٢ – أرشاک سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٤٢. دياكونوف: ميـــديا، ص ١٣١، ١٣٢، ١٣٣. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١/٥٩٠ – ٥٩١. أحمد فخرى: دراسات فى تـــاريخ الشـــرق القديم، ص ٢٠٥, هامش (١). عامر سليمان، أحمد مالک الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ١٣٩.

آلهتهم، والدليل على ذلک أن آگوم (أجوم) الثانی، وهو أول ملک کاشّی سيطر على کل بلاد بابل، أعاد تمثال الإله البابلی مَرْدُوخ وتمثال زوجته الإلهة ساربانتيوم (زرپانتيوم) Sarpanitum اللذين نقلهما الحثّيون- عندما احتلوا بابل- إلى بلادهم، وأقام بهذه المناسبة احتفالاً ضخماً، وأعاد بناء معبد هذا الإله فی بابل، وترک نصّاً طويلاً بشان هذا الحدث[1].

واهتمّ ملوک الکاشّيين کغيرهم من ملوک ميزوپوتاميا ببناء المعابد، وقد بنى الملک کارانداش معبداً ضخماً فی مدينة أُوروک (الوَرْکاء)، هو معبد الربّة إينانا سيّدة السماء، وجداره مبنیّ بالآجُرّ، ومزدان بصورة نافرة لإله وإلهة يحمل کل منهما إناء ينسکب منه الماء إلى الجانبين، ويقدَّر زمنه بحوالی سنة (١٤٣٠ ق.م)، وصحيح أن هذا المعبد ليس ضخماً، لکنه يتصف بتميّزه عن فن البناء الأقدم عهداً فی بلاد بابل[2].

وقال أرشاک سافراستيان بشأن المملکة الکاشّية فی أکّاد وسومر:

"وإلى حوالی ثلاثين سنة مضت کانت المعلومات المتعلقة بهذه المملکة ضئيلة وغير مفيدة، واعتُبر حکم الکاشّيين فی بابل بربرياً وانتکاسياً کحکم گوتيوم فی سومر وأکّاد، لکن اکتشافات النقوش والمواد المعدنية الفنية، فی السنوات الحديثة، عدّلت النظرة إلى حکم الکاشّيين، وتبيّن الآن أنه کانت لهم مدافن عظمائهم، وکانت لهم آلهتهم، ... وإن عدداً کبيراً من المواد البرونزية الرائعة تمثّل الشخصيات الأسطورية والعفاريت والحيوانات والجياد، ووُجدت زخارفها منقوشة فی أجزاء مختلفة من لُورِستان، وهی تعود إلى العهد الکاشّی"[3].

وقال الدکتور أحمد فخری:

"ترک شعب الــ (کاسّی) – کما کان يُنطق فی النقوش الآشورية– اسمه فی مدينة (قَزْوِين) Kasvin، وفی اسم (بحر قَزْوِين)، کما أن کلمة قصدير (باليونانية: کاستيريوس) معناها (المعدن الآتی من الکاسيين)، وکان اسم هَمَذان قبل العصر الميدی (أکاسّيا)

---

١ – محمد بيّومی مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠٥. توفيق سليمان: دراسات فی حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٥٢. جمال رشيد أحمد: ظهور الکورد فی التاريخ، ٥٨٨/١.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الکورد فی التاريخ، ٥٨٩/١. عبد الحکيم الذنون: الذاکرة الأولى، ص ١٠١.

٣ – أرشاک سافراستيان: الکورد وکوردستان ، ص ٤٢ – ٤٣.

Akessaia، وهى مشتقة من كلمة (كار– كاسى) الآشورية، ومعناها (مدينة الكاسّيين)"[1].

– – –

وأخيراً جدير بالذكر أن الكاشّيين عادوا إلى مواطنهم الأصلية فى الجبال، بعد أن سلبهم الآشوريون الحكم فى بابل، وظلوا معروفين باسمهم فى القرون التالية، ولم تنقطع الصراعات بينهم وبين السلطات الآشورية، وكانت مواطنهم عصيّة على ملوك آشور، وكان هؤلاء يشنّون عليها الحملات واحدة تلو أخرى، ويزرعون الدمار، ويفتكون بالسكان، وقد ذكر الملك الآشورى سَنْحاريب (سَنخاريب) Sanichareb (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م) ذلك أكثر من مرة، قال:

"فى حملتى الثانية، أعاننى آشور سيّدى إلى بلاد الكاشّيين وبلاد اليَعْسوبْجلايين التى لم تكن خاضعة لِمُلْك آبائى منذ القِدم، مضيتُ إلى وسط المرتفعات الشاهقة، راكباً على الخيل فى الميدان الوَعر، ومحمِّلاً مركبتى على الأعناق، أخطو فى الموضع الوعر على قدميّ كالثور الوحشى"[2].

ويبدو أن الكاشّيين كانوا عنيدين فى مقاومتهم للسلطات الآشورية، وكانوا يفجّرون الانتفاضات والثورات ضدهم، وكى يقضى ملوك آشور على المقاومة الكاشّية، كانوا يعمدون إلى تهجير الثائرين من ديارهم الجبلية المنيعة، وتوطينهم فى المناطق السهلية القريبة من مراكز الحكم، كى تسهل مراقبتهم، قال سنحاريب:

"أهل بلاد الكاشّيين وبلاد اليَعْسوبْجِلايين، الذين فرّوا من أمام سلاحى، أنزلتهم من وسط الجبال، وأقعدتُهم فى مدينتى خردسبى وبيت – كوباتّى، وعهدتُ بهم إلى تابعى، محافظ أرّابخا"[3].

---

١ – أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٢٠٦، هامش (١).

٢ – نائل حنون: حقيقة السومريين، ص ١٣٨.

٣ – المرجع السابق، ص ١٣٩. أرّابخا هى منطقة كركوك.

٣

الحوريون Hurrites

جذور الحوريين

كالعادة ألقت إشكالية الأسماء القديمة ظلالها على الحوريين، فالاسم الشائع لهؤلاء القوم هو (حورى)، أما اللفظ الصحيح فهو (خُورّى) بالخاء وتشديد الراء، ولهذا الاسم صلة بكلمة (خُرَدى) التى ترد فى النصوص الحورية والأورارتية، وتعنى Huradi (الجندى اليَقِظ). وسمّاهم الحثّيون خور- ليش Hur-lêsh وخورلوش Hur-lush، وهذه الصيغة جمع مفردها (خور-لو)، وكانت تُقرأ بصيغة (خوررى)، ويسمّى شعب حورى باسم (هورى) أيضاً، وما زال هذا الاسم مستعملاً عند الكورد، وثمة فى منطقة عِفْرِين (جبل الكورد، فى أقصى غربى كوردستان) رجال يحملون اسم (هُورو، هُوريك، أُورْيان)، ونساء يحملن اسم (هُورَى) [١].

وقال جرنوت فيلهلم:

"لقد ورد اسم الحوريين بصيغة (حُورِيم) فى كتاب (العهد القديم)، دون أن يُقصَد به الدلالة على الحوريين بالمفهوم التاريخى واللغوى. ومعنى هذا الاسم غير معروف حتى الآن، فثمة تفسيرات عدّة اقتُرحت، ولكنها بقيت كلها تفتقر إلى دليل مقنع جازم" [٢].

ونذكر بهذه المناسبة أن (الياء والميم) علامة الجمع فى العبرية، وما ذكره جرنوت فيلهلم غير دقيق بما فيه الكفاية، فثمة من الأدلة ما يؤكد أن ال (حوريم) الذين ذكرهم كتاب (العهد

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٦٠٦/١. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٧.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٧.

القديم) لم يكونوا شعباً آخر سوى الشعب الحورى، وقال الدكتور جمال رشيد أحمد فى هذا الشأن:

"**وظاهرة وجود عدد كبير من الخوريين فى فلسطين لا تحتاج إلى مناقشة طويلة، فرغم عدم ورود خبر فى التوراة عن الخوريين الذين يعيشون فى منطقة يَزْرائيل** [= مرج ابن عامر حالياً]، **لكن أسماء الأعلام الخورية المسجّلة فى ألواح تَعْنَك** [= قرب جنين] **التى اكتُشفت بوادى يَزْرائيل تبيّن حقيقة كون سكّان هذه المنطقة من الخوريين، وقد درس أ. غوستاف A.Gustavs هذه الأسماء التى كان أغلبها هى خورية وأكثر بكثير من الأسماء الكنعانية. وهذا الواقع ينطبق على أماكن أخرى من فلسطين خلال أواسط الألف الثانى قبل الميلاد**"[1].

وثمة اختلاف فى تحديد هوية الحوريين؛ فذكر الدكتور عبد الحميد زايد أنهم ليسوا ساميين ولا آريين (هندو أوربيين)، وأنهم جاؤوا من المرتفعات الواقعة شمال شرقى الهلال الخصيب، بين بحيرة أُورْمِيَه وجبال زاغروس، وكانوا يقيمون هناك منذ الألف الثالث ق.م، وفى أواخر القرن الثالث عشر ق.م دخلوا شمالى بلاد الرافدين وشمالى سوريا، وأسسوا إحدى الممالك القوية هناك، و لم تكن لغتهم سامية ولا آرية، ويميل بعض العلماء إلى اعتبارها قوقازية[2].

أما الدكتور توفيق سليمان فذكر أن القبائل الحورية هاجرت إلى شمال غربى بلاد ما بين النهرين، واستوطنت المناطق الواقعة فى أعالى نهر الخابور، وقد شكّلت جزءاً مما يسمّى الموجة الهندو آرية الكبرى، وكانت هذه القبائل قد سلكت طريقة سلمية فى انتشارها، شبيهة بالطريقة التى اتبعتها القبائل الكاشّية فى بداية دخولها إلى بلاد بابل، وكانت عشائرها بادئ الأمر بدواً رحّلاً، ثم اشتغل بعضهم عمالاً ومستخدمين لدى سكّان القرى والمدن الأَمُورية (العَمُورية)، وخاصة فى مملكة (مارى) المجاورة للجغرافيا الحورية[3].

وأفاد جرنوت فيلهلم أن الحوريين لعبوا دروا مهماً فى أواسط الألف الثانى ق.م فى نقل الحضارة إلى سوريا وآسيا الصغرى. وأضاف جرنوت أن المناطق الواقعة على جانبى المجرى

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٦٠٨/١ - ٦٠٩.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٢٩. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٣٧٣، ٥٦١.

٣ - توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٢.

العلوى لنهر دجلة وروافده الشرقية كانت المَواطن الأولى للحوريين فى الشرق القديم. وقد أكّد الدكتور جمال رشيد أحمد هذه المعلومات، مستدلاً على ذلک بما جاء فى الكتابات المسمارية فى الألف الثانى ق.م، وذكر أن الحوريين (الخوريين) كانوا سكان المناطق الشرقية على نهر الزاب الأسفل، ووصلت مناطق انتشارهم إلى وان شمالاً، وإلى آسيا الصغرى وحلب فى شمالى سوريا غرباً[1].

ونستنتج مما سبق أن الحوريين- كالكاشّيين- هم فى الأصل من أقوام زاغروس، امتزجت بهم عناصر آرية (هندو أوربية) قادمة من الشرق، وتشكّل تكوين جديد عُرف بهذا الاسم، وقال الدكتور جمال رشيد أحمد فى هذا الشأن:

"تؤكد الدلائل المتوفرة لدينا على أن مهد الخوريين كانت البلاد الكوردية الحالية التى تمتد من جبال زاغروس شرقاً حتى البحر الأبيض المتوسط غرباً، وكان ظهورهم فى التاريخ منذ الألف الثالث ق.م، حيث أشارت السجلات المسمارية فى الألف الثانى ق.م إلى أن هؤلاء كانوا سكان المناطق المشرفة على نهر الزاب الصغير (شَمْشاره وحواليها) بسهل بَيتْواتَه وكركوک وأربيل والموصل ووان والجزيرة ووديان نهر الخابور وحتى حلب وحواليها، وبعدما وقع هؤلاء تحت تأثير الحضارة السومرية والأكّادية أصبحوا الوسيط الذى نقل معالم حضارة وادى الرافدين إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام"[2].

وقال جرنوت فيلهلم:

"تقدم لنا رسائل مارى أخباراً مباشرة عن الضغط السكّانى فى الأطراف الشرقية، وتذكر أن سكان زاغروس المسمِّين (توروكّو) Turukku اضطروا بسبب الجوع إلى غزو المستوطنات، ونهب المواد الغذائية منها، ويلاحَظ أن أسماء أولئک الــ (توروكّو)- ولا سيّما أسماء قادهم- حورية"[3].

وقال جين بوترو وزملاؤه:

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٢٤، ٢٩. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٦٠١/١.

٢ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٦٠١/١.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٣.

"نجد فى أواخر الفترة الأكّادية أول ذكر لشعب آخر غير سامى، قُدّرت له هذه المرة أيضاً العظمةُ فى الألف سنة التالية، فلا بد أن الحوريين وصلوا فى هذا الوقت من الشمال أو من الشرق، إلى الحافات الشمالية من الأراضى العليا، حيث يظهر أنهم احتلوا أو أسسوا عدّة مدن، وبشكل خاص أوركيش Urkish، وناوار Nawar، وكاراخار Karhar (قَرْقَر) فى منطقة ماردين الحالية، وإننا نعرف ذلک من بعض النصوص، حيث فيها أسماء الأشخاص، وحتى اللغة أحياناً، حورية"[1].

الانتشار الحوري

مع مطلع الألف الثانى ق.م، أو حوالى عام (١٦٩٠ ق.م) حسبما ذكر وليام لانجر[2]، بدأت هجرة الحوريين، وانتشروا فى جهات عدّة، وكان ذلک نتيجة وصول بعض القبائل الآرية إلى جبال زاغروس والمناطق التاخمة لها، قادمة من الشرق والشمال، وشملت الجغرافيا التى انتشر فيها الحوريون مناطق شاسعة تمتد من مناطق وان شمالاً، إلى مناطق شَوشارَه (شَمْشاره) ونُوزى قرب كركوک جنوباً، وإلى شمالى الموصل غرباً، وقال جرنوت فيلهلم بهذا الصدد:

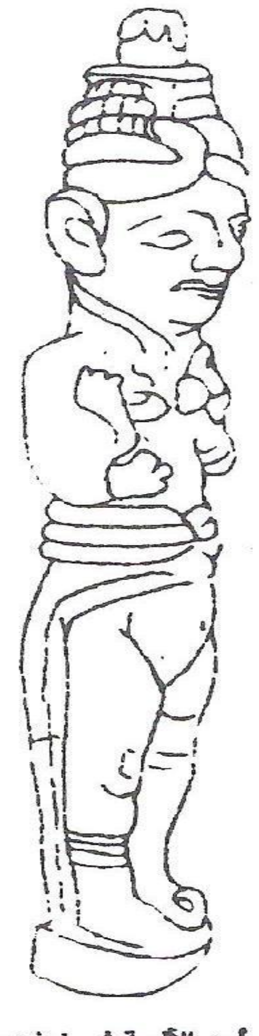
"وصلتْ إلينا من مدينة (شُوَشَارّا) الواقعة على المجرى العلوى لنهر الزاب السفلى– وهى على الأرجح مطابقة لــ (شَشْرُم) المذكورة مراراً فى نصوص عصر سلالة أور الثالثة– نصوصٌ تعود إلى فترة حكم حاكم محلّى يُدعى (كُوارى)، ويمكن الجزم بأن سكانَها كانوا من الناطقين بالحورية؛ نظراً لكثرة الكلمات وأسماء الأعلام الحورية الواردة فى تلک النصوص. وإلى الجنوب منها تقع مدينة نُوزى التى نشأت فى موضع مدينة جاسور القديمة، وقد كانت نُوزى، خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م، مأهولةً بسكان يتحدثون الحورية أيضاً"[3].

---

١ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ١٣٤.

٢ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١.

٣ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٢.



أحد الآلهة في نوزي

وكان الانتشار الحورى قد امتد غرباً أكثر، فوصل إلى شمالى سوريا منذ سنة (٢٢٠٠ ق.م)، وامتد إلى سوريا الداخلية وخاصة حول نهر العاصى (أُورِنْت) وتحديداً فى أَلالاخ (تل عَطْشانة حالياً) الواقعة بين حلب وأنطاكيا واللاذقية[١]. كما أن الانتشار الحورى وصل إلى سوريا الساحلية (فينيقيا) وخاصة أوغاريت، وذهب الحوريون بعيداً باتجاه الجنوب، يقول جين بوترو وزملاؤه:

"علينا ألاّ نستهين بنسبة السكان الخوريين فى شمال وادى الرافدين وشمالى سوريا، فهناك نسبة عالية من الأسماء الخورية فى نصوص العصر البابلى القديم فى (أَلالاخ)، وإن كانت السلالة المحلية سلالة أمورية. ومع القرن الخامس عشر كانت (أَلالاخ) قد أصبحت بشكل عام حورية"[٢].

وقال القسّ صموئيل يوسف خليل:

"ورد في (تك ١٤ :٦) عن الحوريين الذين عرفوا باسم Hurrians، ولعبوا دوراً كبيراً وهاماً فى الألف سنة الثانية ق.م، وكان للحوريين مركز أساسى عرف باسم نوزو Nuzu أو يُورْغان تَبَة Yorgan Tepa عبارة عن هضاب مجاورة جنوب غرب مدينة كركوك باثنى عشر ميلاً، عُثر فيها على العديد من اللوحات الأثرية التى تُلقى ضوءاً أشبه بالخلفية التاريخية الواردة بسفر التكوين"[٣].

ويقصد القسّ صموئيل الحوريين الذين كانوا مقيمين فى (جبل سَعِير)، وهو يقع حالياً فى جنوبى الأردن، قرب وادى عَرَبة باتجاه خليج العقبة، وقد جاء ذكرهم فى كتاب العهد القديم:

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٦٠٥/١.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٧. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكّرة، ص ٢٠٠. بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ١٦٢.

٣ - القس صموئيل يوسف خليل: المدخل إلى العهد القديم، ص ١١٢.

"**وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشَرَةَ أَتَى كَدَرْلَعَوْمَرُ وَالْمُلُوكُ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرَّفَائِيِّينَ فِي عَشْتَارُوثَ قَرْنَايِمَ، وَالزُّوزِيِّينَ فِي هَامَ، وَالإِيمِيِّينَ فِي شَوَى قَرْيَتَايِمَ، والْحُورِيِّينَ فِي جَبَلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بُطْمَةِ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ**"[1].

وكان الحوريون قد توغّلوا فى الجنوب، فوصلوا إلى فلسطين، وخاصة مدينة يَبُوس (بالعبرانية أورشليم، وبالعربية: القدس). وقد جاء فى كتاب (العهد القديم) أن الحوريين كانوا سكّان جبل (سَعِير) فى وادى عَرَبة (جنوبى الأردن حالياً)، وبعدئذ سُمّيت تلك المنطقة (أَدُوم) نسبة إلى الأدوميين أبناء عِيسُو بن إسحاق بن إبراهيم، وجاء فى العهد القديم:

"**هؤُلاَءِ بَنُو سَعِيرَ الْحُورِيِّ سُكَّانُ الأَرْضِ: لُوطَانُ وَشُوبَالُ وَصِبْعُونُ وَعَنَى وَدِيشُونُ وَإِيصَرُ وَدِيشَانُ. هؤُلاَءِ أُمَرَاءُ الْحُورِيِّينَ بَنُو سَعِيرَ فِي أَرْضِ أَدُومَ**"[2]. وجاء فى العهد القديم أيضاً: "**وَفِي سِعِيرَ سَكَنَ قَبْلاً الْحُورِيُّونَ، فَطَرَدَهُمْ بَنُو عِيسُو، وَأَبَادُوهُمْ مِنْ قُدَّامِهِمْ، وَسَكَنُوا مَكَانَهُمْ**"[3].

وقد ذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أنه بعد سيطرة الحثّيين على مملكة ميتّانى الحورية- وكان مركزها فى شمالى سوريا حالياً- تداخل اسم الحوريين والحثيين فى النصوص العبرانية، وصار العبرانيون يعتبرون الحوريين جزءاً من المجتمع الحثّى فى سوريا، وأن حثّيو عهد النبى إبراهيم هم (الحاتيون) الذين عاشوا مع الخوريين جنباً إلى جنب فى فلسطين خلال الألف الثالث ق.م، وانتشر فى فلسطين اسم المعبود الخورى الإله (بورى)، وكانت هناك مدينة فلسطينية باسم (خورو)[4].

وإن الإشارات القليلة جداً فى كتاب (العهد القديم)؛ حول انتشار الحوريين فى سوريا وفلسطين، هى أشبه بالجزء الصغير الذى يبدو من جبل الجليد، وثمة حقائق كثيرة وهامة بشأن

---

١ – العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ١٦، الآيتان ٥– ٦.

٢ – العهد القديم، سِفْر التَّكوين، الأصحاح ٣٦، الآيتان ٢٠، ٢١.

٣ – العهد القديم، سِفْر التَّثْنِيَة، الأصحاح ٢، الآية ١٢.

٤ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٦٠٩/١ — ٦١٠.

الوجود الحورى فى شرقى سواحل البحر الأبيض المتوسط، ونكتفى هنا بذكر قليل منها. قال أبراهام مالمات وحاييم تدمور:

"قُبيل منتصف الألف الثانى ق.م تزايد المدّ السكانى الحورى والهندو إيرانى المتسلل من مملكة الميتّانيين الواقعة شمالى أرض كنعان، ... وعلى الرغم من قلة أعداد الأجانب بالمقارنة مع السكان الكنعانيين القدماء، فقد أفلح هؤلاء الغرباء فى الإمساك بدفّة الحكم فى عواصم ملكية كثيرة، وذلك بفضل تفوّقهم التكنولوجى والعسكرى؛ الذى استند فى المقام الأول إلى القتال بجيش محمول على العجلات الحربية، وقد امتزجت هذه النخبة غير السامية بالاستيطان الكنعانى الأصلى، بحيث تربّعت اللغة والديانة الكنعانية على قمة الهرم الروحى، أما فى إطار الحضارة المادّية، وأنماط المعيشة، فقد تعاظم نفوذ السكان الأغراب وتأثيرهم"[١].

وقال أبراهام مالمات وحاييم تدمور بصدد حملات أُمُنْحُوتب الثانى (١٤٣٦ – ١٤١٣ ق.م) على سوريا وفلسطين:

"تدل أسماء الرجال المذكورين فى ألواح تَعْنَك [= قرب جِنين بفلسطين]**، بما لا يدع مجالاً للشك، على الانتماءات الإثنية المتشابكة، وإن كانت غالبيتهم العظمى محسوبة على السكان الساميين الكنعانيين، ومع ذلك برزت إلى جوارهم العناصر الحورية والهندو إيرانية"**[٢].

وقال جين بوترو وزملاؤه:

"فى فترة أور الثالثة، كان الخوريون لا يزالون مستقرين فى المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر دجلة فقط، وفى العصر البابلى القديم توسّعوا نحو الغرب، حتى إنهم عبروا الفرات. وإن شمال وادى الرافدين يقدم صورة من عناصر سامية خورية مختلطة مع الجانب الخورى الذى كان يأتى بالمقدمة بشكل متزايد، وإن ثُلث أسماء الأشخاص التى وُجدت فى شاغر

١ – أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٧٢ – ٧٣.

٢ – أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٨٣.

بازار هى خورية، فهى أكثر من الأسماء الكنعانية (والأكّدية هى الأغلبية)، وعلينا أن نكون حذرين فى تقويم مثل هذه الإحصاءات فى منطقة ذات سكان مختلطين إلى هذه الدرجة"[1].

وقال جرنوت فيلهلم بشأن الوجود الحورى فى ألالاخ:

"تُعَدّ النصوص المكتشفة فى مدينة ألالاخ، على المجرى السفلى لنهر العاصى، أبعدَ المواقع غرباً التى كُشف فيها عن نصوص من العصر البابلى القديم، تتضمّن أسماء أشخاص حوريين. وتشكّل الأسماء الحورية المذكورة فى نصوص الطبقة السابعة– تؤرَّخ بالنصف الأول من القرن السابع عشر ق.م حتى (١٥٦٠ ق.م)– حوالى نصف أسمائها، وتبلغ نسبة الأفراد حاملى الأسماء الحورية حوالى ثلاثة أثمان (٣٧.٥%) مجموع السكان بشكل عام"[2].

ومع بداية الألف الأول ق.م كان الحوريون يشكّلون أكثرية سكان أُوغاريت (رأس شَمْرا) على الساحل السورى شمالى اللاذقية[3].

وكى نكون أقدر على فهم الصراعات بين القوى الإقليمية فى غربى آسيا قديماً؛ ينبغى أن نعرف المصالح التى كانت كل قوة تسعى إلى تحقيقها، وفى هذا الإطار يتضح أن (الجغرافيا) كانت الهدف الرئيسى كل مرة، لكن ليس بالمدلول الطوبوغرافى فحسب، وإنما بالمدلول الاقتصادى والجيوسياسى فى الدرجة الأولى، وقد تناولنا أكثر من مرة أهمية طريقَى التجارة العالميين (طريق الحرير وطريق البخور) فى السياسات الغرب آسيوية القديمة، ولن نسير فى الاتجاه الصحيح– ونحن نبحث فى تاريخ الحوريين– ما لم نأخذ فى الحسبان دور هذين الطريقين فى مسارات التاريخ الحورى.

إن الحوريين كانوا يهيمنون على الجغرافيا الممتدة بين منطقة كركوك فى جنوب غربى جبال زاغروس، وإلى سواحل البحر الأبيض المتوسط فى الشمال الغربى، وهذا يعنى أنهم كانوا يسيطرون على جزء مهمّ من طريق الحرير القادم من شرقى آسيا، وكانوا يسيطرون على نهايات طريقى الحرير والبخور فى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى

---

١ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكّرة، ص ٢٠٠.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤١.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٦١١/١.

سيطرتهم على الشريان التجارى المهم الذى كان يربط بلاد الرافدين بموانئ البحر الأبيض المتوسط، مروراً بمنطقة الجزيرة، وبمدينة كِرْكِميش (قِرْقِميش، قرب الفرات على الحدود التركية السورية الآن).

وعلى ضوء هذه الحقائق نصبح أقدر على فهم أسباب تغلغل الحوريين فى سوريا الداخلية، ووصولهم جنوباً إلى البلاد التى سُمّيت فى العهد القديم (أرض كَنْعان)، وسُمّيت بعدئذ (فلسطين)، وتغلغلهم فى الجنوب أكثر، وتمركزهم فى منطقة جبل سَعِير بوادى عَرَبة، حيث كان يمر طريق البخور القادم من اليمن عبر غربى شبه الجزيرة العربية، والسائر شمالاً نحو دمشق، ونحو بقية سواحل شرقى المتوسط وآسيا الصغرى. وذكر أبراهام مالمات وحاييم تدمور أن الحوريين كانوا تركيبة عرقية خاصة، يختلفون عن الكنعانيين حتى فى نظامهم السياسى والاجتماعى، وكانوا يؤثرون النظام الأبوى، حيث تبوّأ الزعامة فيهم شيوخ لا ملوك، وأن سكان نابْلُس، على الأقل جزء منهم، انتسبوا إلى الحوريين[1].

مملكة حوري سياسياً

من أوائل الملوك الحوريين الذين ذكرتهم النصوص المسمارية ملك يدعى (كِيكْلِيب- أَتَلْ)، وكان مقرّ حكمه فى مدينة توكريش بكوردستان الجنوبية (إقليم كوردستان — العراق حالياً)، وكانت فترة حكمه فى نهاية الألف الثالث ق.م. وقد تمكّن الحوريون من تأسيس دولة واسعة بعد سقوط الإمبراطورية الأكّادية وزوال السيادة الگوتية فى سومر وأكّاد، وكان الملك الذى يقود تلك الدولة الواسعة يدعى (أَتَلْ- شين)، ويرد اسمه أحياناً بصيغة (آرى- شين)، وقد ترك لوحاً من البرونز عُثر عليه فى أساس معبد نرْگال، عليها كتابة مدوَّنة بالخط المسمارى وباللغة الأكّادية، جاء فيها "**أن أَتَلْ شين بن شَتَرْمَات هو ملك أُوركيش ونَوار**"[2].

وتتطابق نَوار بالتأكيد مع الموقع المسمّى فى المصادر الآشورية والبابلية بـــ "**نَمار، نَمْرى**"، ويقع هذا الموقع فى مناطق زاغروس، بين نهرى ديالى والزاب الأسفل. أما مدينة (أوركيش)

١ – أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ١٤٩ – ١٥٠.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٦٠٣/١.

Urkish فكانت عاصمة المملكة الحورية فى أواخر الألف الثالث ق.م، والأرجح أنها كانت تقع فى منطقة الخابور، وقد طابقها ڤان لير Van Liere (عام ١٩٥٧م) وهرودا Hrouda (عام ١٩٥٨م) مع تل عامودا الواقع شمالى مدينة عامودا قرب الحدود السورية التركية، وكانت مدينة دينية مهمة، ومركزاً لعبادة الإله (كُومارْبى) الإله الرئيس فى الميثولوجيا الحورية، وهذا يعنى أن مملكة الحوريين امتدت من مثلّث الخابور حتى مناطق نهر ديالى، وشملت شمالى آشور، أما امتدادها نحو الشمال فربما كان يصل إلى المناطق الجبلية جنوبى بحيرة وان، حيث ظلت اللغة الحورية مستخدمة بعد خمسة عشر قرناً من الزمن[١].

وفى عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٣ – ٢٠٠٤ ق.م)، أو (٢١١١ – ٢٠٠٣ ق.م)، شنّ الملك شولگى (٢٠٢٩ – ١٩٨٢ ق.م)، ثانى ملوك سلالة أور الثالثة، ثلاث حملات ضد الحوريين، كانت الأولى والثانية موجَّهتين ضد بلاد كاركار (خارخار) وسمورروم الواقعتين شمال شرقى جبل حَمْرِين، أما الثالثة فكانت حرباً شاملة؛ إذ عَبَر شُولگى كل مناطق شرقى دجلة، ووصل حتى شَشْرُم (شَوشاره) وأُربيلُم (أربيل) وبلاد اللوللوبيين (فى مناطق سليمانية حالياً)[٢].

وسار أَمرَسين (١٩٨١ – ١٩٧٣ ق.م)، خليفة شُولگى، على نهج سلفه، ففرض سيطرته على مناطق شرقى دجلة، وشنّ حملتين على مدينتى أُربيلُم وشَشْرُم اللتين كانتا تشكلان المواقع الأمامية لمناطق نفوذه، وخلال حملات شُولگى وأَمرَسين نُقل كثير من الأسرى الحوريين إلى بلاد سومر، وتمّ تسخيرهم كقوى عاملة، وقد وردت أسماء بعضهم فى النصوص المسمارية،

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣٤، ٣٥. دياكونوف: ميديا، ص ١٠٥.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣٦. نقلنا فى صفحات سابقة قول جين بوترو وزملائه بأن "**كاراخار Karhar** (قَرْقَر) **تقع فى منطقة ماردين الحالية**". ونحن أمام أحد خيارين: إما أن جين بوترو وزملاءه لم يكونوا دقيقين فى تحديد المكان. وإما أنه كان ثمة مكانان يحملان هذا الاسم، وهذا ممكن جداً فى كوردستان قديماً وحديثاً. انظر جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ١٣٤.

ومع ذلك لم يستطع ملوك سلالة أور الثالثة السيطرة على العاصمة الحورية أوركيش، وبقيت خاج نطاق نفوذهم، إذ لم يَرِد لها ذكر في أخبار الحملات الحربية السومرية[1].

وحينما بدأت الموجات الأَمورية (العَمورية) القادمة من شرقي سوريا نحو ميزوپوتاميا، وراحت تضغط على سلالة أور الثالثة في أواخر الألف الثالث ق.م، تحرر الحوريون من نفوذ السلالة المذكورة، وتمكّنوا من إعادة سيطرتهم على معظم الجغرافيا التي كان يقيم فيها أسلاف الكورد، والتي عُرفت بعدئذ باسم (كوردستان)، حتى إن الملك تِيش أَتَل لقّب نفسه بـــ (رجل نينَوى)؛ لأنه كان مسيطراً على الأجزاء العليا من بلاد آشور، وخاصة المدينة التي كانت مركز عبادة الإلهة الأم شاوُوشْكا[2].

وذكر جرنوت فيلهلم أنه بُعيد وفاة الملك الآشوري شَمْشي أَدَد (حكم بين ١٨١٤ – ١٧٨٢ ق.م)، سرعان ما انهارت المملكة التي أقامها بفضل براعته الدبلوماسية وهيبته العسكرية، وقد استطاع وريثه إشْمي دَجَن المحافظة على سيادته في بلاد آشور، لكنه لم يستطع السيطرة على شمالي ميزوپوتاميا (بلاد الرافدين)، وظهرت في تلك المنطقة حينذاك عدّة سلالات حاكمة، كان زعماؤها يحملون أسماء حورية واضحة، مثل: أَتَل شِنّي حاكم (بُورُونْدُم)، وشُكْرُم تِشُوب حاكم (إلَخُت)، كما نجد حكاماً كثيرين ذوي أسماء حورية، كانوا يحكمون في مناطق دجلة العليا شمالي بلاد آشور، منهم: نَنيب شَويري حاكم (خابوراتُم)، شَدو شَرّي حاكم (أَزوخينُم)، وتيش أُلْمِ حاكم (مَرْدَمان)[3].

وذكر وليام لانجر أنه حوالي (١٦٠٠ – ١٥٠٠ ق.م) "**نظّم الحوريون إمارات، مثل مملكة أرّابْخا الصغيرة (مشتملة على نوزي)، ونعرف منها ثلاثة ملوك: أتْخي تِشُوب (ابن كبي – تِشُوب)، أتْخِيا، كيرنزي**"[4].

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣٦ – ٣٧.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٦٠٣/١ – ٦٠٤.

٣ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٤.

٤ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١

وذكر هارى ساغز أنه ورد فى نصّ، يعود إلى منتصف القرن السابع عشر ق.م، اسمُ أربعة ملوك حوريين؛ وهذا دليل على أن الشعب الحورى كان ما يزال يعيش فى ممالك متعددة، وليس فى مملكة موحَّدة، وبعد عام (١٥٥٠ ق.م) بقليل ظهرت مملكة مؤسسة على قواعد حورية تُدعى ميتّانى إلى الشرق من نهر الفرات، وقد وُجدت دويلات أخرى مشابهة فى سوريا وكيليكيا وشمال ميتّانى، وكانت ميتّانى أقوى الممالك الحورية[١] .

وقال جرنوت فيلهلم مؤكداً سعة جغرافيا الدولة الحورية:

"تكثر المصادر التاريخية، بدءاً من أواخر القرن الثامن عشر ق.م؛ ولا سيّما فى عهدى شَمْشى أَدَد ملك آشور، وحَمُورابى ملك بابل، وأبرزُها الوثائق المكتشفة فى مملكة مارى الفراتية، وهى تقدّم لنا صورة شاملة عن وجود دولة حورية كانت تمتد من شمالى سوريا وشمالى بلاد الرافدين، حتى منطقة شرقى دجلة وجبال زاغروس. إن تمييزَ هذه الدولة ووصفَها بـــ (الحورية)، يعتمد على حورية أسماء ملوكها، وعلى حقيقة ملاحظة أن قسماً كبيراً من السكان كان يتحدث باللغة الحورية؛ وذلك اعتماداً على إحصاء أسماء الأشخاص المقيمين فى تلك المنطقة الواسعة الواقعة جنوبى السلسلة الجبلية العالية (طوروس)"[٢] .

وقال وليام لانجر:

"ربما كان موطن الحوريين فى بلاد نايرى [أورارتو]**، وهى الاسم الذى أطلقه الآشوريون على الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق من بحيرة وان، ... تحرك الحوريون من هناك جنوباً فى أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد إلى شرق آشور وغربها، وأسسوا عدداً من الإمارات التى اتحدت بعد ذلك تحت حكم ملوك ميتّانى. وامتدت مملكة ميتّانى من قرقميش على الفرات حتى قرب نهر دجلة الأعلى، مشتملة على وديان باليش** [= ربما هى: بالِس] **وهابور** [= خابور] **ومقاطعة نصيبين. وفى شرق دجلة تشمل أيضاً أرّابْخا (كركوك الحالية) التى كانت قبل ذلك مملكة حورية منفصلة، وليس من المعروف إذا كانت شملت أَرْبِل أيضاً.**

---

١ – هارى ساغز: عظمة آشور، ص ٥٤.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٠.

انتشر الحوريون كذلك في أجزاء من آسيا الصغرى سوريا وفلسطين دون أن ينظّموا ممالك دائمة. وثبت وجودهم حوالي منتصف الألف الثاني في بُوغاز كُوى [= خاتُّوشا]**، عاصمة الحيثيين، وفي رأس شَمْرا (فينيقيا الشمالية)، وفي أورشليم وطناخ وفي بلاد أَدُم (الحور)، وربما اشتملت جموع الهكسوس على فئات من الحوريين**"[1].

ومن أبرز ملوك الحوريين أَتَل شِن، وهو يصف نفسه بأنه ابن (شَتَر- مات)، وهذا اسم حوري، أما فترة حكم أَتَل شِن فهي غير معروفة بدقة، والأرجح أنها كانت في أواخر العصر الگوتي (نحو ٢٠٩٠ – ٢٠٤٨ ق.م)، وربما بعد ذلك بقليل. وثمة ملك حوري آخر كان يحكم في أواخر العصر الأكّادي أو خلال العصر الگوتي، يدعى (كِيكْليب- أَتَل)، ومدينته هي (تُوكْريش)، وهو معروف من خلال نص شعائري ديني حوري- حتّى اكتُشف في العاصمة الحثية (خاتّوشا)[2].

وقد تبيّن في أحد الأختام الحورية أن الملك أتل شِن قد وضع العلامة الدالة على الألوهية أمام اسمه، كما كان يفعل عدد من ملوك الأكّاديين، ووصف نفسه بملك كاراخار (خارخار) الواقعة في أعالي نهر ديالى، وقام ملوك آخرون بتأليه أنفسهم، مثل أدى سين ملك سيمورروم، وابنه زاردامو ملك كاراخار، ومنذ هذه الفترة اشتهر ملوك حوريون حكموا شمالي ميزوپوتاميا، ومنهم:

١) أَتَل شيني: ملك بوروندوم (قرب غازى عَيْنتاب، في المنطقة الكوردية بجنوبي تركيا حالياً).

٢) شُوكروم تِشُوب: ملك إيلاخوت (بين كِرْكِميش والبحر المتوسط).

٣) نانب شاويرى: ملك خابوراتوم (قرب تل عَجاجة على نهر دجلة).

٤) شادوشَرى: ملك أزيخينوم (قرب نُوزى في إقليم كركوك حالياً).

٥) تِيش أُولْمِيَه: ملك ماردنام (ماردين في المنطقة الكوردية بجنوب شرقي تركيا حالياً).

---

١ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٠/١ – ٦١.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣٥.

٦) شِين نام: ملك أوشوم (على نهر الفرات قرب أُورْفَه فى المنطقة الكوردية بجنوب شرقى تركيا).

٧) أَنِيش حُورْبى: ملك خاشوم (قرب كِرْكِميش على الحدود السورية التركية حالياً)[١].

وفى القرن الثامن عشر ق.م، وإلى الشمال من كركميش كانت تقع سلسلة من الدول الحورية، منها أُورشو Urshu، وخَاشُّوم Hasshum (تقع شمال غربى حلب)[٢]، ويبدو أن سيطرة الحوريون على شمالى سوريا ظل مستمراً فى القرنين التاليين، وقال جرنوت فيلهلم فى هذا الصدد:

"**أما فى الفترة التاريخية- حتى حوالى ١٥٦٠ ق.م- فيلاحَظ غلبةُ الطابع الحورى فى حلب وألالاخ، رغم استمرار حكم ملوكها ذوى الأسماء الأمورية، ولا ينعكس ذلك فى الهوية اللغوية لأسماء الأشخاص فحسب، بل فى هوية المجتمع الدينى والمصطلحات المستخدمة فى الشعائر الدينية. وإذا كان لاندس برجر قد تحدّث (فى عام ١٩٥٤) عن وجود أربع ممالك حورية غربى الفرات، هى: حلب، أُرْشُوم، خَاشُّوم، كَرْكَميش، فإنه- على الأرجح- قد أصاب فى وصف حقيقة الوضع، مع تحفّظى على تصنيفه كركميش بينها**"[٣].

وعلى العموم كانت شهرة الحوريين فى غربى آسيا كبيرة، حتى إننا نعرف من الوثائق المصرية أن الطريق الدولى الحربى الكبير، المار من فلسطين إلى مصر كان يُعرَف باسم (طريق حور الكبير).

الأوضاع الحضارية الحورية

ثمة أدلة كثرة على أن الحوريين تركوا بصمات حضارية كثيرة فى غربى آسيا، ويقول جرنوت فيلهلْم: "**جاء الحوريون فى حوالى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد من المناطق الجبلية الواقعة فى شَمال شرقى بلاد الرافدين، ثم خضعوا لتأثير الحضارة السومرية الأكّادية، ولعبوا**

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١/٦٠٤ – ٦٠٥.

٢ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٢٠٠.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٥..

دروا مهمّاً فى أواسط الألف الثانى قبل الميلاد فى نقل هذه الحضارة إلى سورية وآسيا الصغرى"[1].

وقد مر قول جرنوت فيلهلم أن حضارة شمالى سوريا كانت ذات طابع حورى منذ القرن السادس عشر ق.م على الأقل[2]. وجدير بالذكر أن شمالى سوريا كان المركز الهام للنفوذ الحورى، وهناك كانت عاصمة الحوريين أُوركيش، ومع ذلک فالمعلومات التفصيلية التى وصلتنا بشأن جهود الحوريين الحضارية قليلة جداً، وذلک القليل مستنبَط من بعض الحفريات، أو واردٌ عَرَضاً فى كتابات الممالک المجاورة والمعادية لهم، وهذه الظاهرة واضحة فى تواريخ أسلاف الكورد بشكل عام، ونستعرض فيما يلى بعض جهود الحوريين الحضارية.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

يبدو من خلال الأساطير والطقوس الحورية أن الصيد كان وسيلة أساسية عند الحوريين، لتأمين الغذاء فى عصور ما قبل التاريخ، وهم فى ذلک يتساوون مع معظم الشعوب. لكن تبيّن أن الحوريين كانوا، فى العصور التالية، ماهرين فى الزراعة، حتى قبل انتشارهم جنوباً وشمالاً وغرباً، وثمة أدلة تؤكد أنهم كانوا، خلال الألف الثالث ق.م، يعتمدون بشكل رئيسى على الزراعة وتربية الحيوان، حينما كانوا فى موطنهم الأساسى بشمال شرقى كوردستان الحالية.

وكان من الطبيعى أن ينقل الحوريين معهم خبراتهم تلک إلى مناطق انتشارهم فى القرون اللاحقة، بدءاً من أَرّابْخا (فى منطقة كركوک) جنوباً وغرباً، حتى ألالاخ فى سهل العَمْق (على ضفاف العاصى) شمالاً وغرباً، ومروراً بسهل الفرات شمالى مَسْكَنَة (إيمار)، وبالسهول الزراعية فى شمال شرقى سوريا (خانى جَلْبَت/خانى گلْبات)، وبسهول منطقة خَلَب (حلب)، وبمنطقة كيزُّوفْتا (كِيليكْيا وجُوكُوروفا المحيطة بمدينة أَضَنَه، وضفاف نهرى جَيْحان وسَيْحان)، وبالمناطق المحيطة

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٢٤.

٢ - المرجع السابق، ص ١٢٨.

بمدينتى حَماه وحِمْص على الضفاف العليا لنهر العاصى (قطنا، قادِش)، والأرجح أن المقصود بـــاسم (قطنا) هو قِطينا، وثمة بحيرة معروفة هناك اسمها (بحيرة قِطّينا) [1].

وكانت التجمّعات البشرية الحورية تقوم فى الغالب على صلات القربى، وتعكس وجود علاقة بين الأسرة ومُلكية الأرض، وكان التصرف فى الأراضى يتمّ على أنها أملاك منقولة، وهذا أمر معروف فى تاريخ معظم شعوب غربى آسيا، وما زالت آثاره قائمة إلى يومنا هذا. وكان المجتمع الحورى طبقىّ الطابع بصورة عامة، وكانت الطبقة العليا- وهى نخب تتألف من أفراد الأسر المالكة- تأخذ حصة من الإنتاج الزراعى لنفسها، وتعامل القرى على أنها كيانات يمكن أن تُهدى أو تُبدَّل، أو تُحمَّل مسؤولية جماعية عن أداء واجبات معيَّنة[2].

وكانت توجد طبقة عليا أخرى تسمى الـــ (مَرِى يَنّى نا)، وكانت هذه الطبقة هى الأكثر عدداً، وتتميّز بوظائفها العسكرية، وكانت معنيّة بأنظمة الإنتاج الزراعى بشكل أقوى، وذلك من خلال مَنْحها قطعاً من الأراضى (إقطاعات)، تستثمرها لنفسها بوساطة أسر كبيرة أو صغير العدد، تشاركها مجموعة من العبيد، وقد أسهمت هذه الطبقة فى بروز نهضة فى المجال الزراعى، وفى الوقت نفسه تحوّل قسم من طبقة الـــ (مَرِى يَنّى نا) إلى ملاّكين كبار، على حساب آخرين صاروا فقراء، وقد بقى الانتماء إلى هذه الطبقة فى مناطق أَرّابْخا مرتبطاً بامتلاك عربة حربية، فى حين كانت المناطق الحورية الغربية قد تحررت من هذا الشرط، وصار الانتماء فيها صفة اجتماعية وراثية[3].

وكان القصر الملكى فى العصور القديمة محور النشاط الاقتصادى، حتى إن بعض المؤرخين سمّوا الاقتصاد فى الشرق القديم (اقتصاد القصر الملكى)، وكذلك كان الأمر عند الحوريين؛ إذ كان القصر يراقب الإنتاج الزراعى الذى كان أهم القطاعات وأوسعها، ويؤثر فى الإنتاج من خلال تحديد نسبة الضرائب، أو توزيع الأراضى، أو إصدار القرارات القانونية التى تنظّم العلاقات الزراعية، وكانت ثمة ضريبة تسمّى (إِلْكُ) كانت تُفرَض على الحقول غير المملَّكة للطبقات العليا، ويبدو أنها كانت ضريبة زراعية تُفرَض على الفلاحين الذكور الذين ورثوا قطعة من الأرض

---

١ – المرجع السابق، ص ٨٧ – ٨٨.

٢ – المرجع السابق، ص ٨٨.

٣ – المرجع السابق، ص ٨٨.

المشاعية (غير القابلة للبيع)، وكان يتوجّب عليهم استثمارها مقابل تسليم حصة من المحصول إلى القصر (الدولة). وتفيد نصوص نوزى أنه ظهرت طبقة من ملاّكى الأرض كانت تشكّل (طبقة وسطى) بين القصر والفلاحين الذى كانوا يعملون وفق نظام (إلْكُ)[1].

ويبدو أن صناعة النسيج كانت من أهم الأعمال الإنتاجية فى القصر، وكان القصر يربّى قطعاناً من الماشية، يقوم عبيد القصر على رعايتها، كما أن عدداً كبيراً من فئة (الأحرار) كانوا يعملون لدى القصر الملكى رعاة بموجب عقود عمل، وكان لكل قصر ضريبة محدَّدة تُفرَض على قِطع الثياب المنتَجة[2].

وإضافة إلى ما سبق كان القصر الملكى يتحكّم فى النشاط الاقتصادى على الصعيد التجارى، وكان التجار يقومون بعمليات بيع المنتجات، وكانوا يُذكَرون ضمن عبيد القصر، وكان هؤلاء يقومون بجولات تجارية على خارج البلاد، يُنجزون خلالها طلبات شراء معيّنة، سواء أكانت تلك الطلبات خاصة بالقصر أم بالأفراد من خارج القصر، وكانت الصادرات الرئيسة هى المنتجات النسيجية والعبيد، أمّا أهم المواد المستورَدة فكانت المواد المستخلَصة من النباتات والصوف الملوَّن، وهذا يعنى أن الاقتصاد الحورى كان يقوم فى الأصل على ركنين: الزراعة وتربية الحيوانات؛ أىْ أنه كان اقتصاداً زراعياً رَعَوياً. والحقيقة أن هذا النمط الاقتصادى القائم على الزراعة والرعى ما زال هو السائد فى معظم أجزاء كوردستان إلى يومنا هذا، ولا مجال الآن للبحث فى الأسباب[3].

وإضافة إلى ما سبق، كان القصر الملكى يتحكم فى المجال الحرفى، وخاصة مجال التعدين، فيقوم بتنظيم عمليات استيراد المعادن (المعادن النفيسة، النحاس، القصدير، الحديد)، ثم يتمّ تصنيع المعادن من قِبل الحرفيين التابعين للقصر، بهدف تأمين المعدّات العسكرية، وكان فى

---

١ - المرجع السابق، ص ٩١.

٢ - المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩٢.

٣ - المرجع السابق، ص ٩٢ - ٩٣.

القصر مصنع تُصنع فيها الدروع للمحاربين وللخيول، إضافة إلى إنتاج الأسلحة الأخرى (سيوف، رماح، تروس، إلخ)[1].

وكان أصحاب الأملاك الكبيرة يستفيدون فى أساليب الاستثمار الاقتصادى من القصر الملكى، لكنهم كانوا يستثمرون أراضيهم بشكل مستقل عن القصر، ومع وجود الملاكين الكبار انتشر فقر شديد بين الفلاحين الصغار الأحرار، وظلت العبودية مقتصرة على أعمال الخدمة وممارسة الحِرف، وفى مجالات محدَّدة من الأعمال الزراعية ورعى الحيوانات، وكان أهم مصدر خارجى للعبيد هو بلاد لوللو فى جبال زاغروس[2].

الوضع الإداري والعسكري:

أولاً- على الصعيد الإدارى: كان الملك- بصفته القائد الأعلى- يجمع بين الوظائف الإدارية والتشريعية والقانونية، أما دور المؤسسات الحكومية، وحدودُ مشاركاتها فى اتخاذ القرارات، فهو غير واضح. وكان الملك يقوم، فى مجال الأحكام القانونية- بدور محكمة الاستئناف فى عصرنا هذا؛ إذ كان يمتلك صلاحية نقض الأحكام التى تصدرها المحاكم المحلية. ومن أهم الوظائف الإدارية التى كان منتسبوها يساعدون الملك فى إدارة الحكم هى وظيفة (شَكين ماتى)، ووظيفة (سُكَّلّو)، وكان المكلَّفون بهاتين الوظيفتين بمثابة وزراء، وثمة وظيفة (خَلْ زُخْلو) وهو آمر الحصن، ووظيفة (خَزَنُّو)، وهو مدير المنطقة.

ثانياً- على الصعيد العسكرى: يبدو أن شهرة الحوريين تمثّلت فى إدخال الخيل إلى غربى آسيا كأقربائهم الكاشّيين، ويُعَدّ ذلك تطويراً مهمّاً فى المجال العسكرى والاقتصادى خاصة، وثمة أدلة كثيرة على أهمية هذا الإنجاز الحضارى الحورى، فقد اشتملت نصوص نُوزى، العائدة إلى بواكير القرن الرابع عشر ق.م، ونصوص أخرى، على أن الهندو آريين هم الذين كانوا يمتلكون خبرة عالية فى ترويض الخيل وتدريبها واستخدامها فى العربات الحربية ذات

---

١ - المرجع السابق، ص ٩٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٩٣ – ٩٦.

العجلتين خلال العمليات العسكرية[1]، وكان للحوريين دور كبير فى هذا المجال، قال الدكتور عبد الحميد زايد بشأن المملكة الحثّية الحديثة (١٣٨٠ – ١١٩٠ ق.م):

"وقد لوحظ أن الأسرة أصبح لها طابع حورى، وقد تأثرت كثيراً بالحضارة الحورية، فجيش الامبراطورية الذى امتاز بسلاح المَرْكَبات قد قام بتدريبه حورى اسمه (كِيكُّولى Kikkuli)، وقد حمل كثير من أواخر الملوك والملكات والأمراء أسماء حورية"[2].

وكان يتوجّب على القصر- فى حالة الحرب- تسليح المحاربين، وتأمين جميع لوازمهم التى تحتاجها العمليات العسكرية، باستثناء القوات التابعة لوحدة العربات الحربية؛ إذ كان أفرادها يتكفّلون بتأمين لوازم الخيول والعربات الحربية وأسلحتهم الخاصة، وكان هؤلاء يأخذون من القصر- فى حالة الحرب- كميات ضخمة من الحبوب، لتعليف الخيول[3].

وقال وليام لانجر:

"كان أعظم عمل للحوريين، أو على الأصح لقادهم من الهندو- إيرانيين، هو إدخال العربة ذات العجلتين التى تجرها الخيل إلى مصر وغرب آسيا، حيث أصبحت معروفة بعد سنة (١٦٠٠ ق.م). وعثر الباحثون فى سجلات بُوغاز كُوى على كتاب فى تدريب الخيل، كتبه أحد الحوريين المعروفين باسم كِيكُّولى، ويحتوى الكتاب على كثير من التعبيرات الفنية الهندية"[4].

المجال اللغوى والأدبى والفنى:

أولاً- اللغة الحورية: اللغة الحورية لغة التصاقية، كاللغة الكوردية الحالية، وأطلق الحثّيون عليها اسم (خور- ليلى) Hur-lili، وقد حار المؤرخون فى تحديد هويتها، كحَيرهم فى تحديد هوية اللغة السومرية، وذكر وليام لانجر أن اللغة الحورية عُرفت معرفة تامة من خطاب ملك ميتّانى يدعى تُوشْراتّا إلى أمنوفيس (أمُنْحُوتب) الثالث ملك مصر، ومن بضع لوحات

---

١ – المرجع السابق، ص ٥٠.

٢ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٣.

٣ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٩٣.

٤ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١. بوغاز كوى: هى خاتّوشا، عاصمة الحثيين.

مكتوبة بحروف مسمارية وجدت فى أوغاريت (رأس شَمْرا)، ومن بضعة نصوص من مكتبة سجلات بوغاز كوى، ومن بضع كلمات ذُكرت هنا وهناك على اللوحات المسمارية التى وُجدت فى نوزى، بالقرب من كركوك. وربما كانت هذه اللغة قريبة من اللغة الثانية (الوانية) والعيلامية، غير أنه لا يمكن إدماجها فى أية فصيلة لغوية معروفة[1].

وقال جين بوترو وزملاؤه:

"اللغة الحورية لغة ملتصقة، وهى ذات صلة باللغة الأورارتية التى نجدها فى مصادر من القرن التاسع حتى القرن السابع قبل الميلاد، والتى وُجدت فيما عُرف بأرمينيا، ولا يمكن تثبيت علاقة أخرى بين اللغة الحورية وغيرها من لغات الشرق الأدنى القديم"[2].

وقال جرنوت فيلهلم:

"لقد وَجد عدد من الباحثين – من قبلُ– وجودَ صلة قرابة بين اللغة الحورية واللغة الأورارتية التى دُوّنت بها نقوش تعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والسادس قبل الميلاد، وقد أكد فريدريش تلك الصلة، ولا سيّما فى المجال المعجمى. وللباحث الروسى دياكونوف جهود مهمة فى هذا المجال، وتمّ الوصول إلى تحديد دقيق لدرجة القرابة بين اللغتين. وفى ضوء تلك النتائج. واعتماداً على وضوح التطورات اللغوية ضمن اللغة الحورية ولهجاتها يمكن للمرء أن يقول الآن، وبكل تأكيد، إن اللغة الأورارتية ليست متطورة عن اللغة الحورية، وإنما تشكل اللغتان فرعين منفصلين من لغة أم (اللغة الحورية– الأورارتية المبكّرة) وقد استقلّتا الواحدة عن الأخرى خلال الألف الثالث قبل الميلاد"[3].

وقال جين بوترو وزملاؤه:

---

١ – المرجع السابق، ١/٦١.

٢ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٢٠١.

٣ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٢٢.

"لقد انتشرت اللغة الحورية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد فى المناطق السورية الوسطى، ووصلت حتى قَطَنا وقادِش، ويعود ذلک بالطبع إلى الانتشار الواسع للحوريين عند ظهور مملكة ميتّانى"[1].

وقال الدكتور توفيق سليمان:

"وكانت لهذه القبائل لغتها الخاصة المعروفة بـــ (الحورية)، وقد وصلتنا نصوص منها من عدة مصادر، من بينها تل العَمارِنة، ومدينة نِيبُّور، ومدينة رأس شَمْرَا، والعاصمة الحثية خاتّوشا"[2].

وذكر هارى ساغز أن الحوريين تكلموا لغة مختلفة عن السومريين والأكّاديين، وأسماء الحوريين الشخصية مميَّزة، وهى علامة واضحة على الأشخاص من أصل حورى، وتشير الشواهد إلى وجود الحوريين فى جنوبى ما بين النهرين منذ العهد الأكّادى، وحوالى نهاية تلک الفترة أقاموا دولة صغيرة قصيرة العمر فى منطقة الخابور، وكان يحكمها حكام يحملون أسماء حورية، ووُجدت عدّة أسماء حورية فى فترة الأسرة الثالثة فى أُور، فى المنطقة الواقعة شمالى نهر دِيالى[3].

ونحسب أن حَيرة المؤرخين فى هوية اللغة الحورية، وفى صلتها بالكوردية، ناجمةٌ عن أمرين: الأول جهل أولئک المؤرخين باللغة الكوردية. والثانى هو التعتيم الذى فُرض على الكورد وعلى الثقافة الكوردية منذ خمسة وعشرين قرناً؛ حتى إن معظم المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ غربى آسيا ما كانوا يعرفون أن ثمة شعباً قائماً بذاته يسمّى الكورد، وأنهم أصحاب تاريخ عريق فى غربى آسيا.

ثانياً- الأدب الحورى: أسهم حوريّو الهلال الخصيب منذ زمن مبكِّر فى التراث الحضارى السومرى- الأكّادى المدوَّن، وثمة نصوص أدبية كثيرة نُسخت مراراً لأغراض تدريبية غالباً، وهى تضمّ قوائم بالعلامات الكتابية، ومعجمات لغوية، وقوائم بالمترادفات من الكلمات، إضافة إلى مجموعات من النبوءات والتعويذات والأساطير والملاحم والحكايات الخرافية والأمثال

---

١ - المرجع السابق، ص ٤٩.

٢ - توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٣.

٣ - هارى ساغز: عظمة آشور، ص ٥٢.

وغيرها. وثمة أجناس أدبية محدودة الكمية، لها صلة بالشعر الشفهى (السماعى)، ضُمّت إلى النصوص الأدبية، بعد أن تمّ تبديل أساليبها التعبيرية.

ويبدو أن النصوص الأدبية شهدت تطورات كبيرة خلال الألفين الثالث والثانى ق.م، وبلغت درجة متقدمة من التطور فى أواخر الألف الثانى ق.م، لكن بنسب متفاوتة، حتى إنها صارت ذات قواعد محدَّدة، واتخذت هيئة ثابتة، ويمكن القول بأن الكُتّاب الحوريين شاركوا فى صياغة ثقافة كتابية تجاوزت الحدود اللغوية والسياسية والدينية، وفى إطار مسيرة التطور هذه أسهم الكتّاب الحوريون فى حضارة الهلال الخصيب، وأغنوها بأشكال عدّة، منها:

١ – إعادة صياغة موضوعات بأسلوبهم الكتابى الخاص.

٢ – ترجمة بعض النصوص إلى اللغة الحورية.

٣ – صياغة روايات شفهية وكتابية باللغة الحورية صياغة جديدة.

٤ – إضافة نصوص (أساطير وتعويذات) من التراث الحورى.

وإن اقتباسات الكتّاب الحوريين، وعنايتهم بالأدب السومرى- الأكّادى، تعود بشكل أساسى إلى النصوص المكتشَفة فى خاتُّوشا (بُوغاز كُوى) وأُوغاريت (رأس شَمْرا) وإيمار (تل مَسْكَنة، نحو ٩٠ كم شرقى حلب)، وتل العَمارِنة، وقد اكتُشفت فى أوغاريت سلسلةٌ معجمية مصنَّفة وفق الموضوعات، ونجد فيها إلى جانب العمود الذى يتضمّن الكلمات السومرية عموداً تُعرَض فيه الترجمات الحورية للكلمات، وتظهر فى اللغة الحورية المستخدَمة فروق واضحة- من حيث الصيغ- تميّزها من المستخدمة فى نصوص أخرى من النصف الثانى من الألف الثانى ق.م، وتبلغ تلك الفروق درجةً جعلت بعض الباحثين يعتقدون أنها تمثّل لهجة خاصة.

وعُثر فى أوغاريت أيضاً على كِسَر عدّة، دُوِّنت عليها قوائم مفردات مرتّبةً وفق أشكال العلامات المسمارية التى تبدأ بها، وهى مقسَّمة إلى أعمدة عدّة؛ عمود للمفردات السومرية، وآخر للأكّادية، وثالث للحورية، ورابع للأوغاريتية، وإن موقع العمود الحورى يدعو إلى استنتاج أن تلك القوائم انتقلت إلى أوغاريت عبر مدرسة كتابية حورية.

ومن التراث الأدبى الحورى ثمة الجنس الأدبى المعروف بـــ (أدب الحكمة)، وقد عُثر على نموذج منه فى أوغاريت، يـــتألف من ثمانية أسطر باللغة الأكّادية، مع ترجمة حورية لها. ومن الملاحم الرافدية التى وصلتنا- حسب قول جرنوت فيلهلم- صياغةٌ وحيدة باللغة الحورية لملحمة جِلْجامِش ملك أوروك فى عهد السلالات السومرية المبكِّرة، وهى مكتشَفة فى

العاصمة الحثّية خاتُّوشا، والأرجح أن الصياغة الحثّية لبطولات جِلْجامِش تعتمد على تقليد النماذج الحورية. ومما يشير إلى قِدَم نص ملحمة جِلْجامِش الحورية وورود اسم جلْجامِش فيها بالصيغة القديمة (بيلْجامِس) التى استُخدمت فى كتابات العصر الأكّادى القديم[1].

ثالثاً- الفن الحورى: تدور الفنون التشكيلية الحورية، بشكل أساسى، حول ثلاثة محاور هى: فن نحت التماثيل، وفن صناعة الفخّار وتزيينه، وفن نقش الأختام الأسطوانية، ويبدو من الفنين الأخيرين أن الوحدة السياسية لمملكة ميتّانى أفسحت المجال لانتشار الإبداعات الفنية بسرعة، حتى إنه يمكن الحديث عن (فن مملكة ميتّانى)، مع الأخذ فى الحسبان أن الميتّانيين امتداد إثنى وسياسى وثقافى للحوريين.

أما بالنسبة إلى فن نحت التماثيل، فقد عُثر فى مدينة أُوركيش (عاصمة الحوريين) على تمثالين لأسدين من البرونز، على كل منهما نقش كتابى، يوضّح أنهما يمثّلان حجر الأساس لبناء معبد للإله نِريجال (نِرْگال) فى عهد الملك الحورى تِيش- أَتَل، وهما الشاهدان الوحيدان حتى الآن- حسب جرنوت فيلهلم- على الإبداع الفنى فى مركز حورى خلال الألف الثالث ق.م، وهما مصنوعان بتقنية متطورة بارعة، ويعكسان تأثيراً كبيراً بالأسلوب الرافدى (الميزوپوتامى) فى تصوير الأسود. وقد استنتج باحثون وجود تأثيرات فنية حورية، كانت شائعة خلال المملكة الميتّانية، فى الأعمال التصويرية التذكارية (النحت النافر والتشكيلى المجسَّم) المكتشفة فى مدن- دويلات جنوب شرقى الأناضول وشمالى سوريا، وهى تعود إلى أواخر عصر المملكة الحثّية العظمى، والعصر الحثّى المتأخر.

ومن أهم الأعمال التشكيلية المجسَّمة فى مناطق السيادة الميتّانية، خلال القرن الخامس عشر ق.م، تمثال إدْرِيمى ملك ألالاخ الجالس على عرشه، وينسجم هذا التمثال مع تقاليد الفن السورى القديم، لكنه يفتقر إلى ما عُرف عنه من دقّة التشكيل ورشاقة الخطوط، وبشكل عام يمكن القول بأن الفن التذكارى الحورى كان خاضعاً لتقاليد محلّية[2].

وأما بالنسبة إلى فن صناعة الفخّار فقد ظهر فى الشرق القديم، خلال القرن الخامس عشر ق.م، نماذج جديدة من القطع الفخّارية، وانتشرت فى مملكة ميتّانى الحورية بدلالتها الواسعة؛

---

١ - بشأن الأدب الحورى انظر: جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٣٦ — ١٣٩.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٤٠ — ١٤١.

أىْ فى مناطقها المركزية، وكذلك فى المناطق التابعة لها فى الشرق والغرب، وتتميّز تلك النماذج بأسلوب تشكيلها وبزخارفها، والغالب بينها كؤوس رفيعة ذات قواعد صغيرة، تكون فى هيئة أزرار أحياناً، توجد على سطوحها الغامقة اللون (بنّى محمَّر، أسود) رسومٌ باللون الأبيض، تصوّر أشكالاً هندسية (حلزونية، مثلّثية، أشرطة مضفورة، خطوط متعرّجة)، وكائنات من الطبيعة (طيور، عَنْزات، سَعَف النخيل)، وتسمّى هذه النماذج بـــ (فخّار نُوزى)؛ لأنها ظهرت أول مرة فى مدينة نوزى، ثم فى الطبقة الرابعة من ألالاخ، واستمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م؛ أى بعد نهاية مملكة ميتّانى بزمن طويل.

وفى المرحلة الأخيرة من مراحل تطور صناعة الفخّار ظهر نوع جديد يسمّى (فخّار عَطْشانة)، نسبة إلى الاسم الحديث لمدينة ألالاخ، ويتميّز هذا النوع بزخارفه النباتية الأنيقة، ويذكّر تركيب ألوانه والأشكال المصوَّرة عليه، وكذلك نماذج نوزى قبله، بالأشكال الفنية فى قصور جزيرة كِريت التى تعود جذورها إلى حقبة بعيدة[1].

وأما بالنسبة إلى الأختام الأسطوانية المطبوعة على الرُّقُم الطينية المكتشفة فى مدينة أرّابْخا فهى ذات أسلوب متميّز، وتسمّى (أختام كركوك)، وأُطلق هذا الاسم على الأختام المكتشفة فى مناطق حورية أخرى. وإن القسم الأكبر من هذه الأختام مصنوع من مادة متكلّسة، أو من الخزف المزخرف، ونُقشت عليها زخارف بوساطة مِثْقَب كروىّ الرأس، وقد أدّت سرعة تفتّت المواد المصنوعة منها إلى وجوب استبدالها مراراً.

وإلى جانب هذه الأختام البسيطة التى كانت متوافرة للطبقة الفقيرة أيضاً؛ وُجدت أختام مصنوعة بدقة من مواد قاسية، وخاصة من الحجر الأحمر المسمّى (حجر الدم)، ومن أروع نماذج هذا النوع عدد من الأختام الملكية، ولا سيّما ختم سَوشْتَتَر (ساوشّاتّار Saushshattar ملك ميتّانى حوالى (١٤٢٠ ق.م)، وختْم إتْخى- تِشُّوب ملك أرّابْخا.

وتتماثل أختام كركوك مع التقاليد الفنية فى الأختام الأسطوانية البابلية والسورية، والجديد والثابت فيها هو أسلوب تركيب الأشكال فى المساحة المخصَّصة للصور، ومن الصور المتميّزة فيها: الكائنات المركَّبة المجنَّحة (إنسانية – حيوانية)، والشجرة التى تسمّى (شجرة الحياة)، وتكون قمّتها فى هيئة شجر النخيل، وقرصُ الشمس المجنَّح الذى يكون فى الغالب

---

١ – المرجع السابق، ص ١٤١ – ١٤٢.

من كائنات مركَّبة، والأقنعةُ التى تسمّى (أقنعة حَتْحُور) Hathor، نسبة إلى إلهة مصرية قديمة كانت لها وظائف متعددة، وتتمثّل فى مظاهر مختلفة (بقرة، لبؤة، امرأة شابة باسمة)، والكائناتُ الخرافية التى تسمّى (أبو الهول) Sphinx، وهو كائن مركَّب، يكون تارة على شكل لَبُؤَة مجنَّحة لها رأس امرأة، وحيوانٍ له رأس رجل، وفهدٍ له جناحا صقر[1].

وجملة القول أن المجتمع الحورى كان قد شهد تقدماً لا بأس به فى المجال الثقافى والفنّى عامة، حتى إن بعض الحوريين كانوا يعملون كتّاباً فى بلاط ملوك آخرين من ملوك غربى آسيا، قال الدكتور توفيق سليمان، بشأن الملك الآرامى إدْريمى Idrimi (١٥١٠ – ١٤٨٠ ق.م):

"كان قد انقضى على حكم إدْريمى فى أَلالاخ حوالى ثلاثين عاماً، عندما أمر كاتبه الحورى الأصل المدعو (شارّوا – وا)[2] أن ينقش كتابة مسمارية على تمثاله النصفى المحفوظ حالياً فى المتحف البريطانى (اللوحة: ٣١). يبلغ ارتفاع هذا التمثال ١٠٤ م، وتتألف الكتابة من مئة وأربعة أسطر، تغطّى معظم الوجه الأمامى لهذا التمثال، ويقصّ الملك فيها تاريخ حياته، والصعابَ التى اعترضت سبيله خلالها، ويذكر فى بداية الكتابة قصة هربه مع جميع أفراد أسرته الملكية من حلب إلى أخواله"[3].

وثمة من يرى أن الثقافة الحورية، وخاصة الفن الحورى، أثّر فى الفن الحثّى، وقال وليام لانجر، فى حديثه عن كتاب فى تدريب الخيل، للكاتب الحورى كِيكُّولى:

"ربما كانت النحوت الغائرة المعروفة بالحيثية، والتى اكتشفت فى شمالى سوريا (كِرْكِميش)، وسِنْجَرْلى (تل أحمر)، وأعالى بلاد ما بين النهرين (تل حَلَف) التى يرجع تاريخها من منتصف الألف الثانى إلى القرن التاسع؛ ربما كانت هذه النحوت حورية فى أسلوبها، إن لم تكن فى أصلها، كما يتضح من مقارنتها بالأختام الحورية"[4].

---

١ – المرجع السابق، ص ١٤٣ –١٤٤.

٢ – اسم شارّوا– وا يذكّرنا بالاسم الكوردى المعروف (شَرُو).

٣ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٦٢.

٤ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/٦١ – ٦٢. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٦.

الميثولوجيا الحورية:

كانت الثقافة الحورية الزاغروسية الآرية الجذور تنتقل معهم حيثما ارتحلوا وحلّوا، وذكر جرنوت فيلهلم أن الحوريين جلبوا معهم التقاليد الدينية الموروثة "**من أقدم مواطنهم المعروفة لدينا فى كوردستان** "[1].

ويمكن القول بأن الميثولوجيا الحورية هى مزيج من الميثولوجيا الزاغروسية، والميثولوجيا الآرية الوافدة على غربى آسيا مع هجرات الأقوام الآرية، إضافة إلى المعتقدات التى عرفها الحوريون فى شمالى سوريا. وقد مر أن الآريين هم الذين تولّوا موقع القيادة فى التكوين الجديد الذى تشكّل من اندماج الآريين والزاغروسيين معاً، وبالنسبة إلى الحوريين كانت الأسر الملكية الحاكمة من أصل آرى، وعُرف هؤلاء بالميتّانيين، والدليل على ذلك أنهم كانوا يحلفون بآلهة آرية، مثل إنْدرا، ومِيثْرا، وڤارونا، وناساتيا[2]. ونستعرض فيما يلى أبرز مكوّنات الميثولوجيا الحورية.

أولاً- المَجْمَع الإلهى الحورى: أبرز آلهة المجمع الإلهى الحورى، بحسب الترتيب الألفبائى، هم:

١. أَدُّو: يسمّى (حَدَد/هَدَد)، إله الطقس السامى فى مدينة خَلَب (حلب)، من أهم الأشكال المحلية للإله تِشّوب، أو لنقل: إنه النسخة السامية للإله الحورى تِشّوب[3].

٢. أَدَمّا Adamma: إله من الآلهة الحورية الغربية[1].

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٩٨.

٢ - وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦١/١.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٠. لاحظ الشبه الصوتى والدلالى بين اسم الإله (أدّو) بمعنى (الواهب/ المُعطى)، باعتباره إله المطر والنَّماء، واسم (آدُو/آدى) فى التراث الكوردى الأيزدى، وتحوّل فى اللغة السامية إلى صيغة (حَدَد/هَدَد)، وتحوّل بالتعريب إلى صيغة (عَدى) فى العهد الإسلامى، ومن ذلك اسم (عَدِى بن مُسافِر) شيخ الأيزديين الأكبر، ونُسب بعد تعريب اسمه إلى سلالة الأمويين العرب.

٣. أَشْتَبى Ashtabi: إله الحرب، وهو من الآلهة الحورية الغربية المتأثرة بميثولوجيا شمالى سوريا[٢].

٤. إشْخارا Ishkhara: إلهة من الآلهة الحورية الغربية، وقد صارت فيما بعد إلهة القَسَم والمرض فى آسيا الصغرى[٣].

٥. أَلاّنى Allani: إلهة العالم السفلى التى لا يمكن فصلها عن الإلهة أَلاّتُم المعروفة من قَبل فى عصر سُلالة أور الثالثة، ولاسم ألاّنى علاقة بالكلمة الحورية (ألاّى)، وهى تعنى (سيّدة)، وإن الربط بين أَلاّتُم وألاّى يشكّل القرينة الأولى والوحيدة الدالّة على وجود الحوريين فى شمالى سوريا منذ نحو (٢٢٠٠ ق.م). وكانت الإلهة ألاّنى[٤] تنتمى إلى مجمع مدينة خَشُّو، وقد نقل الملك الحثّى خَتّوشيلى الأول تمثالها إلى العاصمة الحثّية خاتّوشا، وهى أمّ الإلهة خِبات، وصارت قرينة للإله تِشُّوب فى مجمع الآلهة الحورى الغربى[٥].

٦. إيا Ea: خالق البشر فى الميثولوجيا السومرية، ومشرف على عبادة الآلهة، كما أنه إله الأعماق فى الميثولوجيا الأكّادية، وَجد هذا الإله طريقه إلى مجمع الآلهة الحورى منذ العهد الأكّادى، وكان فى بلاد بابل مطابقاً للإله السومرى إنكى، وكان إنكى مسؤولاً عن محيط المياه العذبة (أَبْزو) وفنون صياغة التعويذات، وتميّز بوصفه الإله الخبير بإسداء النصائح، وكان الإله إيا يقوم بهذه الوظائف[٦].

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٧.

٢ - المرجع السابق نفسه.

٣ - المرجع السابق نفسه.

٤ - اسم الإلهة (ألاّنى) يذكّرنا بالاسم الكوردى التراثى الشهير (آلان)، وباسم بطل ملحمة (ممى آلان) الشعبية، والتى خلّدها شاعر الكورد الكبير فى ملحمة (مَمْ وَزِين).

٥ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٧.

٦ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٥ - ١٠٦. جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مكتبة مدبولى، ص ٣٦. سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٥٤، هامش ٢٢.

٧. **باگا** Baga: إله أدخل الكاشّيون طقس عبادته إلى بابل باسم (بوگاش) فى الألف الثانى ق.م، وبكنية هذا الإله سُمّيت (بَغْداد)؛ أى عطاء الله، وحمل الملك الحورى بَگوک مشتقاً من اسم هذا الإله[١].

٨. **تِشُّوب** Teshshup: إله الصواعق الزوابع والمطر، وهو من أبرز الآلهة الحورية المشتركة، ويُعَدّ ملك الآلهة، وقد اكتسبت عبادته مكانة كبيرة بعد ظهور موجة جديدة من الحوريين، وتبوّأ تِشّوب قمة المجتمع الدينى الحورى فيما بعد، وصار اسمه شائعاً جداً فى نصوص القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م، وأصبح جزءاً من أسماء الأشخاص، ومع ذلك فإنه لم يلق سوى انتشار محدود وثانوى جداً فى أسماء الأعلام الحورية حتى عهد مملكة مارى، و لم يرقَ- من حيث تكرار اسمه- إلى درجة انتشار الاسم (أَتَل) فى أسماء الأعلام.

وكان الإله تِشُّوب معروفاً لدى الأورارتيين باسم (تايْشِبا)، ومن أهم مراكز عبادته مدينة كُمَّ Kumme (كُمّيّا) Kummija التى لم يُحدّد مكانها بعد، ويُفترض أنها تقع – حسب النصوص- فى المنطقة الجبلية الكوردية فى نواحى زاخو، قرب الحدود العراقية التركية، ويوصف الإله تِشُّوب فى الأساطير بأنه (ملک كُمِّيّا)، وبلغ مرتبة الإله الرئيس، فى النصف الأول من الألف الثانى ق.م، بعد أن تمّت مطابقته من حيث الشكل بإله الطقس فى الهلال الخصيب، وبلغ انتشاره الواسع خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م كجزء من الأسماء الشخصية المركّبة، وصار ملكاً على السماء بعد أن عزل أباه الإله كُومَارْبى Kumarbi الذى كان بدوره قد أزاح أباه الإله آنُو إله السماء أيضاً.

أما أسلحة تِشُّوب فهى الصواعق والمطر والرياح والبرق، وتظهر صوره وهو يسير على عربية حربية ذات أربع عجلات، ويجرها الثوران شِريش وخُرّيش (أو خُرْويش). وقد حمل ملوک أرَّابْخا كلهم تقريباً أسماء يكون اسم تِشُّوب جزءاً منها (كيبى – تِشّوب، إتْخى – تِشّوب، خِيشْمى – تِشّوب)، كما حمل نصف أمرائها أسماء مشابهة[٢].

١ – مجموعة من الباحثين: كركوک، ص ١٦٩ ، هامش ٣. ربما يكون لكلمة (بَگ) المستعملة عند الكورد علاقة ما باسم هذا الإله.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٩٨ – ١٠٠.

٩. خيپات Hepat: إلهة تسمّى (خِبات) Hebat و(هبات) أيضاً، وهى إلهة الشمس، وكانت تُعَدّ ابنة الإلهة أَلاّنى Allani إلهة العالم السفلى، ونجد خلال القرن الرابع عشر ق.م أسماء أنثوية مركّبة شائعة بين أفراد الطبقة العليا، يشكل اسمها الجزء الثانى، منها اسما الأميرتين الميتّانيتين اللتين زُوّجتا فى مصر، وهما: جيلو – خِبا، وتَتو- خِبا[١].

١٠. شاوُوشْكا Shawushka: أهم إلهة حورية، وهى – حسب التقاليد السومرية والأكّادية والسورية والأناضولية – أخت إله الطقس تِشّوب، وجاء ذكرها فى وثائق عصر سلالة أور الثالثة، ولاسيما فى بلاد آشور ومناطق شرقى دجلة الشمالية، وامتزجت هويتها بهوية الإلهة الرافدية عَشْتار التى كانت تُعبَد هناك منذ القديم، وكانت وظيفتها هى الجنس والحرب، ومركز عبادتها الرئيسى هو المدينة الآشورية الشمالية نينَوى، وبقيت معروفة باسمها الحورى حتى نهاية القرن الثامن ق.م، وعُدّ تمثالها ذا قدرة على الشفاء؛ ولذلك أُرسل فى العهد الحورى/الميتّانى مرتين إلى مصر لتحقيق العافية للفرعون، وعُبدت شاوُوشْكا فى مملكة ميتّانى كإلهة كبرى أيضاً، وقد وصفها الملك تُوشْراتّا بأنها (سيّدة بلادى)، و(سيّدة السماء)[٢].

١١. شِيميک Shimike: إله الشمس فى جميع مناطق انتشار اللغة الحورية، وكان يظهر فى الأساطير والعبادات كواحد من الآلهة السماوية الكبرى، ويقف إلى جانب تِشُّوب فى الصراع حول السيادة الإلهية، وكان يُعرَف فى المناطق الشرقية باسم (شيميكا)، ولم يكن يحظَى بتقديس متميّز فى مكان محدَّد، وبقى غامضاً من حيث خصائصه ودوره فى الأحداث الأسطورية، وكانت له صلة بأشكال الكهانة[٣].

١٢. كُشُخ Kushuh: إله القمر، وكان يسمّى فى ألالاخ، وأحياناً فى خاتُّوشا، باسم (كُشَخ)، وهو حامى الأيمان (جمع يمين)، وهى وظيفة تبعده عن الآلهة السماوية، وتقرّبه من

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٧. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٢ – ٤٣، ١٠١ – ١٠٢.

٣ – المرجع السابق، ص ١٠٣.

آلهة العالم السفلى المسؤولة عن إزالة الشرور السحرية، وهو كسابقه (شِيميک) لم يكن يحظَى بتقديس متميّز، وبقى غامضاً من حيث خصائصُه ودوره فى الأحداث الأسطورية[1].

١٣. كُومارْبى Kumarbi: إله يعود ذكره إلى حوالى (١٧٠٠ ق.م)، وقد جاء فى الأساطير الحورية أنه أزاح أباه الإله (آنُو) إله السماء، وعُبد بصيغة أخرى هى (كُمُرْوِ) فى مدينة أَزُخِينُّو فى مناطق شرقى دجلة، وكان له دور ثانوى فى العبادات، وورد اسمه على نحو جزئى فى الأسماء المركّبة، وهو يطابق من حيث وظائفُه- لكن بنسب مختلفة- إلهَ الفرات الأوسط (دَجَن)، والإلهَ السومرى- الأكّادى (إنليل)، والإله الأوغاريتى (إيل)[2].

١٤. نِرجال Nerigal: إله أَرَلو (العالم السفلى) فى الميثولوجيا السومرية، وصل إلى هذه المكانة بعد أن قهر أَرْشكِيجال ملكة العالم السفلى، فأشركته معها فى الحكم، وهو فى الأصل إله الشمس، وكانت مدينة كُوثَى (تل إبراهيم الآن) فى الشمال الشرقى من مدينة بابل المركز الرئيسى لعبادته، ثم احتل مكانة هامة فى المجمع الدينى البابلى، ولقى تقديساً متميّزاً فى الدول الحورية، وقد اكتُشف النقشان التأسيسيان لملكَى مدينة أُورْكيش (أَتَل- شِن، وتيش- أَتَل) فى معبد هذا الإله، ويصفه الملک أَتَل- شِن بـــ "**ملک خَوَلُم**"، أو (خَويلُم/ خَوْلُم) وترک نقشاً باللغة الأكّادية على لوحة برونزية تمثّل حجر الأساس لبناء معبد الإله نِرجال، ولا نجد له أهمية فى نصوص المناطق الغربية، غير أنه كان يحظى بمكانة مقدّسة متميّزة فى مناطق شرقى دجلة، خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م، وكان فى قمّة مجمع آلهة مدينة أَزُخِينُّو مع الإلهة عشتار- شاوُوشْكا التى عُرفت بلقب (خُمِلاّ)، كما أن إحدى بوّابات مدينة أرّابْخا منسوب إليه، وكانت ثمة كاهنة رفيعة الشأن فى مدينة كُرُّخَنّى تشرف على طقوس عبادته[3].

١٥. نُپَتِيک Nupatik: من الآلهة الحورية الأساسية، وثمة شواهد عليه فى أوغاريت وخاتّوشا، لكن صفاته غير واضحة، وكان يُذكَر فى الرقيم التأسيسى للملک تِيش أَتَل باسم

---

١ - المرجع السابق، ص ١٠٣.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٢، ١٠٣. فاضل عبد الواحد على: من ســـومر إلى التـــوراة، ص ١٥٤.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣٣، ١٠٥. سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة،ص ٢٦٨.

(لُبَدَجا)، وفى مناسبة الاحتفال بعيد (خِيشْوَا) كانت القرابين تُقدَّم لشكلين يمثّلانه، كلٌّ فى معبد مستقل، ويسمّى الشكل الأول (بيبيتا) أو (بيبيتْخى)، ويسمّى الشكل الثانى (زَلمانا)[1].

١٦. نيكّال Nikkal: قرينة إله القمر (كُشُخ)، وكانت تحتل مكانة مهمة فى العبادات الحورية فى أوغاريت، وترجع فى أصولها إلى إلهة القمر السومرية نِين جال (نِينگال)؛ أى (السيّدة الكبيرة)، وكانت الملكات الحثّيات، خلال القرن الرابع عشر ق.م، يجعلن اسمها جزءاً من أسمائهن المركّبة، مثل (نيكّال- ماتى، وأَشْمو- نيكّال)، لكنها فقدت أهميتها فيما بعد فى المناطق الحثّية والحورية، وفى العهود المتأخرة صارت عبادة القرينة البابلية لإلهة الشمس المدعوّة (إيا) شائعة فى العبادات الحورية بدلاً من نيكّال[2].

ثانياً- بنية الأساطير الحورية: إن دراسة الأساطير الحورية تتطلّب الاعتماد على المصادر المكتشفة فى العاصمة الحثّية خاتّوشا (بوغاز كُوى حالياً)، أضف إلى هذا أن توضيح كيفية انتقال الأساطير المكتشفة أمر معقّد، ولا يمكن إعادة صياغة المراحل المتعددة التى مرت بها بدقة، وما ذكرناه بشأن مجمع الآلهة الحورية يصحّ على الأساطير الحورية أيضاً؛ إذ يتوجّب أن نأخذ بالحسبان وجود آثار حضارية حورية خالصة قديمة فى الأساطير، إلى جانب عناصر سومرية- أكّادية وساميّة غربية من شمالى سوريا، إلى إمكانية وجود تأثيرات حثية وآسيوية (آسيا الصغرى). وجدير بالذكر أن أغلب الأساطير الحورية مدوَّنة باللغة الحثّية، وهناك بعض المنظومات حورية اللغة، ولكنها غير قابلة للفهم بشكل دقيق، والمرجَّح بين المؤرخين أن الروايات الحثية هى ترجمات لأصول حورية[3].

والمحور الأساسى للنصوص الأسطورية الحثّية المعروفة هى فكرة توارث الأجيال الإلهية المختلفة عبر دهور أسطورية، وتبلغ ذروتها مع سيادة إله الطقس، ومن الملاحظات الملفتة للانتباه فيها قلّةُ التعرض لمسائل أصول الآلهة (ثيوغونيا)، وعدم التطرق إلى عناصر نشأة الكون (كوسموغونيا) إلا بشكل هامشى. وثمة أسطورة باسم (أغنية مملكة فى السماء) تصوّر تعاقب الدهور الثلاثة التى سبقت سيادة إله الطقس، وخلاصتها أنُ ألالو كان، فى عصور موغلة فى

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٣- ١٠٤.

٢ - المرجع السابق، ص ١٠٤ — ١٠٥.

٣ - المرجع السابق، ص ١١١.

القِدم، ملك الآلهة فى السماء، يجلس على العرش، وفى السنة التاسعة قاد آنُو المقدَّم بين الآلهة حرباً ضد ألالو وهزمه، فهرب ألالو إلى العالم السفلى (مملكة الظلام)، وجلس آنُو على العرش، وخدمه كُومَارْبى القوى، وبعد تسع سنوات قاد كُومَارْبى حرباً ضد آنُو، فتملّص آنُو، وطار إلى السماء[1].

إن هذا الصراع بين كبار الآلهة الحورية، وتعاقبهم على العرش الإلهى الأكبر، يشبه بما جاء بعدئذ فى المجمع الإلهى السومرى، فقد كان الإله آنو (السماء) كبير الآلهة، تزوّج بالإلهة جى (الأرض)، وكان ابنه إنليل ثمرة ذلك الزواج، ولكن ما لبث إنليل أن أزاح والده آنو عن سُدّة السلطة، وحلّ محله فى منصب كبير الآلهة، ثم حلّ الإله آنْكى Anki أو آنْجى Angi محلّ إنليل فى منصب كبير الآلهة. ومثل هذا موجود فى الميثولوجيا اليونانية أيضاً، ففى البداية كان أورانوس Ouranos إله السماء الأكبر، لكن أصغر أبنائه كرونوس Cronus ثار عليه، وأزاحه جانباً، وحلّ محله، ولما كبر أصغر أبنائه زيوس Zeus ويسمّى ديوس Dyaus أيضاً، ثار على أبيه كرونوس، وأزاحه بالقوة والخديعة عن منصب الإله الأكبر[2].

أما بشأن قصة التكوين الحورية فهى متأثّرة بمثيلتها السومرية والبابلية المعروفة باسم أَتْراخاسيس (أتْراحاسيس) التى كانت معروفة لدى الحوريين الغربية، والتى جاء فيها أن خلْق البشر تمّ بناءً على رغبة الآلهة كى تتحرر من الأعباء المفروضة عليها لتأمين متطلبات المعيشة، وكى يكون البشر فى خدمة الآلهة[3]، وهذا ما نجده فى أسطورة (خِدَمّو) الحورية أيضاً؛ إذ جاء فيها الكلام الموجَّه إلى الآلهة:

"إنْ تبيدوا البشر فإنها لن تحتفل بالآلهة بعد ذلك، ولا أحد سينذر لَكُنّ الخبز وتَقْدِمات الشرب بعد ذلك، وسيعقب ذلك (أيضاً) أن إله الطقس مَلك مدينة كُمِّيا الجبار

---

١ – المرجع السابق، ص ١١٢.

٢ – صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص ١٦١ – ١٦٣. حسن نعمة: موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص ٨٣. عبد اللطيف أحمد على: التاريخ اليونانى، ص ٢٠١/١ – ٢٠٣.

٣ – صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص ١٩١. رينيه لابات وآخرون: سلسلة الأساطير السورية، ص ٢٤.

سيمسک بالمحراث بنفسه، وسيعقب ذلک أيضاً أن عَشْتار وخِبات ستديران حجر الرحى بنفسيهما"[1].

وكبقيّة العقائد نشأت فى منظومة الميثولوجيا الحورية أعياد دينية، وعلى الأرجح كان فى أرّابْخا عيد دينى فى أول أيام كل شهر، ويسمّى نسبة إلى الشهر الذى يقع فيه (عيد كِنونو، عيد ميتيرُنّى، عيد شِخَلى، إلخ)، وانتشرت فى كل المناطق الحورية أعياد سنوية، وكان ثمة عيد فى الشتاء يدوم أربعة أيام، وكان هذا العيد مكرَّساً لعشتار إلهة نينوى. وهناک عيد حورى كبير أُعيد تدوين شعائره من جديد فى خاتّوشا بأمر من الملكة الحثّية بودو- خِبا حوالى (١٢٥٠ ق.م)[2].

ثالثاً- الطقوس والتعويذات الحورية: كانت الطقوس الدينية الحورية تشتمل على تقديم نذور الطعام والشراب، وكانت تماثيل الآلهة تُدهَن بين حين وآخر، وثمة بين النصوص تعليمات تتعلق بالأدوات والأصوات اللازمة للموسيقى المرافقة للشعائر، قال جرنوت فيلهلم:

"فبعضُ الأناشيد الدينية الحورية المكتشفة فى أوغاريت مرفقةٌ بمعلومات عن الأدوات الموسيقية اللازمة لتأديتها، ويمكن عَدُّها أقدم الشواهد المعروفة حتى الآن على تدوين المقطوعات الموسيقية (النوطة)"[3].

وكانت تماثيل الآلهة تُصنَع من الذهب غالباً، وكانت تَتخذ أشكالاً مسطَّحة تغطّى الجدران، وتُزيّن بالحجارة النفيسة، وتُزوَّد بعلامات إلهية متميِّزة مثل الأدوات الحربية أو المغازل، وكانت لهذه العلامات شعائر تعبّدية أيضاً. أما بالنسبة إلى الأدوات المستعمَلة فى الشعائر الدينية فقد استُخدمت فى المعبد المسمّى (بيت نَرْمَكى)، أى بيت الطهارة، فى العاصمة الميتّانية (وَشّوكانّى) جرارٌ فضّية؛ لأن الفضة- حسب المعتقدات الحورية وغيرها- تمتلک فاعلية تطهيرية خاصة.

وكانت توجد فى معبد الإلهة عَشْتار- شاوُوشْكا فى نوزى تماثيل أُسود وأوانٍ فى هيئة أسود، تُستخدَم فى عملية سكب السوائل على الأضاحى المنذورة، ووُجدت فى معظم أماكن

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١١٧ - ١١٨.

٢ - المرجع السابق، ص ١١٨ - ١١٩.

٣ - المرجع السابق، ص ١٢١.

العبادة الحورية ما يشبه خزانات عمودية ذات قوائم إلى جانب المواقد النارية، وتسمّى فى الحورية (خُبْرُشْخى)، وكان ثمة نوع من الأطباق يسمّى (أَخْرُشْخى)، يتمّ فيها حرق مواد التبخير[1].

وكان للتعويذات- وهى أدعية تُلفَظ خلال الأعمال السحرية- مكانة هامة فى الميثولوجيا الحورية، وكانت تلك التعويذات تحظى بتقدير كبير فى جنوبى ميزوپوتاميا منذ العصر البابلى القديم، وعُثر فى مارى على تعويذات حورية تعود إلى حوالى عام (١٧٠٠ ق.م)، وقَدّمت مكتبات خاتّوشا وصفاً لعدد وفير من الشعائر السحرية التى كانت شائعة فى مناطق الحضارة الحورية، تصف بعضها الإجراءات السحرية باللغة الحثّية، وتعرض نصوص التعويذات بالحورية، ويمكن ملاحظة الأصول الحورية لبعضها الآخر[2].

ونشأت فى إطار الميثولوجيا الحورية مصطلحات ذات دلالات محدّدة، كما هى الحال فى بقية المنظومات الميثولوجية والدينية بشكل عام، ومن تلك المصطلحات أن المعبد فى المجتمع الحورى كان يسمى (بيت نَرْمَكْتى) أى بيت الطهارة، وكان حامل النجاسة والشر هى (نَكُّشِّ) ويعنى (المتروك)[3].

وإن (نَكُّشِّ) هذا كان يقوم فى الميثولوجيا الحورية ما يقوم به (تيس الخَطِيّة) و(ثور الخَطِيّة) فى الدين اليهودى، فقد جاء فى (العهد القديم) أن الكاهن الأكبر هارون، أخو النبى موسى، كان يحمّل (ثور الخطيّة) أوزاره وخطاياه، ثم يذبحه ويقدّمه قرباناً إلى الله، وكان يُحمّل (تيسَ الخطيّة) أوزار الشعب وخطاياهم، ثم يذبحه قرباناً لله أيضاً، وجاء فى مكان آخر من العهد

---

١ - المرجع السابق، ص ٢٣.

٢ - المرجع السابق، ص ١٢٨.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١١٠، ١٢٣، ١٣٤. فاضل عبد الواحد على: من سومر إلى التوراة، ص ١٥٤. ولاحظ الشبه الصوتى والدلالى بين كلمة (نرمكتى) الحورية، كلمة (نَـرْم/ نَرْمِك) Nerm, Nermik الكوردية، وهى بمعنى (الرقّة، اللطف، اللين، النعومة).

القديم أيضاً أن الكاهن الأكبر هارون كان يحمّل (تيس الخطيّة) أوزار الشعب، ثم يرسله بعيداً إلى الصحراء[1].

إن وجود (نَكُّشٍّ) دليل على نشأة بدايات فكرة إله الخير وإله الشر فى الميثولوجيا الحورية، ووجود صراع بينهما، وضرورة وقوف المؤمنين إلى جانب إله الخير، وهذه الفكرة تماثل فكرة وجود إله الشر (أَهْرِيمَن) المنافس والمعادى لإله الخير (أَهُورامَزْدا) فى الديانة الزردشتية، وتماثل أيضاً فكرة (عَزازيل) الذى يسمّى (إبليس/الشيطان) فى الديانة اليهودية والمسيحية والإسلامية، والسؤال الذى نجده ملحّاً هو: هل من علاقة بين (نَكُّشٍّ) الحورى، و(تيس الخطيّة) ممثّل (عَزازيل) فى الميثولوجيا العبرانية؟ وهل (تيس الخطيّة) هو امتداد ثقافى لـــ (نَكُّشٍّ)؟ إن ثمة أكثر من دليل يرجّح جود هذه العلاقة.

رابعاً- تأثيرات الميثولوجيا الحورية: إن الميثولوجيا الحورية تأثّرت- كما سبق القول- بميثولوجيا ميزوپوتاميا، وأثّرت فى ميثولوجيا الشعوب المجاورة، وهذا أمر طبيعى؛ إذ كان الحوريون يتفاعلون مع شعوب غربى آسيا المجاورة لهم سلماً وحرباً، وسياسةً وثقافةً وتجارةً، وقد ذكر المؤرخون أن الإلهة (خِبات) أو (خيبيت)، وزوجها تِشُّوب، قد عُبدا فى كومانى بكَبَدُوكُيا وفى حلب وغيرها، وتظهر (خِبات) على أنها سيدة محتشمة، تقف أحياناً على أسد، وهو حيوانها المقدس، ولهذين الإلهين ولد يدعى شاروما أو شارما. ومن الآلهة الحورية التى عُبدت فى الأناضول أيضاً: (شاوُوشْكا)، وكان تعرف بعشتار، وقد عُبدت فى سوموحا، وفى غيرها من مدن منطقة طوروس، وقد مُثّلت على هيئة مجنّحة، وواقفة على أسد[2].

وكان ملوك الحثيين، إذا حققوا انتصارات حربية على الحوريين الغربيين (الميتّانيين)، نقلوا بعض الآلهة الحورية إلى معابد الآلهة الحثّية، فحينما احتل الملك الحثّى خَتوشيلى مدينة خَشُّو (خَشُّوم)، فى منطقة جبال أَمانوس، نقل آلهة تلك المدينة، مع الأدوات المستخدمة فى الشعائر المتصلة بها، إلى معبد الإلهة الحثّية الكبرى إلهة الشمس (أرينا) فى مدينة أَرِينّا التى تحمل اسمها، وإلى معبد ابنتها الإلهة (مِزُولاّ) فى مدينة خاتّوشا (بوغاز كُوى حالياً) عاصمة الحثيين.

---

١ - العهد القديم، سفر اللاوِيِّين، الأصحاح ١٦، الآيات ٩ – ١١، ٢١ – ٢٢.

٢ - عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٣٠.

وكان بعض تلك الآلهة حورية الأصل، ومعروفة فى المجمع الإلهى الحورى، ومنها إله الطقس تيشّوب، وزوجته خِيبات (خِبات)، وقد عُبدا فى كومانى بكَبَدُوكْيا وفى حلب وغيرها، وتظهر خيبات سيّدةً محتشمة، تقف أحياناً على أسد، وهو حيوانها المقدس. ومن الآلهة الحورية التى عُبدت فى الأناضول: الإلهة شاوُوشْكا، وكان تعرف بعَشتار، وقد مُثّلت على هيئة مجنّحة، وقد وقفت على أسد، كما أن الإله الحثى كُومارْبى كان حورى الأصل[١].

وعدا الحثّيين كان بعض الآلهة الحورية معروفين فى المجتمعات الآرامية السورية، وهذا أمر متوقَّع، فقد كان الآراميون يجاورون الحوريين من جهة الجنوب، ومرّ أن بعض الجماعات الحورية كانت قد توغّلت فى الداخل السورى، ووصلت إلى فلسطين وجنوبى الأردنّ حالياً (وادى عَرَبة وجبل سَعير)، والدليل على ذلك أن الدين الحورى ذُكر فى معاهدة أُبرمت بين أبّا- إيل Abba – El ملك يَمْحَد (يَمْحاض/ يَمْخَد) وياريم- ليم Yarim – Lim ملك ألالاخ، حيث ورد تضرّعٌ إلى إلهة الشمس الحورية خِبات (خيبات)[٢].

وبشأن تأثير الميثولوجيا الحورية فى الديانة اليهودية قال جرنوت فيلهلم:

"وقد تكون الأساطير الحورية القديمة تابعت طريقها إلى الخرافات اليهودية؛ كما ينعكس فى قصة أَرْميلوس Armilus عدوّ السيّد المسيح، الذى خلقه الشيطان من تمثال مرمرى لصبيّة حسناء"[٣].

وجملة القول أن الدور الحضارى الحورى، فى مجالات السياسة والإدارة والحرب والميثولوجيا، كان واضح التأثير فى شعوب غربى آسيا، وقد لخّص رينيه لابات ذلك الدور بقوله إن الحوريين ربطوا على صهوة جيادهم بين آشور وأرمينيا والأناضول وسوريا العليا برباط عنصرى وثقافى[٤].

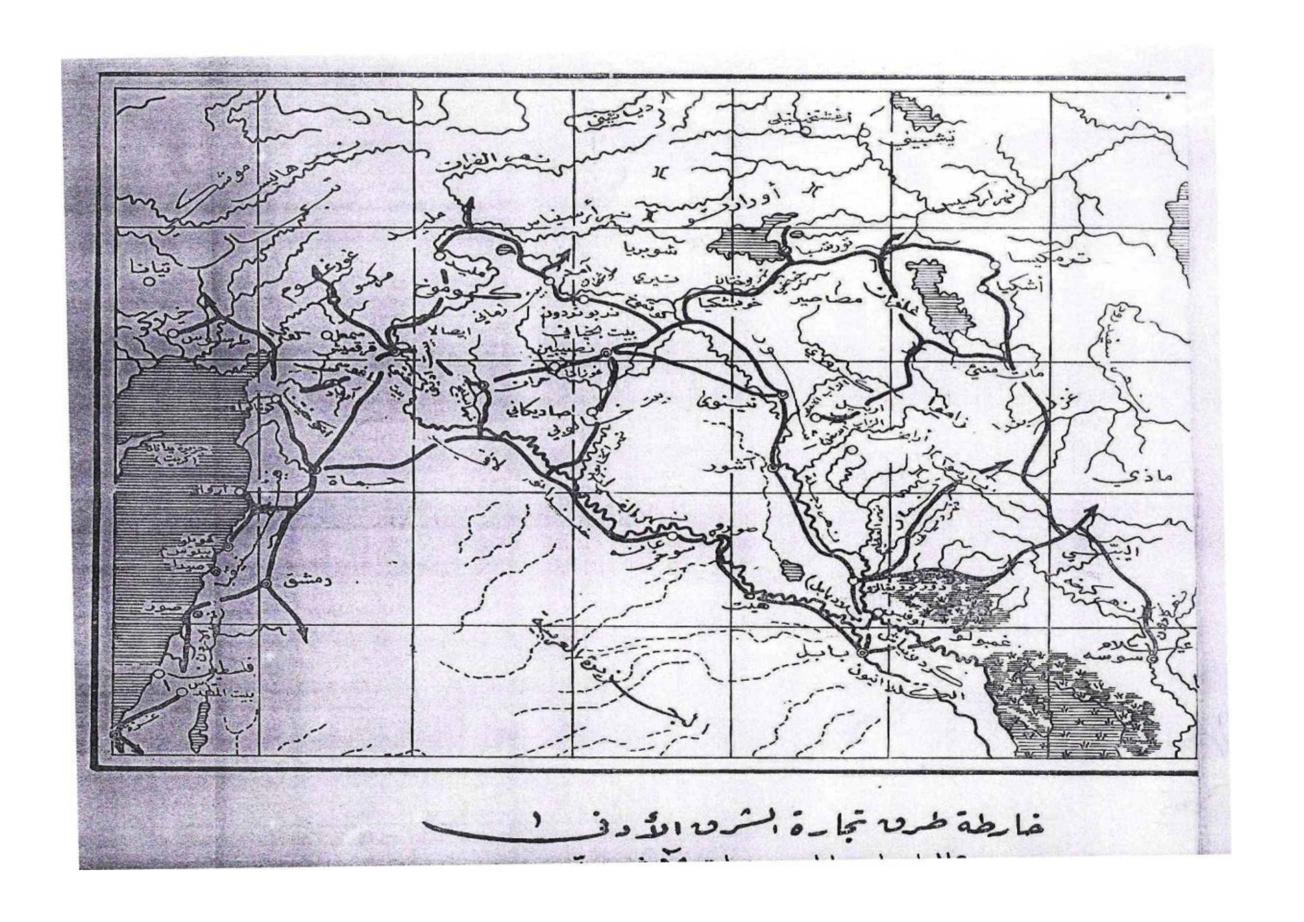
---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٤. فاضل عبد الواحد على: من سومر إلى التوراة، ص ١٥٤. عبـــد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٣٠.

٢ – جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٢٠١.

٣ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١١٦.

٤ – رينيه لابات وآخرون: سلسلة الأساطير السورية، ص ٨.



خارطة طرق تجارة الشرق الأدنى ١

٤

الميتّــانيون Mittani

الهويّة والجغرافيا

أولاً– هوية الميتّانيين:

معظم معلوماتنا عن مملكة ميتّانى مستمدة من وثائق مدينة نُوزى الحورية/الميتّانية، وقد تمّ الكشف عن أطلالها قرب كركوك فى جنوبى كوردستان ، ومثل كثير من الأسماء القديمة ورد اسم الميتّانيين بصيغ مختلفة، وهو اختلاف ناجم عن اختلاف اللغات التى وردت بها تلك الأسماء، فقد ذُكروا بصيغة (ميتّانى) Mittani، وبصيغة (ميتانّى) Mitanni، وبصيغة ميتانى Mitani، وذكر جرنوت فيلهِلم أن الصيغة الأصلية كانت (مَيْتّانى) Maittani، ثم حُوِّر اللفظ إلى (مِيتّانى) Mittani، وأن الجزء الأساسى هو (ميتّا)، أما المقطع (نى) فهو لاحقة، واستخدم جرنوت الصيغة الأخيرة (ميتّانى)، ونأخذ نحن بهذه الصيغة[1].

وقال الدكتور أحمد فخرى يعرّف بالميتّانيين:

"لم يمض غير وقت قليل حتى صار اسمهم (مملكة ميتّانى) التى بسطت نفوذها على شمال بلاد الرافدين (المنطقة المعروفة الآن باسم كوردستان)، وعلى وديان شمال جبال زاغروس، وصارت وجهاً لوجه أمام دولة آشور، وأصبحت خطراً حقيقياً عليها. ووصلت هذه

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٨. ٥٨.

المملكة الجديدة إلى أوج عظمتها فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد (حوالى ١٤٥٠ ق.م)، وتحالفَ ملوكها مع فراعنة مصر وصاهروهم"[١].

وقال جرنوت فيلهلم بشأن هويّة الميتّانيين:

"وُجدت بين المهاجرين القادمين من المناطق الجبلية شرقى الأناضول مجموعاتٌ كانت تتحدث لُكْنَة هندو جرمانية، وفى الأصح بصيغة موغلة فى القِدم من الهندوآرية، وقد حظيت هذه الحقيقة باهتمام كبير فى تاريخ الدراسات الشرقية القديمة... فيما يتعلق بالتقييم التاريخى العام فإن أبرز المسائل الخلافية هى: هل تسلّلت المجموعات الناطقة باللغة الهندوآرية، التى جاءت من القفقاس– إلى الهلال الخصيب مع الحوريين؟ أم أن المظاهر اللغوية الهندوآرية الموجودة فى الحورية ترجع إلى حصول احتكاك بين الشعبين خلال ارتحال الهندوأوربيين إلى إيران ثم الهند"[٢].

وأضاف جرنوت فيلهلم موضّحاً:

"وبما أن بقايا اللغة الهندوآرية– وتتمثّل فى أسماء آلهة أو أشخاص، إضافة إلى مجموعة من المصطلحات الحِرَفية المتعلقة بتربية الخيول– تَرِد بالدرجة الأولى بشكل مرتبط بسلالة ميتّانى، فإنه يمكن أن يُستخلَص من ذلك أنه نشأت فى مناطق القفقاس بتأثير المهاجرين الهندوآريين تقاليدُ معيّنة فى مجال الأسماء المتصلة بالطبقة السائدة، ويمكن توضيح ذلك بالتواصل السلالى، ثم انتقلت نحو الجنوب الغربى عبر أكثر من (٥٠٠) كم إلى مملكة ميتّانى فى شمالى بلاد الرافدين"[٣].

وانتهى جرنوت فيلهلم من مناقشته لهذه المسألة إلى:

"أن مجموعات ناطقة بالهندوآرية فصلت نفسها عن التيار الرئيس لتلك القبائل المرتحلة عبر إيران إلى الهند، ثم سارت مع الحوريين إلى منطقة الهلال الخصيب، وانصهرت بسرعة معهم فى بيئة بلاد الرافدين وسوريا الحضارية، وهجرت لغتها فى زمن مبكّر"[٤].

---

١ – أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٢٠٢.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٧.

٣ – المرجع السابق، ص ٤٧ – ٤٨.

٤ – المرجع السابق، ص ٤٧ – ٤٨.

ومن الأدلة البارزة على الأصل الآرى للأسرة الملكية خاصة، وللطبقة السياسية والعسكرية الحاكمة فى ميتّانيا عامة، أن المعروفين من ملوك مملكة ميتّانى- وهى تسمّى (المملكة الحورية العظمى)- يحمل جميعهم أسماء غير حورية، ومن المؤكد أن أسماء بعضهم هندوآرية من حيث اشتقاقها اللغوى نذكر منهم:

- أَرْتَتاما: فى لغة الڤيدا Veda (رْتا ذامن)؛ أى ديارُه هى رْتا.
- تُوشْراتّا: فى لغة الڤيدا (تِفْصا رثا)؛ أى عربته الحربية تسير باندفاع.
- شَتّى وازا: فى الهندوآرية القديمة (ساتى فايا)؛ أى الظفر بالعتاد الحربى[1].

وثمة دليل قوى آخر على آرية الطبقة الحاكمة والقائدة فى ميتّانيا، وهو الآلهة التى عبدها ملوك ميتّانى فى أواخر القرن الرابع عشر ق.م، فهى آلهة آرية، أبرزها (مِيثْرا، ڤارُونا، أنْدرا، ناساتيا)، وهى معروفة فى أقدم القصائد الشعرية الهندية (ڤيدا)، ومعروفة أيضاً فى كتاب الزردشتية المقدس (أڤستا) Avesta ، ويبدو أن عبادتها كانت محصورة فى نطاق السلالة الميتّانية الحاكمة[2].

ونستنتج من الأقوال السابقة، ومن آراء أخرى للمؤرخين، أن الميتّانيين حوريون من الفرع الآرى، قَدِموا من جغرافيا التكوين الآريانية (آرْيانا ڤِيجُو)- تسمّى (آريانا ڤيدجا/آريانا ڤادژ) أيضاً- مع بدايات الألف الثانى ق.م، واندمجوا مع أقوام زاغروس القدماء، وكانوا من العنصر الحربى الأرستقراطى، فاستلموا دفّة القيادة فى الوطن الحورى، ونتيجة لذلك صار الطابع الآرى- سياسياً وثقافياً- أكثر وضوحاً فى المجتمع الحورى وفى المملكة الحورية بشكل عام[3].

---

١ - المرجع السابق، ص ٤٨.

٢ - المرجع السابق، ص ٤٩.

٣ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢٤١/٢. فراس السوّاح: الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم، ص ٤٤.

ثانياً – جغرافيا ميتّاني:

كانت الجغرافيا التى يقيم فيها الميتّانيون تُعرَف فى المصادر الأكّادية باسم (خانى جَلْبَتْ) أو (خالى جَلْبَت)، وأقدم صيغة لها هى (خابين جَلْبَت)، وكانت تُعْرَف عند المصريين باسم (نَهْرِينا)، وقد ذُكر اسم مَيْتّانى (فيما بعد مِيتّانى)، الذى كان يطلقه الميتّانيون على بلادهم، أوّل مرة فى نقش كتابى يرجع إلى عهد الملك المصرى تُحوتْمُوس الأول (حوالى ١٤٩٧ – ١٤٨٢ ق.م)، وتحديداً إلى الفترة التى تصدّعت فيها السيادة الحثية فى شمالى سوريا، وقام تُحوتْمُوس الأول بحملة عسكرية احتل خلالها فلسطين[١].

وكل معلوماتنا عن ميتّانى جاءت من السجلات التى عُثر عليها فى مصر وآشور وأوغاريت والعاصمة الحثية خاتّوشا (خاتوسا)، دونما أثر أركيولوجى حقيقى فى موطنها الذى تم الاتفاق عليه بناء على ما ورد فى السجلات غير الميتّانية. وثمة دراسات مطوَّلة معقَّدة انتهت إلى فرضية تضع تلك المملكة فى الرافدين الأعلى (الجزيرة العليا)، مع حيرة خافية حول الانتشار والتشظّى الواسع للشعب الحورى فى طول المنطقة وعرضها؛ فى الأناضول، وفى جميع بوادى سوريا، وفى داخل فلسطين.

وأما الأكثر أهمية فى هذا المجال فهو الوجود الحورى فى بلاد باسم (أَدُوم) التى حملت أيضاً اسم (بلاد الحور)، وهى تُعرَف باسم (جبل سَعِير) فى جنوبى الأُردنّ، وجاء فى كتابة تعود إلى عهد الملك الآشورى شَلْمانَسَر الأول (١٢٧٤ – ١٢٤٥ ق.م)، أنه قام بفتوحات عسكرية متتالية على الأقوام الجبلية، وعلى مملكة أورارتو، ومملكة (خانى جَلْبات/ خانى كَلْبات) الميتّانية التى ضُمّت أراضيها إلى أراضى الدولة الآشورية، بعد أن تقلّص نفوذها السياسى، واقتصر على السهول الواقعة بين دجلة والفرات، جنوبى سلسلة جبال طوروس،

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٨، ٥٩. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٨١.

وهى تدل فى السجلات الآشورية على منطقة واسعة تمتد من طور عابدِين حتى مناطق حَرّان وطوروس[1].

وذكر الدكتور توفيق سليمان أن القبائل الحورية/الميتّانية استملكت، مع مرور الزمن، بعض المناطق التى كان يسيطر عليها الأموريون (العموريون)، ثم اغتنمت فرصة تدمير الملك البابلى حَمُورابى لمملكة مارى الأَمُورية، فوسّعت مناطق انتشارها، وزادت تثبيت نفوذها فى المنطقة. وحينما سقطت العاصمة البابلية (بابل) فى أيدى الحثّيين حوالى عام (١٥٣٠ ق.م) كانت هذه القبائل قد أسست مملكة تُعرف باسم المملكة الحورية- الميتّانية، وعاصمتها (واشوكانّى) التى لم يُعثر على موقعها حتى الآن، وكان المصريون يطلقون على المنطقة الحورية — الميتّانية (اسم نَهارينا)، وأسماها البابليون (خانى جالْبات)[2].

وقد حدّد جرنوت فيلهِلم بلاد الميتّانيين (ميتّانيا) قائلاً:

"ويدلّ كلا الاسمين (ميتّانى، خانى جَلْبات) على البلاد الواقعة بين منعطف نهر الفرات والمجرى العلوى لنهر دجلة، ومركزها منطقة مثلّث ينابيع الخابور. أما الحدود الشمالية لها فغير واضحة تماماً، ويرجَّح جداً أن مملكة ميتّانى كانت تشمل أيضاً مناطق طُور عابْدِين، والسهلَ المحيط بمدينة آمِد (دياربكر)، وتتاخم فى الشمال بلاد إشُوّا (مركزها الاقتصادى نواحى ألْتينوفا، حالياً جهات بحر كِبَن)، وأَلْشِ (شمالى دجلة عند جزئه الذى يجرى من الغرب إلى الشرق، ويسمّى هذا الجزء فى المصادر اليونانية Arzanene). وقد كانت بلاد إشُوّا وأَلْشِ مسكونة بالحوريين أيضاً، ومرتبطة على مر العصور بمملكة ميتّانى"[3].

نهضة ميتّانى السياسية

مرّ أن الميتّانيين فرع آرى من التكوين الحورى، ولعلهم كانوا فى الأصل قبيلة أو عدّة قبائل، لكنهم هيمنوا على مقاليد الأمور فى بلاد الحوريين، فُعرفت الدولة بهم، وهذا تقليد مطّرد فى التاريخ القديم. وما زال تاريخ بدايات مملكة ميتّانى غامضاً ويستفاد من المصادر

---

١ - محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٤٥.

٢ - توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٢.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٨ — ٥٩. وانظر محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٤٣.

التاريخية أنهم برزوا- كقوة سياسية وعسكرية- منذ منتصف الألف الثانى ق.م، وقد حصل ذلك فى سياق الحملات الحثّية العسكرية على المرتفعات الجبلية فى الأناضول، وسهول كِيليكْيا، ومدن سوريا الشمالية الواقعة بين منعطف الفرات والبحر الأبيض المتوسط، نظراً لغناها الاقتصادى، وأهميتها فى مجال التجارة الخارجية، وقد حرص ملوك الإمبراطورية الحثّية القديمة (١٦٠٠ – ١٣٨٠ ق.م) على أن يُلحقوا تلك المناطق بدائرة نفوذهم، ولا سيّما الملك الحثّى خاتّوشيلى Hattushilis الأول (١٥٧٠ – ١٥٣٠ ق.م)، وابنه مورشيلى Murshilish الأول (١٥٣٠ – ١٥١٠ ق.م)[١].

وجدير بالذكر أن فروع شبكة طريق الحرير التجارى القادم من ميزوپوتاميا، وكذلك فروع شبكة طريق البخور القادم من اليمن عبر غربى شبه الجزيرة العربية، كانت تتوجّه إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وإلى غربى آسيا الصغرى (غربى تركيا حالياً)، وكانت تلك الفروع تلتقى فى مناطق الجزيرة العليا وشمالى سوريا عامة، ولذلك كانت الممالك المجاورة جميعها تعمل لبسط سيطرتها على تلك المناطق، بدءاً من الأكّاديين والبابليين والآشوريين فى الشرق، ومروراً بالحثّيين فى الغرب والشمال، وانتهاء بالمصريين فى الجنوب والغرب.

وقد مرّ فى الحديث عن الحوريين أنهم كانوا ينتشرون فى معظم المناطق السابقة الذكر، وكان لهم نفوذ كبير فيها، وهذا يعنى أن الحملات الحثّية الحربية كانت كانت تُشنّ- فى الغالب- على مناطق النفوذ الحورى، وأن الصراع كان فى جوهره صراعاً حثّياً حورياً. ويبدو أنه كان ثمة صراع داخلى بين الطبقات الحورية الحاكمة، وكان ملوك فرع ميتّانى ينافسون الحكام الذين سمّوا أنفسهم (ملوك بلاد حورى/خورّى) Khurri، وعلى الغالب كان نهر الفرات هو الحدّ الفاصل بين البلاد التى كانت تحت نفوذ ملوك حورى وتلك التى كانت تحت نفوذ الميتّانيين[٢].

وقد تعرّضت الإمبراطورية الحثّية القديمة للضعف، نتيجة الصراعات على العرش، فقد اغتيل الملك مورشيلى الأول عام (١٥١٠ ق.م)، وفى عهد خلَفه وعديله خانتيلى الأول (١٥١٠ – ١٤٩٠ ق.م)، فقد الحثيون سيطرتهم على شمالى سوريا، وعمّ الانحلال قلب

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٢. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٧١.

٢ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٨.

الأراضي الحثّية، فاغتنم الحوريون- بقيادة الميتّانيين- الفرصة، فدعموا نفوذهم في شمالي سوريا، وخلال (٢٥) عاماً تفاقمت أوضاع المملكة الحثّية، وكثرت المؤامرات الداخلية، وتعاقب أربعة ملوك على العرش، كان آخرهم الملك تيليبينو (١٤٦٥ – ١٤٥٠ ق.م)، وهو آخر ملك حثّي قوي في المملكة الحثّية القديمة، وخلَفه بعد وفاته ملوك عديدون، ونشب الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، وفقدت المملكة الحثّية سيطرتها على مقاطعات شمالي سوريا، وانتعشت المملكة الحورية ثانية، لكن بقيادة الطبقة الحاكمة الميتّانية[1].

وقد بلغ الميتّانيون ذروة المجد في بداية القرن الرابع عشر ق.م، واتخذوا مدينة آشوكاني (واشّوكاني/ وشّوكّانّي) Washukkanni عاصمة لهم، وهي لمّا تُكتشف بعدُ، ويُعتقَد أنها تقع على الخابور الأعلى، وتحديداً في موقع (تل الفخّارية) Tell- Fekheriya الحالي الواقع على نهر الخابور في شرقي (تل حَلَف)، وهو التل المجاور لمدينة (رأس العين) الواقعة في المنطقة الكوردية بشمال شرقي سوريا، وتحديداً قرب نهر الخابور على الحدود التركية- السورية، ورجّح جرنوت فيلهلم أن مكان آشوكاني يقع في منطقة أبعد شمالاً ؛ أي في نواحي ماردين (جنوب شرقي تركيا)، وعلى الأرجح في غربي أو شمال غربي ماردين. وجدير بالذكر أن هذا الاسم يعني بالكوردية (النبع الجميلة) أو (نبع الطاحونة)، وقد سُمّيت في العهد الآشوري (سِيكاني) Sikani، وتعني بالكوردية (الينابيع الثلاثون)[2].

وبسط الميتّانيون سيطرتهم نحو الشرق باتجاه آشور (كانت تسمّى سُوبارْتو) ونحو المناطق الواقعة شرقي دجلة حتى جبال زاغروس ومنطقة أرّابْخا (كركوك حالياً)، ونحو الشمال في المنطقة التي سُمّيت بعد ذلك أرمينيا، وفي الغرب مدّوا نفوذهم إلى سوريا حتى البحر الأبيض المتوسط، يقول جورج رُو:

"تتوفّر براهين كافية لأن تحملنا على الاعتقاد بأن كافة ملوك آشور الذين حكموا بين أعوام (١٥٠٠ – ١٣٦٠ ق.م)، كانوا خاضعين بالفعل لنفوذ المملكة الميتّانية، حيث

---

١ – هاري ساغز: عظمة آشور، ص ٥٤. توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٧١ – ٢٧٤.

٢ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٢. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٧. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٢٤٧/٢، ٢٤٨.

يُعلمنا شاوشّتّار [= ساوشاتار] **بأنه غزا آشور، عندما تجرّأ أحد ملوكها على إعلان عصيانه، ونقل منها باباً إلى عاصمته واشوكانى صُنع من ذهب وفضة**"[1].

وتفيد المصادر أن فى الفترة الواقعة بين (١٤٥٠ – ١٣٧٥ ق.م)، كان ملوك آشور ملوكاً بالاسم فقط، فكان آشور رابى، وآشور نيرارى الثالث، وكذلك ولدا هذا الأخير آشور بيلنيشيشو، وآشور ريمنيشوشو، أتباعاً لملوك ميتّانى[2].

واتّسعت مناطق نفوذ مملكة ميتّانى نحو الغرب حوالى (١٤٧٠ ق.م)، وشملت مملكة حلب، وذلك فى الفترة التالية لاحتلال الملک الحثّى مورشيلى الأول لها، كما استطاعت مملكة ميتّانى أن تُخضع لحكمها دويلات وممالک صغيرة فى الغرب، ومنها مملكة مُوكِيش (أَلالاخ) التى كانت حدودها تبلغ شواطئ المتوسط. ويذكر جين بوترو وزملاؤه أنه فى أواسط الألف الثانى ق.م، و"**من البحر المتوسط شرقاً إلى نُوزى** [= قرب كركوک] **كان كل شيء ضمن دولة واحدة؛ وهى الإمبراطورية الميتّانية التى حكم فيها طبقة عليا من الهندو– أوربيين شعباً من الخوريين**"[3].

وقال المؤرخ المصرى الدكتور محمد بَيُّومى مَهْران، يتحدث عن الميتّانيين:

"**وأقاموا دولة قوية هى** (**الدولة الميتّانية**)، **واتخذوا من مدينة** (**واشوكّانّى**) **Washukkanni عاصمة لهم، وهى** (**تل الفخارية**) **Tell- Fekheriya الحالية، وقد استغلت الدولة الميتّانية ضعف الإمبراطورية الحيثية وانقساماتها الداخلية، فمدّت نفوذها على المناطق الواقعة فيما بين بحيرة** (**وان**) **Lake Van وأواسط الفرات، ومن جبال زاغروس وحتى الساحل السورى، وكانت بلاد آشور من المناطق التى وقعت تحت نفوذها وسيطرتها المباشرة، ومع ذلک ذكرت قائمة الملوک الآشوريين أسماء عدد من الملوک**

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٢. محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العراق القـــديم، ص ٣٤٣ – ٣٤٤. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢٤٣/٢، ٢٥٠.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢٥١/٢.

٣ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٩. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٢٠١.

الذين حكموا فى بلاد آشور فى فترة السيطرة الميتّانية، وربما كانوا ملوكاً محلّيين تابعين للملوك الميتّانيين المحتلين"[1].

وذكر الدكتور جمال رشيد أحمد:

"أن الإمبراطورية الميتّانية شملت فى أوج عظمتها المقاطعات الواقعة بين سفوح جبال زاغروس، وسواحل البحر الأبيض المتوسط (كوردستان الجنوبية والوسطى والغربية)، وما اكتشاف خاتم (مُهْر) ساوشاتّار الملكى لتذييل الوثائق الإدارية بين مخلَّفات مدينة نُوزى، إلا دليلاً على انتشار الآريين فى كل هذه المناطق التى نشأت فيها عن طريقهم أولى بوادر القومية الكوردية"[2].

وكانت نُوزى، خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م، مقراً هاماً للحكم فى مملكة ميتّانى، وكانت عاصمة سَاوشاتّار هى مدينة وَشّوكّانّى، ويُعتقد أن هذا الاسم تطور إلى وُشُّوكّانى، ثم إلى سِيكانى، ويذكر اسم سِيكانى فى نقش آشورى، ويوصف بأنه اسم مدينة تقع عند (رأس نبع الخابور)؛ وهذا يعنى عند مدينة (رأس العين) الحالية، وبذلك يمكن الجزم بوجود مدينة سيكانى فى (تل فخارية) أو فخيرية[3].

وقد دامت مملكة ميتّانى حوالى قرنين بين عامى (١٤٧٥ – ١٢٧٥ ق.م)[4].

وفيما يلى أبرز أسماء ملوك ميتّانى الذين وصلتنا أخبارهم؛ مع الأخذ فى الحسبان أن ثمة اختلافاً مُربِكاً فى المصادر بشأن أسمائهم، والعهود التى حكم فيها كل ملك، إضافة إلى أنه لا توجد أخبار بعضهم، ونحاول- عبر مقارنة ما توصلنا إليه من معلومات- ذكرَ المعلومة الأكثر صواباً بالنسبة إلى الأسماء والعهود .

١. كِيرْتا Ki- ir-ta: أول زعيم ميتّانى، وأخباره غير معروفة.

٢. شُوتّارنا (شُتَّرْنا) الأول Shuttarna 1، وهو ابن كِيرتا، حوالى نهاية القرن ١٦ ق.م.

---

١ – محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٤٣ – ٣٤٤.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢٥٢/٢.

٣ – أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ١١٨. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٢.

٤ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١.

٣. پاراتارنا Paratarna بن كِيرْتا Ki- ir-ta: يسمّى (بَرَّتَّرْنا) أيضاً، توفّى حوالى عام (١٤٧٠ ق.م).

٤. پارساشاتار Parsashatar (بَرْساتَتَر) حوالى (١٤٤٠ ق.م).

٥. ساوشّاتّار Saushshattar (شاوشاتار) بن پارساشاتار: حكم فى الفترة التالية لحملات تُحوتْمُوس الثالث على شمالى سوريا (الحملة الأولى عام ١٤٥٨ ق.م، والحملة الثانى عام ١٤٤٧ ق.م، والحملة الأخيرة عام ١٤٣٨ ق.م)، و هو أشهر ملوك ميتّانى، وعاصمته وشّوكّانّى (آشوكانى)، إنه أعاد توحيد مملكة ميتّانى بعد أن دبّ فيها الاضطراب، وأخضع آشور لسلطته، وغزا حلب واستولى عليها وعلى شمالى سوريا، بالرغم من غزوات الملك المصرى تُحوتْمُوس الثالث المظفَّرة، كما فرض نفوذه على بلاد مُوكيش (ألالاخ) الممتدة حتى البحر الأبيض المتوسط، وسيطر على مملكة كيزّوفَتْنا فى كِيليكْيا، وأما فى الشرق فيتضح من خطاب له عُثر عليه فى نُوزى أن ملك أرّابْخا (منطقة كركوك حالياً) كان تابعاً له، وامتدت مناطق نفوذه من جبال زاغروس حتى البحر المتوسط، وشملت جميع المناطق الناطقة باللغة الحورية[1].

٦. أَرْتاتاما Artatama (أَرْتَتاما/ أرتاداما) الأول: حوالى نهاية القرن الخامس عشر ق.م، أو حوالى (١٤٣٠ ق.م) ولعله ابن ساوشّاتّار، حفظ للمملكة كيانها، ولو أنه لم يوسّع حدودها، وسادت فى عهده علاقات ودية بينه وبين الملك المصرى تُحوتْمُوس الرابع، تكلّلت بأن أرسل واحدة من بناته لتكون زوجة للفرعون.

٧. شُوتّارنا Shuttarna (شُتَّرْنا) الثانى: حوالى عام (١٣٨٠ ق.م)، صادق الفرعون أَمْنُوفِيس (أَمُنْحوتَب) الثالث (١٣٩٠ – ١٣٥٢ ق.م)، وزوّجه من ابنته كِلو- خِبّا (جيلو-خِپا)، وكان ذلك فى السنة العاشرة من حكم أمنوفِيس الثالث؛ أى فى (١٣٨١/١٣٨٠ ق.م).

٨. أَرْتاشُوارا Artashuwara (أرْتَشُمْرا)، يسمّى فى بعض المصادر (أرشتومارا): تآمر عليه أحد كبار القادة واسمه أُتْخى Utkhi، و لم يكن ينتمى إلى الأسرة المالكة، وذبحه، وكان أُتْخى يتزعّم الحزب المعادى لمصر، وتوّج ابن شُوتَّارْنا القاصر، واسمه تُوشْراتّا ملكاً على البلاد، ليكون دمية بين يديه.

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٢.

٩. تُوشْراتّا Tushratta(تُشْرَتّا): لعله حكم بدءاً من عام (١٣٦٠ ق.م) أو قبل ذلك بفترة، وقد أعدم الثوارَ الذين ذبحوا أخاه أَرْتاشُوارا، كي يزيل لطخة العار التى لحقت بحكمه غير الشرعى، غير أنه فقد جزءاً من مملكته (خانى جَلْبات)، وكان الحزب المعادى له قد نصب أرتاتاما (أَرْتَتَما) الثانى ملكاً، وهو أحد أفراد الأسرة المالكة، وتحالف تُوشْراتّا مع الفرعون أَمْنُوفِيس الثالث، كما تحالف أرتاتاما مع شوپيلوليوما ملك الحيثيين الذى قام بغزو إمارات تُوشْراتّا غربى الفرات.

١٠. أَرْتاتاما Artatama (أرتاداما) الثانى: جاء فى الإيرانية بصيغة أرتاتاوخما، مرّ أن الحزب المعادى لتُوشْراتّا نصبه على العرش، وأنه تحالف مع شوپيلوليوما ملك الحثّيين.

١١. شُوتَّارْنا Shuttarna (شُتَّرْنا) الثالث: حوالى سنة (١٣٤٠ ق.م)، عيّنه والده أرتاتاما الثانى وريثاً للعرش، بعد اغتيال تُوشراتّا وأتباعه، ولم ينجُ من المذبحة سوى ماتى وازا (شتّى وازا) الابن الصغير لتُوشْراتّا.

١٢. ماتّى وازَا Mattiuaza (شتّى وازا): حوالى سنة (١٣٦٠ ق.م)، أقامه الملك الحثّى شوپيلوليوما على العرش، وزوّجه من ابنته، وفى عهده أصبحت آشور، بقيادة آشور أُوبالّيت (١٣٦٣ – ١٣٢٨ ق.م)، مستقلة عن مملكة ميتّانى، وبدأت حروبها ضدها ميتّانيا[1].

١٣. شاتُّوارا Shattuara (شَتُّورا) الأول: هو خليفة ماتّى وازا.

١٤. وازا شَتّا Usashata (فاساشاتّا): هو ابن شاتُّوارا وخليفته، حكم فى مطلع القرن الثالث عشر ق.م.

١٥. شاتُّوارا Shattuara (شَتُّورا) الثانى: هو خليفة وازا شَتّا، (حوالى ١٢٧٠ ق.م)[2].

ومثل بقية الممالك مرت مملكة ميتّانى بطور القوة، ثم بطور الضعف، ثم انتهى بها الأمر إلى الزوال، وقال جرنوت فيلهلم بشأن توسّع نفوذ مملكة ميتّانى:

---

١ – انظر وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١ – ٦٣. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٨

٢ – أسماء ملوك الميتّانيين وتواريخهم مقتبسة من: وليام لانجر: موسوعة تـــاريخ العـــالم، ٦٢/١ – ٦٣. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٨، ٦٢. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التـــاريخ، ٢٤٣/٢- ٢٤٤، ٢٥٣، ٢٥٥. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٤- ٤٧٧. محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٤٣ – ٣٤٤.



الأراضي التي إحتوتها مملكة ميتانني

"اتّسعت مناطق نفوذ مملكة ميتّانى نحو الغرب فى حوالى (١٤٧٠ ق.م)، وشملت مملكة حلب التى كانت قد استقلت ثانية خلال فترة حكم ملوكها الثلاثة (شَرَّ إيل، أبّا إيل، إليم إيليمّا)، وذلك فى الفترة التالية لاحتلال الملك الحثّى مورشيلى الأول لها، كما استطاعت أن تُخضع لحكمها دويلات صغيرة فى الغرب مثل: نِيّا Neyya، وأَمَأُ، ومُوكِيش (أَلالاخ) التى كانت حدودها تبلغ شواطئ المتوسط"[١].

وبلغت قوة مملكة ميتّانى درجة أنها كانت تفرض نفوذها على الممالك المجاورة، فقد نشبت ثورة مدعومة من ميتّانى فى مملكة حلب، واضطر آخر ملوكها إِدْريمى إلى الهرب، وقضاء سنوات طويلة فى المنفى، وتمكّن الملك الميتّانى پاراتارنا Paratarna خلال ذلك أن يمدّ مناطق نفوذ مملكة ميتّانى حتى البحر المتوسط، ثم تصالح إدْريمى مع پاراتارنا، فعيّنه الأخير ملكاً على ألالاخ، وشملت مناطق حكم إدْريمى- إضافة إلى ألالاخ- مناطق نِيّا، وأَمَأُ، وأوكل پاراتارنا مركز مملكة حلب إلى شخص آخر، وأُلزم إِدْريمى بموجب معاهدة بالخضوع لملك ميتّانى، وتقديم الجزية له، لكنه صار بعدئذ يمتلك الحق فى إبرام المعاهدات الدولية، وممارسة سياسة خارجية مستقلة، مع التقيّد بواجب الولاء التام لملك ميتّانى[٢].

وكان الميتّانيون وحلفاؤهم يبسطون سيطرتهم التامة على النشاط التجارى فى المنطقة، ويُستخلَص من بعض النصوص التاريخية أن الناطقين باللغة الحورية كانوا جزءاً أساسياً من سكان دويلات سوريا الوسطى والجنوبية، وكانوا يشكّلون الطبقة الاجتماعية العليا وطبقة السادة فيها، ولذلك من الممكن جداً تصوّر أن الصلات الحضارية بينها كانت نتيجة طبيعية للعلاقات السياسية، وأن التحالف السورى كان يحظى بدعم من مملكة ميتّانى[٣].

وذكر الدكتور عبد الحميد زايد أن تُوشْراتّا نصب نفسه ملكاً على بلاد ميتّانى، وبسط نفوذه على بلاد آشور وما جاورها من إمارات فى الشرق، وعلى القسم العلوى من بلاد الرافدين (الجزيرة العليا)، وعلى أجزاء من سوريا، وكيزُوادنا (كِيزُّوفَتْنا) الواقعة شمالى كيليكيا، وكانت تقع تحت نفوذ الحثيين تارة، وتحت نفوذ الميتّانيين تارة أخرى، ولم تستقل

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٩ — ٦٠.

٢ - المرجع السابق، ص ٥٩.

٣ - المرجع السابق، ص ٦٠.

مملكة كركميش ولا مملكة حلب عن الميتّانيين فى هذه الفترة، وتوطّدت العلاقة بين الميتّانيين ومملكة مُوكِيش Mukish وعاصمتها ألالاخ Alalakh. أما أوغاريت Ugarit فيشكّك العلماء فى وجود علاقات بينها وبين الميتّانيين فى هذه الفترة.

وكانت بلاد نُوخاش Nukhash، الواقعة بين منعرج الفرات والأورنت (نهر العاصى)، خاضعة لمملكة ميتّانى فى هذه الفترة، ونجد فى حوض نهر الأورنت: نِيا Neya (Neca) وآراختُو Arakhtu، وأُوكُولْزات Ukulzat، تحت حكم الميتّانيين، وكانت لها علاقات طيبة مع ملك ميتّانى. أما المدن التى تقع فى جنوبى سوريا: قَطْنا Qatna، وكِينْزا Kinza، وكِدْسا Kidsa (قادِش على العاصى) وأمورو Amurru؛ ففى جميع هذه البلاد تأرجحت العلاقة بين الميتّانيين والمصريين، فبعضهم مال إلى المصريين، وآخرون مالوا إلى الميتّانيين، والجميع كان ينافق مضطراً[١].

وفى عهد الملك الحثّى شوبيلوليوما (١٣٨٠- ١٣٤٦ ق.م)، كان يوجد للميتّانيين أنصار فى نِيا Neya وأراختُو Arakhtu، وبدا أن مناطق ساحل سوريا وفلسطين، بما فى ذلك منطقة دمشق، كانت تعترف بسلطان مصر، أما بقية سوريا فكانت تعتبر خاضعة لنفوذ الميتّانيين[٢].

وذكر هارى ساغز أن سيطرة ميتّانى امتدّت عبر بلاد آشور حتى زاغروس، وإلى الجنوب الشرقى من زاغروس، لتشمل منطقة كركوك الحالية، وهناك شواهد على وجودٍ نفوذ ميتّانى فى آشور فترة طويلة، وكان ملوك آشور تابعين لمملكة ميتّانى، و لم يكن حكمهم إلا بالاسم فقط[٣]. وقال الدكتور توفيق سليمان بشأن مملكة ميتّانى:

"وكان نفوذ هذه المملكة يَقوى ويتعاظم كلما ضعفت سلطة المملكة الحثّية، ... وقد بلغت ذروتها حوالى عام (١٤٥٠ ق.م)، خلال عهد الملك شاوشّاتار [=ساوشّاتّار]**، إذ امتدت من أرّابْشا** [=أرّابخا] **فى مقاطعة كركوك الحالية شرقاً حتى إمارة مُوكيش بالقرب من حلب غرباً، ووصل عن هذا الملك أنه شنّ حرباً خاطفة ضد جيرانه الآشوريين فى**

---

١ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٨.

٢ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٩، ٤٨٢.

٣ – هارى ساغز: عظمة آشور، ص ٥٥، ٥٦.

الشرق، واحتل عاصمتهم آشور، ونهب معابدها، وعاد إلى عاصمته واشوكانّى محمَّلاً بغنائم الحرب، ومن بينها باب مرصَّع بالذهب والفضة"[1].

الصراع الميتّانى- الحثّى

خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م، لم تكن مملكة ميتّانى هى القوة الإقليمية الوحيدة فى غربى آسيا، وإنما كانت هناك ثلاث قوى منافسة لها هى: الدولة الآشورية من الشرق (شمال شرقى ميزوپوتاميا)، والدولة الحثّية فى الشمال الغربى (الأناضول)، والدولة المصرية فى الجنوب الغربى، وصحيح أن الآشوريين أصبحوا خاضعين لنفوذ مملكة ميتّانى عندما كانت فى أوج قوتها، لكنهم كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للخلاص من تبعيّتها والانقضاض عليها.

وكان الصراع الآشورى والحثّى ضد مملكة ميتّانى صراع وجود، إذ كان ملوك آشور وملوك الحثّيين يعملون بكل وسيلة للقضاء على مملكة ميتّانى، وضمّ ممتلكاتها ذات الموقع الجيوسياسى المهم إلى دائرة نفوذها. أما الصراع الميتّانى- المصرى فكان صراعاً على المصالح، إذ كان يهمّ المصريين أن يكون لهم نفوذ فى القسم الجنوبى من بلاد الشام على الأقل، وأن تكون مصالحهم التجارية محقَّقة فى شمالى سوريا وفى مملكة ميتّانى بشكل عام، وسنرى أن الصراع بدأ حامياً بين المصريين والميتّانيين، لكنهم توصّلوا إلى الحل عبر تفاهمات سياسية وعبر المصاهرة.

وقد علمنا فيما مر أن الميتّانيين كانوا طبقة حاكمة جديدة من البيت الحورى نفسه، وأنهم ضخّوا دماء جديدة فى جسد الدولة الحورية، وورثوا نفوذها الجيوسياسى، بما فيه السيطرة على شبكة الطرق التجارية العالمية، وخاصة الطريق التجارى الواصل بين ميزوپوتاميا ومصر عبر شمالى سوريا ووسطها، وكان من الطبيعى- والحال هذه- أن يصطدموا بالقوى الإقليمية الثلاث الأخرى؛ الدولة الحثّية والدولة المصرية، ولاحقاً بالدولة الآشورية فى الشرق، ونتناول فيما يلى الأحداث المتعلقة بالصراع الميتّانى- الحثّى، ولنبدأ بالحثّيين، ترى من هم؟

الحثّيون شعب هندو أوربى، دخلوا إلى آسيا الصغرى فى القرن الثامن عشر ق.م، قادمين- على الأرجح- من تراقيا، وأسسوا الإمبراطورية الحثّية القديمة حوالى (١٦٠٠ — ١٣٨٠ ق.م)، واتخذوا خاتّوشا (خاتوسا/حاتوشا/ بُوغاز كُوى الحالية، على بعد ١٥ كم شرقى

---

١ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٣، ٣١٩.

أنقرة) عاصمة لهم، وتوجّهوا شرقاً، وقضوا- بقيادة ملكهم مورشيلى الأول- على الدولة البابلية حوالى سنة (١٥٩٤ ق.م)، وعملوا للسيطرة على مناطق النفوذ الحورى/الميتّانى فى أعالى ما بين النهرين وشمالى سوريا، ثم آلت إمبراطوريتهم إلى الضعف، وكان الهدف الجيوسياسى من تلك الصراعات هو السيطرة على شبكة طريقى الحرير والبخور فى غربى آسيا[١].

وفى الوقت الذى نشأت فيه الدولة الميتّانية، وشهدت نهوضاً قوياً (خلال القرن ١٥ ق.م)، كانت الإمبراطورية الحثّية القديمة قد ضعفت بسبب الصراعات الداخلية، فبسط الميتّانيون نفوذهم على شمالى سوريا، ولكن ما لبث أن نشأت الإمبراطورية الحثّية الحديثة بين (١٣٨٠ — ١١٩٠ ق.م)، وصارت قوة إقليمية ذات شأن، وصارت تقارع الدولة الميتّانية من جانب، وتقارع الدولة المصرية من جانب آخر، وكان الهدف- كما مر- هو السيطرة على شبكة طريقى الحرير والبخور فى غربى آسيا عامة، وفى شرقى البحر المتوسط خاصة.

لقد بدأت الإمبراطورية الحثية الحديثة بالنهوض فى عهد الملك الحثّى شوپيلوليوما (١٣٨٠- ١٣٤٦ ق.م)، وكانت مصر هى العدو الأشدّ خطورة على المصالح الحثّية، بسبب الصراع على سوريا وفلسطين، وكان من المهم بالنسبة للحثّيين ضرب الصداقة القائمة بين مصر وميتّانيا، والقضاء على النفوذ والمصالح المصرية فى شمالى سوريا، وقد ساءهم أن يحصل تقارب بين ملوك ميتّانى وفراعنة مصر، ويبدو أنهم كانوا قد تغلغلوا فى عمق الطبقة الميتّانية الحاكمة، ونجحوا فى تكوين تيّار ميتّانى مؤيّد لهم ومعادٍ لعلاقات الصداقة الميتّانية- المصرية، هذا إضافة إلى أنهم غزوا مملكة ميتّانى من جهات مَلاطيا وآمِد (دياربكر)، وذهب الملك الميتّانى شوتّارنا الثانى ضحية لعلاقاته الحسنة مع دولة مصر.

وقد مرّ أن أحد كبار الضباط الميتّانيين، واسمه أُتْخى Utkhi- وكان من أعداء التحالف مع المصريين- اغتال وليّ العهد أرتاشوارا، ونصب الابن الأصغر لشوتّارنا الثانى، واسمه تُوشْراتّا، ملكاً على ميتّانى، كى يكون طوع يديه، لكنّ توشراتّا ما لبث أن قضى على قتلة أخيه، واستقلّ بالسلطة، وحاول أن يعيد للمملكة قوتها ومكانتها. فانتهز الملك الحثّى شوپيلوليوما نشوب الصراعات على العرش بين أفراد الأسرة المالكة الميتّانية، وساند أميراً حورياً يدعى أرْتاتاما، انشق على الملك تُوشْراتّا، وأعلن الملكية، فعدّ توشراتّا ذلك إذلالاً

١ - محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٢٩٦.

لشخصه، وتحدياً صارخاً لنفوذه، وبدأ التوتر بين الملكين الميتّانى والحثّى، وازداد التوتّر عندما أعلنت مقاطعة (شى) المجاورة لأراضى مملكة ميتّانى الولاء للملك الحثى، فأعلن توشراتّا الحرب على الملك الحثى[1].

وانتهز الملك الحثى شوپيلوليوما الفرصة، فاجتاح بجيشه مناطق سوريا الشمالية، وقضى على نفوذ الملك الميتّانى فى سوريا، وقام بعزل جميع الولاة الحوريين الذين كان الميتّانيون يعتمدون عليهم، ونصب بدلاً منهم ولاة آخرين يثق بهم، ويكونون تابعين للدولة الحثية، وبطبيعة الحال أدّى ذلك إلى تقويض توازن القوى بين الخصوم الأقوياء- مصر والحثيين والميتّانيين- وتنافسهم على ولاء ملوك الدويلات السورية والكنعانية.

ومع ذلك لم يستسلم الملك تُوشْراتّا للأمر الواقع الذى فرضه شوپيلوليوما، وظل مصراً على مقاومة النفوذ الحثّى، وقام بحملة مضادّة إلى سوريا، وحاول الاستيلاء على بيبلوس (جُبَيْل) فى لبنان، ولكنه تقهقر وعاد من حيث أتى، ترى هل كانت تحركات توشراتّا العسكرية مجرّد استعراض لقوته، أم أنه كان يحاول الاتصال بالأمراء الحوريين فى جنوبى سوريا، أو ربما أيضاً الاتصال بفرعون مصر؟ لعل الفرضيات الثلاث كانت صحيحة، ومع ذلك فإن قوة الحثّيين الرهيبة كانت أقوى من أن تزعزعها هذه المحاولات، ويدل على ذلك ما جاء فى رسالة حاكم جُبَيْل (فى لبنان حالياً) الموالى لفرعون مصر، إذ كتب فيها:

"فليعلمْ سيّدى الملک أنّ ملک الحثيين قد استولى على الدول التى اشتركت مع ملک بلاد ميتّانى؛ أى ملک ناخْريما [= نَهْرِينا]**"**[2].

ونتيجة لموقف تُوشْراتّا العنيد، قام شوپيلوليوما بعملية التفاف كبيرة على الحدود الشمالية والشرقية للمملكة الميتّانية، واصطدم مع الآشوريين، وردّهم إلى داخل حدود أرضهم الأصلية، ثم عاد فاجتاح الأراضى الميتّانية فى طريقه إلى العاصمة واشّوكانّى، وخاض معارک عسكرية ضد توشراتّا، وانتصر عليه، وجاء فى رواية أن تُوشراتّا تجنّب الاصطدام به، فاحتل شوپيلوليوما العاصمة واشّوكانى، ثم نهبها ودمّرها شر تدمير، واحتل جميع المنطقة الميتّانية الواقعة بين منعطف الفرات والبحر الأبيض المتوسط، ومن ضمنها مدينة كِرْكِميش، وفرض

---

١ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٦

٢ – هارى ساغز: عظمة آشور، ص ٥٧. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٨٠ – ٤٨١.

سلطته على الحكام المحليين، وألزمهم بالتبعية له، وكانت الطبقة الحاكمة فى ميتّانى من أصل حورى، لذلك لم يطمئن شوپيلوليوما إليهم، فنفى معظمهم إلى الأناضول[1].

واختار شوپيلوليوما لحكم كركميش ابنه پِيَّشِّلى الذى تلقّب هناك بالاسم الحورى شَرّى كُشُخ، وقد حمل كل خلفائه أسماء حورية، وهذا دليل على أن التقاليد الحورية كانت راسخة فى كركميش، أما ابنه الثانى تليبينو- وكان كاهناً- فقد تولّى حكم حلب، وكانت حلب المركز الدينى الأساسى لعبادة إله الطقس الحورى تِشُّوب الذى عبده الحثّيون، بعد أن أسبغوا عليه صفة محلية خاصة[2].

أما تُوشْراتّا فمن الجائز أنه عاش فترة بعد هربه من واشّوكانى، لكنه اغتيل فى النهاية، ويبدو أن ولده شتّى وازا (ماتّى وازا)- يسمّى فى بعض المصادر كُورْتيوازا Kurtiwaza- كان من بين المتآمرين، ولعله كان يهدف من وراء ذلك إلى الخلاص من التيّار المتشدّد الذى كان يقوده والده ضد الحثّيين[3].

واغتنم شُوتّارنا (شُتَّرْنا) الثالث بن أَرْتاتاما الثانى الفرصة، فخرّب ودمّر فى الأراضى الميتّانية التى كانت تابعة للملك تُوشْراتّا، وقد اعتقد أن عمله هذا سيجعله مقرّباً من الملك الحثى المنتصر، الأمر الذى سيسهّل عليه اعتلاء العرش الميتّانى، وراح شُوتَّارْنا يطارد ماتّى وازا (شاتّى وازا) للقضاء عليه، كى ينفرد بالعرش الميتّانى، ويبدو أنه استعان فى ذلك بالآشوريين. وفرّ ماتّى وازا على رأس وحدة عربات حربية صغيرة العدد، وحاول الحصول على موافقة بابل الكاشّية بأن يكون لاجئاً سياسياً فيها، لكنه أخفق فى ذلك، فلجأ إلى الملك الحثى شوپيلوليوما، فحماه وردّه معزَّزاً مكرَّماً، ونصّبه ملكاً على عرش أبيه، وزوّجه من ابنته، وعقد معه معاهدة صداقة ودفاع مشترك، وأمر ابنه شَرّى كُشُخ حاكم كركميش بدعمه عسكرياً، وأصبحت المملكة الميتّانية الضعيفة دولة هامشية وتابعة للإمبراطورية الحثّية، وصارت حاجزاً

---

١ - توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٦.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٦ - ٧٧.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٥. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٨٢، ٤٨٥. أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٨٨.

يقى ممتلكات الإمبراطورية الحثّية من أطماع دولة آشور التى كانت قد استعادت نهوضها، وباشرت مشروعها التوسعى[1].

ويبدو أن ماتّى وازا تمكّن من إعادة بسط سيطرته على المدن المهمة فى مملكة ميتّانى، وتمّ توقيع معاهدة بينه وبين شوپيلوليوما دُوّنت فيها هذه التغييرات، وحدّدت معالم المملكة الخاضعة لحكمه، لكن فى ظل السيادة العليا للملك الحثّى، ويظهر فى حاشية النسخة التى بقيت من هذه المعاهدة أن ماتّى وازا اختار بنفسه اسمه الملكى الذى عُرف به (ماتّى وازا)، وهو هندوآرى، أما اسمه الحقيقى فكان حورياً، وهو (كيلى تِشُّوب). وليس معروفاً إلى أىّ مدى بلغ نفوذ مملكة ميتّانى الجديدة فى الجهات الشرقية، ولكن يُفترَض أنه تقلّص كثيراً.

وبعد موت شوپيلوليوما، ثم موت خليفته أرنووَنْدا الثانى، مرّت المملكة الحثّية بحالة من التمزّق وحركات التمرد فى الأناضول، وعجزت عن الاستمرار فى مشروعها التوسعى شرقى الفرات. ولا نعرف بدقة أخبار ماتّى وازا فى هذه الفترة، لكن يمكن أن نفترض أنه حقق بعض التماسك الداخلى فى مملكة ميتّانى، ويبدو أن الضغط الآشورى، الذى برز فى أواخر عهد الملك آشور أوبالِّيت (١٣٦٣ – ١٣٢٨ ق.م)، جعل ماتّى وازا يعتقد أن بإمكانه الاستغناء عن دعم سيّده الحثّى، فأعلن العصيان، وتخلّى عن الولاء للمملكة الحثّية، وكان ذلك فى مطلع حكم الملك الحثّى مورشيلى الثانى (حوالى ١٣٢٥ ق.م)، وقد ورد فى دعاء لهذا الملك أن ميتّانى "**مستعدةٌ للصراع، لا إلهَ لها، حانثةٌ بالقَسَم**"[2].

الصراع الميتّاني– الآشوري

من هم الآشوريون؟

للآشوريين مساحة واسعة فى تاريخ غربى آسيا، ومع ذلك ثمة اختلاف كثير فى هويتهم الإثنية، وهذا واضح فى أقوال كبار المؤرخين، وخلال القرن العشرين برز تيّار أيديولوجى

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٧. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٦.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٨ – ٧٩.

التوجّه فى الدراسات التاريخية فى دول غربى آسيا، وكان يهمّ هؤلاء أن يقتطعوا الأحداث من سياقاتها التاريخية الصحيحة، ويقفزوا فوق بعضها الآخر، ويصنعوا تاريخاً يتوافق مع توجّهاتهم الأيديولوجية القومية أو الدينية، وهذا ما فعلوه فى حق الآشوريين، فقد نسبهم المؤرخون العرب القوميون إلى الأقوام العربية القديمة التى خرجت من شبه الجزيرة العربية، وانتشرت فى مناطق الهلال الخصيب.

ورجّح الدكتور محمد بَيُّومى مَهْران تنسيب الآشوريين إلى الساميين، لكنه سرعان ما تراجع عن ذلك، إذ لم يعجبه أن تكون قسوة الحكام الآشوريين جزءاً من تاريخ الساميين، فذكر أن هناك من يذهب إلى أن الآشوريين يعتبرون من الشعوب السامية، لأنهم يتكلمون بلغة سامية، وأضاف الدكتور مهران قائلاً:

"غير أن المنطقة التى سكنوها فى شمال العراق إنما قد تعرضت لغزوات شعوب الجبال والشعوب الهندو- أوربية، وقاست كثيراً على أيديهم، كما أصبح سكان آشور خليطاً من أجناس مختلفة، ولم يكونوا ساميين من دم نقىّ، ورغم أن الأسرة الحاكمة كانت تحمل أسماء سامية، إلا أنه لا يمكن معرفة أصلها؛ الأمر الذى أدّى إلى أن يتطبّع الآشوريون بطباع غير سامية، ويُظهروا قسوة، مخالفين بذلك التقاليد السامية القديمة على أيام الدولة الأكّدية"[1].

وقد تجاهل الدكتور مهران أن الحكّام الأكّاديين الساميّين لم يقلّوا قسوة عن حكّام آشور، وعلى أية حال اختلف معظم المؤرخين الذين تناولوا أصل الآشوريين- ومنهم كبار المحققين- مع ما ذهب إليه تيّار أدلجة التاريخ، وأكدوا أن الآشوريين لم يكونوا عرقاً سامياً صرفاً، قال ول ديورانت :

"كان الأهلون خليطاً من الساميين، الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضّرة (أمثال بابل وأكّد)؛ ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب، ولعلهم من الحثّيين، أو من قبائل تَمُتّ بصلة إلى قبائل ميتّانى؛ ومن الكورد سكان الجبال الآتين من القفقاس، وأخذ هؤلاء كلهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة، جعلتها لا تكاد تفترق فى شىء عن لغة أرض بابل وفنونها"[2].

---

١ - محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٢٤، ٣٢٦.

٢ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٦٩ - ٤٧٠.

ورأى هارى ساغز أنه ليس صحيحاً أن قبائل الآشوريين تنحدر من أب واحد ومن سلالة واحدة، وقال موضّحاً:

"كان الآشوريون شعباً هجيناً، وهم يعرفون ذلك، وكان النقاء العرقى ليس بذى قيمة بالنسبة إليهم، ومنذ أقدم الأزمنة كان لديهم تاريخ عنصرى خليط، ... وهذا مذكور مراراً فى النقوش الملكية، أن شعوباً من خارج آشور كانوا يتوافدون ويضافون إلى الأعداد الأصلية من البلاد، ويمتزجون بها"[1].

وأكد الدكتور توفيق سليمان عدم انتماء الآشوريين إلى سلالة واحدة قائلاً:

"تبيّن لنا الرسوم والنقوش التى خلّفها الآشوريون لأشخاصهم أنهم كانوا يشكّلون خليطاً من البؤر البشرية المحلّية فى بلاد ما بين النهرين، ومن البؤر البشرية التى تعود بأصولها إلى الأرض الأرمينية"[2].

إن الأقوال السابقة تلفت الانتباه إلى أرجحية كون الآشوريين شعباً هندو آرياً، لكن بلغة وثقافة سامية، وترجّح أيضاً وجود صلة قرابة إثنية بين الآشوريين وأسلاف الكورد، وثمة من صرّح بذلك دونما لَبس، فقال الدكتور إبراهيم الفنى:

"من القراءة الأولى نعتقد أن الحوريين هم الذين أعطوا الأشوريين تلك الملامح التى كانت تميّزهم عن الساميين فى الجنوب"[3].

وقال الدكتور جمال رشيد أحمد:

"انحدر الآشوريون عرقياً من الحوريين أو الگوتيين أو اللولوبيين"[4].

وقد ذكر سبايزر فى هذا الشأن خبراً، نعتقد أنه مهم جداً، وهو الآتى:

"إن بلاد آشور دخلت تحت سيطرة جيرانها، وخاصة الميتّانيين، منذ أواسط الألف الثانى ق.م، وكانت فى الحقيقة موطناً لسكّان زاغروسيين محلّيين، حَكَمهم ملوك لم ينحدروا من السلالات الساميّة، والكُنية التاريخية الأولى لأقدم ملك حكم هذه البلاد فى

---

١ – هارى ساغز: عظمة آشور، ص ١٧٠، ١٧٣.

٢ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ١٦١.

٣ – إبراهيم الفنى: التوراة، ص ١٠١.

٤ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٣١/١. وانظر هارى ساغز: عظمة آشور، ص ١٧٤.

القرن (٢٣ ق.م) كانت (إياكولابا)، وهى من الأسماء الگوتية على الغالب. واشتهر كذلک من بين الحكام القدماء فى هذه المناطق كلٌّ من أوشبيا وكيكيا، وهؤلاء سبقوا الميّتانيين فى حكم آشور، كما أن كنية أحد ملوک آشور فى القرن (١٩ ق.م) يحمل كنية (أدّاسى) المشتقة من اللغات الزاغروسية، كما نرى من الملوک الأوائل على رأس الدولة الآشورية شخص بلقب (لولابى)، أى شخص لوللويى"[1].

والحقيقة أن الآشوريين قاموا بدور مهمّ فى تاريخ غربى آسيا، كما سبق القول، ويقسّم المؤرخون التاريخ الآشورى إلى ثلاثة عهود:

١ – العهد الآشورى القديم (١٨١٣ - ١٣٦٤ ق.م).

٢ – العهد الآشورى الوسيط (١٣٦٣ – ٩١٢ ق.م).

٣ – العهد الآشورى الحديث (٩١١ – ٦٠٩ ق.م)[2].

الصراع الميتّاني– الآشوري:

دار الصراع الميتّانى- الآشورى خلال العهد الآشورى الوسيط، وحينما سيطر الميتّانيون على مقاليد الأمور فى البلاد الحورية، وقضوا على الدويلات والإمارات الحورية المتنازعة، ووحّدوها تحت لواء مملكة ميتّانى، شرعوا يتطلّعون إلى توسيع نطاق نفوذهم شرقاً فى ميزوپوتاميا، وغرباً فى سوريا، وكان من الطبيعى أن يصطدموا بالآشوريين، ويعملوا لإخضاعهم، وقد حدث ذلک فى عهد الملک سَاوشّاتّار (ساوشاتار)، أشهر ملوک ميتّانى، إذ إنه هاجم بلاد آشور، وسيطر عليها حوالى منتصف القرن الخامس عشر ق.م، وجعلها تابعة لمملكة ميتّانى، واستمرت تلک السيطرة حوالى قرن من الزمان[3].

ويبدو من سياق الأحداث أن محاولات الآشوريين للخلاص من السيطرة الميتّانية بدأت على يدى الملک الآشورى إيريبا (أَريبا) – أَدَد الأول (١٣٩٠ – ١٣٦٤ ق.م)، وهو الابن

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢/٢٥٠، هامش (٣٤).

٢ – نائل حنون: حقيقة السومريين، ص ١٢١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٨٣.

٣ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٨٢

الثانى للملك آشور بيلنيشيشو، وآخر ملوك العهد الآشورى القديم، وكان معاصراً لكل من الملك الحثى شوبيلوليوما، وللفرعون المصرى أَمُنْحوتَب الرابع (أخناتون)؛ إذ استغل الصراع الحثى- الميتّانى من جانب، واغتيال الملك الميتّانى تُوشْراتّا من جانب آخر، فبدأ بتحرير بلاده من الهيمنة الميتّانية، واستكمل ابنه الملك آشور- أوبالّيت (١٣٦٥ – ١٣٣٠ ق.م)، مشروع التحرير، وهو الملك الذى بدأ به العهد الآشورى الوسيط، كما أنه الملك الذى عمل للقضاء على المملكة الكاشّية، واستمرّ العمل بتلك السياسة فى العهود اللاحقة[١].

وجدير بالذكر أن المصادر الآشورية، التى تعود إلى القرن الثالث عشر ق.م، غنيّة بالمعلومات فى هذا المجال، ويظهر من خلالها أن الهدف الأكبر لدولة آشور فى مجال السياسة الخارجية، خلال حكم ملوكها المتميّزين، كان يتمثّل فى احتلال شمالى بلاد الرافدين حتى الفرات، وأولئك الملوك هم: أَدَد نيرارى الأول (١٢٩٥ ١٢٦٤ ق.م)، وشَلْمانَسَر الأول (١٢٦٣ – ١٢٣٤ ق.م)، وتُوكُولْتِى نِينُورْتا الأول (١٢٣٣ – ١١٩٧ ق.م)[٢].

ويظهر فى نقش لأدد نيرارى الأول اسم ملك كان يحكم خانى جَلْبات Khanikalbat (الاسم الآشورى لمملكة ميتّانى بعد أن تقلّصت)، فى مطلع الألف الثالث عشر ق.م، هو شَتُّوارا (شاتُّوارا) الأول، ويظهر اسمه موافقاً لتقاليد ملوك ميتّانى فى التلقّب بأسماء هندوآرية، وهو على الأرجح خليفة ماتّى وازا (شاتّى وازا)، ثم حكم بعده ابنه وازا شَتّا، ويبيّن النقش أيضاً أن اسم العاصمة واشُّوكّانى أصبح (أُشُّوكانى)، وبما أنها كانت قد تعرّضت للاحتلال والنهب عدة مرة، فإنها لم تعد المركز الأهم فى ميتّانى، وحلّت محلّها مدينة (تَئيد) غير البعيدة عنها كثيراً، وكانت هذه المدينة قبل ذلك مركزاً لشُوتَّارنا الثالث حليف الآشوريين وخصم ماتّى وازا[٣].

ونظراً للتهديد الآشورى حاول وازا شتّا الحصول على المساعدة من الحثّيين، وكانوا قد وعدوه بذلك، لكنهم لم يفوا بوعدهم، ولعل السبب هو تجدّد الصراع بينهم وبين المصريين

---

١ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٢٠. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢/٢٥١.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٩. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٨٢. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٢٠.

٣ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٩ – ٨٠.

فى هذه الفترة، وبلوغه مستوى جديداً تمثّل فى معركة قادِش عام (١٢٧٥ ق.م)، وثمة نص آشورى يتحدّث عن القصر الجديد الذى بناه أَدَد نِيرارى الأول فى مدينة تَئيد بعد احتلاها، وقد جاء فيها:

"عندما عزم شَتُّورا ملك خانى جَلْبَت على معاداتى، وشرع فى ممارسات عدائية، قبضتُ عليه بأمرٍ من الإله آشور سيّدى ومُعينى، ومن الآلهة العظام موجِّهيَّ، وأحضرتُه إلى مدينتى آشور. لقد جعلته يُقْسم، ثم تركته يعود إلى بلاده. وصرت أستلم منه سنوياً – طوال حياته – هدايا يرسلها إلى مدينتى آشور.

تمرّد بعده ابنه وازا شَتّا، وعزم على المعاداة، وشعر فى ممارسات عدائية، لقد سار إلى بلاد خَتّى (الحثيين) طالباً المساعدة، استلموا منه هدايا، ولكنهم لم يقوموا بمساعدته. بفضل الأسلحة الجبّارة للإله آشور سيّدِى؛ وبحماية الآلهة آنُ وإنليل وإيا وسِين وشَمْشِ وأَدَد وعَشتار ونرجال الأقوياء بين الآلهة؛ الآلهة المرعبة؛ سادتى، احتللت تَئيدِ كبرى مدن مملَكته، وكَذَلك أَمَسَكو، وكَخَت، وشُورو، ونَبُلو، وخَرّو، وشُدُوخو، وأُشّوكانو. لقد نهبتُ ثروات هذه المدن وممتلكات آبائها وكنوز قصورها، وأحضرها إلى مدينتى آشور.

نعم لقد احتللت تَئيدِ، وأحرقتها وخرّبتها، وبذرتُ فيها الأعشاب الضارّة، وأعطتنى الآلهة العظام كلَّ المناطق من تَئيدِ حتى إرِّيدِ، إلُخَت وكُشيّارى (طُور عابْدِين) حتى حدودها البعيدة، مقاطعة شودو، مقاطعة حَرّان حتى ضفاف الفرات. وقد سيطرتُ عليها، وكلّفت بقية قواته بأعمال شاقّة (أعمال تؤدّى بالفأس والرَّفش وسلّة حمل الأتربة). أما هو (وازا شَتّا) فقد أخرجتُ نساء قصره وأبناءه وبناته وقواته من إرِّيدِ، وأحضرهم أسرى مقيَّدين إلى مدينتى آشور. نعم لقد احتللت إرِّيدِ والقرى الواقعة فى منطقتها، وأحرقتها، وخرّبتها"[١].

وثمة ما يستدعى الشك فى جوانب من هذا التقرير، وفى أن أدد نيرارى الأول تمكّن فعلاً من إخضاع هذه المناطق البعيدة التى يصعب عبور بعض أجزائها، وأنه نهبها وأخضعها للسلطة الآشورية، لكن لعله استطاع تحقيق مراقبة ثابتة على مناطق نهر الخابور وروافده، وبعض أجزاء طُور عابْدِين، وكان إنشاء قصر جديد له فى مدنية تَئيد يخدم هذا الغرض. كما أن وازا شتّا لم يقع فى قبضة الملك الآشورى، بل استطاع أن يؤكد سيادته، وخاصة أن السياسة الخارجية

١- المرجع السابق، ص ٨٠ – ٨١.

الحثّية- بعد عقد معاهدة السلام مع مصر- كانت تركّز على ضرورة التصدّى للحملات الآشورية[1].

وبقيت مناطق شرقى مثلّث الخابور الخصيبة- وكانت فيها المراكز الحضارية والاقتصادية فى مملكة ميتّانى- خاضعة للاحتلال الآشورى، واضطر الملك الحثّى رغماً عنه إلى الاعتراف بمكانة آشور كقوة عظمى. وقد تمكّن شَتُّوارا الثانى- خليفة وازا شَتّا- أن يثبت وجوده فى وجه الملك الآشورى شَلْمانَسَر الأول (١٢٦٣ – ١٢٣٤ ق.م)، وذلك بفضل دعم الحثّيين وقبائل أَخْلامو الآرامية التى اكتسبت- لأول مرة- فى هذه الفترة أهمية متميّزة[2].

وزعم شَلْمانَسَر الأول فى أحد نقوشه أنه حقق نصراً ساحقاً على ملك خانى جَلْبَت (مملكة ميتّانى)، لكن ثمة ما يرجّح أن هذا القول مشكوك فيه، ومن الأدلة على ذلك أن تُوكُولْتى نِينُورْتا (١٢٣٣ – ١١٩٧ ق.م) – ابن شَلْمانَسَر الأول وخليفته- يروى أن السوبارتيين (الاسم القديم للحوريين) تمرّدوا على أبيه، وامتنعوا عن دفع الجزية له، وأقلُّ ما يمكن فهمه من هذا القول هو أن شَلْمانَسَر الأول لم يكن موفَّقاً فى حربه ضد خانى جَلْبات (خانيگالبات)، وهى مملكة ميتّانى بعد أن تقلّصت، وعجز عن إخضاعها. وقام تُوكُولْتى نِينُورْتا بحملة ضد التحالف الحورى الذى كان يضم بلاد أَلْزِ (أَلْشِ)، وبلاد أَمِدانو (المناطق المحيطة بدياربكر)، وبلاد بُرُلُمْزى وغيرها، وحاول فرض الهدوء فى المناطق الحورية، من خلال اتّباع سياسة التهجير وتبديل الهوية السكانية فيها[3].

وحوالى عام (١٢٠٠ ق.م) حدثت أحداث مهمة فى الأناضول، إذ اندفعت إليها الشعوب الإيجية الهندو أوربية (سمّاهم المصريون: شعوب البحر)، قادمين من تراقيا، وكان فى مقدّمتها الفِريجيّون الذين احتلوا وسط الأناضول، غربى نهر هاليس (قِزِيل إرْماق)، وقضوا على المملكة الحَثّية، ودمّروا عاصمتها خاتّوشا، وأغرقوها فى النيران. وليس معروفاً حتى متى بقيت دولة خانى جَلْبات (سليلة مملكة ميتّانى الكبرى)، لكن نصوصاً من أواخر القرن الثالث عشر ق.م، أو مطلع القرن الثانى عشر ق.م، تذكر رجلاً اسمه أَتَل تِشّوب كان ملكاً على

---

١ – المرجع السابق، ص ٨١.

٢ – المرجع السابق، ص ٨١ – ٨٢.

٣ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٨٢ . جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢٤٨/٢.

خانى جَلْبات، وكانت القبائل الآرامية قد دخلت المنطقة، وبسطت سيطرتها هناك من الناحية السياسية[1].

وأحدث الشواهد إطلاقاً على اسم (ميتّانى) يعود إلى عهد الملك الآشورى تِغْلات پِلاسَر الأول (١١١٤ – ١٠٦٧ ق.م)، وحينما قام هذا الملك بحملات على المناطق الواقعة فى شمالى مملكته، وفى شمالها الشرقى، وجد هناك أوضاعاً جديدة، فقد وجد شعباً يُدعى (مُوشْكو)- وهو فى الغالب من الفريجيين- احتل الدولتين الحوريتين، دولة أَلْزِ، ودولة بُرُلُمْزى، وكذلك بلاد كُتْمُخى (كوتْموخى)، وفى سياق حديث تِغْلات پِلاسَر الأول عن حملاته أورد أسماء عدّة دويلات فى أعالى دجلة، وعند نهرى بُوتان سُو وبَتْليس جاى، وتبدو أسماء بعضها حورية، منها بَبْخِ (معناه: الجبلية)، وأُرّاخينُش (معناه: البلاد الجبلية)، كما كان ملوكها يحملون أسماء حورية، مثل كيلى تِشّوب بن كَلى تِشّوب، وشَدى تِشّوب بن خَتُخِّ[2].

وقد استمرّ استخدام أسماء شخصية حورية فى المناطق الجبلية جنوبى بحيرة وان، بين نهرى دجلة والزاب الأسفل، التى تُعَدّ أقدم موطن لسكنى الحوريين، ولا يمكن تحديد تاريخ مؤكد لنهاية اللغة الحورية تماماً، وأصبحت المناطق الحورية من الناحية التاريخية قليلة الأهمية، وصارت ميداناً للصراع بين خصمين متكافئين، هما الآشوريون والأورارتيون، مع العلم أن الأورارتيين يمتّون إلى الحوريين بصلة قرابة لغوية، والراجح أن لغتيهما انفصلتا عن بعضهما منذ الألف الثالث ق.م[3].

ميتّانيا ومصر: صراع وصداقة

ضوء على مصر:

الأصل الإثنى (العرقى) لقدماء المصريين غير معروف بدقة، ومختلف عليه، فثمة من يرى أنهم جاؤوا من الشرق ومن الجنوب، وعلّموا الحضارة لمن كانوا فى البلاد وأخضعوها

---

١ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٤/١.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٩، ٨٢ – ٨٣.

٣ – المرجع السابق، ص ٨٣.

لسلطانهم. ويصفون الطريق الذى جاؤوا منه وصفاً غامضاً، لا نعرف عنه شيئاً على وجه التحديد فى بدايته، ولكنهم استخدموا الطريق الموصل بين البحر الأحمر والنيل. وقال ول ديورانت فى هذا الشأن:

"وما من أحد يعرف من أين جاء هؤلاء المصريون الأولون، ويميل بعض العلماء الباحثين إلى الرأى القائل بأنهم مولَّدون من النُّوبيين والأحباش واللُّوبيين [الليبيين] **من جهة، ومن المهاجرين الساميين والأرمن من جهة أخرى"**[1].

والاسم الذى أطلقه المصريون القدماء على بلادهم هو (كِمى)، أو (قيمى)، بمعنى السمراء أو السوداء، ويشير الاسم إلى سمرة التربة وخصوبتها، وأطلق عليها الآشوريون اسم (موسيرى)، وسُمّى فى العبرانية (مِصْرايِم)، وسماها الإغريق أجبتيوس (Aegybtos)، وكان العرب يسمّونها (مَصْر)، وهذا يعنى أنهم أخذوا بالتسمية الآشورية فى صيغتها العبرانية. ونظراً لشهرة مصر بالحضارة والمدنية أطلق العرب على كل مدينة كبيرة اسم (مصر)، والجمع (أمصار). أما لقب (فِرْعَوْن) الذى يُطلق على ملك مصر فكان فى الأصل اسم قصر الحكم (البيت الأعظم)، حيث تكون دواوين الحكومة، وأُطلق بعدئذ على الملك، وكان يسمّى باللغة المصرية (پيرو) Piro، وترجمه العبرانيون إلى صيغة بِرْؤو/بِرْعو (Pero)[2].

---

١ – ول ديورانت: قصة الحضارة ، ٦٥/٢. من هفوات بعض المؤرخين إطلاق اسم شعب على شعب آخر، من غير توضيح للحقيقة، الأمر الذى يؤدى إلى تحوير للتاريخ وتضليل القارئ، وقد وقع ول ديورانت فى هذه الهفوة فقد نقل عن "**بعض العلماء الباحثين**"– حسب قوله– أن "**الأرمن**" من أجداد المصريون الأوائل. والسؤال هو: كيف يكون الأرمن من جملة أجداد المصريين قبل (٣٠٠٠) عام ق.م، فى حين أن الأرمن دخلوا غربى آسيا، قادمين من أوربا، فى القرن الثامن ق. م كما مر فى مبحث (الخلديين)؟ إن (الهِكْسوس) أقرباء الكاشّيين والحوريين هم الذين غزو مصر، وحكموها حوالى (١٥٠) عاماً، قادمين من المناطق الجبلية فى البلاد التى عُرفت بعدئذ باسم (شمالى كوردستان) و(أرمينيا).

٢ – أحمد الدبش: فرعون وموسى فى جزيرة العرب، ص ٤٣، ٤٥. فاضل عبد الواحد، عامر سليمان: عادات وتقاليد الشعوب القديمة، ص ١٩٧، هامش (١). سفر التكوين، الأصحاح ٥٠، الآية ١١. إيمانويل فلايكوفسكى: عصور فى فوضى، ص ٣٣٤. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٩٣/٢.

ويعود تاريخ مصر المكتوب إلى لا أقل من (٣٠٠٠ ق.م)، وهو بداية عهد الأسرة المصرية الحاكمة الأولى، وصحيح أن مصر تنتمى إلى إفريقيا جغرافياً، لكنها كانت تتفاعل سياسياً واقتصادياً، وإلى حدّ ما ثقافياً، مع غربى آسيا فى الدرجة الأولى، ومع جنوبى أوربا فى الدرجة الثانية، لأن الثقل الحضارى فى العصور القديمة كان فى آسيا وأوربا. وأكثر ما كان يهمّ صانعى السياسة المصرية هو أن يكون لهم نفوذ فى فلسطين خاصة، وفى سوريا بشكل عام، ليس للحصول على الأخشاب من غابات جبال سوريا ولبنان فقط، وإنما أيضاً لأن شرقى المتوسط كان ملتقى لفروع الطرق التجارية القادمة من الشرق والغرب، وقد فرضت بعض الأسر المصرية الحاكمة نفوذها على فلسطين، وسيطرت على بقاع واسعة من سوريا، وأبرزها الأسر (١٢و ١٨و ١٩و ٢٠)، وجرت محاولات للسيطرة عليها فى عهد الأسرتين (٢٢ و ٢٥) فى الألف الأول ق.م[١].

الصراع الميتّاني- المصري:

إن ما يهمنا الآن هو الأحداث التى جرت فى عهد الأسرة المصرية الثامنة عشرة، ويبدأ عهدها من حكم أول ملوكها أُحْمُس (أماسيس) الأول (١٥٧٥ – ١٥٥٠ ق.م)، وينتهى فى عهد ملكها الثانى عشر والأخير تُوت عَنْخ أمُون (١٣٤٧ – ١٣٣٩ ق.م). بل قبل أن ندخل فى أحداث هذا العهد دعونا نتذكر أنه فى الوقت الذى برز فيه الكاشّيون كقوة سياسية فى مَواطنهم بجبال زاغروس، بقيادة ملكهم گانداش (حكم بين ١٧٤١ – ١٧٢٦ ق.م)، وتوجّهوا نحو شرقى ميزوپوتاميا، انطلق أقرباؤهم الهكسوس (الملوک الرعاة) من المناطق التى تُعرَف الآن باسم كوردستان الشمالية والوسطى وأرمينيا، وعبروا شمالى سوريا إلى فلسطين، ومن هناک غزوا مصر، وحكموها بين عامى (١٧٢٠ – ١٥٧٠ ق.م)، أى حوالى (١٥٠)

١ – أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٦٧.

عاماً، حسب أرجح الروايات، وتمّ طرد الهكسوس من مصر على يدى الفرعون أُحْمُس (أماسيس) الأول، أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة[١].

وبعد ذلك راحت قوة الدولة المصرية تتعاظم، وتطلّع ملوكها إلى السيطرة على سوريا، ومرة أخرى كان الهدف جيوسياسياً، يتمثل فى السيطرة على سواحل شرقى المتوسط، وأدرك ملوك مصر أنه لا يكفى أن يسيطروا على سواحل شرقى المتوسط، وإنما لا بد أن يفتحوا الطريق لتجارتهم نحو الشرق، حيث يتوجه طريق الحرير إلى شرقى آسيا، وعلى هذا الأساس أقاموا علاقات إستراتيجية مع المملكة الكاشّية فى بابل، وهذا واضح فى رسائل الملك الكاشّى كاداشْمان- خارْبى الأول (١٤١٠ – ١٣٨٦ ق.م) إلى الملك المصرى أَمْنُوفِيس (أَمُنْحُوتَب) الثالث (١٤٠٥ – ١٣٧٠ ق.م)، ثم تخلّوا عنهم حينما دبّ فيها الضعف، وتحوّلوا إلى بناء علاقة إستراتيجية مع الدولة الآشورية الناهضة والمنافسة للكاشّيين، ويتضح ذلك فى رسالة من الملك الكاشّى بُورْنا بُورْياش الثانى (١٣٦٧ – ١٣٤٦ ق.م)، إلى الفرعون أَمُنْحوتَب الرابع المعروف باسم أخناتون (١٣٧٠ – ١٣٥٢ ق.م)[٢].

وفى القرن الخامس عشر ق.م، وخلال النهوض الميتّانى، ونتيجة للمصالح الجيوسياسية، دخل ملوك مصر من الأسرة الثامنة عشرة فى صراع طويل ضد مملكة ميتّانى، حول السيادة على سوريا، وانفصل النصف الشمالى من سوريا عن السلطة المصرية فى عهد الملكة حَتْشِبْسُوت (حوالى ١٤٩٠ ق.م)، وتعاظم نفوذ المملكة الميتّانية فى سوريا، وعندما تسلّم تُحوتْمُوس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م) مقاليد الأمور فى مصر- وكان مشاركاً فى الحكم مع حَتْشِبْسُوت تسع سنوات- كان أول ما اهتم به هو العمل لاستعادة النفوذ المصرى فى النصف الشمالى من سوريا، والقضاء على نفوذ المملكة الميتّانية، فتزعّمت مملكة ميتّانى حلفاً قوياً ضده[٣].

---

١ – أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ١٢١. وانظر أيضاً جين بوترو وآخـــرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكِّرة، ص ٣٨٨. إيمانويل فلايكوفسكى: عصور فى فوضى، ص ٣٤. إســـرائيل فنكلشتاين، نيل أشر سيلبرمان: التوراة اليهودية، ص ٩٠. أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القـــديم، ص ٤١، ٤٢.

٢ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٢٠، ٢٥٤ – ٢٥٥.

٣ – المرجع السابق، ص ٣٦٤ – ٣٦٥.

ورداً على سياسات مملكة ميتّانى قاد تُحوتْمُوس الثالث ست عشرة غزوة ضد بلاد رِيتينو (النصف الشمالى من سوريا)، واحتل فى إحداها حصن قادِش (تلّ النبى مَنْد حالياً، جنوب غربى بحيرة قِطّينا قرب حِمْص)، وحقق نصراً آخر على حلف آخر فى جنوبى سوريا، وتحديداً فى فلسطين الحالية (أرض كنعان) بالقرب من مدينة مِجدّو (تل المُتَسلِّم، شمال شرقى طُولْكَرم). لكن أمراء وسط وشمالى سوريا نهضوا ضده ثانية بتأييد من مملكة ميتّانى، فاضطر تُحوتْموس أن يغزو النصف الشمالى من سوريا فى السنة الثلاثين من حكمه، فدمّر مملكة قادِش للمرة الثانية، وتوغّل فى أراضى شمالى سوريا، متوجّهاً نحو مناطق مملكة ميتّانى الواقعة غربى الفرات مباشرة، ووصل فى عام (١٤٤٧ ق.م) إلى مناطق كِرْكِميش، وعبر الفرات إلى الضفة اليسرى (الشرقية) دون أن يلقى مقاومة تُذكر من الجانب الميتّانى[١].

وجرّد تُحوتْموس الثالث حملة عسكرية ضد المملكة الميتّانية فى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه، ووصل إلى نهر الفرات، وأقام لنفسه نُصْباً تذكارياً بالقرب من النصب الذى كان قد أقامه تُحوتْموس الأول، ولم يتوغّل فى أراضى المملكة الميتّانية، وإنما اكتفى بالاصطدام مع جيشها، وتخريب مناطق حدودها الغربية والجنوبية. وما كاد تُحوتْموس الثالث يصل إلى مصر حتى عادت المملكة الميتّانية من جديد للتدخل فى شؤون مناطق شمالى سوريا الأخرى، وتحريض سكانها على النهوض ضد السلطات المصرية[٢].

فقاد تُحوتْموس الثالث بنفسه جيشاً ضخماً، خلال السنة السابعة والأربعين من حكمه، واجتاح سوريا، حتى وصل إلى الفرات وعَبَره، وتوغّل داخل الأراضى الميتّانية، وذكر فى إحدى كتاباته أنه دمّر الجيش الميتّانى فى ساعة واحدة، وقال:

"وخرّبتُ مدنهم ومستوطناتهم، وجعلتها طعاماً للنيران، وحوّلتها إلى أماكن لم يعد باستطاعة الإنسان أن يسكن فيها، وألقيتُ القبض على سكانها، وجعلتهم من بين

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦١. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٦٥.

٢ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٦٥ – ٣٦٦.

الأسرى... وغنمتُ مواشيهم، واغتصبت منقولاتهم بأعداد لا تحصى، وأخذت حبوبهم، واقتلعت شعيرهم من جذوره، ودمّرت حدائقهم، واقتلعت أشجارها المثمرة"[1].

وفى حملته الثامنة على سوريا، أجبر تُحوتْمُوس الثالث ملكَ الميتّانيين على أن يولّى الأدبار؛ إذ عبر تُحوتْمُوس نهر الفرات، وهاجم ميتّانيا فى عقر دارها، فاضطر ملك الميتّانيين، منافسُه العنيد على حكم سوريا، أن يفرّ هارباً. بَيد أن احتلال المصريين لهذه المناطق النائية لم يتخذ سِمة الدوام؛ إذ استطاع ملك الميتّانيين فى السنوات التالية تكوين جبهة معادية للمصريين داخل سوريا الشمالية والداخلية[2].

الصداقة الميتّانية- المصرية:

استمرّت حدّة الصراع بين ميتّانى ومصر، وكانت الغلبة معظم الأحيان لمصر، وأدرك تُحوتْمُوس الثالث أنه غير قادر على إخضاع مملكة ميتّانى، وإفقادها جميع أوراقها الإقليمية، وخاصة أن المسافة بين مصر ومركز مملكة ميتّانى بعيدة، وتؤثّر تلك المسافة سلباً على عمليات الإمداد والتموين، فعقد تُحوتْمُوس الثالث معاهدة مع مملكة ميتّانيا، اعترف لها بموجبها بسلطانها على شمالى سوريا ومملكتَى حلب وكِرْكِميش، مقابل أن تقوم مملكة ميتّانيا بتأمين منطقة نفوذ لمصر على نهر الفرات، وفى ساحل بلاد الكنعانيين (ساحل فلسطين) حتى مصبّ نهر العاصى، وإبقاء الممالك السورية الأخرى على حالها بشرط أن تدفع الجزية للمصريين[3].

ولما توفّى تُحوتْموس الثالث عام (١٤٣٦ ق.م)، وخلفه ابنه أَمُنْحُوتَب (أَمْنُوفِيس) الثانى (١٤٣٦ – ١٤١٣ ق.م)، اغتنمت مملكة ميتّانى الفرصة، وحرّضت أمراء سوريا من جديد للثورة على النفوذ المصرى، وشكّل بعض أولئك الأمراء حلفاً جديداً ضد مصر، فسارع أَمُنْحُوتَب الثانى فى العام التالى من حكمه إلى الزحف بجيشه على سوريا، ووصل إلى لبنان، وانتصر على تحالف أمراء سوريا، وزحف شمالاً، فاصطدم بجيش نَهارينا (مملكة ميتّانى)، ووقع

---

١ – المرجع السابق، ص ٣٦٦.

٢ – أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٨٠.

٣ – عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ٢٨٢.

سبعة من أمرائها فى الأسر، وسيطر أَمُنْحُوتَب من جديد على تلك المناطق، وعاد ومعه غنائم كثيرة، منها ما يعادل (٥٠) طناً من الماس، و(٨٣٠) كيلو غراماً من الآوانى الذهبية[١].

وبالرغم من انتصارات أَمُنْحُوتَب الثانى على مملكة ميتّانى، وعلى أمراء سوريا، أدرك عدم جدوى شنّ الحروب المتواصلة، لأسباب ثلاثة:

١ – بُعد مواطن العدوّ عن مصر.

٢ – بُعد مصادر تموين الجيش المصرى عن ساحات المعارك فى أقصى شمالى وشمال شرقى سوريا.

٣ – عدم قدرة البلاط المصرى على تمويل تلك الحرب الباهظة التكاليف.

ففتح أَمُنْحُوتَب الثانى عهداً جديداً من العلاقات الحسنة مع ملوك ميتّانى، والأرجح أن ذلك كان فى عهد الملك الميتّانى أَرْتاتاما (أرتادامـا) الأول Artatama 1، وكان قد تولّى العرش حوالى سنة (١٤٤٠ ق.م)، أو (١٤٣٠ ق.م)، واعتمد أَمُنْحُوتَب الثانى على صديقه أرتاتاما فى تهدئة الأوضاع بشمالى سوريا، بدل أن يبنى هذا الأخير الأحلاف ضد حكام مصر.

وثمة رواية أخرى تفيد أنه فى نهاية عهد أَمُنْحُوتَب (أمنوفِيس) الثانى أرسل ملك ميتّانى أَرْتاتاما الأول بعثة إلى مصر، تناشد فرعون السلام، ونتيجة لذلك جاءت رسل فرعون إلى أَرْتاتاما، تطلب منه رباطاً يؤكد التحالف الذى قام بينهما، فأرسل أرتاتاما ابنته (اسمها غير مذكور)، لتتزوج الملك تُحوتْمُوس الرابع الذى تولّى العرش فى مصر بعد وفاة والده أَمُنْحُوتَب الثانى[٢].

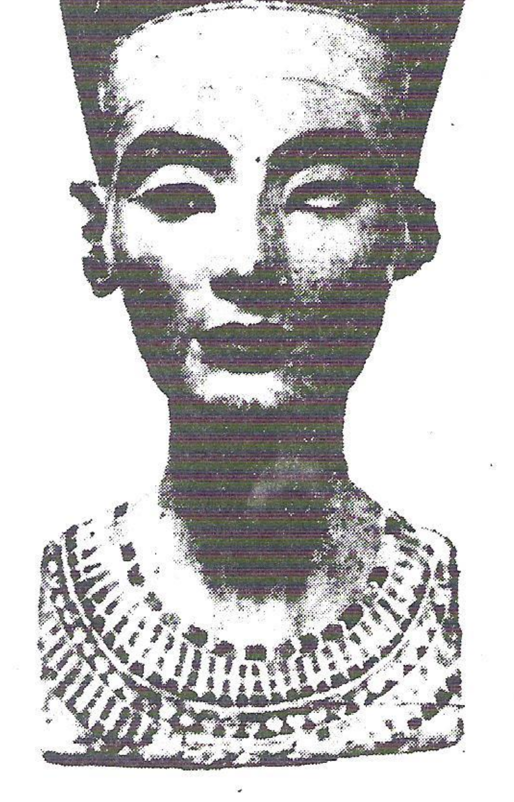
وبعد وفاة أَرْتاتاما استمرّ أَمُنْحُوتَب الثانى فى توطيد علاقات الصداقة مع ميتّانيا، وتقرّب من الملك الميتّانى شُوتَّارْنا الثانى بن أرتاتاما الأول، وحوالى سنة (١٤١٠ ق.م) نشأت صداقة

١ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٦٦. أبراهام مالمات، حاييم تـــدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٧٨، ٨٢.

٢ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٤ – ٤٧٥.

بين … ابنة الملك الميتّانى, ولعلها
ابنة … س) الثالث[1].
… تحديد أسماء ملوك مصر
الذير … ك الأميرات، وقد مر أن
أَمُنْحـ … يذكر جرنوت فيلهلم مرة
أن أَ … تزوّج من جيلو-خِپا ابنة
شُوتّ … ، حكم أَمُنْحُوتَب الثالث؛
أى … لث تزوّج بالأميرة الميتّانية
تادو …

… سرتين المالكتين فى مصر
وميتّ … ، العكس، والأرجح أن
علاة … ثمة معلومات بأن أم الملك
أَمُنْحـ … سه بأكثر من واحدة من
الأمي … هاز ضخم قيّم، و(٣١٧)
وصـ … كما أن أَمُنْحُوتَب الثالث
زوّج … ة تادو خِپا التى اشتهرت
فى …



تادو حيبا (نفرتيتي)
بنت الملك الميتاني توشراتا

وقد تعرّضت العلاقات الميتّانية- المصرية لانتكاسة شديدة بعد وفاة أَمُنْحُوتَب الثانى؛ إذ تذكر المصادر المصرية أن ابنه وخليفته على العرش تُحوتْموس الرابع (١٤١٣ – ١٤٠٥ ق.م)، زحف بجيشه على نَهارِينا (مملكة ميتّانى)، وانتصر على جيشها، وعاد إلى بلاده بغنائم

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٤. جمال رشيد أحمد: ظهر الكورد فى التاريخ، ٢٥٥/٢. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٨- ٤٧٩.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٥، ٧٣.

٣ – أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٤٤، ٨٣. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٤.

وفيرة، والأرجح أن سبب تلك الانتكاسة هو أن أحد كبار قادة ميتّانيا، واسمه أُتْخى Utkhi– و لم يكن ينتمى إلى الأسرة المالكة– تآمر على الملك أرتاشُوارا Artashuwara ابن شُوتَّارْنا الثانى، واغتاله، وكان أُتْخى يتزعّم الحزب المعادى لمصر، ويميل إلى الجانب الحثّى، وتوّج ابن شُوتَّارْنا القاصر، واسمه تُوشْراتّا ملكاً على البلاد، ليكون دمية بين يديه[1].

لكن سرعان ما عادت علاقات الصداقة بين المملكتين إلى سابق عهدها، وذلك حينما تسلّم أَمُنْحُوتَب الثالث (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق.م) السلطة فى مصر، فقد مرّ أنه ابن الأميرة الميتّانية جيلو–خِپا، وكان من الطبيعى أن يزيد علاقات القرابة والصداقة مع أخواله قوة، كما توطّدت العلاقات أكثر بين أَمُنْحُوتَب الثالث والملك الميتّانى الجديد تُوشْراتّا، وتزوّج الفرعون من الأميرة الميتّانية جيلو– خِپّا أخت تُوشراتّا، وفى دار محفوظات العَمارِنَة سبعة خطابات من تُوشْراتّا إلى أَمُنْحُوتَب الثالث، تدل على عمق الصداقة فيما بينهما[2].

ولما عادت المملكة الحثية إلى الظهور مرة أخرى كقوة عظمى على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية فى غربى آسيا، وبدأت بتوسيع مناطق نفوذها فى شمالى سوريا، وجد أَمُنْحُوتَب الثالث أن الوقت حان لتقسيم مناطق النفوذ فى سوريا مع مملكة ميتّانى الصديقة، وكان النصف الشمالى من نصيب مملكة ميتّانى، واكتفى أَمُنْحُوتَب الثالث بالسيطرة على النصف الجنوبى. والأرجح أن الدافع الأساسى لعملية التقسيم هذه هو عدم رغبة مصر فى الصدام المباشر مع الحثّيين، ووضع عبء الصدام مع المملكة الحثّية الناهضة على كاهل مملكة ميتّانى؛ إذ كان الحثّيون يعملون بإصرار على احتلال سوريا، وخاصة نصفها الشمالى التابع للنفوذ الميتّانى[3].

وتولّى عرشَ مصر أَمُنْحُوتَب (أَمْنوفِيس) الرابع الذى عُرف باسم أخناتون، فانصرف إلى تنفيذ برنامج دينى، وتغيرت العلاقات مع مصر، وانتهى إرسال الذهب المصرى إلى الملك الميتّانى، وتوقف المبعوثون والمندوبون الخاصون فى الجانبين، وانقطعت العلاقات تماماً، ولعل

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٤. عبد الحميد زايد: الشرق الخالـــد، ص ٤٧٨. توفيـــق ســـليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٦٧.

٢ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٤. جمال رشيد أحمد: ظهر الكورد فى التاريخ، ٢٤٦/٢، ٢٥٥. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٨– ٤٧٩.

٣ – توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣٦٧ – ٣٦٨.

استخفاف الفرعون بالعلاقات مع ميتّانى يعود إلى أن مملكة ميتّانى كانت محاصرة جزئياً أو كلياً من قِبل الحثّيين، و لم تعد تتمتع بمكانتها السابقة كواحدة من القوى السياسية فى المنطقة، كما انشغل أخناتون بفلسفته الدينية الجديدة، وإحلال عقيدة (آتون) التوحيدية محل عقيدة (أمون) المصرية العريقة، وترك حليفه الميتّانى يسقط فريسة الغزو الآشورى، زمن شَلْمانَسَر الأول حوالى (١٢٧٥ ق.م) الذى أزال دولة ميتّانى من الوجود[١].

وكانت العلاقات بين ميتّانيا ومصر تهدف إلى كبح جماح أطماع الدولة الحثّية، العدو المشترك للدولتين، والحقيقة أن العلاقات الميتّانية المصرية لم تقتصر على الجانب السياسى، وإنما كانت ذات أبعاد ثقافية أيضاً، وقد أثمرت تلك العلاقات فى عهد الفرعون أَمُنْحُوتَب الرابع (أَخْناتون) ابن أَمُنْحُوتَب الثالث، ولعله ابن الأميرة الميتّانية جيلو- خِپا؛ إذ أحدث أَمُنْحُوتب الرابع (١٣٧٥ – ١٣٥٨ ق.م) أو (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق.م) انقلاباً جوهرياً فى الدين المصرى، وأحلّ عبادة الإله الواحد (أَتُون)- مرموز إليه بقرص الشمس- محلَّ عبادة (أَمُون) المرموز إليه بالعجل أَبِيس، وأطلق على نفسه لقب (أَخن آتون/أخناتون)، ومعناه (أَتُون راض)، أو (حبيب أَتُون)، ولعل هذه الديانة الشمسانية التوحيدية انتقلت مع الأميرات الحوريات والميتانّيات ووصيفاهن وحاشيتهن إلى البلاط المصرى[٢].

وجملة القول أن علاقة ملوك الميتّانيين بملوك مصر كانت أقوى من العلاقات التى ربطت الملكين المصريين أَمُنْحُوتب الثالث وأَمُنْحُوتب الرابع (أخناتون) بالأسرة الكاشّية المالكة فى بابل، والدليل على ذلك اللهجة الخطابية الودية المتبادلة بين الملك شُوتّارْنا الثانى بن أَرْتاتاما الأول وفرعون مصر تُحوتْموس الرابع (١٤٢٤ أو ١٤١٣– ١٤٠٥ ق.م)، والتى يخاطب فيها كل ملك صاحبه بصيغة (الأخ)، وهى تعبير عن التكافؤ بين الاثنين، وجاء فى رسالة من تُوشْراتّا إلى الملك المصرى:

"**إلى نيموريا** [= اسم أَمُنْحُوتب الثالث قبل اعتلائه العرش]، **الملك الكبير، ملك مصر، أخى، صهرى، إلى الذى أحبه ويحبنى، أنا بخير، لعلّك بخير، لعلّ بيتَك وأختى وبقيةَ**

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٣.

٢ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٦٨/٢ – ٧٩. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٤٩/١. إيمانويل فلايكوفسكى: عصور فى فوضى، ص ٢٤٨ . عامر سليمان وأحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، ص ٢٨٥.

نسائك وأطفالك وعرباتك وأحصنتك، وبلادَك وكل ما تملك، لعلّهم جميعاً بخير وفير وفير جداً. كانت صداقة متينة تربط فيما مضى بين آبائك وآبائي، وقد وطّدتَها، وكانت صداقة متينة جداً تربطك مع والدي، وبما أننا الآن في علاقات صداقة متينة جداً، فقد جعلتَها أنت أقوى بعشر أضعاف عما كانت عليه في عهد والدي، لعلّ الآلهة تزيدها قوة عمّا نحن فيه الآن من صداقة، ونزولاً عند رغبة سيّدي تِشُّوب [= كبير آلهة الحوريين] وسيدي عَمُون [= أمُون كبير آلهة مصر] ستبقى إلى الأبد.

وعندما بعث أخي رسوله ماني، قال أخي: "ابعث لي ابنتك زوجةً لي وسيّدة لمصر"، وحيث إني لا أريد أن أسبّب الألم لقلب أخي قلت بسرور: "سأحقق له ذلك"، ولقد أريت ماني [= رسول فرعون] المرأةَ التي رغب فيها أخي، وعندما شاهدها امتدحها جيداً، لعلّها تصل بخير إلى بلاد أخي، لعلّ عَشتار وعَمون يجعلان أخي مسروراً.

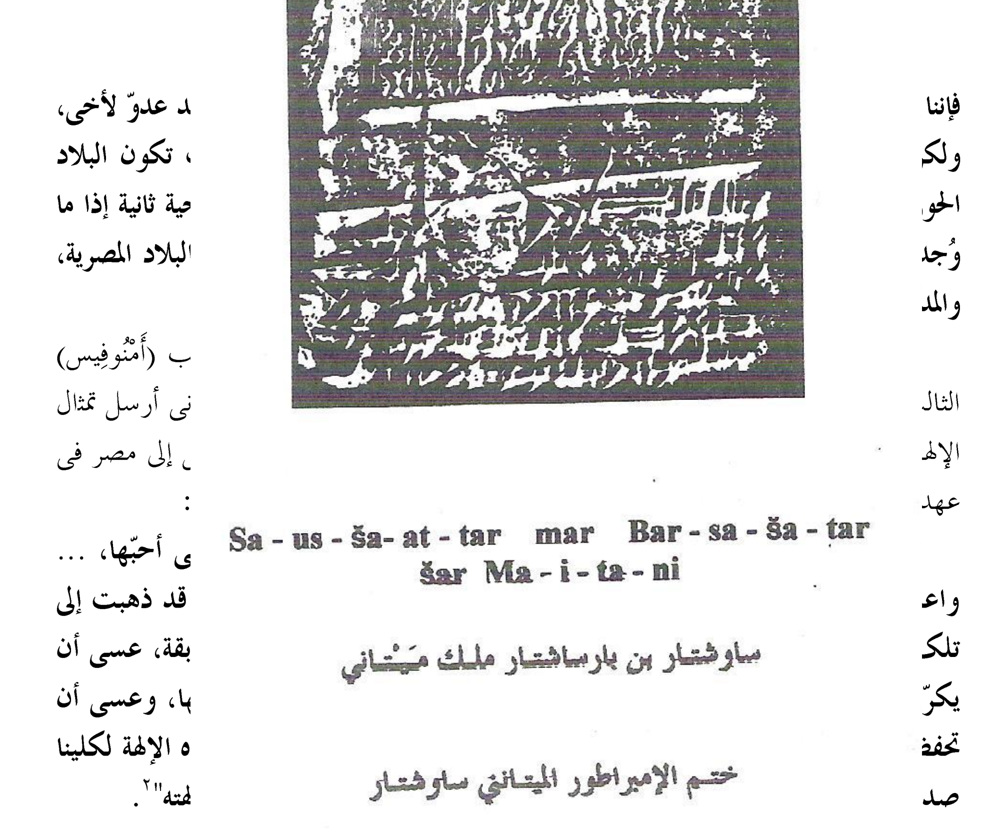
ونقل إليّ رسولي جيليا كلمات أخي، ولما سمعتُها بدتْ لي طيبة جداً، وسررتُ للكميات [= كميات الذهب] وعقبت على ذلك: "انظر، بناءً على هذه الكلمات سنظل في علاقات صداقة أبدية". وعندما أرسلتُ إلى أخي قلت أيضاً: عشرة أضعاف ما كان لوالدي، ورجوت من أخي ذهباً كثيراً، حيث قلت: "لعلّ أخي يخصص لي أكثر مما أرسله لوالدي ويرسله عادةً إليّ". ألم ترسل لوالدي ذهباً كثيراً، أوعيةَ أضاحي ذهبية كبيرة، وأباريقَ ذهبية كبيرة، وأرسلتَ له لوحات ذهبية كبيرة؟ لقد أرسلتَ له (من ذلك) كثيراً كالنحاس... ولعلّ أخي يرسل لي ذهباً كثيراً، بكميات كبيرة، لعلّ أخي يرسل إليّ، لعلّ أخي يرسل ذهباً أكثر مما أرسله لوالدي"[1].

وجاء في رسالة أخرى من تُوشْراتّا إلى أَمُنْحُوتَب الثالث، بشأن زواج الفرعون من إحدى بنات تُوشْراتّا تدعى تادو- خِپا (تَتُو –خِپا)، يقول:

"لــ (نيمّوريّا)، لملك مصر، لأخي، لصهري الذي أحب، الذي يحبني، قل ما يأتي: هكذا يقول تُوشْراتّا ملك بلاد ميتّاني، حَمُوك الذي يحبك، أخوك، أحوالي جيدة، أتمنّى أن تكون أحوالك جيدة أيضاً، يا صهري، ... وتمنّى أخي زوجةً له، والآن ها قد أعطيتُها، وقد سارت إلى أخي، ... والآن ها هي ابنة أبي، أختي هناك، والرَّقِيم الذي يتضمّنه مهرُها موجود، وها هي ابنة جدّي، أخت أبي هناك أيضاً، والرَّقِيم الذي يتضمّنه مهرها موجود أيضاً، ... ولهذا كله

---

١ - توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٤ - ٣١٥.



ختم الإمبراطور الميتاني ساوشتار

شهرة الميتّانيين الحربية

المجتمع الميتّانى هو امتداد اجتماعى وثقافى وحضارى للحوريين، وسبق أن استعرضنا الجوانب الحضارية عامة فى المجتمع الحورى، وخاصة اللغة والدين، ولا داعى إلى تناوله ثانية، ولعل الجديد هو أن الميتّانيين برزوا أكثر على الصعيد العسكرى؛ إذ كان للخيول والمركبات الحربية دور مهم فى القوة القتالية الميتّانية، وبما أن الخيول والمرْكبات كانت غالية جداً، اقتصر اقتناؤها على فئة محدودة ثريّة، وكان هؤلاء يشكّلون فرقة متميّزة فى الحرب، ولهم دور حاسم فيها، وعُرف هؤلاء فى مملكة ميتّانى وسوريا وفلسطين باسم (مَرِى يَنّى نا)، أو (ماريانّو)

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٠ – ٧٣.

٢ – فاضل عبد الواحد على: من سومر إلى التوراة، ص ١٥٨.

وهى كلمة رُبطت غالباً بالكلمة الهندية القديمة (مَرِيا)، أى (الفتى، الشاب)، ولا يخفى الشبه اللغوى والدلالى بين هذا الاسم والكلمات الكوردية Mér (رجل/بطل/شجاع)، و merî (رجل/صاحب مروءة) و Méranî، (رجولة/ بطولة/ شجاعة)، كما أن شهرة القوس الميتّانية خلال القرن الرابع عشر تجاوزت حدود البلاد[١].

وكان للعربات الحربية ذات العجلتين دور هام فى العمليات العسكرية التى قام بها الميتّانيون، كما تساعد النصوص التاريخية على استنتاج أن الميتّانيين تميّزوا بفنون الحصار واستخدام الأقواس المركَّبة منذ المراحل المبكِّرة لمملكة ميتّانى . ويبدو أن الميتّانيين احتفظوا بشهرتهم الحربية بعد زوال مملكتهم بزمن طويل، ويذكر المؤرخ اليونانى هيرودوت (٤٨٠ – ٤٢٥ ق.م) أنه كان فى جيش الملك الفارسى أَرْتَزَرْكْسيس (أَحْشَويرَش) الأول ابن دارا الأول، الزاحف على اليونان حوالى عام (٥٨٠ ق.م)، مقاتلون ميتّانيون[٢].

ومهما يكن فإن أهمّية دور مملكة ميتّانى، بالنسبة إلى الأمة الكوردية، تكمن فى أنها وضعت الأسس الاجتماعية والثقافية والسياسية للتكوين الكوردى، وذلك من خلال تحقيق الاندماج الإثنى والثقافى والسياسى بين أقوام زاغروس والأقوام الآرية، وتعميم هذا الاندماج على القسم الأكبر من جغرافيا كوردستان جنوباً ووسطاً وغرباً، وبعد حوالى ستة قرون استكمل الميديون هذا الإنجاز الكبير، وساهموا فى تكوين الملامح والخصائص الأساسية للأمة الكوردية.

وصحيح أن الحوريين– ممثَّلين فى الميتّانيين– فقدوا القيادة السياسية فى غربى آسيا، لكنهم لم ينقرضوا، إنهم تمركزوا بشكل رئيسى فى المناطق الجبلية التى اشتهرت فى السجلات الآشورية، ببلاد نايرى Nairi، وما زال معروفاً عند الكورد بهذا الاسم فى صيغة (نَهْرى)، وبعد أن أصبح النائريون قبائل متفرقة، اتحد زعماؤها المنحدرين من الحوريين القدماء فى نهاية

---

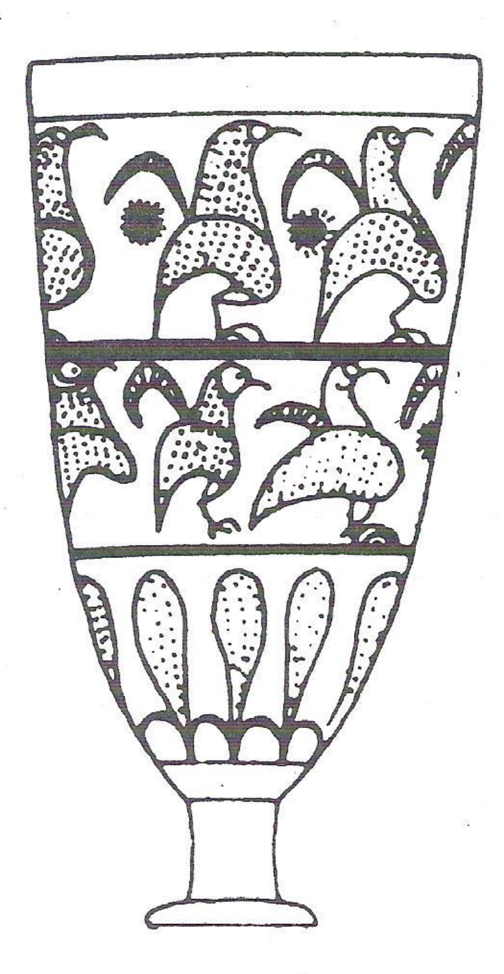
١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٠، ٨٧. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة، ص ٣١٢.

٢ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥١٨. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٠.

القر ... حيرة وان

دولة ... .[1]

عـدد مـن النقـوش والأعمال الفنيـة في بـلاد الميتـانيين



من الأعمال الفنية الميتانية
تل بيلا - القرن الخامس عشر قبل الميلاد

١ - جمال رشيد أحمد: ظهر الكورد فى التاريخ، ٢٥٦/٢.

الفصل الثالث

الجيل الثالث من أسلاف الكورد

١

الخَلْديون Khaldi (أورارتو)

الهوية والجغرافيا

من هم الخلديون؟

خَلْدى (خالْدى/خالْتى) اسم أطلقه الخلديون على أنفسهم بصيغة (Halitu-in) أى شعب الإله خَلْدى (آلْدى)، وكانوا يطلقون على بلادهم اسم (بياينيلى)، وأطلق الآشوريون اسم (نائيرى) Nairi على بعض أجزاء بلاد خَلْدى، وهى المنطقة الكوردية التى تسمّى (شَمْدِينان) فى كوردستان الوسطى (جنوب شرقى تركيا حالياً)، وقد يكون اسم نائيرى (نايرى) باقياً فى اسم قبيلة (نَهْرى) التى ينتمى إليها **الشيخ عُبَيد الله نَهْرى** قائد الثورة الكوردية ضد السلطة العثمانية عام (١٨٨٠ م)، وكان موطنه فى شَمْدينان[١].

وفى القرن الثالث عشر ق.م، أغار الملك الآشورى شَلْمانَسَر الأول Shalmaneser 1 (حكم بين ١٢٧٣ – ١٢٤٤ ق.م) على مركز كوردستان الحالية (جنوبى مُوش، شمالى وان، غربى بحيرة أُورْمِيَه)، وسجّل اسم تلك البلاد لأول مرة فى التاريخ بصيغة (أُورو آترى)، وتطورت فيما بعد إلى صيغة (أُورارْتو)، وصارت تعبّر عن مفهوم سياسى لدولة قامت فى الجهات الشمالية من بلاد آشور[٢].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٣١/٢ – ١٣٤.

٢ – المرجع السابق، ١٣١/٢ – ١٣٣.

وثمة آراء متباينة- إلى حدّ ما- فى أصل قوم خَلْدى، فقد ذكر جرنوت فيلهلم أن الخلديين (الأورارتيين) يمتّون إلى الحوريين بصلة قرابة لغوية، ورجّح أن لغتيهما انفصلتا عن بعضهما منذ الألف الثالث ق.م، وقال: "**يمكن القول إن الرابط بين الأورارتيين والحوريين رابط لغوى لا تاريخى ولا اجتماعى**"[1].

وذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أن الخلديين سلالة زاغروسية انحدرت من الحوريين (الخورّيين)، وعاشت خلال الألف الثالث ق.م أو قبله فى المنطقة التى سُمّيت بعدئذ كوردستان ، وقال:

"**لا تُبقى سجلات ملوك أورارتو أىَّ شكّ فى وجود العلاقة اللغوية بين الأورارتية (الخَلْدية) والخورية القديمة، وتبيّن تلك السجلات تلك العلاقة الثقافية بين القبائل التى امتهنت الرعى والزراعة وتربية الموشى والخيول فى المناطق الجنوبية لبحيرة وان- ومنها قبيلة دياوخى التى نشأت الدولة الأورارتية فى وسطها- وبين الخوريين الذين اندمج أغلبهم بالقبائل الميتّانية**"[2].

وهكذا يتضح أن وجود قرابة لغوية وثقافية بين الخلديين والحوريين أمر مؤكد، وهذا يرجّح ما ذهب إليه الدكتور جمال رشيد أحمد من أن الخلديين سلالة زاغروسية انحدرت من الحوريين، وإلا فما هو المبرر لأن تكون ثمة قرابة لغوية وثقافية بين المكوّنَين الخلدى والحورى، ولا تكون بينهما قرابة إثنية واجتماعية؟ وخاصة أن من استبعد وجود القرابة الإثنية والاجتماعية بين المكوّنَين لم يذكر الأصل الإثنى للمكوّن الخلدى، ولم يذكر أيضاً الجهة التى جاء منها الخلديون إلى البلاد التى سُمّيت (أورارتو).

وثمة إشكال آخر بشأن أصل قوم خلدى، ألا وهو موضوع العلاقة بين الخلديين والأرمن؛ إذ ثمة من يذهب إلى أن الخلديين أسلاف الأرمن، ولعلهم يستدلون على ذلك بأن الجزء الأهم من بلاد خلدى (أورارتو) كان يقع فى أرمينيا الحالية، لكن ثمة حقائق تاريخية تمنع من أن

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٨٣.

٢ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٦٣/١ - ١٦٤.

يكون الأرمن أحفاد الخلديين، وهى تتمثّل فى تاريخ الشعب الأرمنى، فقد رجّح هــ. ج. ولز أن الأرمن شعب غير آرى، ولعلهم شعب حتّى تعلم لغة آرية[1]. وقال وليام لانجر:

"**ورد ذكر الأرمينيين لأول مرة فى عهد دارا** [= الأول] (**٥١٩ ق.م)، وربما كانوا قبيلة من الفريجيين، واحتلوا منطقة أورارتو بعد عام (٦١٣ ق.م)، واعتنقوا دين الفرس**"[2].

وقد أزال بعض المؤرخين الغموض الذى يحيط بأصل الأرمن، فقد ذكر هيرودوت أن الأرمن كانوا من سكان البلقان، وتحديداً من منطقة تراقيا، فى حين ذكر سترابون (سترابو) Strabon أنهم كانوا من سكان تسّاليا Thessaly فى بلاد اليونان. واتفق هيرودوت وسترابون على أن الأرمن هاجروا من موطنهم مع الفريجيين فى القرن الثانى عشر ق.م، تحت ضغط الإلّيريين، وعبروا البُوسفور والدَّرْدَنِيل إلى آسيا الصغرى (غربى تركيا حالياً)، وفى القرن الثامن ق.م اتجهوا شرقاً نحو الفرات، والمجرى الأعلى منه، وإلى دجلة على وجه التحديد، حيث يقطن شعب هاياسا Hayasa الحثى، وهى المنطقة ذاتها التى عُرفت باسم (أرارات)[3].

وقال مروان المُدَوَّر موضّحاً بدقة أصل الشعب الأرمنى:

"**تجمع النظريات التاريخية الحديثة، كما وتؤكد، على أن أصل الأرمن من البلقان بالذات، وأن تشكيل الأمة الأرمنية، برأى غالبية المؤرخين الأرمن المعاصرين، ... قد بدأ فى القرن الثامن للميلاد، عُقَيب مغادرتهم فِريجْيا، متجّهين شرقاً نحو الفرات Euphrates ، الذى وصلوه بعد توقّفات زمنية قصيرة على مدى المسافات الفاصلة بينه وبين فريجيا. وكيما نكون أكثر دقة، فإن تشكيل الأمة الأرمنية قد بدأ بالتحديد منذ اللحظة التى وصلوا فيها الأراضىَ المحصورةَ بين نهر هاليس من جهة ونهرى دجلة والفرات من جهة ثانية، وهى المنطقة التى كانت تؤلف فى ذلك الوقت المقاطعة الشرقية من الإمبراطورية**

---

١ – هــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣١٠/٢.

٢ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٩/١.

٣ – مروان المدوَّر: الأرمن عبر التاريخ، ص ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، هادى رشيد الجاوشلى: تراث أربيل التاريخى، ص ٢٠ – ٢١.

الحثية المعروفة باسم هاياسا، أى الأراضى المنساحة على امتداد المجرى الأعلى للفرات، والتى شكّلت فيما بعد الأراضى الجبلية الشمالية المرتفعة من أرمينيا"[١].

وفى تلك المنطقة تمازجَ الأرمن مع السكان الحثّيين، تدريجياً، وسيطروا عليهم، وعلى سائر القبائل المنتشرة هناك، وساعدهم على ذلك التقارب الملحوظ بين لغة الأرمن الهندو أوربية وبين اللغة المحكية من قِبل سكان هذه المناطق، والتى تنتمى بدورها إلى عائلة اللغات الهندو أوربية القديمة السائدة فى آسيا الصغرى، وكان الاسم الذى يحمله الأرمن هو (هايى) Hai، وسُمّيت بلادهم (هايستان)، وسمّاهم الجيورجيون (سُومَخى) Somekhi، واستخدموا الاسم نفسه لأرمينيا، وسَمّى الفرس المنطقة التى سكنها الأرمن باسم (أرمينيا) Armina[٢].

وقد مرّ أن الخلديين كانوا مقيمين فى بلادهم على الأقل منذ القرن الثالث عشر ق.م، وغزاهم الآشوريون هناك، وأطلقوا على بلاد خَلْدى اسم (أوروآترى/أواررتو)، ومرّ أيضاً أن شعب (هايى)، الذى عُرف لاحقاً باسم (أرمن)، دخل إلى قسم كبير من بلاد خلدى (أرمينيا حالياً) فى القرن الثامن ق.م، فكيف يكون الأرمن أحفاد الخلديين إذنْ؟

وإذا أخذنا فى الحسبان أن بلاد خَلْدى (أورارتو) كانت جزءاً من بلاد الحوريين/الميتّانيين، وأن ظهور الخلديين فى السجلات الآشورية كان مواكباً لزمن سقوط مملكة ميتّانى فى القرن الثالث عشر ق.م، أصبح راجحاً ما ذهب إليه الدكتور جمال رشيد أحمد من أن الخلديين فرع من الحوريين، ونعتقد أن هذا ليس بالأمر الغريب، فقد كان الميتّانيون فرعاً من الحوريين، ثم سيطروا على دفّة القيادة فى بلاد الحوريين، وأصبح الحوريون يُعرَفون بهم، وقد قال وليام لانجر فى هذا الصدد:

"**يظهر أن العنصر الأساسى كان من الحوريين، ويظهر أنه توجد صلة بين اللغة الحورية واللغة القانية (الوانية)"[٣].**

هذا بشأن هوية الخلديين. فماذا عن جغرافيا خلدى (أورارتو)؟

---

١ - مروان المدوّر: الأرمن عبر التاريخ، ص ١٠٧.

٢ - المرجع السابق، ص ١٠٧، ١٠٩.

٣ - وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٧/١.

جغرافيا خَلْديا (أورارتو):

مرّ أن الآشوريين أطلقوا، فى القرن الثالث عشر ق.م، على موطن الخلديين اسم (أورارتو/أوروآترى)، وأخذت هذه الصيغة تعبّر عن مفهوم سياسى لدولة قامت فى الجهات الشمالية لبلاد آشور، وجاء ذكر بلاد خَلْدى فى النسخة العربية لكتاب (العهد القديم) بصيغة "**أَرْض أَرَارَاطَ** "[1]، وجاء فيه أيضاً أن سفينة النبى نوح استقرت بعد الطوفان على "**جِبَالِ أَرَارَاطَ**"[2]. وهذا يعنى أن (خلدى، أورارتو، أرارات، نايرى) أسماء لمسمّى واحد[3].

وتتوزّع بلاد خلدى (أورارتو) الآن بين أرمينيا فى الشمال، وكوردستان فى الجنوب والغرب، وكان معظم الخلديين يعيشون بين أربع بحيرات معروفة فى كوردستان وأرمينيا، هى بحيرة چِيلدر (چِلدر)، وبحيرة وان، وبحيرة أُورميا، وبحيرة سِيڤان، وكانت عاصمتهم مدينة تُوشْپا Tushpa قرب مدينة (وان) الحالية، وانتقل بعض الخلديين فيما بعد للعيش فى وادى نهر الفرات. وذكر وليام لانجر بلاد خلدى (أورارتو) باسم مملكة ڤان (وان) وقال: "**لا يمكن تعيين حدود أورارتو (آرارات) بالضبط، وبصفة عامة كانت المملكة تقع بين القوقاز وبحيرة ڤان**"[4].

غربي آسيا جيوسياسياً

خلال القرنين التاسع والثامن ق.م، كان الخلديون قد شكّلوا، انطلاقاً من مناطقهم الأساسية (شمالى بحيرة وان وشرقيها)، مملكة تمتد غرباً حتى الفرات، وشرقاً حتى بحيرة أورميا،

---

١ – العهد القديم، سفر الملوک الثانى، الأصحاح ١٩، الآية ٣٧.

٢ – العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ٨، الآية ٤.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٣١/٢ – ١٣٣.

٤ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٦٤/١، ١٣١/٢،١٢٢. وليام لانجر: موسوعة تـــاريخ العالم، ٨٧/١.

وشمالاً حتى مناطق القفقاس. وفى الوقت الذى ظهر فيه الخلديون كقوة سياسية فى غربى آسيا، كان الآشوريون يوسّعون نفوذهم فى جميع الاتجاهات، ويعملون بإصرار للقضاء على كل قوة سياسية منافسة لهم، وكانوا حريصين أيضاً على إخضاع المانناييين والميديين، وكان من الطبيعى- والحال هذه- أن ينال شعب خلدى نصيبه من أطماع ملوك آشور، ويدخل فى صراع مرير ضد الآلة العسكرية الآشورية الشرسة.

ولم يكن الآشوريون المنافسين الوحيدين للخالديين، وإنما اقتضت الظروف الجيوسياسية أن يدخلوا فى صراع مع جيرانهم المانناييين أيضاً، وفى أحيان كثيرة كان الصراع الخلدى- الآشورى يدور على أرض مملكة ماننای، وكان كل فريق يهدف إلى إلحاق تلك المملكة بدائرة نفوذه، بسبب ما كانت تتوافر فيها من موارد اقتصادية، وبسبب موقعها الجيوسياسى أيضاً. وعلى أية حال فإن الحديث عن الصراع الخلدى- الآشورى يشتمل ضمناً على دور مملكة ماننای جغرافياً وسياسياً فى ذلك الصراع، قال هارى ساغز بصدد الصراع الخلدى- الآشورى:

"كانت أورارتو المنافسَ الرئيس لآشور، وهى من صنع الدولة الآشورية نفسها، فإن الغزوات الآشورية الدائمة لجبال طوروس وما وراءها، والقبض على أمرائها، وأخْذَهم أسرى ورهائن، وتشغيلَ أهلها بالسخرة، والشباب لخدمة الجيش الآشورى، ووجودَ مسؤولى الإدارة الآشورية وكَتَبتهم لمراقبة وتسجيل حمولات الخشب والمعادن والخيول القادمة إلى آشور؛ كل هذه عرّفت شعب أورارتو على قسم كبير من ثقافة وبنية آشور التحتية"[1].

إن ما يستفاد من قول هارى ساغز هو أن الغزو الآشورى لبلاد خلدى كان عاملاً محرّضاً بالنسبة إلى الخلديين، وكان تحدّياً لهم، دفعهم إلى أن يعيدوا النظر فى أوضاعهم، والدفاع عن أنفسهم، وقد مر فى المبحث الخاص بالميتّانيين أن مملكة ميتّانى الحورية كانت تهيمن على قسم كبير من بلاد أسلاف الكورد (كوردستان الحالية)، بما فيه البلاد التى عُرفت بعدئذ باسم (بلاد خلدى) و(أورارتو)، ومر أيضاً أن مملكة ميتّانى بلغت ذروة قوتها حوالى عام (١٤٥٠ ق.م)، على يدى الملك ساوشتّار، وبعد حوالى قرن (منتصف القرن ١٣ ق.م) دبّ فيها الضعف بسبب الصراعات الداخلية فى أعلى هرم السلطة.

---

١ - هارى ساغز: عظمة آشور، ص ١٠٨.

وكان الحثّيون من الغرب، والآشوريون من الشرق، يتربّصون بمملكة ميتّانى، ويطمعون فى الهيمنة عليها، فانقضّوا عليها ومزّقوا أوصالها، وأزال الملك الآشورى شَلْمانَسَر الأول دولة ميتّانى من الوجود حوالى عام (١٢٧٥ ق.م)، فتقلّص الوجود السياسى الميتّانى/الحورى فى دويلة صغيرة سمّاها الآشوريون (خانى جَلْبات)، وأصبحت بلاد الحوريين ساحة مفتوحة للغزو الآشورى والحثّى، وكان من الطبيعى- والحال هذه- أن يتشرذم المكوّن الحورى، بما فيه الخلديون، ويصبح الخلديون غنيمة سهلة بين أيدى الحثّيين والآشوريين.

وحوالى عام (١٢٠٠- ١١٩٠ ق.م) انهارت الإمبراطورية الحثّية على أيدى الشعوب الإيجية المعروفة باسم (شعوب البحر)، وفى مقدّمتهم الفِريجيون، وكان من نتائج هذا الوضع الجديد ظهور ممالك جديدة متفرقة فى آسيا الصغرى، بدل الحكم المركزى الحثّى الذى كان يقوده ملوك خاتّوشا فى وسط الأناضول، ومن بين الممالك الجديدة كانت أدانيا (أَطَنَا/أَضَنَا) وفِريجيا ولِيديا ولِيكيا وبِسيديا.

وفى الوقت الذى زالت فيه مملكة ميتّانى، وتلتها فى الزوال الإمبراطورية الحثّية الحديثة، كان شأن الإمبراطورية الآشورية الحديثة يتعاظم، وأصبح غربى آسيا- بما فيه بلاد أسلاف الكورد- ساحة مفتوحة أمام الغزو الآشورى، وكانت القوة الوحيدة المنافسة للآشوريين- لكن بعد حين- هى قوة الخلديين، بعد أن تمثّلت فى (دولة أورارتو) كما سنرى، ووقعت ممالك (دويلات) أسلاف الكورد فى شمالى كوردستان الحالية، وفى كوردستان الوسطى، وفى غربى كوردستان ، تحت تأثير الصراع الآشورى- الأورارتى، ومن بين تلك الممالك كُومُوخى، وكُوتْمُوخى، وبابْخى، ومَلَتِينى (مَلاطِيَا)، وتابال، وكِرْكِميش، وحرص ملوك آشور على إزاحة النفوذ الأورارتى عن طريقها؛ كى يسيطروا على ثروات بلاد أسلاف الكورد وثروات الأناضول والشمال السورى، وهذا ما سنتناوله بشىء من التفصيل[١].

قال بونغارد- ليفين بشأن نشأة مملكة خلدى (أورارتو):

"نشأ كيان الدولة على الهضاب الأرمنية فى أواخر الألف الثانى ق.م، حيث ظهرت هنا أولى الدويلات الصغيرة (تُوشِپا ومُوساسير وغيرهما)، وفى القرن السابع ق.م توحّدت

---

١ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٣. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ١١٥. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٢٤/٢، هامش (٣).

هذه الدويلات، وتشكلت منها مملكة أورارتو الكبرى، ومنذ البداية غدت مملكة أورارتو من أهم القوى السياسية فى منطقة غربى آسيا بكاملها، وكانت الدولة الآشورية القوية أقرب جارة ومنافسة له، وإن تاريخ أورارتو كلّه مُشَبَعٌ بالصراع مع الدولة الآشورية"[1].

الأوضاع السياسية في بلاد خلدي

مرتّ الأوضاع السياسية فى بلاد خلدى بثلاثة عهود رئيسة: الأول عهد التفرق والضعف. والثاني عهد القوة والنهوض، والثالث عهد الانحدار والسقوط. وفى جميع العهود كانت مشكلة الخلديين الأساسية هى الصراع ضد إمبراطورية آشورية؛ لأن ملوك آشور كانوا يحرصون جداً على الخلاص من كل قوة سياسية وعسكرية منافسة لهم فى غربى آسيا، وخاصة إذا كانت تلك القوة مجاورة لهم، ومنافسة لهم فى مجالهم الحيوى المحيط بمملكة آشور فى الشرق والشمال والغرب، ونتناول فيما يلى تفاصيل كل عهد، ومجريات الصراع الخلدى- الآشورى.

عهد التفرق والضعف:

إن غزو الجيوش الآشورية المستمر لبلاد خلدى، كان شبيهاً جداً بالغزو المستمر الذى شنّه الأكّاديون على گوتيوم، ودفع الگوتيين إلى توحيد صفوفهم، والدفاع عن بلادهم، والانتقال من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم على مملكة أكّاد نفسها والقضاء عليها فى الأرجح عام (٢٢٣٠ ق.م)، وسنرى لاحقاً أنه شبيه أيضاً بالغزو الآشورى المستمر لبلاد الميديين، والذى دفع الميديين إلى توحيد صفوفهم، وتكوين اتحاد قبائل ميديا، والتصدى لدولة آشور، والقضاء عليها عام (٦١٢ ق.م)، أجل، إن الغزو الآشورى لبلاد خلدى دفع الخلديين إلى النهوض، وإلى توحيد الإمارات والقبائل المتفرقة تحت لواء قيادة واحدة، وخوض الصراع ضد دولة آشور، ويمكن تقسيم الصراع الخلدى- الآشورى إلى مرحلتين:

---

١ - بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٥٢٦ – ٥٢٧.

شمل الصراع في هذه المرحلة الفترة الواقعة بين عامي (١٢٧٥ – ٨٤٠ ق.م)، ويُفهَم من نقوش الملك الآشوري شَلْمانَسَر الأول (١٢٦٣ – ١٢٣٤ ق.م) أن سكان بلاد خلدي كانوا مستقرين ومتشتّتين في قرى نائية، وكانت البلاد مقسَّمة حينذاك إلى ممالك صغيرة عديدة، لا تنضوي تحت لواء سلطة مركزية واحدة، وذلك هو شأن معظم أسلاف الكورد على الصعيد السياسي، وكان من السهل على الدولة الآشورية أن تلحق الهزيمة بتلك الممالك، وتبسط نفوذها على بلاد خالدي، خلال هجمات ملوك آشور المتكررة.

وقد ذكر شَلْمانَسَر الأول أن شعب خلدي تمرد عليه، ولم يمتثل لأوامره، وأورد في سجلاته أنه أحرق (٥١) إحدى وخمسين مدينة خلدية، كانت في الواقع قرى صغيرة، كما أنه أورد أسماء (٨) ثماني ممالك خلدية قهرها، والأرجح أنها كانت إمارات صغيرة، إذ دأب ملوك آشور على تضخيم انتصاراتهم، فيجعلون القرى مدناً، ويجعلون الإمارات ممالك. وفي فترة لاحقة امتدت سلطة شَلْمانَسَر الأول، نحو المناطق الشمالية الغربية، وهي المناطق الميتّانية/الحورية التي سمّاها الآشوريون (خاني جَلْبات)، وعُرفت في المصادر التاريخية باسم (طُور عابْدين)[1].

وظلت بلاد خلدي هدفاً لأطماع ملوك آشور بعد شَلْمانَسَر الأول، فقد ذكر تُوكُولْتي-نينُورْتا الأول Tukulti Ninurta 1 (١٢٣٣ – ١١٩٧ ق.م) أنه خاض حرباً ضد (٤٠) أربعين ملكاً، ونهب مدنهم، وسلب ممتلكاتهم، وانطلق من تلك النواحي إلى الشمال، فوصل إلى البحر الأعلى (بحيرة وان)، واستكمل هناك آخر حروبه مع آخر ملك من ملوك خلدي الأربعين[2].

وتفاقم الغزو الآشوري لبلاد خلدي في عهد تِغْلات پِلاسَر الأول Tiglathpileser 1 (١١١٤ – ١٠٧٦ ق.م)، إنه كان ملكاً طموحاً، صعب المراس شديد البأس، دشّن حكمه بشنّ حملة عنيفة على شعب مُوشْكي والقبائل الأخرى، وكانت مواطنهم تقع فيما وراء خاني جَلْبات (طُور عابْدين)، في الشمال الغربي، ووقع (٦٠٠٠) ستة آلاف (وفي رواية ٦٠٠) ستمئة موشكي في الأسر، وانتزع منهم مملكة (كُوتْمُوخي)، وكان ملوكها يحملون أسماء

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ١٣٣/٢ – ١٣٤.

٢ – المرجع السابق، ١٣٤/٢.

حورية، منها كيلى تِشّوب بن كالى تِشُّوب، وشادى تِشُّوب بن شاتّونى أمير بابْخى، وضُمّت أراضيهم إلى بلاد آشور، وفضلاً عن الفوائد التى جناها الآشوريون من الإنتاج الزراعى فى بلاد مُوشْكى، كانت لموشكى فوائد عسكرية؛ إنهم قدّموا للآشوريين (١٢٠) مئة وعشرين عربة حربية، وقطيعاً من الخيول، وموظفين أَكْفاء[1].

وفى القرن العاشر ق.م سجّل تِغْلات پِلاسَر الثانى Tiglathpileser 11(٩٣٥ – ٩٢٦ ق.م)، فى أحد أنفاق مصادر مياه نهر دجلة، حملاته الثلاث على بلاد خلدى (نايرى)، وتحدّث عن احتلاله للمناطق الواقعة فيما بين البحر المتوسط وبحيرة وان. وفى زمن حَدَد نيرارى الثانىAdad- nirari 11 (٩١١ – ٨٩٠ ق.م) أغارت القوات الآشورية على بلاد خلدى، وسار تُوكُولْتى – نِينُورْتا الثانى Tukulti Ninurta 11 (٨٩٠ -٨٨٤ ق.م)، وآشور ناسَر پال الثانى Ashur Nasir pal 11 (٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م)، على نهج ملوك آشور السابقين فى غزو بلاد خلدى، بقصد إحكام سيطرتهم عليها[2].

وتقع هذه المرحلة بين أعوام (٨٤٠ – ٦١٢ ق,م) فقد تغيّرت الأحوال السياسية فى بلاد خلدى، واصطدمت دولة آشور بقوات مملكة أورارتو المنظمة، يقودها ملوك محاربون، وكانت قد تأسست الدولة الخلدية بقيادة الملك سَرْدُور (ساردور) الأول (بالكوردية: سَرْدار، أى الزعيم، القائد، الحاكم)، وظهر اسم أورارتو لأول مرة فى سجل الملك الآشورى آشور ناسَر پال الثانى (٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م)، وكانت عاصمته مدينة كَلْخُو (نَمْرُود) ، ومع ذلك لم تعد بلاد نايرى مناطق نفوذ للإمبراطورية الآشورية كما كانت فى عهد تِغْلات پِلاسَر الأول (١١١٤ – ١٠٧٦ ق.م).

وعندما مات آشور ناسَر پال الثانى ثار الخلديون على الولاة الآشوريين، وبدأت القوات الأورارتية المنظمة تهاجم الحاميات الآشورية، وتنتزع منها المقاطعات واحدة بعد أخرى، فشنّ الملك الآشورى شَلْمانَسَر الثالث (تسلّم الحكم عقب وفاة والده عام ٨٥٩ ق.م) حملة

---

١ – هارى ساغز: عظمة آشور، ص ٨١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٢٤/٢، هامش (٣).

٢ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٨/١. جرنوت فلهلم: الحوريون، ص ٧٩ – ٨٢. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٣٤/٢، ١٣٥.

عسكرية على بلاد خلدى فى السنة الثالثة من حكمه (٨٥٥ ق.م) فى منطقة خُوبُوشْكِيا الجبلية الواقعة بين وان شمالاً وراوَنْدُوز جنوباً، وقاد الحملة بنفسه، وتغلغل فى المناطق الجبلية الوعرة بقلب كوردستان الحالية، حتى وصل إلى منابع نهرى دجلة والفرات، وقدّم هناك القرابين للآلهة كما فعل جده الأعلى تِغْلات پِلاسَر الأول.

وذكر وليام لانجر أن الملك الأورارتى فى هذا الوقت كان يسمّى أرامى (حوالى ٨٦٠ – ٨٤٣ ق.م)، وأنه أول ملك أورارتى، وهزمه شَلْمانَسَر الثالث، واستولى على عاصمته أرزاشكون. ورغم الحملات التدميرية العديدة لم يستطع شَلْمانَسَر الثالث القضاء على مملكة أورارتو قضاءً تاماً، بسبب موقعها المنيع، وكانت تستعيد قوتها بعد كل اندحار عسكرى[١].

عهد القوة والنهوض:

فى الفترة الواقعة بين عامى (٨٣٢ – ٨٣٠ ق.م) حكم سَرْدُور الأول ابن لوتيپرى بلاد أورارتو، وربما كان مغتصباً للعرش، والأرجح أنه ينتمى إلى الأسرة المالكة، أو إلى فئة النخبة القيادية فى المجتمع الخلدى، واختار تُوشْپا Tushpa (بالآشورية: تُورْشپا) الواقعة قرب مدينة وان الحالية، لتكون عاصمة للملكة، وقام بتحصينها على نحو جيد، وأسس الأسرة الملكة الأورارتية الأولى.

وحوالى (٨٢٠ – ٨٠٠ ق.م) حكم أورارتو ملك يدعى إشپُوينى (إسپُونى)، وغزا موساسير (أردينى، وهى تتطابق مع قرية مَجِيسَر على بعد ١٨ كم شمالى راوَنْدُوز) فى المنطقة التى كانت تقع تحت دائرة النفوذ الآشورى، وهذا دليل على أن دولة آشور كانت ما تزال تشكّل خطراً إستراتيجياً مباشراً على مملكة خلدى، وأن القيادة الخلدية العليا كانت تعمل للخلاص منها، وعيّن إشپُوينى ابنه سَرْدُور الثانى نائباً عنه هناك، فهاجمه شَمْسى حَدَد الخامس ملك آشور (٨٢١ – ٨١٠ ق.م)[٢].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٢٧/٢، ١٣٥. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٨/١.

٢ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٨/١.

ويمكن القول بأن الفرع الخلدى (الأورارتى)، ومنذ عهد سَرْدُور الأول تولّى مهمّة الدفاع عن بلاد أسلاف الكورد فى القرنين التاسع والثامن ق.م، ففى الشمال الشرقى كان على الخلديين الدفاع عن بلاد مانناى، وفى الجنوب الغربى والغرب كان عليهم الدفاع عن بقية البلاد التى كانت تقوم عليها مملكة ميتّانى الحورية، وكان العدوّ الأول والأكبر فى الجهتين هو إمبراطورية آشور الشديدة الطموح، قال بونغارد ليفين:

"فى عهد الملك ساردورى الأول بدأ الأورارتيون ينافسون الآشوريين، وسرعان ما شنّ الأورارتيون، بعد عام (٨٠٠ ق.م)، حملة قوية باتجاه الجنوب، واستولوا على عدّة مقاطعات كانت تحت سيطرة الآشوريين، وفيما بعد بسطت أورارتو سلطتها على مناطق واسعة فى جنوب ما وراء القوقاس... وغدا الصدام الحاسم بين أورارتو وبلاد آشور أمراً لا مفرّ منه فى أواسط القرن الثامن ق.م، وتمكّن الآشوريون من إلحاق عدّة هزائم جسيمة بأورارتو، مما ولّد أزمة سياسية داخلية فى البلاد"[1].

وعلى أية حال تغلّب الملك الأورارتى رُوسا الأول على تلك الصعوبات، لكن سرعان ما ظهر خطر جسيم آخر؛ هو زحف البدو السيمِّريين (الكيمِّريين) Cimmerians على أورارتو، وقد جاء هؤلاء من شبه جزيرة القَرْم، شمالى جبال القوقاز (القفقاس)، هاربين من غزاة بداة آخرين أشدّ شراسة هم السِّكيث (الإسكيذيون) scythians، وكان موطن السِّكيث الأصلى شمالى البحر الأسود، وتخلص رُوسا الأول من السيمِّريين بأن وجّه زحفهم نحو آسيا الصغرى[2].

وقال الدكتور عبد الحميد زايد بشأن نفوذ دولة أورارتو:

"فى وسط القرن التاسع ق.م اتحدت عدّة إمارات صغيرة فى إقليم نائى فى مساحة واسعة حول بحيرة ڤان، وكوّنت دولة سُمّيت أورارتو، وقبل نهاية هذا القرن انتهزت فرصةَ ضعف آشور، ومدّت حدودها وسيادتها إلى ما وراء بحيرة فان. ومن عام (٨١٠) ق.م إلى (٧٤٣ ق.م)، وأيام حكم ملوكها الثلاثة: مِينوا، وأرْجيشتى الأول، وساردور الثانى، استطاع الأورارتيون أن يصلوا إلى منفذَين فى البحار المحيطة بهم: ففى الغرب كانوا

---

١ – بونغارد– ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٥٢٧.

٢ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت ص ٢٩٨. بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٥٢٧.

يشرفون على حلب، ووصلوا إلى البحر الأبيض المتوسط، وفى الشمال غزوا إقليم كولهاى، ووصلوا إلى البحر الأسود. وفى الغرب والشمال استطاعوا أن يتصلوا بالعالم اليونانى"[1].

وقد سار إشپُوينى (إسْپُونى) على نهج والده سَرْدُور الأول، وراح يبنى الحصون فى المناطق الإستراتيجية، للدفاع عنها ضد كل اعتداء، ويوسّع دائرة النفوذ الأورارتى، وكانت سياسته تتركّز فى إنزال الضربات المفاجئة بقوات الممالک المجاورة، بدل التقوقع داخل حدود أورارتو (بياينا)، إنه أغار على القوات المتحالفة ضده فى بلاد إتيوخى Itiukhi، وكان مركز تلک البلاد هو سهل قَرَه قُوش، شمالى بحيرة وان، كما أنه أغار على المناطق التابعة للنفوذ المانناىى فى كوردستان الشرقية حالياً، وخاصة منطقة جلديان وقلعه گاه، وذكر إشپُوينى قصة حملاته بمعية ابنه مِينَوا على مدينة مَيْشتا Meishta (يتطابق موقعها مع موقع طاش تَپَه الحالى قرب مِيانْدواو، فى كوردستان الشرقية)، والمناطق المجاورة لها فى بلاد پارْسُوَا، جنوبى بحيرة أُورمِيه، وهى من المناطق التابعة للنفوذ المانناىى أيضاً، وسلب من سكانها قطعان الماشية والخيول الأصيلة والممتلكات الثمينة[2].

وحيثما كان إشپُوينى يتوجّه بحملاته، ويحقق النصر، كان يقيم نُصْباً للنصر كعادة ملوک ذلک العصر، وخاصة ملوک آشور، ويدوّن عليه أمجاده التى حقّقها، وقد ذكر فى نُصْب أقامه فى العاصمة توشْپا (تورشپا) عددَ فرقه العسكرية وفرق أعدائه فى الحروب التى دارت رحاها فى تلک المناطق، وكان أبرز أعدائه هم الآشوريين والماننايين، وكان الغرض من حملات إشپُوينى على بلاد ماننای (فى كوردستان الشرقية حالياً) هو قطع الطريق على الآشوريين الذى كانوا يعملون بإصرار لبسط نفوذهم على تلک البلاد، وحرمانهم من الوصول إلى الضفة الغربية لبحيرة أورميه، وهكذا سقطت فى أيدى الأورارتيين جميع السهول الشمالية المجاورة، بما فى ذلک مدينتا گيلزان وسوبى المعروفتان بتربية الخيول الأصيلة.

وكانت الحملات الأولى التى شنّها إشپُوينى، بمعية ابنه مِينَوا، على بلاد ماننای ضخمة، ويظهر ذلک من عدد الفرق العسكرية الأورارتية الكبيرة، فحينما كانت هذه الفرق موجّهةً

---

١ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٧٤ – ٥٧٥.

٢ – جمال رشيد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٤٣/٢ – ١٤٤.

ضد المناطق الواقعة شمالى نهر آراس (آراكس) كانت مجهّزة بـــ (٦٦) عربة قتالية، و(١٤٦٠) فارساً، و(١٥٧٦٠) راجلاً، وبعد هذه الحملة بوقت قصير، تزايد العدد فى الحملة على ماننای، فأصبح (١٠٦) عربات قتالية، و(٩٣٧٤) فارساً، و(٢٢٧٠٤) راجلاً، كى يتحقق التفوق على قوات مملكة ماننای التى كان أغلب محاربيها- كالميديين- من الفرسان[١].

وفى عهد الملك مِينَوا بن إشپُوينی (٨١٠ – ٧٨٥ أو ٧٨١ ق.م)، ازدادت مملكة أورارتو قوة، وتوسّع نفوذها أكثر، وقد مرّ أنه كان يصاحب والده فى الحملات الحربية، ولا ريب فى أنه كان يشاركه أيضاً فى رسم السياسات العليا والخطط الحربية، فاكتسب خبرة غنيّة فى ميدانى السياسة والحرب. وقد وسّع مِينَوا مساحة المملكة كثيراً، وخلّف نقوشاً فى مساحات كبيرة، وأصبحت حدود مملكة أورارتو تبدأ بخطّ من مَلاطِيا فى الغرب، ويسير نحو بحيرة چلدر، ومن هناك يستمر هذا الخط بمحاذاة بحيرة سِيڤان فى الشرق، وأصبحت مملكة أورارتو تشمل جميع المناطق الواقعة بين بحيرات وان وأُورميا وسِيڤان وچِلْدَر، وكانت تتخللها الجبال العالية والأنهار الطويلة، كما توسّعت من ناحية الجنوب الشرقى حتى شملت كوردستان الشرقية، وفى الشمال وصلت إلى (أرپا چاى) شمال غربى جبل أرارات (آگرى داغ) على تخوم القفقاس، وفى الجهة الغربية وصلت حدودها حتى الأناضول، مروراً بوادى نهر قَرَه صُو، حتى منطقة أَرْزَنْجان وأَرْضَرُوم، ثم اتجهت نحو نهر الفرات، لتلتقى بخط جبال هَكارى وسَلاسل طُور عابْدِين التى شكّلت الحدود الجنوبية المواجهة لآشور[٢].

ويمكن القول بشكل عام: إن مِينَوا وصل بحملاته إلى مناطق لم يصل إليها ملك أورارتى قبله فى الشرق باتجاه بحيرة أورميه، وفى الشمال باتجاه نهر آراس، وهذا واضح من خلال النُصُب التذكارية التى كان يقيمها فى المناطق المفتوحة، ومن خلال الحصون التى كان يبنيها، ويتخذها مراكز عسكرية إدارية لتثبيت سيطرته.

وفى أواخر القرن التاسع ق.م، وبداية القرن الثامن ق.م، نظّم مِينَوا خطّة إستراتيجية، بقصد الوصول إلى وادى نهر آراس فى الشمال، فتقدّم من إسكى دوغو بايزيد، عبْر الطريق المؤدى إلى السفوح الجنوبية لجبل آرارات، حيث وصل إلى ضفاف النهر، وأنشأ هناك مركزاً

---

١ – المرجع السابق، ١٤٤/٢.

٢ – المرجع السابق، ١٣٦/٢، ١٤٤.

مهماً يشتهر الآن باسم (ڤيراهرام) وهو واقع قرب النهر، مقابل التقائه برافده ڤيدى چياى، ثم خطّط مينوا لاحتلال المناطق الشمالية، وبعد إغارة ناجحة على بلاد قوية، منها إيريكواخى الواقعة على السفوح الجنوبية لجبل أرارات، احتل مقرّ الملک فى لوخيوينى الواقعة فى الجهة الشمالية لجبل أرارات، وبنى قربها مجموعة من القلاع والحصون، كما أنه بنى هناک معبداً للإله القومى خَلْدى (آلْدى)[1].

وشنّ مِينَوا حملاته باتجاه الغرب، ووصل نفوذه العسكرى والسياسى إلى حدود بلاد الحثّيين فى الأناضول، وسيطر على مدن مهمة، وبنى عدداً من الحصون، وكان ملک مدينة مَلَتِينى (مَلاطِيَا) من جملة الحكام الذى أعلنوا التبعية له هناک، ومَلاطِيا هى المدينة الكوردية الحالية فى جنوبى وسط تركيا، وكانت تُعَدّ حينذاک بوّابة البلاد الحثّية. وتوجّه مِينَوا بحملاته العسكرية نحو الجهات الجنوبية الشرقية أيضاً، وسيطر على عدد من المدن والمراكز المهمة على حدود دولة آشور[2].

ومن وجهة نظر عسكرية أصبح مِينَوا أكثر شهرة من أبيه إشْپُوينى فى غزو البلدان المجاورة، متّبعاً خططاً سياسية منظَّمة وحكيمة، ومهتماً ببناء المدن والقلاع والمعسكرات الدائمة؛ لإدامة النفوذ الخلدى فى البلاد المفتوحة. وقد أدّى بناء المدن والقلاع الخلدية فى البلاد الواقعة تحت النفوذ الخلدى إلى ظهور مجتمعات زراعية، تلتزم طوعاً بالمحافظة على مصالحها الزراعية والدفاع عن مَواطنها، وأصبح أبناء تلک المجتمعات صفوة طبقة الفرسان، وراحت هذه الطبقة تدافع عن المزارع وحقول الكروم الخصبة على نحو طوعى، ورغم أن الآشوريين أعادوا تنظيم قواهم، لكنهم عجزوا عن مواجهة قوات مينوا[3].

وكان مِينَوا يُشرِک ابنه إينوشْپوا فى الحملات العسكرية التى يقوم به، وظهر إينوشپوا على مسرح الأحدث مع أبيه ومع جده إشْپُوينى، وخاصة فى بناءِ معبد سُوسى بالعاصمة تُوشْپا، وتقديم القرابين والهبات إلى الآلهة، ولكن لسبب مجهول لم يستلم الحكم فيما بعد، ولعله توفّى فى وقت مبكّر، أو نُحِّى جانباً نتيجة صراع على العرش، وتولّى العرش بعد مِينَوا

---

١ - المرجع السابق، ١٤٦/٢- ١٤٧.

٢ - المرجع السابق، ١٤٨/٢ – ١٤٩.

٣ - المرجع السابق، ١٤٩/٢.

ابنه الآخر أَرْگِشْتى (أرجيشتش) الأول، حوالى (٧٨٦ – ٧٦٠ ق.م)، وحدث ذلك بعد أزمة داخلية، وخاصة فى الأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية على تخوم قَفْقاسِيا (القوقاز).

وبدأت أولى حملات أَرْگِشْتى الأول عام (٧٨٦ ق.م)، والأرجح أنها كانت فى المناطق الشمالية الغربية التى نشبت فيها الأزمة الداخلية، وكان الغرض من تلك الحملة إعادة تنظيم أمورها. وفى عام (٧٨٥ ق.م) قام أَرْگِشْتى بحملة فى المناطق الشمالية الغربية المجاورة لأورارتو، وخاصة المملكة التى عُرفت باسم (دِياوَخى) Diauekhi، وكانت أراضيها تقع حوالى مدينة أَرْضَروم، وكانت قد ابتعدت عن ولائها للعرش الأورارتى بعد ظهور مشكلة وراثة العرش إثر وفاة مِينَوَا، وخاصة أن مينوا كان قد دمّر بلاد دياوخى سابقاً.

وخلال حملته على مملكة دياوخى حصل أَرْگِشْتى الأول على أسلاب كثيرة، منها حوالى (٢٠) عشرون كغ ذهباً، و(١٨) ثمانى عشرة كغ فضّة، وأكثر من خمسة أطنان من النحاس، و(١٠٠٠) ألف حصان، و(٣٠٠) ثلاثمئة من الماشية، وفرض على سكان دياوخى شروطاً تتعلق بتزويد مملكة أورارتو سنوياً بالنحاس والذهب والخيول والمواشى، وبذلك أرسى الأمن على حدود أورارتو الغربية.

وفى حملته الثانية توجّه أَرْگِشْتى الأول نحو زاباخى فى المناطق الشمالية الشرقية، ثم انتقل إلى أراضى حوض بحيرة چِلْدر، ووصل بحملته إلى إردَنْيونى، وهى أقصى نقطة وصلت إليها قوات أورارتو فى الشمال. وبعد ذلك توجّه أرگشتى إلى الجنوب، متسلّقاً جبال ألاغوز Alagoz، وشقّ طريقه نحو عدد من المدن الرئيسة هناك، واستولى على آلاف الأسرى والمواشى، حسبما دوّن فى كتابة له هناك[1].

وفى حملته الثالثة توسّع أَرْگِشْتى الأول بحملاته شرقاً، ووصلت قوات إلى الساحل الغربى لبحيرة سيڤان، وجنوباً حتى يريڤان (عاصمة أرمينيا حالياً)، وسجّل خبر انتصاره على إتيونى فى مسلّة نصبها على طريق قارْص فى موقع يسمّى الآن (صارى قاميش)، ثم توجّه إلى مناطق أخرى فى الجبهات الشرقية، واحتل مناطق فى طريقه إلى بحيرة أورميه، وسلب كثيراً من الغنائم، بما فيها الأسرى والمواشى.

---

١ – المرجع السابق، ٢/١٥١.

وفى الحملة الرابعة عام (٧٨٣ ق.م) بدأ أَرْگِشْتى الأول يتحرك بعكس الاتجاه الذى سلكه والده قبلاً، فدخلت قواته هذه المرة إلى أراضى فريجيا Phrygia، شمالى ملاطِيا، واستولى على مدن مهمة هناك، وحصل على عدد كبير من الأسرى والمواشى.

وفى الحملة الخامسة عام (٧٨٢ ق.م)- وهو العام الخامس من حكمه- عبر أَرْگِشْتى الأول نهر آراس بوساطة جسر بناه على هذا النهر، ولا تزال آثاره باقية إلى الآن، وتوجّه إلى بحيرة سيڤان، واستولى على مدينة كيختى التى كانت تقع على الساحل الغربى لهذه البحيرة، وسجّل فيها خبر انتصاره هناك، وأقام فى المواقع التى احتلها عدداً من القلاع، وخاصة فى الجنوب الغربى من البحيرة، للمحافظة على الخطوط الجديدة للجبهة، وبنى فى Ganli Tepe (بالكوردية: آرين بَرْد) قرب يريڤان، سلسلة من الحصون اشتُهرت باسم Irepuni/Erebuni الصيغة القديمة لاسم يريڤان، وأسكن فيها (٦٦٠٠) أسير من بلاد Khate وShupani. وحينذاك أحسّ ملوك آشور بالخطر الأورارتى على حدودهم الشمالية، وراحوا يُعِدّون العُدّة لمواجهة التمدّد الأورارتى[١].

وفى السنة السادسة من حكمه (٧٨١ ق.م) أدرج أَرْگِشْتى الأول فى سجل حملاته بلاد بُوشْـــتُو وبابْلو وپارْسُوَا، ودخل فى صراع ضد دولة آشور بقيادة ملكها شَلْمانَسَر الرابع، وجرت معارك بين أورارتو وآشور خلال الأعوام (٧٨١، ٧٨٠، ٧٧٩، ٧٧٧، ٧٧٥ ق.م)، وفى عام (٧٨١ ق.م) كان قائد الجيش الآشورى تُورْتانو شَمْشى إلو حاكم حَرّان وأَرّابْخا (منطقة كركوك حالياً)، ووجّه ضربة لقوات أرگشتى، وهزمه فى معركة ضارية، واحتل معسكره، بعد أن كان أرگشتى قد غزا مملكة ماننای، هذا حسبما ورد فى سجلات شَلْمانَسَر الرابع.

ويبدو أن ملوك آشور كانوا يضخّمون انتصاراتهم، إذ تبيّن أن انتصار تورتانو شمشى إلو على أَرْگِشْتى لم يكن قاضياً، والدليل أن أَرْگِشْتى استعاد قوته ثانية، وغزا ماننای عام (٧٧٧ ق.م) وحصل على كثير من الغنائم، وقبض على كثير من الأسرى من مدن ماننای، وأعاد غزواته الأخرى على ماننای خلال عامى (٧٧٦ و ٧٧٥ ق.م)، واستمر فى غزو أراضى

---

١ - المرجع السابق، ١٥٢/٢ - ١٥٣.

مملكة مانناى فى عهد ملكها آزا بن إيرانْزو، وبنى سلسلة من المستوطنات فى وادى نهر آراس وحواليه فى منطقة آبوڤيان شمال شرقى يريڤان[1].

وفى عهد الملك أَرْگِشْتى الأول بلغت مملكة أورارتو قمة مجدها، وتوفّى هذا الملك عام (٧٦٠ ق.م)، وإن حملاته العسكرية العديدة، وانتصاراته المتتالية، وقدرته على توسيع مساحة مملكة أورارتو، ومواجهة إمبراطورية آشور، لم تأت من فراغ، وإنما لأنه قد نشط بحزم وذكاء على محورين:

١ – محور إدارى واقتصادى، أدّى إلى ازدهار الزراعة والصناعة والتجارة فى المجتمع الأورارتى، ومعروف أن أية دولة لا تستطيع تحقيق انتصارات فى الخارج، ما لم تكن جبهتها الداخلية متماسكة وقوية.

٢ – محور عسكرى، إنه كان قد أعدّ جيشاً مقاتلاً من الطراز الأول، لقد كان جيشه من المشاة والفرسان ومجموعات العربات الحربية، وكان الجنود يرتدون بزّات عسكرية، يشدّونها بأحزمة على الخواصر، مع وضع غطاء على الرأس، وكان المقاتلون يتسلّحون بالسيوف والتروس الصغيرة البرونزية، ثم تحسّنت نوعية الأسلحة بالتدريج، وأضيفت إليها الرماح ذات الرؤوس المدبَّبة المصنوعة من الحديد، وظهرت السيوف والأقواس والسهام ذات الرؤوس المصنوعة من الحديد أيضاً، وعلى العموم فإن قوات الأعداء- باستثناء قوات دولة آشور- لم تكن فى مستوى قوات أورارتو من حيث التنظيم والتسليح[2].

وتولّى سَرْدور (سردورى/ساردور) بن أَرْگِشْتى الأول (٧٦٤ – ٧٣٥ ق.م) عرشَ أورارتو، واستمرّ فى سياسة والده التوسّعية، وفى شن الحملات العسكرية العدوانية، وعبر نهر الفرات، واستولى على المناطق الواقعة شرقى مَلاطِيا، ونهب الأموال والأسلاب كالذهب والفضة والمواشى، ثم توجّه نحو قَفْقاسيا، فدخل فى الجهات الشمالية الغربية بلاداً سمّاها أويليكوخى، وذكر أنه حوّل قلاعها فى يوم واحد إلى أرض مستوية، وأحرق المدينة، وخاض حرباً ضد عدة ملوك على الضفة الغربية لبحيرة سيڤان، وعلى ساحلها الجنوبى الغربى.

---

١ – جمال رشيد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٥٣/٢، ١٥٤. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٨/١.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٥٥/٢ – ١٥٦.

وتابع سَرْدُور الثانى حملاته العسكرية فى مختلف الاتجاهات، إنه دخل الحرب ضد الجيش الآشورى فى عهد الملك نيرارى الخامس عام (٧٥٤ أو ٧٥٣ ق.م) أكثر من مرة، وكان ذلك فى منطقة تدعى أورمى وأبيليانى وإيرياخى فى الجنوب الشرقى من أورارتو، وحصل على الغنائم والأسرى. وفى عام (٧٥٠ ق.م) عاد إلى الشمال فى مناطق قارْص الحالية، فاتحاً طريق مملكة أورارتو إلى سواحل البحر الأسود، لِما لها من أهمية من حيث مرور الطرق التجارية. وفى عام (٧٤٩ ق.م) عاد إلى غزو أبيليانى وإيرياخى وإتيوخى فى المناطق الجنوبية الشرقية، ويبدو أنها كانت تثور عليه، وتسبّب له الأزمات، إذ وصف حملته عليها وانتقامه منها قائلاً:

"يقول سَرْدُورى: وفى نفس العام، وللمرة الثالثة توجّهت نحو بلاد إيرياخى، تلك البلاد التى قمت بحملة عليها، أحرقتُها، دمّرتُ المدينة، تلك البلاد التى احتللتُها، وسلبتُ الرجال والنساء، ونقلتهم إلى بيايناا، هناك بنيت الحصون، تلك البلاد صَفّيت أعمالى معها"[1].

وفى عام (٧٤٨ ق.م) غزا سَرْدُور الثانى بلاد إتيوخى وغيرها فى مناطق بحيرة چِلْدر مرة ثانية، وترك نصاً يصف فيه تلك الغزوة على طريق أَرْدِهان القريب من جورجيا، وكان من جملة غنائمه (١١٥) جملاً، كان التجار يستعملونها فى نقل بضائعهم بين الأناضول وسهول روسيا الجنوبية. وفى عام (٧٤٧ ق.م) قام بحملة ضخمة على بولوادى Puluadi فى الجهات الشرقية، وأغار على المدينة الملكية لوبيليونى، وترك فى المدينة لوحة بصدد حملته، وتتطابق هذه المدينة مع مدينة (سَى قَنْدِيل) الحالية على بعد حوالى خمسة كيلومترات شمالى وَرْزَكان فى أذربيجان الحالية، وعاد من هناك ومعه الغنائم وعدد كبير من الأسرى.

وفى فترات لاحقة توجّه سَرْدُور الثانى بغزواته نحو الجنوب الغربى، طمعاً فى أموال مملكة كُوموخا كالى (كُمُوخ بالآشورية)، وسقطت مدن أُويتا وخَلْپا (هَلفيتى الحالية على الضفة الشرقى لنهر الفرات) فى يده، وقد وصفها بأنها مقرات ملكية، وقبض على ملك كُموخ ويدعى كُوشْت أسْپى Kushtashpi، وهو اسم ذو طابع كوردى واضح، ودفع له هذا الملك غرامة مالية ضخمة، تتألف من (٤٠) مِينه من الذهب الخالص، و(٨٠٠) مينه من

---

١ - المرجع السابق، ٢/١٥٨ — ١٥٩.

الفضة، و(٣٠٠) قطعة قماش، و(٢٠٠٠) درع من النحاس، و(١٥٣٥) كأساً نحاسية، كما أنه فرض على كُوشْت أسْپى الانضمام إلى حلف مناهض لدولة آشور فى شمالى سوريا، تَشكّل فيما بين حكام أرپاد (أرباد/تل رِفْعَت حالياً، على بعد حوالى ٣٥ كم شمال غربى حلب)، وميليد (ملاطِيا)، وگورگوم (جَرْجُوم عاصمة الجَراجِمَة، وهم المَورِانة قبل هجرتهم إلى لبنان، وتسمّى الآن مَرْعَش فى جنوبى تركيا)[١].

ويمكن القول بأن انتصارات سَرْدُور الثانى لم تكن ترجع إلى حنكته الحربية، ومهارته السياسية، وقدرة قواته القتالية فقط، وإنما كان ترجع أيضاً إلى أن الضعف كان قد دبّ فى جسد مملكة آشور، وخاصة عندما تسلّم الحكم فى آشور ملوك ضعفاء من أمثال شَلْمانَسَر الرابع (٧٨١ – ٧٧٢ ق.م)، وآشور دان الثالث (٧٧١ – ٧٥٤ ق.م)، وآشور نيرارى الخامس (٧٥٣ – ٧٤٦ ق.م)[٢].

عهد الانحدار والسقوط:

لم تسر الأمور على الدوام كما كان يريدها سَرْدُور الثانى، ففى مملكة آشور حدث تغيير سياسى كبير، إثر انقلاب عسكرى فى العاصمة الجديدة كَلْخُو (نَمْرُود)، ووصل إلى العرش الملك تِغْلات پِلاسَر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م)، فحلّ مشاكله فى الجهات الغربية من دولته، وراح يخطّط للقضاء على النفوذ الأورارتى، ويبدو من سير الأحداث، وحسبما يفيد الفكر العسكرى الإستراتيجى، أن زمام المبادرة كان فى يدى تِغْلات پِلاسَر الثالث، وأنه كان يجرّ خصمه سَرْدُور الثانى إلى الحرب فى الميادين التى يريدها هو (تغلات)، فهاجم حلفاء مملكة أورارتو فى بلاد كُموخ وميليتينه (مَلاطِيا) عام (٧٤٣ ق.م)، وكان هؤلاء يشكّلون قوة كبيرة فى شمالى سوريا، فأسرع سردور الثانى لنجدة حلفائه، وانتصر عليه تِغْلات پِلاسَر انتصاراً ساحقاً، وقضى على قواته قرب كيشتان (لعلها كيزولو الحالية على الضفة الغربية لنهر الفرات).

---

١ – المرجع السابق، ٢/١٦٠.

٢ – المرجع السابق، ٢/١٢٨.

كما أن تِغْلات پِلاسَر الثالث تغلّب على قوات سَرْدُور الثانى فى معركة أخرى، واستولى على معسكر أورارتى، وتراجع سردور إلى الشمال، تاركاً وراءه سريره وخاتمه لملكى، وهذا دليل على سرعة انقضاض الجيش الآشورى على جيش أورارتو. وانسحب سَرْدُور الثانى إلى عاصمة مملكته تُوشْپا، وجمع شمل قواته ثانية، استعداداً لجولة حربية أخرى ضد دولة آشور. وفى عام (٧٤٢ ق.م) قام تِغْلات پِلاسَر الثالث بمهاجمة أَرْباد الآرامية التى كانت تحتلها الجيوش الأورارتية، وتسمّى عاصمتها أرباد الآن باسم (تل رِفْعَت)[١].

وبعد ثمانى سنوات، وفى حملته الحادية عشرة عام (٧٣٤ ق.م)، انتزع تِغْلات پِلاسَر الثالث جميع الممالك الصغيرة التى كانت تابعة للنفوذ الأورارتى فى شمالى سوريا، ثم هاجم قلب مملكة أورارتو، متوجّهاً نحو العاصمة الملكية تُوشْپا، وكان يعتزم القبض على سردور، لكن سردور لجأ إلى الجبال، ونقل تِغْلات پِلاسَر أعداداً كبيرة من سكان أورارتو إلى آشور باعتبارهم أسرى، وهذا ما لم يشر إليه سَرْدُور الثانى، وإنما أورد أخباراً عن أعماله العمرانية، وبناء مدينة سمّاها باسم (سَرْدُروى خينيلى)، فى جنوب شرقى وان، على طريق باش قلعة.

ولما توفّى سَرْدُور الثانى دُفن فى المدفن الكبير قرب قبر أبيه، ومنذ ذلك الحين اختفت حوليات ملوك أورارتو، ولمتابعة أخبارهم بات من الضرورى العودة إلى النصوص الآشورية المختصرة، وهذا دليل على أن سياسة دولة آشور كانت تقوم على إزالة كل ما يتعلّق بملوك أورارتو فى المناطق التى سيطروا عليها، ويمكن أن نفهم على ضوء هذه الحقيقة سبب شحّ المعلومات المتعلقة بأسلاف الكورد فى بقية أرجاء كوردستان ، وعلى مدار تاريخ أسلاف الكورد[٢].

وفى الوقت الذى انشغل فيه الآشوريون بمواجهة تصاعد الوجود السياسى الميدى فى كوردستان الشرقية، استعادت أورارتو قوتها بعض الشىء فى عهد الملك روسا (روساس) الأول بن سَرْدُور الثانى (حوالى ٧٣٤ – ٧١٤ ق.م)، ولم يستلم هذا الملك عرش أورارتو بشكل طبيعى، وإنما قام بانقلاب قضى من خلاله على خصومه المتمردين، وهذا دليل على أن

---

١ – جمال رشيد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٢٨/٢. هارى ساغز: عظمة آشور، ص ١١٩.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٦٠/٢ – ١٦١.

الأمور لم تكن مستقرة في أورارتو على الصعيد السياسى، وأن صراعات خطيرة كانت تدور للسيطرة على العرش.

والملاحَظ أن أخبار عهد روسا الأول قليلة، وهى تفيد أنه قام بحملات عسكرية فى المناطق الشمالية من مملكته، ومنها بلاد أويليكونى الواقعة مباشرة حول بحيرة سيڤان، مكوِّنة قسماً من البحيرة والجبال العالية التى انتصر فيها روسا الأول على (٢٣) ثلاثة وعشرين ملكاً، منهم (١٩) تسعة عشر ملكاً كانوا يحكمون القسم الشرقى من البحيرة، مع الأخذ فى الحسبان أن هؤلاء الملوك كانوا يحكمون ممالك صغيرة أشبه بالإمارات، وقد جاء فى نص للملك روسا الأول قوله:

"**ببركة الإله خَلْدى يقول رُوسا بن سَرْدُورى: حاربت ملك بلاد أويليكونى، مدمّراً قواته، وطردته من البلاد، وعيّنت آخرَ فى مكانه، وبنيتُ باباً** [= معبداً] **جديداً لخلدى فى مدخل المدينة، فسمّيتها مدينة خلدى لبياينا؛ لكى تقف ضد الأعداء والبلاد المنخفضة [؟]، روسا بن سَرْدُروى، الملك القوى، موسّع بلاد بياينا**"[١].

وفى الجنوب تحالف أورزانا ملك موساسير مع روسا الأول، وأورزانا يقيم ى أردينى، ولتثبيت نفوذ أورارتو فى تلك المنطقة عُيّن حاكمٌ أورارتى بجانب أورزانا، وتزامن ذلك مع عهد الملك الآشورى شَلْمانَسَر الخامس (٧٢٨ – ٧٢٢ ق.م)، واحتلال الآشوريين شمالى سوريا وفلسطين. وكانت مملكة أورارتو منشغلة حينذاك بتوسيع رقعتها شرقاً. وقد أثار التمدد الأورارتى شرقاً، وبناء التحصينات فى تخوم مناطق النفوذ الآشورى غضب الآشوريين، فحاولوا إبعاد أورزانا عن ولائه لروسا الأول، وتحويله إلى جاسوس لهم، يُبلغهم بتحركات روسا، لكن أورزانا رفض تلك المهمة.

وعمد الآشوريون، فى عهد سَرْجُون الثانى Sargon 11 (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) إلى إثارة المشكلات لدولة أورارتو فى مملكة مانناى (فى كوردستان الشرقية)، وساعد سرجون الثانى فى تعيين آزا بن إيرانْزو ملكاً على مانناى، ولمّا حاول آزا التخلص من النفوذ الآشورى، دبّر سرجون الثانى مؤامرة لاغتياله، عن طريق بَكْداتّى Bagdatti حاكم أُويشديش، وعن طريق مِيتّاتى زاكْرُوتى أمير مِيسّى، ونَصب أُولِسُونو Ulisunu ملكاً على مانناى محل أخيه

١ – المرجع السابق، ٢/١٦٠ – ١٦١.

آزا، وكانت مقاطعة أُويشديش تقع فى التخوم الجنوبية لأورارتو، وتجاورها من الجنوب مملكة ماننای، ومن الشرق مناطق سكنى قبائل زيكورتو (زاگروتى)[1].

ورداً من روسا الأول على المخطّط الآشورى، استولى على (٢٢) حصناً فى ماننای، وكان بعضها يقع فى مقاطعة أويشديش، بحجّة تأمين جبهته الجنوبية الشرقية. فأثارت هذه الإجراءات غضب سرجون الثانى، فبادر إلى إيقاف التوسع الأورارتى على حساب منطقة النفوذ الآشورى، وفى خضمّ هذا الصراع اضطر بَگْداتّى إلى الهرب من بلاده. وفى عام (٧١٥ ق.م) أرجع المانيايون جميع حصونهم من الاحتلال الأورارتى، وأعلن حكام مناطق أنديا وزيكورتو الطاعة للعاهل الآشورى[2].

وفى عام (٧١٤ ق.م) قاد سرجون الثانى قوات كبيرة، منطلقاً من العاصمة كَلْخُو (كالَح/نمرود)، وعبر نهر الزاب الصغير، ومضيق بابيت (جبل كوللار) فى زاموا، واجتاز أرض اللوللوبيين أيضاً، ودخل سوريكاش، وهى المقاطعة الجنوبية من مملكة ماننای، ولعلها منطقة بانَه Bane الحالية فى كوردستان الشرقية، فاستقبله حليفه أُولِسُونو ملك ماننای وكرّمه. وبسط سرجون الثانى سيطرته على مقاطعات ألابريا وپارْسوماش، وحصل على غنائم كثيرة من بلاد مملكة نامرى (نامار/نوار، بين بازِيان وجبل حَمْرين)، ومن بلاد "**الميد الأقوياء**"، حسب وصفه.

وبينما كان سرجون الثانى راجعاً إلى بلاد ماننای، جهّز نفسه للإغارة على زيكورتو عن طريق أوكانى، بعد أن بلغه خبر معسكر روسا الأول والقوات المتحالفة معه فى أويشديش، وهاجم معسكرهم ليلاً من فوق جبل أُأَوُوش Uaush الذى وصفه سرجون بأنه مثل "**خنجر حادّ ترتفع قمته نحو السماء**"، وهذا الوصف يتطابق مع جبل سَهَنْد الحالى (١١٢٨ متراً عن

---

١ – جمال رشيد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٦٤/٢ – ١٦٥. ذكر دياكونوف أن روسا الأول هو الذى أثار أعيان ماننای ضد آزا، فنشبت ثورة جماهيرية ضد آزا، بسبب تبعيته للآشوريين، أدّت إلى مقتله. دياكونوف: ميديا، ص ١٩٩.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٦٥/٢.

سطح البحر)، جنوبى تَبْريز، وهزم الأورارتيين هزيمة نكراء، حتى إن روسا الأول اضطر إلى الهرب من ميدان المعركة[1].

وبهذا الانتصار أصبح الطريق مفتوحاً أمام سرجون الثانى نحو قلب أورارتو، فخرّب أويشديش، وتقدم نحو أوشكايا، وهى بداية دولة أورارتو، وثمة غموض يلفّ مسارات سرجون الثانى إلى أرض أورارتو، لكن المؤكد أنه دمّر مدينة موساسير، ثم احتل العاصمة توشپا وحرقها، وأسر كل أفراد العائلة المالكة ومئات من خواصّهم، ولما سمع روسا الأول ذلك أنهى حياته بخنجره[2].

واستمر الصراع بين أورارتو وآشور بعد عهد كل من الملك الآشورى **آشور** بانيپال Ashurbanipal (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) المشهور بكثرة حملاته العسكرية، والملك الأورارتى روسا الثانى (حوالى ٦٨٥ - ٦٥٠ ق.م)، وحاول روسا الثانى إقامة تحالف مع قبائل السيمِّريين (الكيمِّريين) Cimmerians المشهورة بالعنف، للوقوف فى وجه الآشوريين، وفى الوقت نفسه لم يهمل اتخاذ التدابير العسكرية الاحتياطية قرب موطنه، وكان لا يزال معروفاً بين الملوک بلقب (سيّد تُوشْپا)، وشيّد فى هذا الوقت حصناً جديداً فى تُوپْراک قلعه Toprak Qale، كان يشرف على بحيرة وان، سمّاه (روسا خينيلى)، ويبدو أنه بنى هناک معبداً للإله خلدى أيضاً.

ومن الواضح أن زمام المبادرة كان فى يدى **آشور** بانيپال، وكانت دولة آشور هى الأقوى، وكانت دولة أورارتو قد فقدت ميزاتها الحربية السابقة، حتى إن **آشور** بانيپال بات يستخفّ بها ويستفزّها، والدليل على ذلک أنه فى عام (٦٤٠ ق.م) أرسل روسا الثانى مبعوثاً إلى **آشور** بانيپال، فاستقبله هذا بعدائية واستكبار، وأمر بقطع لسانه، وأرجعه إلى بلاده حياً.

ولا نجد أىّ ردّ فعل من جانب روسا الثانى إزاء هذه الإهانة الصريحة، لا بل إنه أرسل ابنه سَرْدُور (ساردور) الثالث إلى ضفاف نهر أُولاى فى بلاد عِيلام، حيث كان يخوض

---

١ - المرجع السابق نفسه.

٢ - بونغارد- ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٥٢٧ – ٥٢٨. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٢٨/٢.

آشور بانيپال معاركه، ليهنّئه بمناسبة انتصاراته فى جبهة أربيلا (أربيل)، وامتثل سَرْدُور الثالث أمام الملك الآشورى باحترام "**كما يحيّى الابن أباه**"، حسب قول **آشور** بانيپال، وأنعم عليه العاهل الآشورى بلقب (عَشْتار دُورى)، وأقلّ ما يُفهم من تصرّف روسا الثانى- بحسب العرف السياسى- إزاء **آشور** بانيپال أنه كان عاجزاً عن التصدى له، وكان يداريه ويسعى إلى كسب ودّه[1].

ولما تولّى سَرْدُور الثالث الحكم فى أورارتو ساد الوئام بين دولتى آشور وأورارتو، وكان ذلك بسبب ضعف دولة أورارتو، وانسحابها من ميدان التنافس مع دولة آشور على الصعيد الإقليمى. ومرت دولة أورارتو بفترة مظلمة من تاريخها، وعُرف فى هذه الفترة أسماء ثلاث شخصيات، كان اثنان منهما يحملان لقب (ملك)؛ أولهما سَرْدُور الرابع (حوالى ٦٥٠ – ٦٢٥ ق.م) ابن سَرْدُور الثالث، والثانى روسا الثالث (حوالى ٦٢٥ – ٦١٢ ق.م)، أو (٦١٠ – ٥٩٠ ق.م)، وانكمشت مساحة دولة أورارتو انكماشاً كثيراً، وأضعفتها غزوات السِّكيث والآشوريين، وقبل أن تختفى من الوجود ظهر اسم آخر زعمائها، وهو روسا الرابع، (حوالى ٥٩٠- ٥٨٥ ق.م)، وصارت فى النهاية جزءاً من إمبراطورية ميديا[2].

وفيما يلى أسماء ملوك مملكة خلدى (أورارتو) التى وردت فى المصادر:

١. أرامى حوالى (٨٦٠ – ٨٤٣ ق.م).
٢. سَرْدُور (ساردور) الأول ابن لوتيپرى حوالى (٨٣٢ – ٨٣٠ ق.م).
٣. إشْپُوينى (إسپونى) بن سَرْدور الأول حوالى (٨٣٠ – ٨١٠ ق.م).
٤. مِينَوَا بن إشپوينى، حوالى (٨١٠ – ٧٨٥ أو ٧٨١ ق.م)، أعاد للشعب الخلدى هيبته.
٥. أَرْگِشْتى (أرجيشتش) الأول بن مِينَوَا، حوالى (٧٨٦ – ٧٦٤ ق.م).
٦. سَرْدُور (ساردور/سردورى) الثانى (٧٦٤ – ٧٣٥ ق.م).

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٦٦/٢ - ١٦٧.

٢ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم،٨٩/١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فــى التــاريخ، ١٢٩/٢، ١٦٧.

٧. رُوسا (روساس) الأول (حوالى ٧٣٤ – ٧١٤ ق.م)، ربما كان مؤسس أسرة ملكية جديدة.

٨. أَرْگِشْتى (أرجيشتش) الثانى (حوالى ٧١٤ – ٦٨٥ ق.م).

٩. رُوسا (روساس) الثانى (حوالى ٦٨٥ - ٦٥٠ ق.م).

١٠. سَرْدُور الثالث، معاصر للملك الآشورى آشور بانيپال Ashurbanipal (٦٦٨ ق.م- ٦٢٦ ق.م).

١١. سَرْدور الرابع (حوالى ٦٢٥ – ٦١٠ ق.م) ابن سردور الثالث.

١٢. رُوسا الثالث (حوالى ٦١٠ – ٥٩٠ ق.م)، شقيق روسا الثانى، اشتهر بنشاطاته المعمارية، ومنها بناء العنابر لحفظ الغلال.

١٣. رُوسا الرابع حوالى (٥٩٠ ؟ - ٥٨٥ ق.م)[١].

مملكة خلدي (أورارتو) حضارياً

أولاً- مظاهر الحضارة:

تفيد النقوش الوانية (نسبة إلى وان) المكتوبة بحروف آشورية مسمارية أن أعمال البناء، والأعمال الهيدروليكية بوجه خاص، كانت متقدمة ونشطة فى أورارتو، ومنها القناة التى تمّ حفرها فى عهد الملك الخلدى مِينَوَا (مينواس) للريّ، وكانت مياه القناة مستمدة من الينابيع الواقعة على حافة بحيرة وان، وكانت تروى مساحة بطول (٤٦ ميلاً = حوالى ٧٥ كم). وذكر وليام لانجر أنها ما زالت مستخدمة حتى الآن، وقد سُمّيت فى العهد التركى (شَمْرام صُو)، نسبة إلى الملكة الآشورية سميراميس، وكانت المياه تمر من خلال قنوات زُينت بـــ (١٧) نقش كتابى. وشيّد مَينَوا قنوات أخرى فى البلاد المفتوحة[٢].

---

١ - المعلومات الخاصة بملوك أورارتو مقتبسة من: جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التـــاريخ، ١٣٥/٢، ١٦٧. بونغارد- ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٥٢٧ – ٥٢٨. محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العـــراق القديم، ص ٣٧٢.

٢ - وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٧/١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٣٩/٢.

وأدّى ازدهار حركة البناء والتعمير فى عهد مِينَوا إلى إقامة الصهاريج الضخمة، لتأمين مياه الشرب، وحفر عنابر وسراديب لحفظ الغلال، وإعداد الأحواض لحفظ عصير العنب فى هذه السراديب. ومن المؤكَّد أن عدداً من المهندسين كانوا يرافقون مِينَوا فى حملاته العسكرية، ليشاركوا فى تعمير البلاد المفتوحة، إضافة إلى أنه كان مولعاً بالفن، وخاصة فى مجال الأعمال البرونزية، كما أن الخلديين اقتبسوا بعض مظاهر الحياة السياسية والعسكرية وفن الكتابة وحفظ الوثائق والأعمال الأدبية من الآشوريين[1].

لقد وصلت مملكة أورارتو فى عهد الملك أرگشتى الأول إلى قمة مجدها، فمن عاصمته تُوشْپا وضع هذا الملك يده على الطرق التجارية المهمة بين ميزوپوتاميا والهضبة الإيرانية، واستولى على مصادر المعادن فى كولخاى (كولخيس) ووادى نهر آراس، وكان هذا المحور يمتد أيضاً نحو كل من الأناضول فى الغرب والسهول الواسعة بشمالى سوريا فى الجنوب.

ويرجع الفضل فى زيادة الإنتاج الزراعى وتحسّن الأحوال الاقتصادية إلى فتح قنوات الريّ، وإلى شبكة من الأعمال المهمة والتنظيمات الدائمة لملوك أورارتو، وازداد نموّ الفواكه وأشجار العنب الذى حوّله الأورارتيون إلى خمور، وحفظوها فى جرار فخّارية، وفى مخازن وسراديب ضخمة مطمورة تحت الأرض، لأجل التصريف المحلى، أو لتصديرها إلى بلاد أخرى، وكان الملك أَرْگِشْتى الأول هو العقل المدبّر لهذا الازدهار الاقتصادى، ولبناء الحصون وحفر القنوات وإقامة الجسور، ولغيرها من الإنجازات الحضارية[2].

كما أن شعب خلدى أظهر استعداداً خاصاً فى الفنون الصناعية، وخاصة فى صناعة المعادن. قال بونغارد ليفين:

"توافرت لصناعة التعدين الأورارتية موارد خام محلية غنية، كالحديد والنحاس، والذهب والرصاص والقصدير وغيرها، وتشير المراجع الآشورية إلى المستوى الرفيع لتطور التعدين والنطاق الواسع لإنتاج المعادن فى أورارتو"[3].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٢٢/٢، ١٣١، ١٤٩، ١٦٣– ١٦٤.

٢ – المرجع السابق، ١٥٤/٢.

٣ – بونغارد– ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٥٣٢. وانظر عبد الحميد زايد: الشرق الخالـــد، ص ٥٨٠.

ثانياً- اللغة الخلدية:

بالنسبة إلى اللغة الخلدية- (الوانية) حسبما ذُكرت فى بعض المصادر- فإنها كانت لغة سكان كوردستان الوسطى والشمالية وقسم من أرمينيا، ولم تكن اللغة الخلدية لغة هندو أوربية (آرية)، بل انحدرت أصولها من اللغة الحورية، وكانت بينهما صلة قرابة، ورغم الاختلافات القليلة بين اللغتين، فإن اللغة الحورية تمثّل مرحلة متقدمة من اللغة الخلدية، وتشير النصوص التى دُوّنت بهذه اللغة إلى أن ناطقيها استعملوا الكتابة المسمارية التى استندت إلى الخط الآشورى الحديث، ويعود اكتشافها إلى الألواح المدوَّنة باللغتين الأورارتية والآشورية[١].

وبنى الأورارتيون لغتهم على الجذور القديمة للكلمات الحورية، ودخلت فى لغتهم مفردات سومرية عن طريق اللغتين الأكّادية والحورية، وقد فصّل الدكتور جمال رشيد أحمد القول فى بنية اللغة الخلدية، وفى خصائصها الصوتية، ومخارج حروفها، وأورد كثيراً من مفرداتها. ومن خصائص أسماء الأعلام والآلهة وظواهر الطبيعة عند الخلديين أنها تنتهى غالباً بصوت (A)، مثل (أكا، أتا، دادا، إيرمينا، خوخا، مينوا، روسا، تَيْشيبا). وإن الضمائر فى اللغة الخلدية تشبه فى الغالب مثيلاتها فى الحورية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأفعال[٢].

قال الدكتور جمال رشيد أحمد بشأن هوية اللغة الخلدية:

"لا تبقى سجلات ملوك أورارتو أىّ شك فى وجود العلاقة اللغوية بين الأورارتية (الخلدية) والحورية القديمة، وتبيّن تلك السجلات العلاقةَ الثقافية بين القبائل التى امتهنت الرعى والزراعة وتربية الموشى والخيول فى المناطق الجنوبية لبحيرة وان، ومنها قبيلة دِياوْخى التى نشأت الدولة الأورارتية فى وسطها وبين الخوريين الذين اندمج أغلبهم بالقبائل الميتّانية. ... ويرى كل من الروسى ميشتشانينوف I.I.Meshshaninov

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٢٢/٢.

٢ - لمزيد من المعلومات بشأن اللغة الخلدية انظر جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التــاريخ، ١٦٧/٢ – ٢٠٢.

واجـ ـرارتية عُرفت باسمين هما الوانية
(نسـ نا قريبتين من الخورية؛ إلا أنهما
تأثّر نلك المناطق بمرور الزمن"[1].

لوسطى والشمالية، وقسم من
أرمي فترة الواقعة بين القرنين التاسع
ونها م تكن اللغة الخلدية لغة هندو–
أور ا صلة قرابة، ورغم الاختلافات
الطف للغة الخلدية، وتشير النصوص
التى ممارية التى استندت على الخط
الآث

أورزانا ملك موصاصير أمام معبوده الكبير
الإله خلدي
فن كوردستاني من القرن الثامن قبل الميلاد

ـلدى/ آلْدى) كان الإله القومى
لشعـ الإله تيشيبا (إله الزوابع الحورى
تِشُّو الشمس)؛ وهذا دليل آخر، إلى
جانـ (خُورّى)، وكان نفوذ كل إله
فى قدَّم له[3].

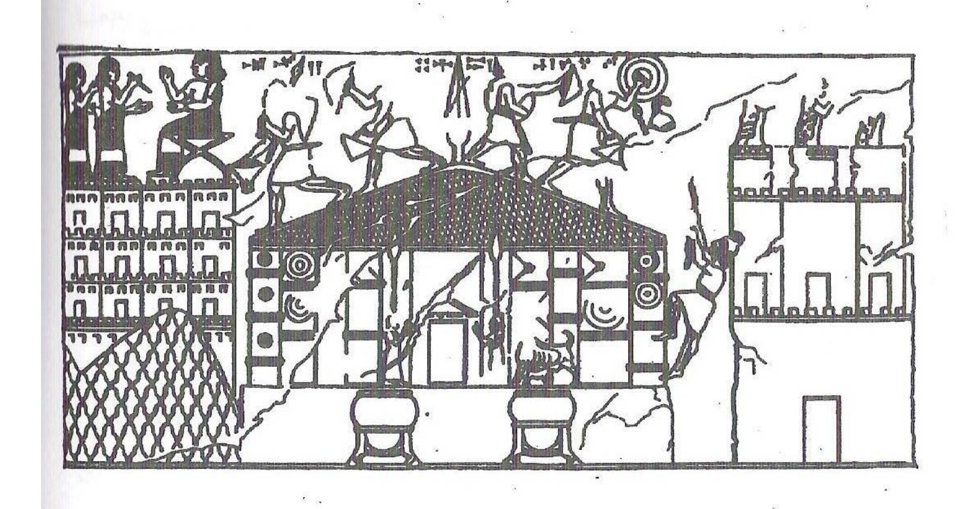
وكان ملوك خلدى حريصين على إجلال آلهتهم، ويظهر ذلك فى بعض الآثار الباقية، فقد أراد الملك إسپُونى (إشپُوينى) فى كتاباته على النصب أن يظهر بمظهر التقى الورع، إنه بنى معبداً رائعاً فى مدينة أردينى فى موساسير، وغمره بالعطايا والآنية والهدايا والنفائس الثمينة

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٦٣/١ – ١٦٤.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٢٢/٢.

٣ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٧/١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فــى التــاريخ، ١٣٩/٢، هامش (١٤).



جنود تغلات بلاصر الأول الآشوري
يحرقون ويدمرون وينهبون معبد مدينة أرديني (موصاصير)
عام ١١٠٠ ق . م .

والتروس والأسلحة، ومنحوتات كثيرة للحيوانات وتماثيل الملوك، ومنها تمثال الملک سَرْدُور (سَرْدُروى) وهو فى وضعية الصلاة، وبعد حوالى قرن غزا الملک الآشورى سرجون الثانى هذا المعبد، ونهب محتوياته[1].

ورغم التخريب الناجم عن الغزو، فإن نصب (كيله شين) ظل سالمًا، وإن كانت نصوصه قد أصابها العطب بفعل مرور القرون، وقد جاء فيها ما يلى:

"عندما حطّوا الرحال فى أردينى مدينة الإله آلدى (خالدى)، وعلى رأسهم إشْپُوينى بن سَرْدُور، الملک العظيم، ملک سورا وبياينا، سيّد توشْپا، ومِينَوَا بن إشپوينى، شيّدا معبداً للإله آلدى، شيّداه فوق منصّة عالية، وأقاموا فى داخله نصاً مكتوباً، وجلبا أسلحة جميلة، وتماثيل حيوانات رائعة، رايات وآنية نحاسية وفضية، جلبا حيوانات كثيرة (للتضحية)، ووضعا أشياء أخرى فى قاعة الإله آلْدى الأمامية، ومنحا الإلهَ آلْدى من أجل حياته البهية ١١١٢ ثوراً، ٩١٢٠ حَمَلاً وجَدْياً، ١٢٤٨ خروفاً. وعندما ألقى إشْپُوينى عصا التَّرحال فى مدينة أردينى، مدينة الإله آلدى، شيّد إشپوينى بن سَرْدُور، الملک العظيم، ملک سورا وبياينا، سيّد توشپا، هذا الحىّ إكراماً للإله آلدى، وبعد أن ألقى بالأشياء كلها فوق المنصّة أمام بوّابات الإله آلدى ساق حيوانات الذبائح خارج بوّابات الإله آلدى فى أردينى من أجل القربان.

وعندما حطّوا الرحال فى مدينة أردينى، مدينة الإله آلدى، وعلى رأسهم إشْپُوينى بن سَرْدُور ومِينَوا بن إشپوينى، قدّموا الذبائح إلى آلدى، وقالوا: إنّ كل من يُخرج تماثيل الحيوانات من بوّابات الإله آلدى، كلٌّ من يحتقرها، وكلٌّ من يساعد الآخرين على سرقتها، ولا يُخبره عنها، وتخرج الحيوانات بعيداً عن أَرْدينى، كلٌّ من يفعل ذلک، سيقضى الإله آلدى على ذرّيته على الأرض، وكلٌّ من يزيح هذا النُّصْب عن موضعه، وكلٌّ من يخرّبه، وكلٌّ من يساعد الآخرين على فعل ذلک، ستقضى الآلهة على ذرّيته فى الأرض، الإله آلدى، وإله الطقس، وإله الشمس، وكلّ آلهة أَرْدينى"[2].

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢/١٣٩- ١٤٠.

٢ - المرجع السابق، ٢/١٤٠.

وإلى جانب الإله خلدى (آلدى) كان ثمة آلهة آخرون فى المجمع الإلهى الخلدى، منهم الإله تَيْشيپا والإله شِيڤينى، وقد جاء ذكر هذه الآلهة فى نُصْب أقامه الملك مِينَوا بمناسبة القناة التى حفرها، جاء فيه:

"ببركة الإله خَلْدى بنى مِينَوا بن إشپوينى هذه القناة، وسمّاها (قناة مِينَوا)، وبعظمة خَلْدى أصبح مِينَوَا ملكاً مقتدراً، ملكاً عظيماً، ملكاً على بلاد بياينيلى، سيّداً على مدينة تُوشْپا، يقول مِينَوا: كلُّ من يُخرّب، كلُّ من يكسّر، أىُّ شخص يقتلع هذا العمل، أو يدّعى أنه صنع هذه القناة، فلْيُهلكْه خَلْدى وتَيْشيپا وشِيڤينى وجميع الأرباب"[1].

وبعد فترة حوّل الملك إشْپُوينى مركز عبادة الإله خلدى، باسمه واسم ابنه واسم حفيده إينُوشْپُوَا Inushpua إلى العاصمة توشپا فى منطقة وان، ليحلّ محلّ إله الشمس شِيڤينى الذى كان يشرف سابقاً على توشپا، وبهذا التحويل أعطى للإله خلدى مكانة الإله القومى، وأصبح خلدى رئيساً للمجمع الإلهى الأورارتى الذى كان يضم حوالى (٦٩) تسعة وستين إلهاً، وشُيّد له عدد من المعابد التى عُرفت بالبوّابات فى أرياو (اشتهرت فيما بعد بأربو) الواقعة فى جنوب شرقى مدينة وان، وفى أماكن أخرى. وأصبح الإله تَيْشيپا (أصله تيشُّوب، إله الحرب والصواعق الحورى) تابعاً لكبير الآلهة خلدى، وصار يُعَدّ فى مقام الشخصية الإلهية الثالثة فى المجمع الإلهى بعد خلدى وشِيڤينى[2].

وفى عهد الملك روسا الأول (٧٣٤ – ٧١٤ ق.م)، وبينما كان الملك مشتبكاً فى حرب ضد حكام القسم الشرقى من بحيرة سيڤان، شهدت بلاد أورارتو تحوّلاً دينياً جذرياً، إذ بدأ ملوك أورارتو يهتمّون بالإله تَيْشيپا أكثر من اهتمامهم بالإله خلدى، والدليل على ذلك أن الحصون الأورارتية جنوبى بحيرة سيڤان، والتى يرجع عهد إنشائها إلى تلك المرحلة فى تخوم قفقاسيا، لا تحمل أسماء الملوك، وإنما اشتهرت باسم الإله تَيْشيپا[3].

---

١ – المرجع السابق، ١٤١/٢.

٢ – المرجع السابق، ١٤٢/٢.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٦٢/٢.

٢

المانيون Mannea

الهوية والجغرافيا

لم نجد فى المصادر المتوافرة ما يزيل الغموض عن معنى اسم (ماناى)، لكن ثمة حقيقة ينبغى أن نأخذها فى الحسبان ونحن نبحث فى تاريخ أسلاف الكورد؛ ألا وهى أن أسماء معظم الفروع التى تكوّن منها الكورد- إن لم يكن جميعها- هى أسماء آلهة (كاشوّ، خورّو، خَلْدى)، أو أسماء جغرافية (گوتيوم، سوبارتو، ميديا)، وأحياناً أسماء لقبائل تسلّمت دفّة القيادة فى وطن أسلاف الكورد (لوللو، ميتّانى)، ويصدق الأمر نفسه على شعب ماناى، فهذا الاسم إما أنه اسم جغرافى، أو أنه اسم قبيلة كانت لها السيادة على بقية القبائل.

وقوم ماناى Mannea فرع آخر من أسلاف الكورد، وإلى الآن لم يُدرَس تاريخهم بشكل دقيق، وذلك بسبب قلّة ما بقى من آثارهم، ولعل السبب أيضاً أن الكتابات التى ترجع إلى ملوك ماناى لمّا تُكتَشف بعدُ، ولمّا تُكتَشف الحفريات الثرية فى المدن المانايية. وإن ما وصلنا من أخبارهم كان من خلال السجلات الآشورية والأورارتية، وخاصة السجلات التى ترجع إلى عهد الملك الآشورى سرجون الثانى Sargon11 (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، واشتهر ذكرهم لأول مرة فى النصوص الآشورية سنة (٨٤٣ ق.م) باسم (ماناى) Mannea، وتسمّى بلادهم (مانا، ماننا، مِننا، مَنناش)، وظهر اسمهم منذ بداية الألف الأول

ق.م فی جنوبی بحیرة أُورْمِیَه، ومنذ بدایة القرن التاسع إلى الثامن ق.م بدأت تظهر أسماء إیرانیة بین قوم ماننای[1].

وجاء ذکر قوم ماننای فی کتاب (العهد القدیم) بصیغة (مِنِّی) **"اِرْفَعُوا الرَّایَةَ فِی الأَرْضِ. اضْرِبُوا بِالْبُوقِ فِی الشُّعُوبِ. قَدِّسُوا عَلَیْهَا الأُمَمَ. نَادُوا عَلَیْهَا مَمَالِکَ أَرَارَاطَ وَمِنِّی وَأَشْکَنَازَ"**[2]. وانفرد دیاکونوف بأن سمّی بلاد ماننای باسم (میثانیا)– حسب الترجمة العربیة– ومن الواضح أن هذه الصیغة قریبة جداً من اسم (میتانیا)، ولا ندری السبب فی أخذ دیاکونوف بهذا الاسم، مخالفاً بقیة المؤرخین، مع أنه یذکر أن الکتابات الأورارتیة تطلق على (میثانیا) اسم (ما– نی– آبانی)، وأن الآشوریین کان یسمّونها (مات ماتنانی)، وثمة أمر آخر یلفت الانتباه فی حدیث دیاکونوف عن ماننای (میثانیا حسب تسمیته)؛ ألا وهو أنه یَعُدّ ماننای جزءاً من بلاد میدیا، ویَعُدّ قوم ماننای جزءاً من (اتحاد أقوام میدیا)[3].

ویرى بعض المؤرخین أن ماننای هم من العائلة التی اصطلح على تسمیتها Zagro-Elamite، وهم أقرباء الگوتیین واللوللوبیین، واختلطوا بالحوریین، وذکر الدکتور جمال رشید أحمد أن سکان بلاد ماننای کانوا یتألفون من قبائل رعویة مستقرة، ذات لهجات متباینة بعض الشیء، وینحدرون فی الأصل من الگوتیین واللوللوبیین والحوریین، وأنهم تأثروا تدریجیاً بالمیدیین، ویستفاد من السجلات الآشوریة أن دولة آشور لم تکن تتعامل مع شعب ماننای کوحدة سیاسیة یحکمها ملک واحد، وإنما کانت منقسمة إلى مقاطعات کبیرة وصغیرة، عُرفت کل واحدة باسم معیّن، وحکمها ملکٌ مستقل، وظهرت بین سکان هذه

---

١ – عبد الحمید زاید: الشرق الخالد، ص ٣٦٢ – ٥٦٣. جمال رشید أحمد: ظهور الکورد فی التاریخ، ٤٩٣/١. دیاکونوف: میدیا، ص ١٤٣، ١٦٧.

٢ – العهد القدیم، سفر إرمیا، الأصحاح ٥١، الآیة ٢٧.

٣ – دیاکونوف: میدیا، ص ١٤٣، ١٦٧.

المقاطعات بعض الأحيان علاقات متنوّعة، وكانت كل هذه المقاطعات تسمّى عند الآشوريين بـــ (ماننای)[1].

وكانت مملكة ماننای تقع جنوبى بحيرة أُورميه، وجاء ذكرها أول مرة فى النصف الثانى من القرن التاسع ق.م، وكانت عاصمتها إسيرتا (إيزِرْتا) Isirta، وهى تقع على بعد (٥٠) كم شرقى مدينة ساكّز (سَقِز) Sakkez حالياً، وكانت بلاد ماننای تشمل المدن الكوردية فى شمال شرقى إيران حالياً، ومنها مَهاباد وسَقِز وشُنو (أشْنُويَه)، ووصلت بلاد ماننای أحياناً إلى نهر آراس على حدود القفقاس، وكانت ماننای تشمل أغلب مرتفعات زاغروس الوسطى والشمالية المجاورة لمملكة آشور، أما حدود ماننای الشرقية فكانت بعيدة عن آشور، وكانت بلاد ماننای تحيط ببحيرة أُورميا من جهة الشرق.

وظهر فى النقوش أسماء مقاطعات مانناييه، منها مِيسّى Missi، وأُويشديش، وزيگُورْتو، وكوموردو. ويبدو من السجلات الآشورية أن ميسّى (لعلها ميسياندا، وتسمّى Mesaya/Messi) كانت تقع شمالى كَرْمَنْشاه، قرب المنطقة الجبلية قرب بحيرة زَرِيبار، شرقى شَهْرَزُور، وهى مِصُو الحالية شمال غربى بَنْجَوِين، وهذا يعنى أن بلاد ماننای كانت تصل إلى المناطق الشمالية من منطقة هَوْرامان (فى كوردستان الجنوبية)، وفى شمالى ميسّى كانت تقع مقاطعة سوريكاش (حوالى بانَه). أما مقاطعة أويشديش فكانت تقع شمالى مقاطعة سوريكاش، وتجاور حدود أورارتو، وكانت مملكة أورارتو تستقطع بعض أجزائها. أما مقاطعة زيگورتو فكانت تحدّ مقاطعة أويشديش[2].

وبلاد ماننای جبلية، مثل معظم بلاد أسلاف الكورد، يجرى فيها نهرا تَتڤو وجَغْتو، وتقع فيها المدن الكوردية المعاصرة (مَهاباد، وسَقِز، وشُنو)، والأراضى المحيطة ببحيرة أورميه (أرمايد، أو أورميتا القديمة)، وكانت إيزِرْتو عاصمة مملكة ماننای، وقد سجّلها الملك الآشورى شَلْمانَسَر الثالث Shalmaneser 111 (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) بصيغة (زِرْتا)، ومن

---

١ - عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٣٦٢ - ٥٦٣. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٩٣/١، ٤٩٥.

٢ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٩٦/١ – ٥٠٠. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٣٦٢ - ٥٦٣.

أشهر مدنها (زيبيا)، وسجّلها الملك الآشورى آشور بانيپال Ashurbanipal سنة (٦٦٨ ق.م- ٦٢٦ ق.م) بصيغة (أوزيبا)، وتسمى بالكوردية (زَيوِيَه). وثمة مدينة أخرى تسمى (ميسى/ميسا)، وهى تسمى بالأورارتية (ميستا)، وكانت تقع على بعد (١٢.٥) ميلاً شمال غربى مدنية مِيانْدواو الحالية[١].

وقد ورد ذكر ماننای فی كتابات خمسة من ملوك أورارتو، وأشهر تلك الكتابات نُصب (تاش تَپَه) قرب مياندواو، وهو الموقع الذى كان أصلاً مستوطنة مانناییة احتلها الأورراتیون، كما وردت أخبار ماننای فی سجلّ الملك الأورارتى أرگشتى الأول، الذى يتكلم فيه عن احتلاله لأراضيها التى كانت تحدّ مناطق النفوذ الآشورى، وهذا يعنى أنه كانت توجد حينذاك مقاطعة مانناییة أخرى تقع فى الجنوب، وتدار من قِبل الآشوريين[٢].

وأجمل الدكتور جمال رشيد أحمد مناطق ماننای بقوله:

"**يمكننا أن نشير في النهاية إلى أن بلاد المانناييين كانت تبدأ جنوباً من بلاد بارْسُوا** [= بلاد فارس] **إلى بلاد الأُورارتيين فى الشمال، وتجاور زامُوا وآشور فى جهاتها الغربية. أما شرقاً فلا يمكننا تحديد حدودها. وبكلمة أخرى، فإن الأراضى الواقعة بين بحيرة أُورميه شمالاً وحتى بحيرة زَرِيبار قرب مَرِيوَان جنوباً، كانت تدخل ضمن بلاد ماننا، وشكّلت سلسلة زاغروس جهاتها الغربية**"[٣].

وأكد الدكتور عبد الحميد زايد أن مملكة ماننای: "**هى حالياً كوردستان الإيرانية، إلى الجنوب من بحيرة أورميه**"[٤].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٨٥/١.

٢ – المرجع السابق، ٥٠٠/١.

٣ – المرجع السابق، ٤٨٦/١، ٥٠٠.

٤ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٧٨.

أوضاع ماننای السیاسیة

خلال القرن التاسع ق.م، كانت ثمة أربع قوى سياسية متنافسة في مناطق زاغروس، والمناطق المتاخمة لها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، تلك القوى هي آشور، وأورارتو، وماننای، وعيلام، وكانت مملكة ماننای تتاخم مملكة أورارتو في الشمال والشمال الغربي، وتتاخم مملكة آشور وبلاد زاموا (موطن لوللوبی) في الجنوب، وكانت أجزاء من مملكة ماننای ميداناً للحروب بين آشور وأورارتو، وكانت كل دولة منهما تعمل لبسط سيطرتها على ماننای.

وخلال عام (٧٨٠ ق.م) وما تلاه من حكم ملك أورارتو أرگيشتی الأول (٧٨٦ – ٧٦٤ ق.م)، كانت ماننای تقع تحت نفوذ مملكة أورارتو، ولم يمض وقت طويل حتى استقلت ماننای عن أورارتو؛ إذ مع نهاية القرن الثامن ق.م، بدأ بعض حكام أقاليم ماننای الخاضعة لمملكة أورارتو بالعصيان على الملك الأورارتی روسا الأول، وتحالفت معهم مملكة آشور، وحينما توسّعت حدود مملكة آشور، تداخلت حدودها مع حدود مملكة ماننای، وخاصة بعد أن بسط الآشوريون سيطرتهم على زاموا (موطن اللوللوبيين)، وكانت سُمّيت (ماننای)، بسبب زعامة المانائيين السياسية على الاتحادات القبلية في هذه البلاد[1].

وحوالي عام (٧٢٠ ق.م) كان أقصى الشمال من بلاد ماننای (أطراف بحيرة أورميه) تحت سيطرة أورارتو، أما المناطق الأخرى (منطقة أذربيجان الإيرانية حالياً) فكانت تحت سيطرة إيرانْزو ملك ماننای بصورة مباشرة تارة، وغير مباشرة تارة أخرى، وكانت ثمة ممالك صغيرة تقع على حدود بلاد إيرانزو، وتتبع ماننای مع استقلال نسبي، وكانت تشكّل خطورة على ماننای، وتلك الممالك الصغيرة هي أوئيش ديش قرب منطقة مَراغَه الحالية، وزيكيرتو في منطقة ميانا (أربيل الحالية)، وأنديا في الجنوب من نهر قِزِل أُوزُون (النهر الأبيض)، وكانت هذه الممالك الصغيرة وغيرها تميل إلى جانب ماننای حيناً، وإلى جانب آشور حيناً آخر[2].

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٤٨٤/١، هامش (٨٩). دياكونوف: ميديا، ص ١٦٤.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ١٩٦ – ١٩٧.

وكانت ماناى قد ازدادت قوة فى عهد الملك إيرانْزو، لكن الممالك شبه المستقلة حولها كانت تحاول نيل استقلالها التام، وكان النبلاء والزعماء فى تلك الممالك والمناطق يرغبون فى أن يكونوا هم الحكام فى مناطقهم، وكانت هذه الرغبة وراء عدم تأسيس دولة موحدة قوية، ونجاح ملوك آشور وأورارتو فى السيطرة على أجزاء كثيرة من ماناى، وبتعبير آخر: إن رغبة النبلاء والزعماء المحليين فى حكم مناطقهم على نحو مستقل، وعدم وجود مناخ سياسى لتكوين دولة مركزية موحَّدة، كان السبب فى بقاء ماناى ضعيفة فى مواجهة الأطماع الخارجية القادمة من آشور وأورارتو[1].

ويبدو أن العلاقات كانت قد تحسّنت بين إيرانْزو ومملكة آشور، فقد بعث الملك الآشورى سرجون الثانى Sargon11 (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) بعض الفرق من جيشه لمساعدة إيرانْزو، واحتل الجيش الآشورى بعض القلاع، وأخذ سكانَها أسرى وسلَبَ أموالهم، وسلّم القلاع لإيرانْزو، وحدث ذلك فى أواخر حياة إيرانْزو، وكان شيخاً طاعناً فى السن. وبعد وفاته عام (٧١٦ ق.م) تفاقمت التراعات بشدة بين أبنائه على العرش، واعتلى العرش ابنه آزا، فقاد مجموعةٌ من حكام المقاطعات انتفاضةً ضد آزا، وأبرزهم متّانى حاكم زيكيرتو، وآسينا حاكم أنديا، وبَكْداتو حاكم أوئيش ديش، وكانت التهمة الموجّهة ضد آزا هى أنه عقد معاهدة تحالف وتعاون مع سرجون الثانى ملك آشور[2].

وقبض المنتفضون على آزا، وقتلوه ورموا بجثته من جبال أداأوش، لكن سرجون الثانى قضى على الثورة، وألقى القبض على بَكْداتو حاكم أُوئيش دِيش، وأمر بسلخ جلده حياً، ويبدو أن بَكْداتو كان الحاكم الأكثر فاعلية فى قيادة الانتفاضة ضد آزا، وجلس الابن الآخر لإيرانْزو على عرش ماناى، ويدعى أُولوسُوتو[3].

ورغم ظروفه الصعبة، حاول أُولوسُوتو الخلاص من قبضة الآشوريين، وانفصل عن آشور، وعقد اتفاقاً مع روسا الأول ملك أورارتو، وسلّمه (٢٢) قلعة، وفى الوقت نفسه حرّض حكامَ مناطق شمالى الزاب الأسفل على الوقوف ضد الآشوريين. لكن سرجون الثانى هاجم

---

١ - المرجع السابق، ص ١٩٧.

٢ - المرجع السابق، ص ١٩٨ – ١٩٩.

٣ - المرجع السابق، ص ١٩٩.

مانناى، واحتل بعض القلاع المهمة فيها، وسلخ جلد أحد حكامها وهو حيّ، وكانت تلك عادة يتّبعها حكام آشور فى قمع الثائرين عليها، واحتل العاصمة إيزيرْتو أيضاً، وسلّم أولوسوتو نفسه له، فأبقاه ملكاً على عرش ماننا[١].

ورغم الحروب المتكررة بين آشور وأورارتو فى بلاد ماننا، حافظت مملكة ماننا على شخصيتها السياسية المتميّزة، وفى عهد الملك الآشورى سرجون الثانى Sargon11، كانت لمملكة ماننا مكانة بارزة-سياسياً وحضارياً- بين الممالك المحلية التى نشأت فى جنوبى بحيرة أُورميه، وشرعت تصارع الأزمات التى نشأت من حولها، وواجهت الصراعات السياسية والعسكرية التى كانت تدور بين مملكتى آشور وأورارتو، واتّخذت مواقف مستقلة حسبما تقتضى مصالحها، وحينما تحالف زعماء قبائل زيكَيرتو الميدية مع مملكة أورارتو، ووقفوا ضد مملكة ماننا، تحالف المانناى مع مملكة آشور للقضاء على أعدائهم[٢].

ولما هزمت مملكة ماننا قبائل زيكَيرتو عام (٧١٤ ق.م)، عظم شأنها، وبدأ العصر الذهبى لشعب ماننا منذ عام (٧١٤ ق.م)، إذ تمكّنوا من ضمّ الأراضى الواقعة على نهر آراس (آراكس) شمالى بحيرة أورميا، ووصل نفوذهم فى الغرب إلى نهر الزاب الكبير (الأعلى) شمالى أربيل. وبعد أن وحّد المانناى مقاطعات سِنَه وسَقِز ومُوكريان، شرعوا يضمّون المقاطعات الواقعة بين بحيرة أُورميه ونهر آراس إلى مملكتهم، وهذا يعنى أن دولة ماننا ضمّت أغلب المناطق الكوردية فى شمال غربى إيران حالياً، إضافة إلى قسم من المناطق الكوردية فى جنوبى كوردستان ، وفرض عليها موقعها الجيوسياسى أن تدخل فى صراع على محورين: صراع ضد مملكة أورارتو، وصراع ضد مملكة آشور[٣].

ومع بداية القرن الثامن ق.م ظهر ملوك أقوياء ذوى طموح فى دولة أورارتو، ووقفوا ضد التوسع المانناى والآشورى معاً، فشنّوا الحملات العسكرية على مناطق نفوذ مملكة ماننا، واستطاع الملك الأورارتى مِينَوا (مينَواس) السيطرة على مناطق أعالى نهرى دجلة والزاب الكبير، كما أنه سيطر على بعض المناطق التابعة لماننا فى جنوبى بحيرة أُورميه، ومنها

---

١ – المرجع السابق، ص ١٩٩.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٨٤/١، هامش (٨٩).

٣ – المرجع السابق، ٤٨٦/١.

منطقة شُنُو (أُشْنُو) الحالية، واستطاع كل من إشْپُويني وابنه مِيَنوَا تأسيس إمبراطورية على حساب مملكتى ماننای وآشور، وكانت مساحتها توازى مساحة إمبراطورية آشور[1].

ومن المهم جداً ألا نُسقط من حساباتنا أهمية طريق الحرير التجارى العالمى فى تلك الصراعات، إنه كان يأتى من أگباتانا (هَنْگمتانا/هَمَذان) فى الجنوب، ويخترق دولة ماننای شمالاً، ويمر بمدينة رَغَه (الرَّى، قرب طهران حالياً)، ثم يتوجّه شرقاً نحو وسط آسيا، وكان ملوک أورارتو وآشور يسعون للسيطرة على ذلک الطريق، إضافة إلى أطماعهم فى موارد مملكة ماننای الزراعية والحيوانية والمعدنية.

وعلى العموم صارت مملكة ماننای هدفاً لكل من أورارتو وآشور، وكان عليها أن تدفع ثمن تنافس الدولتين عليها، وكانت كل دولة تحاول إلحاق مملكة ماننای بنفوذها، وقدمت مملكة ماننای، عن طريق ملكها أولوسوتو، ونيابة عن الممالک الصغيرة فى المناطق المحيطة بها، عدّة هدايا إلى سرجون الثانى، وتابع سرجون الثانى حملاته فى المناطق الميدية المجاورة لمملكة ماننای، مستمراً فى عمليات السلب والنهب، وبدأت المفاوضات بين أولوسوتو وسرجون الثانى بشأن تجهيز حملة ضد أورارتو، واسترجاع الأراضى المحتلة من ماننای، وخاصة السواحل الشرقية من بحيرة أُورميه، التى كانت أورارتو احتلتها سابقاً، وأقيمت هناک حفلة على شرف الملک الآشورى، وقُدّمت له الهدايا، وسبقت الإشارة إلى ذلک فى مبحث (الخلديون).

ونفّذ سرجون الثانى وعده، وسار بجيشه نحو الحدود الجنوبية من جهة الجنوب الشرقى لماننای، للقتال ضد روسا الأول ملک أورارتو، فتوجّه فى البداية إلى زيگيرتو، وهناک استخدم قلعة يانزيش كمركز تموين لجيشه. أما متانى حاكم زيگيرتو فإنه أفرغ قلعته، ولجأ إلى جبال آواش ديرتكو، وتحصّن هناک، وأرسل بسرعة قوة من جيشه إلى روسا الأول لمساعدته، وعلم روسا الأول بنوايا سرجون الثانى، فتحرک بسرعة من الغرب، ليفاجئ جيش سرجون فى منطقة قزوين- زيگيرتو من الخلف، وألحق به الهزيمة[2].

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٨٨/١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالــد، ص ٥٦٢-٥٦٣.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ٢٠٥.

وكان سرجون الثانى قد سلب ودمّر جميع مراكز الحماية والتحصين التى أقامها ميتانى الميدى حاكم زيگيرتو فى جبال آواش ديرتكو، ودمّر (١٣) قلعة تابعة لزيگيرتو، وفجأة غيّر اتجاهه نحو الغرب، متوجّهاً إلى ولاية أوئيش ديش التى كانت تابعة لمملكة ماننای سابقاً (فى منطقة مَراغَه الحالية)، وكان أحد الجواسيس قد أخبر الجيش الآشورى بقرب وصول جيش روسا الأول وحليفه ميتانى الميدى حاكم زيگيرتو، فألحق الهزيمة بقوات الحليفين، وطاردهما حتى أراضى أورارتو، وبسط سيطرته على المناطق التى كان روسا الأول قد احتلها، وسلّم القلاع التى احتلها إلى أولوسوتو، وفى عام (٧١٤ ق.م) قدّم أولوسوتو الجزية مرتين إلى الآشوريين، لكن بعد عام (٧١٣ ق.م) لا نسمع شيئاً عن الجزية والضرائب والهدايا، حتى إن ماننای تشجّعت إلى درجة الهجوم على الأراضى التى كان الجيش الآشورى قد احتلها[١].

وخلال عهد الملك الآشورى آشور بانيپال Ashurbanipal سنة (٦٦٨ ق.م- ٦٢٧ ق.م) غزا شعب السكيث أرض ماننای، قادماً من شمالى البحر الأسود، واستقر فى الجهات الجنوبية من بحيرة أُورميه، قرب مدينة سَقِز، وصار السكيث شوكة فى خاصرة دولة ماننای؛ إذ تحالفوا مع الآشوريين، وألحقوا الفشل بجهود المانناييين لتحرير أنفسهم من الاحتلال الآشورى.

وخلال عامى (٦٦٠ – ٦٥٩ ق.م)) تعقّدت الأمور بدرجة كبيرة فى مملكة ماننای، وأدّت إلى قيام انتفاضة شعبية ضد السلطة الحاكمة فيها، وكان من نتائجها مقتل الملك أخْشيرى (أخْسيرى)،كما التجأ ابنه الملك أُوالى إلى الآشوريين لمساعدته فى الرجوع إلى الحكم فى بلاده مقابل دفع إتاوة سنوية معيّنة لهم، وأصبحت دولة ماننای حليفة للآشوريين، واشتركت معهم فى الوقوف أمام الدولة الكلدانية (البابلية الحديثة) فى بابل، ثم الدخول فى صراع معها[٢].

وفى الوقت الذى كانت تدور فيه الصراعات بين آشور وأورارتو وماننای، كانت ميديا تظهر كقوة سياسية جديدة، وتفرض نفسها على صنّاع القرار فى المنطقة، ففى سنة (٧١٤ ق.م)، وبينما كان سرجون الثانى يعود إلى آشور ومعه الأسلاب والغنائم من بلاد ماننای، كان الزعيم الميدى دَهْيَوْكو Dahyâ-ukku(دَياكو/دَياوكو/دَيوكو) يوحّد صفوف القبائل

---

١ – المرجع السابق، ص ٢٠٨.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٦٥. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٩٢/١ – ٤٩٣.

الميديين، من هَنْگمَتانا (أگباتانا، عاصمة مملكة ميديا مستقبلاً)، وكان يهمّ الميديين أن يبسطوا نفوذهم على مانناى، وعدم تركها لقمة سائغة بين أيدى ملوك آشور، ويبدو أن القرابة الإثنية بين الميديين والمانين لعبت دورها؛ إذ كان شعب مانناى أميل إلى الميديين، بل إن القائد الميدى **دَياكو** وضع نفسه- فى مرحلة من المراحل- تحت حماية سلطة مانناى، خلال الأعوام (٧٣٧ – ٧١٩ ق.م)، لينجو من مضايقات دولة آشور.

وبعدئذ قاد دَياكو انتفاضة ضد سياسة التوسع الآشورى فى ميديا والمناطق المتاخمة لها فى مانناى، لكن القوات الآشورية تغلّبت عليه، وقبضت عليه عام (٧١٢ ق.م)، ونفته إلى مدينة حَماه فى سوريا، وتابع ابنه خَشْتريت مسيرة والده، وتزعّم اتحاد القبائل الميدية فى مناهضة التوسع الآشورى، وسنتناول ذلك بالتفصيل فى المبحث الخاص بالميديين[1].

وكان من الطبيعى أن تتأثر مملكة مانناى بنهوض ميديا، وتتعرض للخطر الميدى القادم من الشرق والجنوب، وخاصة فى عهد دَياكو وخَشْتريتا. وكان المانايون قد أحرزوا سلسلة من الانتصارات على الآشوريين قبل أن يتحالفوا معهم، لكن انضمام قبائل السِّكيث إلى الآشوريين بين عامى (٦٧١ – ٦٧٠ ق.م)، عقّد الأوضاع السياسية والعسكرية فى مانناى، وخاصة عندما بدأت قبائل السكيث تتغلغل فى أراضى مانناى من الشمال، ودخول الميديين إليها من الجنوب.

وحوالى عام (٦٦٠ – ٦٥٩ ق.م) تعرضت مملكة مانناى المتحالفة مع الثوار الميديين إلى الهزيمة أمام الآشوريين، وسقطت حصون زَيوِيَه Ziwiyé، ونُهبت البلاد، وازدادت الحالة سوءاً، فثار الشعب، واغتيل الملک، وطلب ولده وخليفته معاونة آشور بانيپال ضد شعبه، ويبدو أن الملک الآشورى لم يكن راغباً فى معاونة رجل مهزوم، وترک أمره لحلفائه السكيث، فاحتل السكيث بلاد مانناى، واتخذوها بعدئذ قاعدة للهجوم على ميديا، وفرْض

---

١ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٨٩/١. يسمّى خَشْتريت بالميدية (خِشَثريتا)، ويعنى الملک، وسُمّى بالآشورية (كشتريتا)، وذكره هيرودوت بصيغة (كياكسارس) Cyaxares و (فراوُرْتيس) Phraortes.

سلطتهم على الميديين، كما أنهم انطلقوا منها لغزو آسيا الوسطى، واسم مدينة Sakkez الحالية مشتق من التسمية القديمة Sakka أو Secyths[1].

وبعد صراعات متتالية فى منطقة زاغروس، وفى إطار المشروع الميدى لتوحيد جميع أسلاف الكورد ضد التوسع الآشورى، سيطر الميديون على مملكة ماننای بدون قتال، وهذا يعنى أنه كان فى كل من ميديا وماننای مناخ اجتماعى وثقافى متجانس إلى درجة كبيرة، هيّأ لأن يندمج الشعبان معاً فى إطار تكوين سياسى واحد، وخلال أعوام (٥٩٠ – ٥٨٠ ق.م) أصبحت بلاد ماننای جزءاً من الإمبراطورية الميدية، وأصبحت تسمى (ميديا الأتروبانية)[2].

أوضاع ماننای الحضارية

ذكر دياكونوف أن مملكة ماننای أصبحت، من الناحية الحضارية والمدنية والاقتصادية، نواة لتأسيس الإمبراطورية الميدية فى القرن السادس ق.م، وبحسب المصادر الآشورية عاشت ماننای حياة رفاهية بين (٧٤٣ – ٧٢٠ ق.م)[3].

لقد اشتهرت دولة ماننای بمراعيها وبتربية الحيوانات، بما فيها المواشى والخيول والحمير وأحياناً الجمال ذات السِّنامين، كما أن دولة ماننای اشتهرت بزراعة الحبوب، وذاعت شهرة الحنطة الماننايية (المننية)، وعلى سبيل المثال، فى عام (٧١٤ ق.م)، حينما جهّز سرجون الثانى حملات عسكرية على أورارتو، كانت ماننای تتكفّل بتقديم الطحين والغذاء الجنود الآشوريين.

ويبدو من خلال المكتشفات الذهبية والفضية والنحاسية والحديدية، فى مناطق جنوبى بحيرة أورميه، أن صناعة المعادن فى المدن الماننايية كانت متقدمة، وتشير فنون هذه الصناعة إلى المستوى الرفيع لثقافة الطبقة الأرستقراطية، وهى تضاهى أحياناً الفنون الأورارتية والآشورية، وقد اكتُشف كنز كبير فى زيزى (قرب مدينة سَقِز الحالية)، يعود إلى القرن التاسع ق.م، ويظهر من خلال هذا الكنز مدى إبداع الأساتذة فى فن الحدادة حينذاک[4].

---

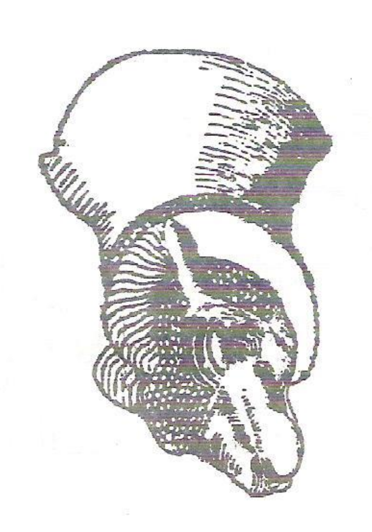
١ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٧٨، ٥٩٣.

٢ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٩١/١ – ٤٩٣. دياكونوف: ميديا، ص، ١٦٦، ١٩٧.

٣ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٩٤/٢. دياكونوف: ميديا، ص ١٤٣.

٤ – جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٩٤/٢.

السا
والمجـ
قامو
مع
وكا
ماننا
أفراد



كأس فخاري في شكل رأس للمشروبات
صنع ميتاني القرن الثامن قبل الميلاد

لقَبَلية هى
ب الدول
ى ماننای
، وتعاونه
با القديم،
م مواطنى
كامل بين

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ١٦٧.



عمل فني ذهبي من زيويه (القرن السابع ق. م.)

متحف طهران

منظر يبين الحياة العادية في مانناي (حسانلو)

متحف طهران

وثمة ما يؤكد أن النظام السياسى فى ماننای ما كان يقوم على الاستبداد ومركزية السلطة، وإنما كان أشبه بالنظام الديمقراطى الذى عُرفت به دولة- مدينة أثينا فى بلاد اليونان؛ إذ كان يوجد فى ماننای مجلس أشبه بـــ (مجلس الشيوخ)، يتألف من كبار القادة والزعماء، والأرجح

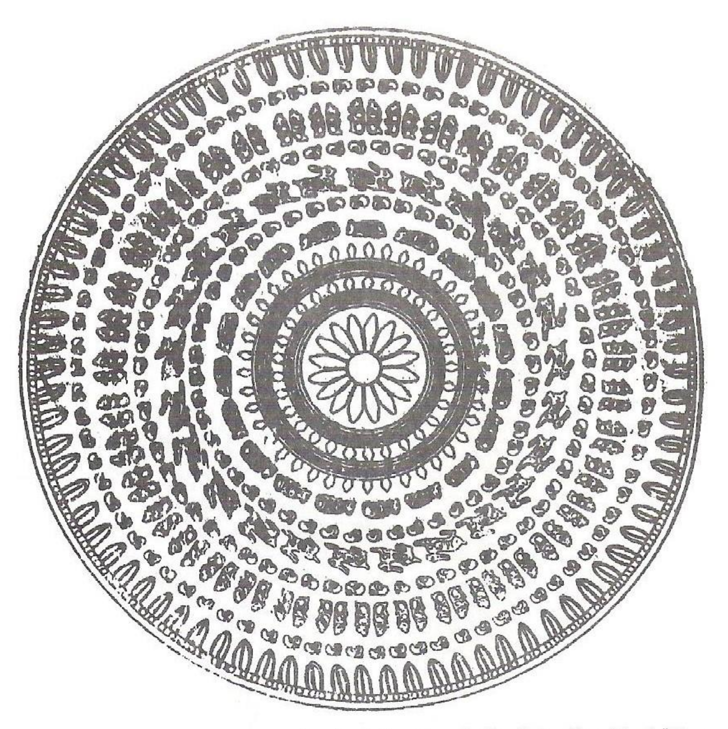
نموذج من الكتابة المانية على صحن ذهبي
يعود إلى بداية الألف الأول ق . م .
أكتشف في موقع زيويه
بكوردستان الشرقية

---

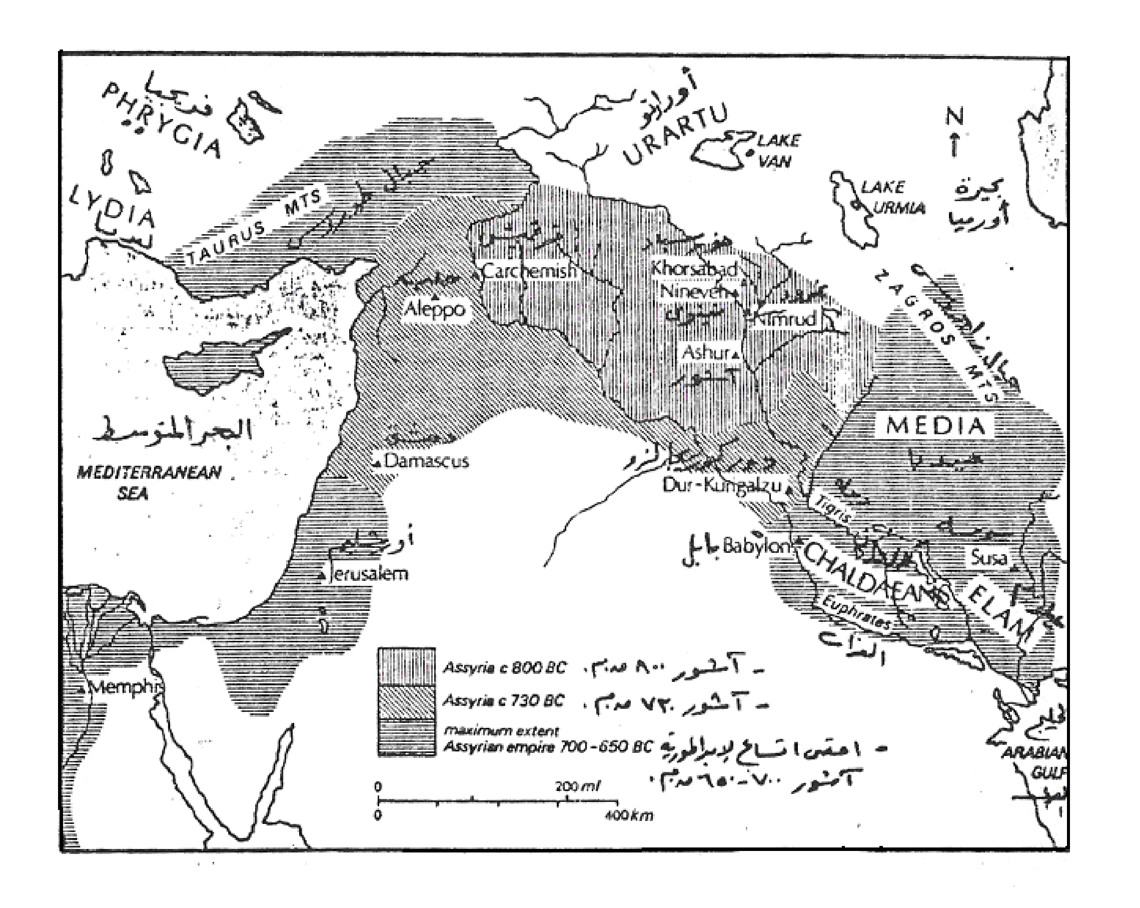
١ - المرجع السابق، ص ١٦٧ — ١٦٨.

٢ - المرجع السابق، ص ١٦٨.

٣ - المرجع السابق، ص ١٦٩.



صينية قهوة ذهبية صناعة ميثانية من القرن الثامن قبل الميلاد


PHRYGIA
فريجيا
LYDIA
TAURUS MTS
URARTU
أورارتو
LAKE VAN
LAKE URMIA
بحيرة أورميا
N
ZAGROS MTS
MEDIA
Aleppo
Carchemish
Khorsabad
Nineveh
Nimrud
Ashur
البحر المتوسط
MEDITERRANEAN SEA
Damascus
Dur-Kurigalzu
Tigris
Babylon
بابل
Jerusalem
CHALDAEANS
ELAM
Susa
Euphrates
الفرات
Memphis
ARABIAN GULF
Assyria c 800 BC
- آشور ٨٠٠ ق.م.
Assyria c 730 BC
- آشور ٧٣٠ ق.م.
maximum extent Assyrian empire 700 - 650 BC
- اقصى اتساع لإمبراطورية آشور ٧٠٠-٦٥٠ ق.م.
0
200 ml
400 km

٣

الميديون Medes

الميد وميديا

كلمة (ماديون/ميديون) هى باللغة الآشورية (ماداى) Medai، و(أماداى) Amadai، و(ماتاى) Matai، أما بالعيلامية فهى (ماتا- په) Mata- pe، وبالعبرية القديمة (ماداى)، وبالفارسية القديمة (مادا) Mada، وأما باليونانية القديمة فهى (مادُوى/ميدوُى) Madoi، Medoi، وبالأرمنية القديمة (مار-ک) Mar-k، وبالبارثية (الأشگانية) (مات) Mat، وكان البابليون فى الأيام الأخيرة يلقّبون الميديين بـــ (أومان- ماندا)[١].

وفى الأصل لم يكن اسم (ميد، ماد) خاصاً بشعب أو بقبيلة، وإنما كان اسماً جغرافياً أطلقه السومريون ثم الآشوريون على المنطقة التى استقر فيها أسلاف الكورد منذ فجر التاريخ؛ نقصد فروع: لوللو، وگُوتى، وكاشُّو، وسُوبارْتو، ومِيتّانى، ومانناى، وخَلْدى (أُورارْتو)، وكوردوخى، لكن ما وحّد صفوف هذه الفروع جميعها خلال القرن السابع ق.م، وصنع منها تكويناً اجتماعاً وثقافياً وسياسياً متجانساً، هو الاتحاد الميدى المكوّن فى الأصل من ستّ قبائل.

وذكر دياكونوف، تحت عنوان "**مظاهر أصل شعوب ميديا ألف عام قبل الميلاد**"، أن التكوين العرقى لأقوام أرض ميديا، من الألف الثالث إلى بداية الألف الأول ق.م، بقى دون أى تغيير يُذكر، وأولئك الأقوام- حسب دياكونوف- هم الماننايون فى منطقة بحيرة أورميه،

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٨٣، ١٤٦. باسيلى نيكيتين: الكورد، ص ٥٣.

واللوللوبيون فى غربى زاغروس، والگوتيون فى شرقى اللوللوبيين، والكاشّيون فى الجنوب الغربى، والحوريون المنتشرون فى معظم مناطق زاغروس، ومنذ بداية الألف الأول ق.م انضم عنصر آرى جديد، عُرف بالميديين، إلى هذه الأقوام القديمة، قادماً من آسيا الوسطى، ويُفهَم مما أورده دياكونوف أن الغلبة على الصعيد السياسى والثقافى كانت للوافدين الجدد، فطبعوا بقية أقوام ميديا بطابعهم من حيث اللغة خاصة، وفى معظم الميادين الثقافية عامة[1].

وقال دياكونوف فى هذا الصدد:

"قبل استيطان الناطقين بالإيرانية القديمة، كان هناك أناس عاشوا فى تلك المواقع، وإن اللغة الإيرانية ظهرت بالتدريج، وبدون صَهْر أو إخراج المواطنين الأصليين من مواقعهم فى المنطقة. وبطريقة اتحاد الناطقين باللغتين، امتزجت اللغتان مع بعضهما البعض، وخرجت إلى الوجود كلغة مشتركة بين الجماعتين، وإن عدد المستوطنين الأصليين كان أكثر من عدد الوافدين الجدد، بالرغم من ذلك، وكما يظهر من الرسائل القديمة، فإن السكان الأصليين لم يتمكّنوا من اللحاق بالوافدين الجدد (الإيرانيين)؛ لذلك سَمّوا قسماً من الأسماء الجغرافية بأسماء إيرانية"[2].

وهكذا فإن لمصطلح (ميدى) دلالتين: دلالة عامة، تشمل جميع أسلاف الكورد تقريباً. ودلالة خاصة، تشمل الآريين الذين قدموا من وسط آسيا حوالى الألف الأول ق.م، واندمجوا مع الأقوام الذين كانوا مستقرين منذ العصور الحجرية فى جبال زاغروس وأطرافها، وتسلّموا موقع القيادة السياسية والثقافية، واشتهروا بين الممالک المجاورة، وصارت كتابات تلک الممالک تطلق اسمهم على جميع أسلاف الكورد. ويصعب التمييز فى كثير من الأحيان بين هاتين الدلالتين فى سجلات الممالک المجاورة والمعاصرة لأسلاف الكورد، وخاصة السجلات الآشورية.

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ١٣٦ - ١٣٧.

٢ - المرجع السابق، ص ١٤٧.

ونحن إذ نتحدث عن الميديين نقصد الدلالة الخاصة؛ أى القبائل الآرية التى قدمت من أوراسيا (ملتقى أوربا بآسيا) حوالى الألف الأول ق.م، واندمجت مع أسلاف الكورد الزاغروسيين والآريين السابقين، وبهذا المعنى قال ول ديورانت بشأن الميديين:

"وأوّلُ ما وصل إلينا من أخبارهم فى لوحة تسجل حملة بعث بها شَلْمانَصَّر الثالث إلى بلد يسمى پارسُوا فى جبال كوردستان (٨٣٧ ق. م). ويلوح أنه كان فى ذلك البلد سبعة وعشرون من الرؤساء- الملوك، يحكمون سبعاً وعشرين ولاية قليلة السكان يسمى أهلها أماداى أو ماداى أو ميديين. وهم أقوام من الجنس الهند أوربّى، يرجَّح أنهم جاؤوا من شواطئ بحر الخَزَر [= قزوين**] إلى غرب آسية قبل المسيح بنحو ألف عام، ويشيد زَنْد أڤستا- وهو كتاب الفرس المقدس- بذكر هذا الموطن القديم، ويصفه بأنه جنّة من الجِنان"**[1].

وأضاف ول ديورانت قائلاً:

"ويلوح أن الميديين كانوا ينتشرون فى إقليم بُخارى وسَمَرْقَنْد، وأنهم توغّلوا منه نحو الجنوب شيئاً فشيئاً، حتى وصلوا آخر الأمر إلى بلاد فارس، فوجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرُّخام والحجارة الكريمة فى الجبال التى اتخذوها موطناً لهم جديداً، ولمّا كانوا قوماً أشدّاء بسطاء فى معيشتهم، فقد أخذوا يفلحون أرض السهول وسفوح التلال، وعاشوا عيشة رخيّة"[2].

وذكر أرشاك سافراستيان أن ميديا هى امتداد جغرافى وتاريخى وثقافى لگوتيوم، وجاء الميديون إلى گوتيوم منذ حوالى سنة (١١٠٠ ق.م)، وكانوا يتألفون من اتحاد ستة قبائل، سمّاها دياكونوف: Boussi, Paretaknoi, Strouknates, Arizantoi Boudloi,

---

١ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٣٩٩/٢. المقصور بمصطلح (پارسُوا) هنا هو (التخوم، الأطراف)، وليس بلاد فارس كما قد يُظن. وبحر الخزر هو بحر قَزْوِين.

٢ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠٠/٢. المقصود بـــ (فارس) هو إيران بما فيها كوردستان الشرقية

Magoi، وسمّاها هيرودوت (بُوسّى، وبارْيتاسيين، وسترُوكاتى، وأَرِيزانْتى، وبُودى/بُودْلُووى، وماجى)، وكانت اللغة الميدية مشتركة بين هذا الاتحاد القبلى[1].

وذكرت المدوَّنات الآشورية، فى القرن التاسع ق.م، أن الميد Mede شعب قَبَلى لم يتحد بقيادة ملك واحد، يقطن شرقى بلاد آشور، ووصفتهم بأنهم (الميديون الخطرون، الميديون الأقوياء)، وذكر الملك الآشورى تِغْلات پِلاسَر الثالث (٧٤٤ – ٧٢٧ ق.م) أنه دحر ملك أورارتو سَرْدُور الثانى Sardurus، وجرّد عدة حملات حربية على منطقة زاغروس، وهجم على مناطق الميديين إلى الشمال الغربى من منطقة هَمَذان (أَگباتانا)، ووصلت الجيوش الآشورية إلى جبل دِماوَنْد (دُماوَنْد/دُنْباوَنْد، قرب طهران)، وجلب (٦٥٠٠٠) أسير من الميديين، وأسكنهم فى منطقة دِيالى فى حدود الدولة الآشورية، واستكمل سَرْجُون الثانى Sargon 11 (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) الهجوم على الميديين وألزمهم بدفع الجزية[2].

وذكر هارڤى بورتر أن جغرافيا ميديا جبلية فى الغالب، وثمة أودية خصبة ومعتدلة الهواء بين تلك الجبال، وأضاف قائلاً:

"هذه البلاد شرقى آشور والشمال الشرقى منها، وهى القسم الشمالى والغربى من مملكة إيران المعهودة، ويحدها شمالاً أرمينيا وبحر الخَزَر، وغرباً جبال زاغروس، وجنوباً بلاد فارس، ولم يتعيّن حدُّها شرقاً؛ لأن الأراضى هناك كانت سَبْخة لم تُسكن"[3].

وتنقسم ميديا إلى ثلاث مناطق جغرافية:

١ – ميديا المركزية: هى المنطقة التى كان تسكنها القبائل الميدية الست، وكانت تمتد من أذربيجان شمالاً إلى تخوم عِيلام جنوباً، وتشمل بلاد الكورد فى غربى إيران حالياً (كوردستان الشرقية)، ومعظم بلاد الكورد فى شمالى العراق حالياً (كوردستان الجنوبية).

---

١ – أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٢٤، ٢٥. دياكونوف: ميديا، ص ١٤٣، ١٤٦. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠.

٢ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٣٩٩. دياكونوف: ميديا، ص ٧٢. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٧. هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٢/٣٥٠. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٨.

٣ – هارڤى بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٢.

٢ - ميديا الكبرى: هى جميع المناطق التى كان يقيم فيها أسلاف الكورد (لُوللو، وگُوتى، وكاشُّو، وسُوبارْتو، وحُورى/مِيتّانى، ومانناى، وخَلْدى/أُورارتو). وذكر هارڤى بورتر أن (مادى) كانت تنقسم قديماً إلى: مادى أَتْرُوبَتِينا، وهى القسم الشمالى. ومادى الكبرى وهى القسم الجنوبى، وتسمى فى بعض المصادر الإسلامية باسم (العراق العجمى)[١].

٣ - ميديا الإمبراطورية: هى ميديا الكبرى، إضافة إلى فارس فى الجنوب الشرقى، وآشور فى الغرب، وباكْتِريا[٢] فى الشرق، وأرمينيا فى الشمال.

ونتناول فيما يلى المراحل الثلاث التى مرت بها مملكة ميديا.

تأسيس مملكة ميديا

كان من مصلحة إمبراطورية آشور جيوسياسياً أن تسيطر على جبال زاغروس والمناطق المتاخمة لها، باعتبار أن (طريق الحرير) التجارى العالمى كان يمر بتلك المنطقة، وإلا ما كان بإمكانها التواصل شرقاً مع آسيا الوسطى، وشمالاً مع منطقة القوقاز والبحر الأسود، هذا إضافة إلى أن أكثر ملوك آشور كانوا ذوى طموحات توسعية كبيرة، وأعدّوا لذلك جيشاً قوياً، يمتاز بسرعة الحركة وشدة البأس.

وفى الوقت الذى كانت فيه جيوش دولة آشور تهاجم مواطن الگوتيين واللوللوبيين والمانناين، كان من الطبيعى أن تكون مواطن القبائل الميدية أيضاً هدفاً للحملات الآشورية، وقد حصل أول صدام بين الميـــد والآشوريين عام (٨٣٧ ق.م)، فى عهد الملك الآشورى شَلْمانَسَر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٨ ق.م)، فقد هاجم هذا الملك (بارْسُوَا) التى كان يقع فيها سبع وعشرون مقاطعة. وكان الآشوريون فى خصام دائم مع الميديين، وحقّقوا بعض الانتصارات عليهم، لكنهم عجزوا عن فرض سلطة فعلية عليهم، وبعد شَلْمانَسَر الثالث حاربهم كل من شَمْشى حَدَد الخامس (٨٢١ - ٨١٠ ق.م)، وتِغْلات پِلاسَر الثالث (٧٤٧ - ٧٢٨ ق.م)، وسَرْجُون الثانى Sargon 11 (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، وسَنحاريب

---

١ - المرجع السابق، ص ٨٣.

٢ - باكتريا هى طاجيكستان الحالية وشمالى أفغانستان. انظر دياكونوف: ميديا، ص ٣٤٠.

(سَنخاريب) Sanichareb (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م)، وحاربهم أَسَرْحَدُّون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م)، وآشور بانيپال (٦٦٨- ٦٢٦ ق.م)[١].

وكان ملوك آشور يقومون خلال الحمـــلات المتتـــالية بتدمير قرى الميديين ومدنهم وحصونهم، ويجبرون بعضهم على الهجرة إلى مناطق نائية، ومثال ذلك أن تِغْلات پِلاسَر الثالث جلب خمسة وستين ألف أسير ميدى، وأسكنهم فى منطقة ديالى (فى جنوبى كوردستان حالياً)، وقام بتهجير جماعات من شعب لوللو، وجماعات من شعب خَلْدى (نايرى)، إلى سوريا، وأسكنهم فى المنطقة الواقعة بين مدينة (حَـــماه) والبحر الأبيض المتوسط، وحينما كان الآشوريون يأسرون المحاربين الميد كانوا يقتلونهم تحت أنواع التعذيب الوحشى، ويجعلونهم أهدافاً لسهامهم، وكانوا يبترون أصابع الأسرى أحياناً، كى لا يشاركوا فى القتال مرة ثانية[٢].

وفى إحدى حملات شَمْشى حَدَد الخامس على بلاد الميديين، ألحق بهم أضراراً كبيرة، إذ قتل منهم (١٠٧٠) شخصاً، ودَمّر (١٢٠٠) منطقة سكنية، وأسر عدد كبير من الميديين. و لم يستسلم الميديون للقوة الآشورية القاهرة، وكانوا يمارسون المقاومة، لكنهم كانوا عاجزون عن التغلب على الآشوريين، لسببين: السبب الأول هو التناقضات والصراعات الداخلية بين القادة. والسبب الثانى أن عدداً غير قليل من حكام المقاطعات كانوا متعاونين مع السلطات الآشورية، وكانوا يقدمون الهدايا لملوك آشور لاسترضائهم، ولا ريب فى أنهم كانوا يسهّلون للقوات الآشورية تنفيذ خططهم الاحتلالية، سواء أكان ذلك من حيث تمزيق الصف الداخلى الميدى، أو التجسس عليهم لمصلحة الغزاة الآشوريين، أو تقديم الدعم اللوجستى للقوات الآشورية الغازية[٣].

وقد أدرك الميديون أنهم لن يستطيعوا الوقوف فى وجه إمبراطورية آشور ما لم يتوحّدوا، وهذا ما فعله قبلهم الگوتيون والحوريون والخلديون، وبرز من بين الميديين قائد حكيم وجسور يدعى دَياكو Daiku بن فراوُرْتيس Phraortes، (توفى حوالى سنة ٦٧٤/٦٧٥

---

١ – أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ١٦٣. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩٣/١.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٨، ١٨٨. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٨.

٣ – دياكونوف: ميديا، ص ١٦٣.

ق.م)، ويسمّى (دَيوكو) أيضاً، ويعنى بالميدية (صاحب الإقليم)، وسجّله الآشوريون بصيغة (دَهْياوكُو)، وأخذت فى البهلوية صيغة (دَهاک) أو (دَهَيک)، ويسمّى فى المصادر الفارسية (كَيْقُباد)، ويسمّى فى بعض المصـــادر اليونانية (دِيُوسيس) Dioces، وبقيت هذه الصيغة فى اسم مدينة (دَهُوک) الكوردية، واشتق العرب منها صيغة (دِهاق) وجمعها (دَهاقِنة)، ويبدو أن هذا الاسم كان شائعاً بين بعض الشعوب الآرية، إذ ظل باقياً فى لقب (دُوق/دوک) الإنكليزية، والأرجح أن (دَياكو) هو فى الأصل لقب وليس اسماً، ولكنه صار اسماً بمرور الأيام[1].

وأورد هيرودوت خبراً طويلاً بشأن دَياكو، خلاصته أن هذا الزعيم عُرف بالحكمة، وأدرک أن ضعف الميديين يكمن فى تفرّقهم والفوضى السائدة بينهم، فقرّر توحيدهم فى تكوين سياسى واحد، وكان قد اشتهر بالكرم والعدل والنَّزاهة وبُعد النظر وحصافة الرأى، وكان الناس يثقون به، ويقصدونه لحل خلافاتهم. وبعد حين امتنع دَياكو عن الجلوس للحكم بين المتخاصمين، لأن ذلک يشغله عن شؤونه الخاصة، فعادت السرقات والخصومات، وتفشّت الفوضى من جديد، بل ازدادت، وأدرک أصحاب الرأى من الميد أنه لا بد لهم من ملک يسوس البلاد، ويرعى شؤون الناس، فرشّحوا دَياكو لتولّى منصب القيادة، ووافق القادة على تعيينه.

واشترط دَياكو على الميديين أن يشيدوا له قصراً، ويعيّنوا له حرساً، فشيّدوا له قصراً كبيراً حصيناً، وتركوا له أمر اختيار حرسه من أبناء الشعب. ولما جلس دَياكو على العرش طلب من الميديين تشييد مدينة كبيرة على تل مرتفع، تكون عاصمة لميديا اسمها (أكَباتانا) (هانگماتانا) Hangmatana، وتعنى (مكان الالتقاء) أو (مجلس الاجتماع)، يتوسّطها القصر الملكى، وتقع فيها المستودعات، وبنى حولها سبعة أسوار حصينة؛ الأول من الحجارة البيض، يليه سور من الحجر الأسود، فالقرمزى، فالأزرق، والخامس برتقالى، والسادس مطلىّ بالفضى، والسابع مطلى بالذهب. وبنى عامة الشعب مساكنهم خارج الأسوار. ثم وضع دَياكو مراسم ملكية، تنظّم علاقة الجماهير بالملک، وألزم الميديين بتبجيل الملک، وتبجيل بقية القادة الذين ما كانوا يقلّون عنه أصالة وشجاعة، وتعامل مع الخلافات بحكمة وحزم، ونظّم شؤون مملكته، وبثّ

---

١ – مجموعة من الباحثين: كركوک، ص ١٦٩، هامش (٥).

العيون والأرصاد فى أرجائها، فإذا بلغه نبأ اعتداء بعث فى طلب المعتدى، ثم أوقع به العقاب جزاءً لما ارتكب من الذنب[1].

ويتّضح مما أورده هيرودوت، بشأن إنجازات دَياكو، ما يلى:

أولاً- تكوين وعى الأمة: لقد انتقل دياكونوف بالميديين، على صعيد الوعى والشعور، من حالة الانتماء إلى (القبيلة- الدولة) و(القرية- الدولة) إلى حالة الانتماء إلى (الأمة- الدولة). وأسّس كياناً اتحادياً شبه فيدرالى بين القبائل الميدية، يقوده مجلس اتحادى بزعامته هو، وبذلك تغلّب على نزعة التمركز على الذات الفردية والقبلية، وعلى نزعة رفض الانصياع لقيادة عليا موحَّدة، وكانت هذه النزعة سائدة فى المجتمع الميدى بسبب بنيته القبَلية الرعوية الريفية[2].

ثانياً - تكوين مؤسسات الدولة: إن قرار دياكو ببناء العاصمة أكْباتانا (آمـــَدان/هَمَذان)، فى واد خصيب جميل المنظر، تسقيه المياه الذائبة من الثلوج التى تغطى قمم الجبال المجاورة، كان خطوة هامة لتحويل فكرة (الأمة- الدولة) إلى واقع مؤسسى حسّى، فالعاصمة ليست مجرد بيوت وأسواق ودوائر الحكومة، إنها رمز إلى وحدة الأمة ووحدة السلطة، كما أنها مركز للنشاط السياسى والثقافى والاقتصادى، ولعل أبرز تلك الاعتبارات هو أن أكْباتانا كانت مركزاً تجارياً مهماً بالنسبة إلى القوافل المتنقلة شرقاً وغرباً على (طريق الحرير)، وفى أكْباتانا كان يمر (الطريق الملكى) الرابط بين آسيا الغربية وآسيا الشرقية، ومن أكْباتانا كانت مملكة ميديا الناشئة تسيطر على شريان اقتصادى ومركز جيوسياسى مهمّ محلياً وإقليمياً وعالمياً، قال دياكونوف: "**فإن أهمّ طرق القوافل كانت تلتقى فى أكْباتانا**"[3].

وترسيخاً لمأسسة فكرة (الدولة- الأمة) طلب دَياكو بناء القصر الملكى الفخم، فالرجل أراد الحدّ من الطابع القبَلى الساذج، والارتقاء بالمجتمع الميدى نحو الطابع الحضارى، وأكد

---

١ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٧٧ — ٨٠. وانظر ول ديورانت: قصة الحضـــارة، ٢/٤٠٠. وعبـــد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٧١.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ١٧٠، ١٧١.

٣ - دياكونوف: ميديا، ص ١٧٣. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العـــالم، ١/٣٥٠. ول ديورانـــت: قصـــة الحضارة، ٢/ ٤٠٠. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٨٤.

ذلک من خلال الاهتمام بأبهة العاصمة والقصر الملکی، وبإصدار المراسیم والتشریعات والقوانین، وبمتابعة تطبیقها علی جمیع الرعایا بالعدل، وبتأسیس جیش قوی، وبذلک أصبحت مملکة میدیا لا تقلّ شأناً عن الدول الکبری فی ذلک العصر، ولم یَعُد دَیاکو زعیماً لقبیلة، وإنما أصبح قائداً لأمة وملکاً لمملکة.

وفی البدایة لم یکن دَیاکو ملکاً علی جمیع قبائل میدیا، وهذا أمر منطقی؛ إذ کیف یمکنه أن یؤسس فی سنین قلیلة مملکة واحدة ترفرف رایتها علی جمیع قبائل ومناطق میدیا؟ وکیف یمکنه أن یحوّل (القری- الدول) المیدیة- حسب وصف دیاکونوف- إلی مملکة کبری دفعة واحدة؟ إن دَیاکو هیّأ الأرضیة المناسبة کی تتوحّد قبائل میدیا جمیعها، وتتوحّد جمیع الأقوام التی کانت تعیش علی أرض میدیا بحسب الدلالة العامة التی سبقت الإشارة إلیها.

مقاومة الاحتلال الآشوري

حینما کان دَیاکو یعمل لتأسیس الدولة، کانت میدیا محاطة بأربع قوی إقلیمیة متفاوتة القوة: الأولی مملکة مانئای فی الشمال الشرقی، والثانیة مملکة خَلْدی (أورارتو) فی الشمال الغربی، والثالثة إمبراطوریة آشور فی الغرب، والرابعة مملکة عِیلام فی الجنوب، إضافة إلی الغزاة السِّکیث فی شمالی میدیا قرب القوقاز. وکانت إمبراطوریة آشور حینذاک هی الأکثر قوة وسطوة فی غربی آسیا، وکانت تصرّ علی أن تُخضع المیدیین لسیطرتها، کما کانت تفعل بالخلدیین شمالاً، وبالمانئاییین فی الشمال الشرقی، فکیف تغضّ النظر عن قیام مملکة توحّد صفوف "**المید الأقویاء**"، و"**المید الخطرین**"، حسب وصف ملوک آشور؟

ویتضح من خلال سیر الأحداث أن دیاکو کان صاحب مشروع تحرری متکامل، وکان یطبّق مشروعه خطوة خطوة، وفی طریقه إلی تحقیق المشروع التحرری حرص علی إحداث تغییر فی الذهنیة المیدیة القَبَلیة (الکُوچَریة)، والانتقال إلی تکوین (الذهنیة القومیة)؛ ذهنیة (الدولة- الأمة). هذا داخلیاً. أما خارجیاً فإن إمبراطوریة آشور کانت تسیطر علی بلاد شاسعة، تمتد من قلب إیران الحالیة إلی سواحل البحر الأبیض المتوسط، وإلی مصر أحیاناً، فکیف یمکن لدولة ناشئة، أن تقف لوحدها فی مواجهة إمبراطوریة ضخمة شرسة کهذه؟

کان علی دیاکو أن یجید لعبة التوازنات الإقلیمیة، فاحتمی تارة بمملکة مانئای من سطوة إمبراطوریة آشور، وبنی تحالفاً مع دولة أورارتو فی الشمال الغربی، ولا ننس القرابة الثقافیة

والإثنية بين قبائل ميديا وماننای وأورارتو. وراح دَياكو ينظّم أمور دولته الناشئة ويطوّرها، وكتب ول ديورانت فى هذا الصدد يقول:

"واشتدّ ساعد الميديين فى أيامه بفضل حياتهم الطبيعية والاقتصادية، وأصبحوا بتأثير عاداتهم وبيئتهم ذوى جَلَد وصبر على ضرورات الحروب، فكانوا بزعامته خطراً يهدد آشور، فأغارت هذه على بلاد ميديا مرة بعد مرة، وظنت أنها قد هزمتها هزيمة مُنْكَرة لا تجرؤ معها على مناوأتها، ولكنها وجدتها لا تملّ الكفاح لنيل حريتها"[1].

وبعد أن تحالف دَياكو مع مملكة أورارتو قاد الثورة على إمبراطورية آشور، وأعلن استقلال ميديا، ورفض دفع الضرائب والإتاوات، وكان من الطبيعى أن يعمل ملوك آشور للقضاء على مملكة ميديا الناهضة، وتصدّى دَياكو للمضايقات والتحرشات الآشورية، وسرعان ما قاد الملك سَرْجُون الثانى جيشه القوى إلى جبال ميديا، فحطّم الحلف الميدى- الأورارتى، وقضى على القوة الميدية، وأسر دياكو عام (٧١٥ ق.م)، وفى رواية عام (٧١٤ ق.م)، ونفاه مع أسرته وحاشيته الملكية إلى مدينة حَماه (هامات) فى سوريا، وبعد فترة من الوقت أفرج الآشوريون عن دَياكو، وقد أُعيد إلى آشور، وفُرضت عليه الإقامة الجبرية. ولا تذكر المصادر أية ثورة أخرى قادها ضد السلطة الآشورية بعد عودته، وقد حكم ميديا حوالى ثلاثة وخمسين سنة، والأرجح أن حكمه كان بين سنتى (٧٢٧ – ٦٧٥/٦٧٤ ق.م)[2].

لم تذهب الجهود التى بذلها دَياكو لتأسيس مملكة ميديا هباءً، فقد استكملها ابنه خَشْتريت (خاشتريت) (توفى حوالى ٦٥٣ ق.م)، ويعنى اسمه بالكوردية (الأفضل)، ويسمّى (گشتريتى)، و(خشاثريتا) Khshathrita، وسمّاه هيرودوت (فراوُرْتيس) Phraortes، وحُرّفت هذه الصيغة أحياناً إلى (فرورتيش)، وأورده آخرون بصيغة (براورتيش/ برا ؤرت).

وثمة احتمال ضعيف أن خشتريت هو حفيد دَياكو، لكن بمتابعة الأحداث والمهمّات الجسام التى قام بها، يصبح راجحاً أنه ابن دياكو وليس حفيده؛ إذ من المنطقى أن يكون الذى قام بتلك المهمّات الخطيرة، على الصعيد الاجتماعى والسياسى والعسكرى، رجلاً راشداً

---

١ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٠.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٥٧. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٠. طه باقر وآخران: تاريخ إيـــران القديم، ص ٤٠.

ناضجاً متمرّساً، وليس شابّاً حديث عهد بالقيادة والسياسة. وذكر دياكونوف أن خشتريت تربّى فى أرض الآشوريين حينما كان والده قد أُبعد إلى هناك، وذكر أيضاً أن الآشوريين كانوا يعتقدون أنه سيكون "**حاكماً موالياً لهم، ويسير على السياسة التى فيها مصلحة الآشوريين، مثل الأشخاص الآخرين الذين ربّوهم سابقاً، ومن ثَمّ أصبحوا طوع بَنانهم، ملوكاً وحكّاماً موالين لهم**"[1].

وحينما توفّى الملك الآشورى سَرجون الثانى (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م)، وقُتل خليفته سَنْحاريب (٧٠٤ – ٦٨٠ ق.م) بيد أحد أبنائه، تولّى الحكمَ ابنُه الثانى أَسَرْحَدُّون Eserhaddon (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م). وقد بدا لخشتريت أن الفرصة أصبحت سانحة لاستكمال مشروع تحرير ميديا من الهيمنة الآشورية، فبادر إلى توحيد القبائل الميدية تحت قيادته، وجذب إلى صفه قبائل أخرى أهمها السيمِّريون (الكيمِّريون) Cimmerians والسِّكيث Scythians، وأخضع لنفوذه القبائل الفارسية التى استقرت، منذ القرن الثامن ق.م، فى الجهات الغربية الجنوبية من إيران[2]. وفسّر هيرودوت ذلك قائلاً:

"**ولم يكن فراورتيس هذا ليرضى بمملكة من الميديين وحدهم، فأخذ بمهاجمة الفرس، ثم دخل بلادهم على رأس جيش عَرَمْرَم، وما زال يَجدّ فى قتالهم حتى استولى على كل أرضهم، وأخضعهم للميديين ... وبات فراورتيس مَلكاً على شعبين، كلاهما قوىّ ذو بأس، فمضى بعد هذا النصر الذى تحقق له ليستولى على آسيا، وكان له النصر فى كل حملة، فأخذت البلدان تتهاوى واحدة بعد الأخرى أمام سطوته، ثم كان أن شنّ الحرب فى النهاية على الآشوريين**"[3].

---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٥٦، ٢٥٧.

٢ – المرجع السابق، ص ٢٥١، ٢٥٧.

٣ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠.

وبعد هذا الإعداد الجيد داخلياً وإقليميا، انتفض الميديون بقيادة خَشْتريت فى شهر نوروز/آذار/مارس عام (٦٧٣ ق.م)، وهاجموا القلاع الآشورية وحاصروها، وتحررت جميع الأراضى الميدية[١]. قال دياكونوف واصفاً القوة القتالية الميدية:

"حين كان الميديون يحاصرون القلاع الآشورية فإن هذا كان يدعو إلى جذب الانتباه؛ لأن هذا الحصار لم يكن على شاكلة المعارك، بل يدل على انتفاضة وثورة، قامت على أرضية إستراتيجية، وفنون حربية، مثلاً إن الجيش الذى حاصر مركزاً آشورياً مهمّاً مثل قلعة ... ى، ويلجأ إلى الجبال خوفاً من اقتر... كتسبها الميديون من الحروب المتع... ن المحتمل أن گشتريتى بتحالفه مع ... ب، والرمى بالسهام، وتدرّبَ الفر... ن القتال الأخرى، بهذا الشكل هرب... ن الجيش الآشورى فى ذلك الوق...

... ر الهجوم على نينوى عاصمة إمبرا... آسيا جميعها، لكن حكام آشور قطع... الممالك المجاورة، وتحالفوا مع السّ... بانيپال بتزويج ملك السكيث مادي... – السكيثى[٣].

الثائر الميدي ضد الأخمينيين (فرورتيش) مأخوذ من حجر بيستون

وفى الوقت الذى سلّط فيه آشور بانيپال حلفاءه السكيث على مملكة ميديا، وأشغل خَشْتريت بمواجهتهم، بادر إلى الحرب على مملكة ماننای حليفة ميديا، وألحق الهزيمة بالملك المانناپى أَخْسيرى، واحتل الآشوريون إيزيرْتا (سَقِز الحالية جنوبى بحيرة أُورميه) عاصمة مملكة

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٥٢.

٢ – المرجع السابق، ص ٢٥٠، ٢٥١.

٣ – المرجع السابق، ص ٢٦٠.

ماننای. واضطر أَخْسِيرى إلى إعلان تبعيته لدولة آشور، لكن مواطنى دولة ماننای قاموا بانتفاضة جماهيرية لتأييد مملكة ميديا، ورفض الثوار سياسة أَخْسيرى، وقتلوه ورموا بجثته من على الجبل، وقضوا على جميع النبلاء المنضمين إليه، فتحالف ابنه **أوالى** (أُوآلى) مع آشور بانيپال، وأرسل له ابنته هدية تعبيراً له عن الولاء، وفرض آشور بانيپال الجزية والضرائب على شعب ماننای[١].

وبعد أن أحكم آشور بانيپال قبضته على حلفاء ميديا، أوعز إلى السكيث بقيادة صهره ماديا لمهاجمة الميديين من الخلف، وصارت قوات ميديا بين فكّى كمّاشة، وخسر خَشتريت المعركة، والأرجح أنه قُتل فيها عام (٦٥٣ ق.م)، بعد أن حكم ميديا اثنين وعشرين عاماً، وكانت النتيجة أن السكيث احتلوا ميديا حوالى ثمانية وعشرين عاماً (٦٥٣ — ٦٢٥ ق.م) ، ولا ريب فى أن ذلک كان بموافقة حكّام آشور، ولعلهم قدّموا ميديا للسكيث مكافأة لهم على ما قدّموه من دعم لإنقاذ الإمبراطورية من الانهيار[٢].

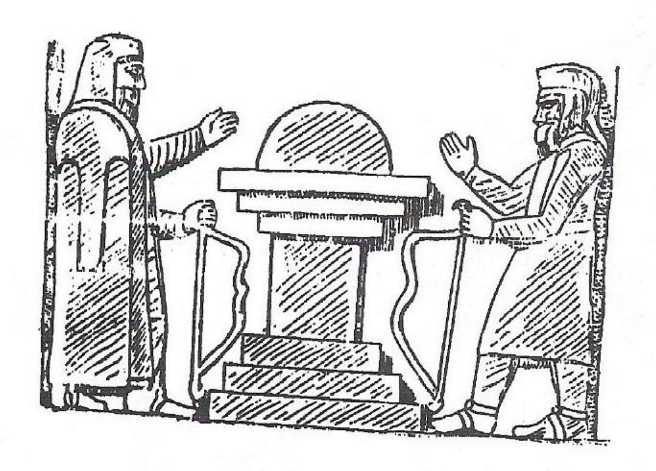
تأسيس إمبراطورية ميديا

بعد مقتل خَشْتريت فى الحرب ضد دولة آشور، خلفه على الحكم ابنه كَى خُسْرو Kai-Khosru (على الأرجح بين ٦٢٥ — ٥٨٥ ق.م)، ويسمّى كى أخسار Cyaxares، وذكر دياكونوف المقطع الثانى بصيغة Exear، و Xsart، وأفاد أنها تعنى الشجاعة والجسارة. أما هيرودوت فذكر اسم كَى خُسْرو بصيغة (سياشاريس)، وذكره هارقى بورتر بصيغة (كَى

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٦٥. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٤٩١/١ — ٤٩٣.

٢ – طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠.

كسارس)، وذكره ول ديورانت بصيغة (سياخْسار، سياكْزارس)، كما يسمى فى بعض المصادر (إكسركيس)[1].



رسم محفور على القبر الحجري لـ (قز قابان) لـ كياكسار (كيخسرو)

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٣٥٧. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠. هارڤى بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٦. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠١/٢.

وليس من المستبعد أن يكون اسم (كَى خُسْرو) فى أصله لقباً كما هى عادة ملوك غربى آسيا، مثل (فِرْعَوْن، كِسْرى، قَيْصَر)، وأن صيغته الأصلية هى (كَىْ خاشْ رُو)؛ أى (الملك السعيد) أو (الملك الخالد)؛ باعتبار أن كلمة (كَىْ) تعنى (الملک)، و(خاش) تعنى (الطيب، السعيد، الحىّ)، ولشهرة هذا الملك اقتبسه ملوك الفرس، وتحوّل فى المصادر العربية إلى صيغة (كِسْرى).

وكَى خُسْرو هو أعظم ملوك ميديا، إنه ورث عن أبيه خَشْتريت خصالاً قيادية متميزة، فكان قائداً محنّكاً حازماً، ورجل دولة عظيماً، كما أنه نذر نفسه لاستكمال المشروع التحررى الميدى الذى بدأ على يدى جده دَياكو، وتقدّم به والده خَشْتريت أشواطاً إلى الأمام، وتميّز كَى خسرو برؤية إستراتيجية رحيبة، وبحسّ سياسى واقعى، كما أنه كان توّاقاً إلى تحرير ميديا وشعوب غربى آسيا من الحكم الآشورى، وكى يحقق هذا الهدف قام بأربعة إنجازات مهمة:

١ – **توحيد قبائل ميديا**: إن كَى خُسْرو وحّد القبائل الميدية تحت لواء واحد، على نحو أوسع مما فعله جده ووالده، وأسكن القبائل الرحّالة، كى تكون أكثر تفاعلاً مع شروط التمدن، وأكثر ارتباطاً بالدولة، وأكثر مساهمة فى بناء المجتمع والدولة، ونظّم شؤونهم، وسنّ القـــوانين اللازمة لتنظيم الحياة الاجتماعية، وجعل أكْباتانا عاصمة دائمة للميديين.

٢ – **تحديث الجيش**: إن كَى خُسْرو نظّم الجيش على أسس حـــديثة، كى يكفل تحقيق التوازن مع الجيش الآشورى المرهوب الجانب إقليمياً، مقتبساً بعض أساليب الغزاة السكيث فى القتـــال؛ مثل سرعة الحركة والمنـــاورة، وتشكيل خيّـــالة سريعة الحركة، وتمييز رماة الســـهام عن الفرســـان، هذا إضافة إلى أن الميديين كانوا يدخلون الحرب فى السابق كقبائل وعشائر وجماعات، ويحاربون دون رتب عسكرية، فعمد كَىْ خُسْرو إلى تأسيس جيش منظم، كما كان الأمر عند الآشوريين[1].

٣ – **القضاء على السكيث**: كان السكيث يشكّلون تهديداً دائماً لمملكة ميديا ولمشروعها التحررى، فاستغل كَى خُسْرو وجود معاهدة بين الطرفين، فدعا قادة السكيث إلى

---

١ – طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٠. ديـــاكونوف: ميديا، ص ٢٧٨. Mehrdad Izady: The Kurds, p.33.

حفل عامر بالأطعمة والمُسْكرات، ثم أمر المقاتلين الميد بالفتك بهم جميعاً، فبقى السكيث من غير قيادة، وتضعضعت صفوفهم، وأصبح من السهل على الملك الميدى السيطرة عليهم.

٤ – **بناء تحالفات إقليمية:** عقد كَى خُسْرو تحالفاً بين ميديا وعِيلام فى الجنوب، وبين ميديا وبابل فى الغرب، وكان تحالفه مع الملك البابلى (الكلدانى) نَبوبولاسَر هو الأهم إستراتيجياً، وزوّج ابنته **أُوميد** (أميتس) من نبوخذنسَّر بن نَبُوبولاسَر[1]، وهى التى بنى لها نَبُوخَذْنَسَّر (الحدائق المعلّقة) الشهيرة، وكان نَبُوبولاسَر والياً على بابل من قبل الملك الآشورى آشور بانيپال، لكنه كان يطمح إلى الاستقلال الكامل عن دولة آشور.

وبعد أن استكمل كَى خُسْرو الاستعدادات العسكرية، وأسس جيشاً حديثاً مرهوب الجانب، حتى إن النص البابلى سمّاه "**ملك الأُومان مانْدا** Ummanmande"؛ أى "**القوة المرعبة**"[2]، وبعد أن أنجز التحالفات الخارجية الضرورية لتحقيق التفوّق الاستراتيجى على إمبراطورية آشور، هاجم آشور عام (٦١٥ ق.م)، واتخذ أَرّابْخا (كرخينى = منطقة كركوك) قاعدة لانطلاقة أعماله الحربية، وزحف بجيشه على العاصمة الإمبراطورية نينوى، لكنها قاومته بعنف، وفشل فى احتلالها، وسبب الفشل هو تصدّى السكيث له، ومهاجمته من الخلف، وقد مرّ أن ثمة تحالفاً كان قائماً بين الآشوريين والسكيث منذ عهد آشور بانيپال[3].

ونتيجة لذلك فكّ كَى خُسْرو الحصار عن نينوى، وزحف على مدينة آشور، وكانت تعدّ العاصمة الدينية للآشوريين، فحاصرها وفتحها، قال دياكونوف:

"قتل الجيشُ الميدى الرجالَ المتنفّذين والمستشارين للدولة الآشورية فى المدينة، وسلبوا المعابد الآشورية، وحصلوا على ثروات طائلة من هذا السلب؛ تلك الثروات التى جمعها الآشوريون طوال سنين الحروب الماضية، والتى سلبوها من الأقوام والشعوب فى تلك المنطقة "[4].

---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٣. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١.

٢ – هديب غزالة: الدولة البابلية الحديثة، ص ٦٣.

٣ – طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١.

٤ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٧.

وبينما كان جيش كَى خُسْرو يدمّر مدينة آشور، كان الملك الكلدانى نَبُوبولاسَر يمارس سياسة انتهازية، ويبدو أنه كان ينتظر انكشاف الحرب بين ميديا وآشور عن نتيجة معيّنة، ليتخذ على ضوئها قرار الانضمام إلى هذا الطرف أو ذاك، وأراد أن يجعل من حليفه الجديد كَى خُسْرو أداة له فحسب، كتب دياكونوف:

"إن ملك أكّد (بابل) وجيشه الذى كان ينوى التوجّه لمساعدة الميديين لم يلحق المعركة، ... إن تأخير نابوبلاصّر بالكامل كان برغبته، ويُحتمَل وجود تواطؤ كبار الرجال والكهنة الآشوريين مع بابل، وهذا وارد جداً"[1].

وفى سنة (٦١٢ ق.م) شنّ الحليفان الميدى والبابلى الهجوم مرة أخرى على نينوى، لكن عاصمة إمبراطورية آشور صمدت بقوة، ودافع الملك الآشورى سين شاريش كون (ساراك) ابن آشور بانيپال عن عاصمته باستماتة، والأرجح أن الفريق المهاجم استعان بفيضان مياه دجلة، فوجّهه إلى أسوار المدينة المنيعة، فجرفت المياه جوانب منها، وبعد حرب طاحنة وحصار شديد، أيقن الملك الآشورى بالهلاك، فجمع نساءه فى قصره، وأشعل فيه النار، ورمى نفسه فيها، فاحترقوا جميعاً[2].

قال هيرودوت فى تاريخه مشيداً بانتصار الميد على الآشوريين:

"شقّ الميديون عليهم عصا الطـاعة، فحملوا السلاح في وجههم، وقاتلوهم ونزعوا عن أعناقهم نِير العبودية، وباتوا أحراراً، وكانت تلك مَأثرةً اقتـدت بهم فيـها أمـم أخرى قُيِّض لها أن تستعيد استقلالها، وهكـذا استفحـل أمر الثورة، فكان أنْ نَعِمت الأمـم فى كل أرجـاء تلك الأرض بنعمة الاستقلال فى تصريف شؤونها"[3].

وقال النبى العبرانى ناحَوم (كان أسيراً فى نينوى) واصفاً سقوط نينوى أمام الهجوم الميدى- البابلى، ومعبّراً عن ارتياح الشعوب التى كانت تخضع للآشوريين:

---

١ – طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١. دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٧.

٢ – هارڤى بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٦٨. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٠.

٣ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٧٧.

"نَعِست رعاتُك يا مَلكَ أَشور. اضطجعت عظماؤك. تشتّت شعبُك على الجبال ولا مَن يجمع. ليس جَبْرٌ لانكسارك. جرحُك عديم الشفاء. كلُّ الذين يسمعون خبرَك يصفّقون بأيديهم عليك؛ لأنه على مَن لم يمرّ شرُّكَ على الدوام"[1]؟!

وصحيح أن الحلف الميدى- البابلى كان ناقماً على السلطات الآشورية، فدمّر قسماً من نينوى، لكنه لم يلجأ إلى البطش والتنكيل على طريقة سلطات آشور، وأفاد دياكونوف أن الميديين لم يقضوا على الآشوريين من المواطنين المظلومين، و لم يهدفوا إلى القضاء على ثقافتهم، إنه قال:

"إنّ قوم آشور لم يُقضَ عليهم فى الحقيقة، بل عاشوا فى نينوى المدمَّرة والمدن المجاورة الأخرى، وبعد سنين عديدة كانوا لا يزالون يعبدون آلهة آشور"[2].

وقال دياكونوف موضّحاً سبب هذا السلوك الميدى:

"فإن الميديين كان هدفهم فى الانتصار هو التحرر والتحرر فقط، وهذه حقيقة واضحة، فإن القضاء على الإمبراطورية الآشورية، وسقوطَها تماماً، أمسى عاملاً لسعادة جميع بلدان آسيا الغربية"[3].

وقال دياكونوف بصدد انتقام الميديين من دولة آشور:

"إن الأقوام التى كانت تعيش فى أَسْر الآشوريين، كانت تنتظر بفارغ الصبر مجىء هذا اليوم، والتصرف بهذا الشكل مع الظالمين، والمآسى التى تعرضوا لها على أيدى الآشوريين لا بد من ممارستها عليهم كما كانوا يفعلون بهم، لقد كانوا يحرقون الأخضر واليابس، وأشعلوا النيران فى القرى والقلاع، وأحرقوا الأطفال الصغار، ألم يخرّبوا القصور والمعابد؟ ألم يكسّروا تماثيل ورسومات الآلهة؟ ألم يأخذوا النساء أسرى بثياب ممزَّقة؟ هل كان للآشوريين الحقُّ بفعل كل هذا، دون أن ينتظروا أن يفعله الحاقدون بهم بالمقابل؟ مع كل

---

١ - العهد القديم، الأصحاح ٣، الآية ١٨، ١٩. وانظر أبراهام مالمات، حاييم تـدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٢٩٤.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ٢٩١.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٩٣.

هذا يظهر أن أفعال الميديين وحلفائهم مع الآشوريين كانت أخفّ بكثير مما ارتكبه الآشوريون ضد الشعوب والأقوام فى منطقة الشرق القريب"[1].

ولم تنته الحرب الميدية- الآشورية بسقوط العاصمة نينوى؛ إذ خرج قسم من الجيش الآشورى من نينوى بقيادة آشور أوبالِّيت، (عمّ الملك الآشورى ساراك، والأخ الأصغر لآشور بانيپال) خلال الهجوم على المدينة، وتوجّه إلى مدينة حَرّان متحصّناً بأسوارها، وكان آشور أوبالّيت فى عهد أخيه آشور بانيپال كاهناً للإله (سين) الحَرّانى، وجلس آشور أوبالّيت على عرش آشور فى حرّان خريف عام (٦١٢ ق.م)، وتجمّع حوله من تبقّى من القادة الآشوريين والتكتلات التابعة لهم، وكانت الخطة الطويلة الأمد هى إطالة الحرب للاحتفاظ ببقايا المملكة الآشورية، ولو فى جزء من أراضيها السابقة[2].

وكان أمل الآشوريين معقوداً على حليفهم فرعون مصر نَخاو الثانى (٦١٠ – ٥٩٥ ق.م، وفى تلقّى الدعم من دولة أورارتو، وكانت هذه تخاف من خطر ميديا عليها، فأبقت على صداقتها مع آشور. غير أن الحليفين الميدى والبابلى وقفا للتحالف المعادى بالمرصاد، وفى عام (٦١٠ ق.م) زحف الجيشان الميدى والبابلى نحو حَرّان، فخرج آشور أوبالّيت ومن معه من المصريين منها، ولجأوا إلى مدينة كِرْكِميش (قِرْقِميش) على نهر الفرات، وكانت تقع على واحد من أهم الطرق التى تعبرها القوافل التجارية المتنقلة بين ميزوپوتاميا وسوريا وآسيا الصغرى[3].

واستمرت المناوشات بين الفريقين حتى ربيع عام (٦٠٩ ق.م)، وفى حزيران/يونيو وآب/أغسطس من هذا العام وصل جيش فرعون مصر، وهاجمت القوات الآشورية والمصرية حَرّان، ويبدو أن أمر الدفاع عنها كان قد أُوكل إلى قوات بابلية محدودة العدد، وفى شهر أيلول/سبتمبر وصلت قوات نَبُوبولاسَر لفكّ الحصار عن القوات البابلية فى حرّان، وكان آشور أوبالّيت يحاول خلال ذلك التواصل مع أورارتو، لكن الميديين ضربوا أورارتو بشدة،

---

١ – المرجع السابق، ص ٢٩٠ – ٢٩١.

٢ – المرجع السابق، ص ٢٩٤.

٣ – دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٤، ٢٩٤، ٢٩٥. محمد بيّومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٤٣١.

ووصلوا إلى عاصمتها تُوشْپا Tushpa على سواحل بحيرة (وان)، وسيطروا على دولة أورارتو، وبما أن القوات الآشورية والمصرية كانت قد تمركزت فى كِرْكِميش، حاصرها قوات الحلف الميدى البابلى، وسيطرت عليها عام (٦٠٥ ق.م)، وصارت كركميش من نصيب بابل، ودخلها الأمير البابلى نَبُوخَذْنَسَر بن نَبُوبولاسَر دون أية صعوبات[١].

وهكذا زالت إمبراطورية آشور من الوجود، وكانت واحدة من أقوى إمبراطوريات العالم القديم، وتقاسم الميد والكلدان إمبراطورية آشور، وأصبح غربى آسيا مقسّماً بين أربع دول كبرى، هى: المملكة الميدية، والمملكة الكلدانية (البابلية الحديثة)، ومملكة ليديا فى آسيا الصغرى، والمملكة المصرية؛ قال الدكتور عبد الحميد زايد بصدد القضاء على الدولة الآشورية:

"وقد قامت أربع قوى (ميديا، كَلَدْيا، ليديا، مصر) فى ذلك الوقت بتقسيم الشرق الأدنى بينهم، ولكن ميديا وحدها هى التى يمكن تسميتها بالإمبراطورية"[٢].

وبقى أن يقضى كَى خُسْرو على الخطر السكيثى، فهاجمهم وهزمهم، ففروا من وجهه غرباً، ولجأوا إلى مملكة ليديا المجاورة لمملكة ميديا غرباً، وكان الخط الفاصل بين حدود المملكتين هو نهر هاليس (قِزِل إرماق). وطلب كَى خُسْرو من إلياتِّس (إلياتتيس) ملك ليديا تسليمه السكيث الفارين، لكن إلياتِّس رفض ذلك، فأعلنت ميديا الحرب على ليديا عام (٥٩٠ ق.م)، وقاد كَى خُسْرو جيشه نحو آسيا الصغرى، ودامت الحرب بين الدولتين حوالى ست سنوات، وصادف أن كُسفت الشمس- ولا ننسى مركزية الشمس فى الميثولوجيا الآرية- ففسّر الفريقان الكسوف بأنه غضب من الآلهة، فتصالحا وتحالفا، وتزوّج أستياگ بن كَى خُسْرو من أريينس ابنة إلياتِّس، وجرى تبادل العهود بأن أحدث كل من كَىْ خُسْرو وإلياتِّس جرحاً فى ذراعه، ولعق كل واحد منهما الدم النازف من جرح الآخر، والأرجح أن ذلك الحدث كان عام (٥٨٥ ق.م)[٣].

---

١ - أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، ٢٠٩/١. دياكونوف: ميديا ص ٢٩٦.

٢ - عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٨٥.

٣ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٦٣ – ٦٤. أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، ٢٠٨/١. دياكونوف: ميديا، ص ٣٠٢. هارڤى بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٧.

وتوفّى كيخسرو عام (٥٨٥ ق.م)، بعد أن أسّس إمبراطورية واسعة الأرجاء، امتدت من حدود أفغانستان شرقاً، إلى نهر قيزيل إرماق فى وسط الأناضول، وخلَفه على عرش الإمبراطورية الميدية ابنه أستياگ.

وعلى العموم كان ملوک ميديا العظام يتصفون بكثير من الخصائص الشخصية والقيادية والسياسية المتميّزة، ولولا ذلک لما استطاعوا أن يؤسسوا مملكة قوية من قبائل يغلب عليها الطابع الرعوى، ولما استطاعوا أن يوحّدوا صفوف أسلاف الكورد بمختلف انتماءاتهم الزاغروسية والآرية، ولما استطاعوا الوقوف فى وجه أقوى وأشرس إمبراطورية فى غربى آسيا حينذاک، الإمبراطورية الآشورية، قال دياكونوف بشأن مزايا ملوک ميديا:

"كان ملوک ميديا شجعاناً، ذوى نفوذ وجسارة لاقتحام المصاعب، حتى إن هيرودوتس تحدث أيضاً عن ذلک، ولا يوجد خلاف فى هذا الأمر"[1].

وأشار أرنولد توينبى أيضاً إلى قوة ملوک ميديا وإمبراطورية ميديا عامة قائلاً:

"كان الكلدان الذين سيطروا على بابل يتمتعون بكثير من القوة، فى مقاومتهم لآشور، ... وقد كان الكلدانيون، إذا توجّهوا غرباً، أسوداً مزمجرة. أما لما توجّهوا شرقاً وشمالاً فى اتجاه ميديا، فكانوا حِمْلاناً مرتجفة"[2].

ونستشهد أخيراً بما كتبه أرنولد توينبى بشأن مملكة ميديا، فقد ذكر أنه بعد سقوط إمبراطورية آشور استمرت أربع دول قائمة، هى ميديا، وبابل، ومصر، وليديا، وأضاف قائلاً:

"كانت ميديا، بين هذه الدول الأربع، أقواها وأكثرها ثقة بالنفس،... كان الميديون، إذا قوبلوا بالبابليين والسوريين والمصريين، متأخرين اقتصادياً وحضارياً، وكان تأخرهم هذا درعاً واقياً لهم، إذ يسّر لهم الانتعاش السريع؛ وعلى كل حال فإن الضرر الذى لحق بهم بسبب الآشوريين، كانوا قد عوضوا عنه بأكثر من فائدة بسبب الوحدة السياسية التى فرضتها الأحوال على قائلهم بسبب الخطر الآشورى. وكانت أولى الإنجازات التى تَمّت على يد ميديا، بعد سنة (٦١٢ ق.م)، خدمةً مشتركة قدّمتها للعالم المستقر، فقد قضت

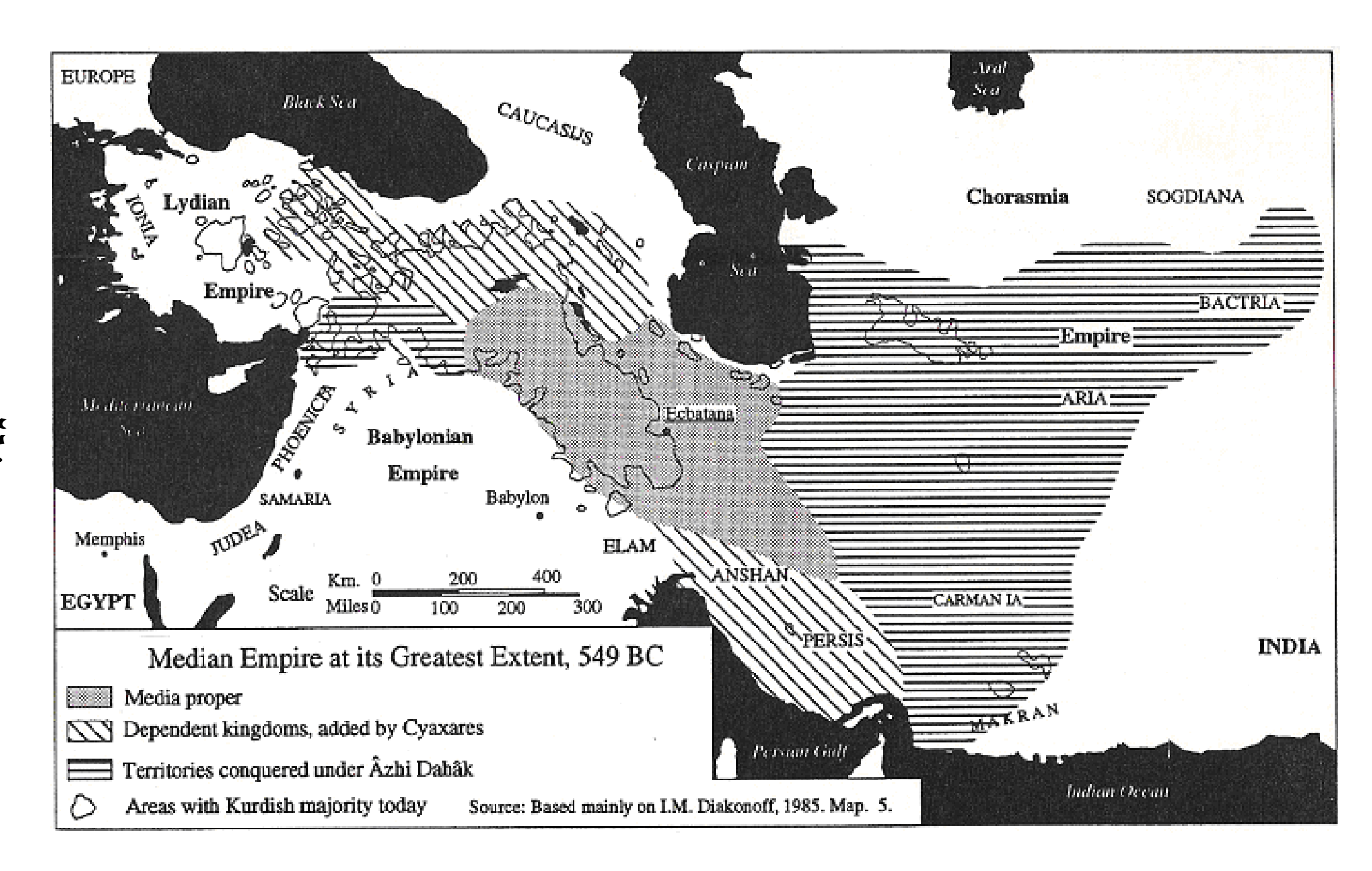
---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٢٥٩.

٢ - أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، ٢٠٩/١.

على البدو الذين هاجموا جنوب غرب آسيا [= السكيث]، أو أخرجتهم من هناك، أو أخضعتهم لنفوذها، وقد تم ذلك جزئياً باقتباسهم من البدو عدّهم وتخطيطهم العسكريين– وقد حمل هذا الميديين على ضمّ أورارتو وشرق آسيا الصغرى ووسطها"[١].

١ – المرجع السابق، ١٩٨٨، ١/٢٠٧ – ٢٠٨.


EUROPE
Black Sea
CAUCASUS
Caspian
Sea
Aral
Sea
Chorasmia
SOGDIANA
IONIA
Lydian
Empire
BACTRIA
Empire
ARIA
Echatana
Mediterranean
Sea
PHOENICIA
SYRIA
Babylonian
Empire
SAMARIA
Babylon
Memphis
JUDEA
ELAM
ANSHAN
CARMANIA
PERSIS
INDIA
MAKRAN
EGYPT
Scale
Km. 0 200 400
Miles 0 100 200 300
Persian Gulf
Indian Ocean
Median Empire at its Greatest Extent, 549 BC
Media proper
Dependent kingdoms, added by Cyaxares
Territories conquered under Âzhi Dahâk
Areas with Kurdish majority today
Source: Based mainly on I.M. Diakonoff, 1985. Map. 5.

سقوط مملكة ميديا

حكم الملک الميدی أستياگ بين عامی (٥٨٤ – ٥٥٠ ق.م)، وعُرف باسم أستياگز (أستياجيس) Astuages، وسمّاه المؤرخ الأرمنی موسی خُورِينی (أَزْدَهاک)، واسمه بالآريانية القديمة (أَرِشْتِڤاگا) Arishti vaiga أو أی (رامی الرمـــح)، وصيغته بالكوردية المعاصرة، é recht Avaije. وذكر مِهْرداد إيزادی أن أستياگ هو آزْهی دَهاک (آژی دَهاک) Azhi Dahak، الذی عُرف فی المصادر الإسلامية باسم الطاغية (الضحّاک)، ولعله استقی هذه المعلومة من المصادر الفارسية، وهی بشكل عام غير موضوعية فيما يتعلق بملوک ميديا[1].

وقد ورث أستياگ دولة قوية واسعة الأرجاء، راسخة الأركان، وافرة الخيرات، تتقاسم مع حليفتها الدولة البابلية البلاد الممتدة من الخليج الفارسی شرقاً إلی وسط الأناضول غرباً، وكان من المفترض أن يزيد أستياگ دولته قوة، ويحافظ علی ممتلكاتها، ويعتنی بازدهارها، لكن جرت الأمور علی عكس ذلک، وارتكب أستياگ أخطاء خطيرة، أدّت إلی سقوط مملكة ميديا، وهی التالية:

أولاً: لم يكن أستياگ ملكاً حازماً بما فيه الكفاية، و لم يكن قدوة لشعبه فی العدل ونكران الذات، وكان عازفاً عن قيادة الجيوش، وخوض الحروب، ميّالاً إلی الترف ورخاء العيش بين جدران القصور الملكية، مستغلاً الثراء الهائل الذی كانت تنعم به المملكة الميدية، وسمّاه ول ديورانت "**طاغية إگباتانا المخنَّث**"[2].

ثانياً: خرج أستياگ علی مبدأ (الجماعية) فی قيادة دفّة الحكم، وانحاز إلی الاستبداد، وفرض الحكم المركزی المباشر، وكسر بذلک واحدة من أهم القواعد السياسية فی المجتمع الميدی، وقد مر أن مملكة ميديا كانت تتألف فی الأصل من (اتحاد قبائل)، يحق فيه لزعماء فروع قبائل ميديا المشاركة فی رسم السياسات العليا وتنفيذها، وبذلک كانت الدولة تحتفظ بتماسكها وحيويتها وقوتها.

---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٣٣٣. Mehrdad Izady: The Kurds, P 34.

٢ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٢ ٤٠.

ثالثاً: أخلّ أستياگ بقاعدة إستراتيجية أخرى، هى إقامة التحالفات الإقليمية الكفيلة بتحقيق التوازن بين القوى الإقليمية، وكانت الدولة البابلية (الكلدانية) أقوى حلفاء مملكة ميديا، وأكبر أخطاء أستياگ أنه دخل فى صراع ضد الدولة البابلية، وحوّلها من حليف حميم إلى عدو ناقم يترقّب أقرب فرصة للانتقام منه، هذا إضافة إلى أنه تعامل بعَجْرَفة مع حكّام أرمينيا التابعين لمملكة ميديا، فأثار استياءهم، ودفعهم إلى النقمة عليه، والبحث عن طريقة للخلاص من تبعيته.

رابعاً: حينما أدار أستياگ ظهره لحياة التقشّف والجِد، وانغمس فى الترف والبذخ والرفاهية والدَّعة، والبحث عن لذائذ العيش، سار قادة ميديا وكبار رجالاتها على نهج ملكهم، مستغلين وفرة الثراء الذى كان ينعم به المجتمع الميدى، قال الدكتور عبد الحميد زايد:

"إن انتصار الميديين على الآشوريين، واتساع حدود مملكتهم حتى قلْبِ آسية الصغرى، قد زاد فى ثروة البلاد التى كانت من قبل فقيرة، وقد اشتهرت الأرستقراطية الميدية بالثراء الفاحش، وكثرت المشغولات الذهبية التى امتاز بصناعتها صيّاغٌ مَهَرة، تعلّموا تلك الصناعة من الآشوريين، وكذلك من المانناييين والأورارتيين الذى استغلّهم ملوك الآشوريين من قبل"[١].

ووصف ول ديورانت جانباً من ذلك الترف قائلاً:

" على أن انحطاط الميديين كان أسرع من نهضتهم، فقد أثبت أستياجيس، الذى خلف أباه سياخْسار، ما أثبته التاريخ من قبل، وهو أن الملكية مغامرة لا تؤمَن مَغَبّتُها، وأن الذكاء المفرط والجنون يتقاربان كلَّ القرب فى وراثة المُلك. لقد ورث المُلكَ وهو مطمئن القلب هادئ البال، وأخذ يستمتع بما ورث، وحذَت الأمة حَذْو مليكها، وفَنِيت أخلاقها الجافة الشديدة، وأساليب حياتها الخشنة الصارمة؛ ذلك أن الثروة قد أسرعت إليها إسراعاً لم يستطع أهلها معه أن يُحسنوا استخدامها، وأصبحت الطبقات العليا أسيرة الأنماط الحديثة والحياة المترَفة، فلبس الرجال السراويلَ المطرَّزة الموشّاة، وتجمّلت النساء بالأصباغ والحُلِيّ، بل إن الخيل نفسها كثيراً ما كانت تُزيَّن بالذهب، وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرورَ كلَّ السرور فى أن تحملهم مَرْكبات بدائية، ذات دواليب خشنة غليظة

---

١ – عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٩١.

قُطعت من سوق الأشجار، أصبحوا الآن يركبون عربات فاخرة عظيمة الكُلفة، ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة "[1].

إن انصراف الطبقة القائدة فى ميديا إلى الترف والبذخ، كان من أهم أسباب ظهور التناقضات الداخلية فى قمة هرم السلطة الميدية، ونمو النزعات الأنانية والوصولية وإسناد المناصب العليا إلى رجال غير أَكْفاء، وتعميق الفوارق بين طبقات المجتمع، وانقسامه إلى فريقين: فريق متسلّط يحتكر الحكم والثروة، ويستعمل القهر للحفاظ على مكاسبه، وفريق يعمل للخلاص من القهر بكل ما يملك من وسيلة، وتحوّل أستياگ يوماً بعد يوم إلى (طاغية)، همّه الأكبر أن تتمركز السلطة بين يديه، وتخضع له الرقاب، وكان من الطبيعى أن يفيض ظلمه، فيصل إلى الشعوب التى كانت تخضع لمملكة ميديا، وكان الفرس أقوى تلك الشعوب حينذاك.

وقد أورد هيرودوت أحداث سقوط المملكة الميدية بطريقة يهيمن عليها التفسير الأسطورى للتاريخ، وهو – حسبما يبدو فى كتابه- مغرم جداً برواية القصص والتفسيرات الأسطورية الغريبة، وإليكم خلاصة ما رواه بشأن أستياگ:

تولّى أستياگ عرش ميديا بعد والده كَى خُسْرو، ورأى ذات ليلة حلماً غريباً متعلقاً بابنته مانْدانا، وفسّر له الكهنة المُوغ (المجوس) ذلك الحلم بأن ابنته ستتزوّج، وستلد طفلاً يزيحه عن الملك، وبما أن أستياگ كان يتوجّس شراً من كبار الزعماء الميد المنافسين له، قرر ألا يزوّج ابنته من نبيل ميدى، وزوّجها من الحاكم الفارسى قَمْبَيز (كَمْبُوجيا)، ولعله فعل ذلك لكسب ولاء الحاكم الفارسى، ولتحقيق التوازن ضد كبار القادة الميد الناقمين عليه.

وولدت ماندانا ابنها كورش الثانى Kursh، ورأى أستياگ حلماً آخر، فسرّه الكهنة بأن حفيده الفارسى سيقضى على سلطته، فقرر أستياگ الخلاص من الطفل كورش، واستدعى ابنته ماندانا من مدينة (أَنْشان) عاصمة إقليم فارس حينذاك، ومعها طفلها، ثم استدعى زعيماً ميدياً مقرّباً منه اسمه **هارپاگ** Harpage (هارپاجوس)، وأفضى إليه بالسر، وطلب منه قتل الطفل، ولم يجرؤ هارپاگ على قتل الطفل بيده، فطلب من راعيه مِيثرادات أن يأخذ الطفل إلى مكان جبلى بعيد، لتفترسه السباع، ثم يأتيه بما بقى من أشلائه.

---

١ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠١/٢ – ٤٠٢.

لكن وسامة الطفل سحرت زوجة الراعى، وكان لها طفل عليل، ما لبث أن مات، فألحّت على زوجها ميثرادات أن يأخذ طفلهما الميّت، ويضعه فى الجبل، لتنهشه السباع، ثم يأخذ بقاياه لهارپاگ على أنها أشلاء كورش، وأخذ ميثرادات باقتراح زوجته، وأوهم هارپاگ بأن الطفل كورش مات، ونقل هارپاگ بدوره الخبر إلى أستياگ، فزال الهمّ الذى كان يؤرّقه.

وما لبث الطفل كورش- ابن ميثرادات فى الظاهر- أن بلغ مرحلة الصبا، وشرع يقوم فى الألعاب بدور الملک بين الصبية، ويعاقب أبناء الوجهاء إذا خرجوا عن طاعته، فشكا وجهاء القرية أمره إلى أستياگ، فطلب أستياگ من ميثرادات إحضار ابنه إلى القصر الملكى، ولمح الملک فى الصبى الشبه بكورش، فهدد الراعى بالتعذيب، فباح الراعى بالحقيقة، فاحتجز الملک الطفل فى القصر، واستشار كبار الكهنة فى أمره، فرأوا أن الخطر مر بسلام، فالصبى قد قام بدور الملک فى القرية خلال الألعاب، وهذا ما كان الحلم يشير إليه، ولا داعى إلى قتله.

فأبقى أستياگ على كورش، لكنه قرر الانتقام من هارپاگ، فطلب منه إحضار ابن له صبى إلى القصر الملكى، كى يكون يلاعب كورش، فأحضر هارپاگ ابنه، وأمر الملک بقتل الصبى سراً، ثم أولم وليمة ودعا إليها هارپاگ، وبعد أن شبع هارپاگ، أعلمه الملک أنه كان يأكل لحم ولده، عقاباً له على عدم تنفيذ قتل الطفل كورش، فأظهر هارپاگ رضاه بما فعله الملک، وظل مقرّباً منه، يطّلع على أسراره، لكنه قرر منذ ذلک اليوم أن ينتقم من أستياگ.

وبعد سنين تولّى كورش الحكم بعد والده فى إقليم فارس، وتواصل معه هارپاگ سراً، وشجّعه برسائل سرية على الثورة ضد أستياگ، وتحالف معه للانتقام بدوره من أستياگ، قائلاً له فى إحدى رسائله:

"فافعلْ ما أنا مشيرٌ عليک به، وستكون لک مملكة أستياجيس كلها؛ هيّئ الفرس للثورة، وامضِ لملاقاة الميديين، ولا يضيرنّک إن كنت أنا أو أحد المقدَّمين منهم على رأس الجيش الذى سيرسله الملک لملاقاتک، فالفوز لک فى كل الأحوال؛ لأن أشراف الميديين سيكونون أوّل من يهجرونه للانضمام إليک فى جهدک للإطاحة به، ونحن جميعاً جاهزون للعمل، فافعلْ ما أنصحک به، وبادر العمل سريعاً"[1].

١ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٠ – ٩١.

وكان من الطبيعى- والحال هذه- أن يتشجّع كورش لتوحيد موقف النخب الفارسية، ويعلن الثورة فى فارس (پارس) حوالى سـنة (٥٥٣ ق.م)، وأقام خلال ذلک تحالفاً وثيقاً مـع الملک البابلى نابونيد ضد الميديين، وكان أستياگ قد هاجم بابل قبل ذلک، وحوّل الحليف البابلى إلى عدو كما مر، وفى الوقت الذى توجّه فيه أستياگ بقواته إلى (يساركاد) للاشتباک مع الفرس فى معركة حامية سنة (٥٥٣ ق.م)؛ توجّه نابونيد ملک بابل بقواته إلى حرّان التى كان أستياگ قد انتزعها من مملكة بابل، وسيطر عليها. وكان كورش الثانى صديقاً لدِيگْران الأول ابن يَرْوانْت حاكم أرمينيا التى كانت تحت النفوذ الميدى، وعندما قرر كورش الثورة على الميديين أقام تحالفاً وثيقاً مع يَرْوانْت أيضاً، وقد مر أن أستياگ كان قد أثار سخط حكام أرمينيا، وأنهم كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للانتقام منه[1].

وهكذا أحكم كورش الخناق ضد أستياگ على الصعيد الإقليمى، ولم يكتف بذلک، بل عقد تحالفاً سرياً مع أبرز كبـار قادة الميد فى أگباتانا، وخاصة مع هارپاگ القائد العام للجيش الميدى، قال دياكونوف:

"هارپاگ الذى كان قائداً عاماً للجيش الميدى، فإنه مع النبلاء، وقادة قوات الجيش، انضموا إلى كورش، ودخلوا فى صفوف جيشه"[2].

وشرع هارپاگ يثير الزعماء الميد سراً ضد أستياگ، ويشوّه صورته. ويُفهم مما رواه هيرودوت أن هارپاگ ضمّ إلى حلقة التآمر مجموعة من الكهّان الموغ أيضاً، واتصل سراً بكورش يطمئنه بأنه قد جعل المناخ فى أگباتانا مناسباً للخلاص من أستياگ. وعلم أستياگ بثورة كورش، فأرسل إليه رسالة تهديد ووعيد، واستعدّ فى الوقت نفسه للقضاء على الثورة، وقال هيرودوت فى ذلک:

"وسرعان ما تواردت الأنباء، وبلغت أستياجيس، فبعث يستدعى قورش ليَمْثل أمامه، وكان أنْ حمّل موفدَه بعبارات تحمل الوعيد بأنه قادم بأسرع ما يطيب لأستياجيس، فما كان منه إلا أن عبّأ الميديين، وحشد له الحشود، ولكن الفطنة خانته يومذاک، فجعل هارپاجوس على رأس قواته، ويبدو أنه نسى ما ارتكبه فى حقه قبل حين، وكان من أثر

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٤.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٩٢.

ذلک العمل أنّ قلّةً من جنوده لم تشترک فی المؤامرة، هی التی صمدت فی ساحة المعرکة، حین اشتبک الجیشان ودار القتال، وأما البقیة فکانوا بین فارّ إلی معسکر الفرس، ومتکلِّف یصطنع القتال اصطناعاً؛ لیهرب بعدئذ من المعرکة"[1].

ورغم هزیمة الجیش المیدی لم یفقد أستیاگ رباطة جأشه، قال هیرودوت:

"ولمّا علم أستیاجیس بنبأ انهیار جیش المیدیین علی هذا النحو المخجل لم یَثْنه ذلک عن عزمه، فأقسم ألاّ یتیح لقورش فرصة النصر السهل، وقام بتسلیح من بقی فی المدینة من المیدیین، کبیرهم وصغیرهم، بعدما عَمَد إلی إعدام الکهنة الذین أشاروا علیه بإطلاق قورش بالخازوق، ولقد انتهی بسقوط جنوده فی ساحة القتال، بینما حوصر هو واستسلم"[2].

وجدیر بالذکر أن روایة هیرودوت السابقة بشأن أستیاگ مقتبسة من روایات الفرس، ومن المحال أن تکون روایة موضوعیة ومحایدة، وواضح أنها تهدف إلی تشویه سمعة أستیاگ من جانب، وإظهار کورش الثانی بمظهر المحاط بالرعایة الإلهیة. ویبدو من مواقف أستیاگ، فی صراعه ضد کورش، أنه کان قد استیقظ علی الحقیقة المرّة، لکن بعد فوات الأوان، وأنه کافح بعناد دفاعاً عن عرشه ومملکته وشعبه، کما أنه کان معتدّاً بنفسه، ولم یکن یخلو من الفطنة، قال هیرودوت:

"ولما تَمّ أسر أستیاجیس جاءه هارپاجوس مقرِّعاً مندّداً، یُنزل به أشدّ الإهانات، وهو یذکّره بالعشاء الذی قدّمه له، وکان من لحم ابنه، وسأله عن حاله بعدما غدا عبداً، وقد کان مَلِکاً قبل برهة، فحَدَجه أستیاجیس بنظره، وردّ علیه سؤاله بسؤال إن کان هارپاجوس شریکاً لقورش فیما فعل؟ فأجابه بأنّ له قطعاً ضِلعاً فیما وقع، فهو الذی کتب لقورش یحضّه علی الثورة. فقال له أستیاجیس: إذنْ فأنت لست الأشدَّ لؤماً بین البشر وحسب، بل أکثرَ الرجال غباء؛ فإذا کان هذا من تدبیرک حقاً، کان الأجدر أن تکون أنت الملک، ولکنک أعطیت السلطانَ غیرَک، واللؤمُ فیک جلیّ، لأنک بسبب ذلک العشاء حملتَ المیدیین إلی العبودیة، وإذا کان لا بد لک من أن تُسلّم العرش لآخر غیرک،

---

١ - هیرودوت: تاریخ هیرودوت، ص ٩٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٩٣.

كان الأجدر بک أن تقدّم هذه الجائزة لميدى، بدلاً من فارسى، لكن الحال القائمة الآن هى أن الميديين الأبرياء من كل جُنحة غدوا عبيداً بعدما كانوا أسياداً، وأصبح الفرس سادة عليهم، بعد ما كانوا عبيداً عندهم"[1].

والخلاصة أن ثمة عوامل عديدة اجتمعت وأوصلت المملكة الميدية إلى تلك النهاية الكارثية سنة (٥٥٠ ق.م)، ويرى المؤرخ اليونانى كتسياس Ktesies أن "**الأسباب الرئيسية لانتصار كورش هى خيانة الرجال الكبار** (النبلاء) **من الجيش الميدى، والذى كان هارباگ قائدهم جميعاً**"[2].

وذكر دياكونوف أن كورش لم يقتل أستياگ، واكتفى بإبعاده إلى هيركانيا (جنوبى بحر قزوين، وشمالى إيران حالياً)، ثم دُعى إلى رؤية ابنته، فأخذه قائد يدعى (بتسياک) إلى الصحراء، وتركه فمات جوعاً وعطشاً؛ وليس مستبعَداً أن القضاء على أستياگ بهذه الطريقة كان بتدبير من كورش، كى يقطع الطريق على أية محاولة يقوم بها أنصار أستياگ لاستعادة عرشه ومملكته[3].

وبعد أن اغتصب الفرس المملكة من أستياگ، عمدوا إلى تشويه سيرته كما مر، فسمّوه (بيوراسب) وسمّوه أژدهاک (التنّين)، واختلقوا رواية مفادها أن حيّتين نمتا على كتفيه، ولا تهدأان إلا بإطعامهما دماغى شابين كل يوم، واهتدى وزيره (أرياييل) أو طبّاخه (أزماميل) إلى طريقة ينقذ بها أحد الشابين، فكان يكتفى بقتل أحدهما، ومزْجِ دماغه بدماغ خروف، ويطلق سراح الآخر، ويأمره بالذهاب إلى الجبال، وكان الكورد من نسلهم، ثم ثارت الجماهير ضد أژدهاک بقيادة كاوا الحدّاد، وقضت عليه، وصار أستياگ (أزدهاک/أژ دهاک) يسمّى

---

١ – المرجع السابق، ص ٩٣.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٣.

٣ – أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، ١/٢١٤ – ٢١٥. دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٦، ٣٩٧.

(الضحّاك) فى المصادر العربية الإسلامية، وينبغى أن نأخذ فى الحسبان دور المؤرخين الفرس فى اعتماد التجسيرات الصوتية؛ لاختلاق هذه القصص الخيالية[1].

الميديون بعد سقوط إمبراطورية ميديا

جدير بالذكر أن النخب الميدية إبّان الصراع الميدى- الفارسى انقسموا إلى فريقين: فريق يمثّلهم هارپاگ الزعيم الميدى الذى قاد المؤامرة مع كورش الثانى ضد أستياگ. وفريق وطنى مخلص، وقفوا ضد التسلط الفارسى على بلادهم ودولتهم، لكنهم غُلبوا فى النهاية على أمرهم، وكان هذا الفريق ينتهز كل فرصة سانحة للقيام بثورة مضادة، والقضاء على السلطة الفارسية، وإعادة مملكة ميديا إلى عهدها السابق، ومن أبرز رجالات هذا الفريق گوماتا (سَمِيرْدِيس) الميدى وأخوه الموغ پيرتزيثيس، وقد قادا انقلاباً خطيراً ضد الملك الفارسى الثانى قَمْبَيز، عام (٥٢٢ ق.م)، فى العاصمة أگباتانا، حينما كان قمبيز يغزو مصر، وسيطرا على مقاليد الأمور، وشرع گوماتا فى إصدار المراسيم الملكية باسمه.

ولما سمع قَمْبَيز بالأمر وهو فى طريق العودة إلى بلاد فارس- وكان مريضاً- اهتاج واستبدّ به الغضب، وجمع كبار القادة الفرس وهو على فراش الموت، وأخبرهم بالانقلاب الذى قاده گوماتا الميدى، وقال لهم فى جملة حديثه:

"فلزامٌ علىّ أن أبيّن لكم- وأنا ألفظ أنفاسى الأخيرة- ما أرغب إليكم القيام به، فباسم الآلهة التى تحرس أسرتنا الملكية آمرُكم، وخاصةً الأخمينيين منكم الحاضرين هنا، ألاّ تَدَعوا الميديين يستردّون السلطة، فإذا حصلوا عليها عن طريق الغدر والخيانة فاستردّوها بالسلاح نفسه، أما إذا استردّوها بالقوة فكونوا رجالاً، واستردّوها بالقوة. إذا قمتم بما آمركم به، فإنى أدعو لكم بأن تغمركم الأرض بخيراتها، وأن تُرزَقوا بالأطفال، وتتكاثر قطعانكم، وأن تكونوا أحراراً مدى الدهر. أما إذا فشلتم فى استرداد السيادة، أو لم

---

١ - للمزيد من المعلومات انظر: المسعودى: مروج الذهب، ٢/ ١٢٢- ١٢٣. المقدسى: البدء والتاريخ، ١٤٣/٣. الزَّبِيدى: تاج العروس، مادة (كورد).

تقوموا بأية محاولة لاستردادها، فلْتَنْزلْ عليكم لعنتى، ولْيكنْ مصيرُكم عكسَ ما أدعو لكم به الآن، وعِلاوةً على ذلك فلْتكنْ نهايةُ كل فارسى بائسة مثلَ نهايتى"[1].

وتنفيذاً لوصيّة قمبيز بادر سبعة من زعماء الفرس، بقيادة أحدهم وهو دارا الأول، إلى التصدّى لگوماتا وأخيه، ودخلوا القصر الملكى عن طريق الخدعة، واشتبكوا مع گوماتا وأخيه فى معركة وجهاً لوجه، فقتلوهما، وجُرح من المهاجمين اثنان، وأقام الخمسة الباقون وأنصارهم مجزرة للميديين الذين سمّوهم (المجوس) فى العاصمة[2]. قال هيرودوت واصفاً فتك الفرس بالميديين بعد فشل الانقلاب:

"**بعد أن تمّ قتل المجوسيَّيْن، قطع المتآمرون رأسيهما، وخرجوا إلى الشارع وهم يصرخون، مُحْدِثين ضجّة عظيمة، حاملين الرأسين المقطوعين، بينما تركوا الجريحين فى القصر،... والتقى الخمسة السالمون بالمواطنين، وأخبروهم بما جرى، وأظهروا لهم الرأسين، ثم بدأوا بقتل كل مجوسى صادفوه فى طريقهم، وسرعان ما أصبح الفرس الآخرون على أُهْبة الاستعداد لأن يحذوا حَذْوَهم، بعد أن علموا بالعمل البطولى الذى اضطلع به الحلفاء السبعة، والخدعة التى قام بها المجوسيان، فاستلّوا خناجرهم، وقتلوا كل مجوسىّ وقعت أنظارهم عليه، وكادوا يبيدون المجوس لولا حلول الظلام، فتوقفت المجزرة، وقد أصبح هذا اليوم يوماً مشهوداً فى التقويم الفارسى؛ حيث يقام احتفال سنوى باسم قتل المجوس، ولا يُسمح فى أثنائه لأىّ مجوسى بالظهور، فيَقبعون جميعاً فى بيوتهم طوال اليوم، لا يَبرحونها"**[3].

وفى عهد الملك الفارسى دار الأول، ظهر بين الجيل الثانى من القيادات الميدية، بعد جيل الكاهنين گوماتا (سميرديس) وأخيه، قائد ميدى يدعى فراوُرْت Phraortes (فراوُرتيس)، وكان من طبقة النبلاء، وينتمى إلى الأسرة الميدية المالكة (أسرة دَياكو)، وسمّى نفسه خَشْتريت (گَشْتريتى)، وهو الاسم الذى كان يسمّى به فراوُرت المؤسس الثانى للدولة الميدية، وقاد

---

١ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٤٩.

٢ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٤٦. وانظر دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٠. وليام لانجر: موســوعة تاريخ العالم، ٩٣/١.

٣ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٥٥– ٢٥٦.

انتفاضة ميدية كبرى ضد الحكم الفارسي عام (٥٢١ ق.م)، لكن دارا الأول بادر إلى محاصرتها والقضاء عليها بوحشية، ودوّن انتصاره على فراوُرْت على حجر بَهَسْتون قائلاً:

"فروُرْتيش أَلقَوا القبض عليه، وجلبوه عندى، أنا قطعت أنفه وأذنيه ولسانه، وفقأت عينيه، وربطوه بالقيود فى بلاطى؛ كى يراه جميع المواطنين الأحرار، عند ذلك أمرت أن يرموه بالسهام فى أگباتانا، والذين كانوا يؤيدونه من البداية أعدمتهم فى أگباتانا داخل القلعة"[1].

ورغم سقوط مملكة ميديا، ظل الشعب الميدى قائماً على أرضه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وتمثّل ذلك الحضور- ربما منذ أواخر العهد البارثى وأوائل العهد الساسانى- فى الكورد أحفاد الميديين، ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا لم تستطع الدول والإمبراطوريات التى حكمت الوطن الميدى، أو التى تصارعت فى غربى آسيا، أن تُسقط الجغرافيا الميدية (كوردستان حالياً)، ولا الشعب الميدى (الكورد حالياً) من حساباتها الإستراتيجية. لقد حتمت الضرورة الجيوسياسية على السُّلوقيين (ورثة الإسكندر) أن يسيطروا على ميديا من حوالى عام (٣١١ ق.م) إلى حوالى عام (٢٤٧ ق.م) على الأرجح، وكان على البارث/البَرْث (الأَشْگان) أن يفعلوا الأمر نفسه حوالى عام (٢٥٠/٢٤٩ ق.م)[2].

وحينما بدأ النهوض الأرمنى فى عهد الملك ديگران الثانى (ديگران الكبير توفّى سنة ٥٥ أو ٥٤ ق.م)، صارت ميديا مجالاً حيوياً للمملكة الأرمنية، سواء أكان ذلك فى القوقاز شمالاً، أم فى الجنوب أم فى الغرب، وما كان باستطاعة الملك الأرمنى تأسيس إمبراطوريته، والوصول إلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، من غير أن يسيطر على الوطن الميدى، حتى إنه بنى عاصمته الثانية (ديگرانا كِيرْتا) فى الوطن الميدى، وهى (فارْقِين/ مَيّافارِقِين)[3].

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٤٠٧ - ٤١٠.

٢ - بارثيا هى الاسم القديم لقطر يقع فى آسيا الغربية جنوب شرقى بحر قزوين، ويقابله فى الوقت الحاضر القسم الشمالى من ولاية خراسان الإيرانية، وكانت مركز إمبراطورية امتدت إلى نهرى دجلة والفرات وبحر قزوين ونهر السند والمحيط. أرنولد توينبى: مختصر دراسة للتاريخ، ٢٩١/١ هامش (٢).

٣ - مجموعة من الباحثين: كركوك، ص ٣٨. أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٤٨.

وفى الربع الأول من القرن الأول ق.م صارت ميديا ميداناً للمعارك بين ثلاث قوى إقليمية كبرى: الرومان، والأشگان (البارت/البَرْث)، والأرمن، واتخذ القائد الرومانى لُوكُولُّوس، وبعده القائد الرومانى بُومْبَى، مدينة نصِيبين قاعدة للجيش الرومانى فى الشرق. وانجلت الصراعات الإقليمية عن معسكرين متنافسين: الأول يضم الأشگان والأرمن. والثانى يضم الرومان والميد. وكان الملك الميدى أَرْداقَست قد وقف إلى جانب القائد الرومانى أنطونيو فى ذلك الصراع، الأمر الذى جعله عرضة لنقمة الحليفين الأشگانى فَرْهاد الرابع والأرمنى أَرْداشيس الثانى (حفيد دِيگران الكبير)، وشنّا حملة ضد الميد فى المنطقة الواقعة بين تَبْرِيز وهـَمَذان، وتمكّن أرداشيس من قتل الملك الميدى، مما جعل له مكانة خاصة فى البلاط الأشگانى. ولما سيطر الرومان على الأوضاع فى أرمينيا، بين عامى (١ – ٢ م)، عيّنوا عليها حاكماً ميدياً يدعى أريوبارزان، وعيّنت بعده حاكماً ميدياً آخر بين عامى (٢ – ١١ م)، يدعى أرداقست الخامس[١].

وانقطعت أخبار ميديا حينما وقعت فى قبضة الفرس الساسانيين حوالى عامى (٢٢٤، أو ٢٢٦م)، وانزوت فى الجبال والوهاد، لتختفى رويداً رويداً وراء حجب التاريخ، وهذا يعنى أن الساسانيين عملوا بشكل منهجى لمحو جميع آثار مملكة ميديا فى ذاكرة شعوب غربى آسيا، ونحسب أنهم كانوا حريصين قبل كل شىء على اقتلاع جذور الثقافة الميدية العريقة، فقرروا اتخاذ الزردشتية، بنسختها الفارسية، ديناً رسمياً للدولة، وإلزام شعوب غربى آسيا بها، ومع ذلك ظل الكورد (أحفاد الميد) مقيمين فى وطنهم التاريخى ميديا (كوردستان حديثاً).

وفيما يلى أسماء ملوك ميديا وتواريخ حكمهم حسبما ذكرها دياكونوف.

---

١ – مروان المدوّر: الأرمن عبر التاريخ، ص ١٥٥– ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨ – ١٥٩، ١٦٠– ١٦٢.

١ – دَياكو (٧٢٧ – ٦٧٥ ق.م).
٢ – فراورت (٦٧٤ – ٦٥٣ ق.م).
- حكم السكيت (٦٥٢ – ٦٢٥ ق.م).
٣ – كيخسرو (٦٢٤ – ٥٨٥ ق.م) أو (٦٣٣ – ٥٨٤ ق.م).
٤ – أستياگ (٥٨٤ – ٥٤٩ ق.م).
عمر مملكة ميديا- ما عدا فترة حكم السكيث: ١٤٩ عاماً.

ميديا من المنظور الحضاري

ذكر ول ديورانت أن قِصر عمر مملكة ميديا لم يتح لها الإسهام في الحضارة بقسط كبير، لكنه أورد في الوقت نفسه إنجازات حضارية قام بها الميديون، وأخذها عنهم الفرس، وأوضح أن مملكة ميديا مهّدت السبيل إلى ازدهار الثقافة في بلاد فارس، وهذا دليل على أن ما أنجزه الميد لم يكن قليلاً[1]. وعلى أية حال لا تعود قلة منجزات الميديين الحضارية إلى قِصر عمر دولتهم فقط، وإنما لأن كثيراً من تلك المنجزات لم يصل إلينا، قال دياكونوف:

"رغم أن علم التاريخ أصبح يملك أدلة أثرية ومصادر قديمة في هذا القرن، إلا أن أحداث تاريخ ميديا لم تستفد من هذه المنجزات العلمية، بعكس الدول والبلدان الأخرى المعاصرة لميديا. إنّ ما تَقدّم كافٍ لنقول: إن آثار المدن والحضارة الميدية القديمة لا زالت كامنة تحت الأنقاض، وليس لدينا أية نصوص عن سلطة الميديين لمعرفة أحداث ميديا ودولتها"[2].

ونستعرض فيما يلي بعض منجزات ميديا الحضارية على مختلف الأصعدة.

---

١ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠١/٢.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ١٧.

أولاً – على الصعيد الاجتماعي:

يستفاد مما رواه المؤرخون أن المجتمع الميدى كان قَبَلى الطابع، وكان مجتمع ميديا الغربية أكثر تقدماً من مجتمع المناطق الجبلية الباردة، وقد تأسس المجتمع الميدى على قيم النبل والعمل والجدّ والتعمير، وليس على الكسل والقيم المبتذَلة، وكان الميديون يهتمون بتربية الحيوانات الكبيرة والأغنام، ويُعْنَون أيضاً بتربية الجمال الباكترية ذات السِّنامين، وكانوا يهتمون بتربية الخيول، ويبدو أن خيول ميديا كانت تتميّز بخصائص جيدة، فكانت السلطات الآشورية تأخذ الخيول من الميديين بدل الجزية والضرائب أكثر من أىّ شىء آخر، وكانت الزراعة منتشرة ومتطوّرة فى السفوح الجبلية[1].

أما بشأن بنية المجتمع الميدى فإن اسم (كارا) Kara، وهو يعنى (المحاربين) كان يطلق على المواطنين الأحرار المسلحين، وكان هؤلاء يشكلون القسم الأعظم والأهم فى المجتمع[2]. ومعروف أن كلمة (كار) Kar فى الكوردية المعاصرة تعنى (العمل)، وفى القرن السادس ق.م كان المتّبَع أن يُلقَّب جميع المواطنين الأحرار على أرض ميديا باسم مشترَك (الثوّار) أى (كار فى الفارسية القديمة)، وكان هؤلاء أحراراً من الجانب الرسمى المدنى والحقوقى المهنى، قال دياكونوف:

"فقد قُضى على الإمبراطورية الآشورية بأيدى هؤلاء الثوّار، وتأسّست الإمبراطورية الميدية القوية الكبرى بواسطة مساندة هؤلاء الثوّار"[3].

وقال دياكونوف أيضاً:

---

١ – المرجع السابق، ١٣٧، ١٧٧، ١٧٨،

٢ – المرجع السابق، ص ٣٠٤.

٣ – المرجع السابق، ص ٣١٥.

"بكل الأحوال واضحٌ تماماً أن القصد من كلمة كارا Kara ليس فقط الجيش الدائم والخدمة العسكرية، ولا فقط– كما اعتقد هترتسفلد والآخرون– الرجال الكبار النبلاء فى البلاط، بل كان يقال لمجموعة من المواطنين الأحرار"[1].

وذكر و. أ. يتورين أنه فى فارس وكذلك فى ميديا كان اسم (كُورْتَش) Kurtash يطلق على مجموعات مختلفة من العاملين، أى على عمال الورشات (المعامل)، **"والذين كانوا يسمون (كُورتَش كِينوشْكى بـــ)؛ أى (العمال الخصوصيون)، أو أن مهنهم الحرفية كانت محددة (مثل الحفر على الحجر،... وصنّاع النحاس والآخرين)"**، مع ملاحظة أن كلمة (كورتَش) عيلامية، وهى تقابل كلمة (گردا) Grda بالإيرانية القديمة. وكان الرعاة وأصحاب المهن الحرة يعتبرون ضمن فئة الـــ (كُورْتَش)، وكان الكورتشيون–رجالاً ونساء– يلقَّبون بـــ (يوهويتى– مانيش)، أى (صفوف الشباب)، ولم يكن عناصر الكُورْتَش أسرى أو عبيداً، وإنما كانوا من المواطنين الأحرار[2].

وقال دياكونوف بشأن أهمية العمل فى المجتمع الميدى:

"بالنسبة إلى المجتمع الميدى القديم كان على كل شخص فى المجتمع أن يتقن أمور الفلاحة والبَسْتنة والزراعة بشكل عام. ولكن بالنسبة إلى الرجال الكبار فى المجتمع فكان عليهم أن يكونوا من الثوّار، وكان عليهم أن يعملوا كذلك؛ لهذا السبب كان النبلاء أيضاً ينشغلون بالأعمال بالرغم من علوّ مراكزهم فى المجتمع، وكان على الرجال من الأصل النبيل، يعنى وكلاء الملوك والقادة ورؤساء الجيش أيضاً، أن يكونوا جزءاً من المجتمع، (أى من ناحية العمل والإنتاج فى المجتمع)"[3].

---

١ – المرجع السابق، ص ٣١٥.

٢ – المرجع السابق، ص ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٠.

٣ – المرجع السابق، ص ٣١٣. ثمة هفوات لغوية عديدة اضطررنا لتصويبها.

وفسّر دياكونوف قوة ميديا بكون الأحرار (الأشراف) كانوا يشكّلون قوتها الأساسية، فقال: "**ليست صدفة أن الآشوريين كانوا يسمون الميديين بالأقوياء**"[1]. وقال دياكونوف أيضاً:

"**إن المجتمع الميدى، بالرغم من أنه كان مجتمعاً طبقياً، مقسَّماً على أساس الثراء وأصحاب الامتيازات، لكن هذا التقسيم والتوزيع لم يصل بعد إلى الحد الأقصى، كان مجتمعاً لا تزال فيه العبودية غير منتشرة، ولم يستطع الفساد والشغب من الظهور إلى الوجود**"[2].

ثانياً- على الصعيد الثقافي:

بالنسبة إلى اللغة الميدية ثمة معلومات قليلة مبثوثة فى مختلف المصادر، وذكر دياكونوف- نقلاً عن الرحّالة والمؤرخ والجغرافى الرومانى سترابون Strabon (٦٤ ق.م – ١٩ م)- أن اللغات الميدية والفارسية والباكترية متشابهة، وأن لغة السِّكيت قريبة من لغة الميديين. وذكر دياكونوف أيضاً أن الجداول المكتوبة التى حصل عليها تؤكد وجود علاقة بين لغة ميديا ولغة (أفستا) الكتاب المقدس للزردشتية المقدس، وأن اللغتين تقتربان فى كثير من الحالات، لكن ليس إلى حدّ كبير، ولا يمكن اعتبارهما لغة واحدة، وأن اللغة الميدية كانت لغة مشتركة بين اتحاد أقوام ميديا، وكانت فى الأصل لغة قبيلة أريزانت (آرى زانْت) إحدى القبائل الميدية الست الكبرى، وأصبحت لغة اتحاد الأقوام الميدية[3].

وقال هارفى بورتر:

"**لغة الماديين من اللغات الآريانية؛ أى الهندية الأوربية، وتختلف كثيراً عن اللغات الساميّة، وتُعرف من كتابهم زَنْد أفسْتا، وهى قريبة من لغة الفرس فلا تختلف عنها إلا**

---

١ - المرجع السابق، ص ١٨٥.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٧٩.

٣ - المرجع السابق، ص ٦٨، ٧٢، ١٤٦، ٢١٤، ٢٧٢،

قليلاً، وكلٌّ منها يشبه لغة السَّنْسَكْريت، وهى لغة الهند القديمة، ولنا منها بعضُ ما ذُكر من أسمائهم، ... وهل كانوا يكتبون ذلك؟ لم يُعلَم علم اليقين، والأرجح أنهم استعملوا الكتابة، وكان خطُّهم الإسفينىَّ كالآشوريين، وحروفُهم سبعة وثلاثون، والأصوات الأصلية ثلاثة وعشرون"[1].

وثمة من المؤرخين من أكد أن الكورد من الميديين، واستدل على ذلك بالتشابه اللغوى بين اللغة الكوردية واللغة الميدية القديمة[2]. وقال دياكونوف: "**إن اللغة الأدبية الفارسية الأخمينية تأثرت كثيراً باللغة الميدية**"[3]. وقال ول ديورانت بشأن تأثّر الفرس والدولة بالفارسية باللغة الميدية والخط الميدى والحضارة الميدية عامة:

"فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية، وحروفهم الهجائية التى تبلغ عِدّتها ستة وثلاثين حرفاً، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون فى الكتابة الرَّقّ والأقلام بألواح الطين، ويستخدمون فى العمارة العُمُد على نطاق واسع، وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقى الذى يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير ما أمكنهم وقت السلم، وبالشجاعة التى لا حدّ لها فى زمن الحرب، ودينَ زردشت وإلهيه أهورا مَزْدا وأهْرِمان، ونظام الأسرة الأبوى، وتعدّد الزوجات، وطائفة من القوانين؛ بينها وبين قوانينهم فى عهد إمبراطوريتهم المتأخر من التماثل ما جعل دانْيال يجمع بينهما فى قوله المأثور عن (شريعة ميدى وفارس التى لا تنسخ). أما أدبهم وفنّهم فلم يبق منهما لا حرف ولا حجر"[4].

وجدير بالذكر أنه بعد سقوط إمبراطورية آشور سنة (٦١٢ ق.م)، وبعد اتفاقية الصلح بين مملكتى ميديا وليديا، ساد السلام والأمن على غربى آسيا، وازدهرت الحركة التجارية، وثمة أكثر من دليل على أن الوطن الميدى أصبح- بتأثير هذا الازدهار- مهداً لحركة ثقافية ومعرفية مزدهرة، قال دياكونوف:

---

١ – هارفى بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٨– ٨٩. والخط الإسفينى: المسمارى.

٢ – طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٨.

٣ – دياكونوف: ميديا، ص ٣٥٣.

٤ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠١/٢. والرق: جلد خاص بالكتابة. ودانيال: نبى عبرانى.

"يجب أن نعرف أيضاً بأن أرض ميديا، في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، أمست مصدراً لانتشار الوعى الدينى والفلسفى منها"[1].

ثالثاً – على الصعيد الإداري:

لا تتوافر فى المصادر التاريخية معلومات كافية بشأن الجهاز الإدارى فى مملكة ميديا، لكن مرّ فى صفحات سابقة أن الزعيم الميدى دياكو وضع الأسس الإدارية للدولة فى ميديا، وانتقل بالمجتمع الميدى من دولة- القبيلة إلى دولة- الأمة، وأمر ببناء عاصمة للدولة، كما أنه سنّ التشريعات والقوانين التى تنظّم العلاقات فى الدولة الناشئة، سواء أكانت بين الدولة والجماهير، أم كانت بين الجماهير نفسها.

ولا ريب فى أن المؤسسات الإدارية كانت تشمل جميع ميادين الدولة الناشئة، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً، ويفترض منطق التاريخ أن الفكر الإدارى فى مملكة ميديا تطوّر مع مرور الزمن، وأصبح أكثر رسوخاً وتنوّعاً وفعّالية فى عهد كل من فراوُرْت وكَىْ خُسْرو، وإلا فكيف استطاعت مملكة ميديا، فى عهد كَى خُسرو، أن تواجه إمبراطورية آشور العريقة بمؤسساها الإدارية؟ وكيف استطاعت فى النهاية التغلب عليها وإسقاطها؟ هل يمكن لدولة أن تتغلّب على إمبراطورية ما لم تكن فى مستواها على صعيد الفكر الإدارى والتنظيم الإدارى والسلوك الإدارى؟

وعدا هذا هل كان من الممكن أن يدير ملوك ميديا إمبراطورية واسعة، بين عامى (٦١٢ – ٥٥٠ ق.م)، أى أكثر من ستين عاماً، لولا وجود مؤسسات إدارية متقدمة وقادرة على تنظيم العلاقات، وتسيير الأمور وحل المشكلات، فى الداخل والخارج؟ وقد قال دياكونوف مؤكداً كفاءة المؤسسات الإدارية الميدية:

"إن المؤسسات الإدارية فى الإمبراطورية الميدية كانت من المحتمَل نفسَ المؤسسات الإدارية فى آشور وأورارتو، لكن أكثر تنظيماً ودقة من المملكتين المذكورتين. وفيما بعد

---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٣٥٧.

اتّبع الفرس أيضاً نفسَ النظام الإدارى الذى كان قائماً فى الإمبراطورية الميدية الكبرى قبلاً"[1].

رابعاً – على الصعيد العسكري:

شهد كل من كتب عن الآشوريين بقوة الجيش الآشورى، وبقدراته القتالية العالية، وإن قدرة الميديين على إلحاق الهزيمة بالإمبراطورية الآشورية إنما تحقق على أيدى جيش استطاع أن يتفوق على الجيش الآشورى، أو وصل إلى مستواه فى القوة على الأقل، والحقيقة أن المجتمع الميدى القوى بقيمه هو الذى أنجب ذلك الجيش المتميّز، وقد أرجع دياكونوف قوة الميديين القتالية إلى أن الجيش الميدى كان يتألف فى الأصل من المتطوّعين[2]، وقال دياكونوف بشأن عوامل قوة الجيش الميدى:

"إن هذا الجيش الذى تشكّل لأول مرة على أساس دولة موحَّدة، كان من الضرورى أن يشعر الأفراد فيه بالوحدة الكاملة، وفى نفس الوقت يحسّ بضرورة وجوده كجيش من أجل تحرير الأرض والمواطنين"[3].

واشتهر الجيش الميدى بأسلحته بين الأمم الأخرى، وكانت بعض فرق الجيش الفارسى الزاحف على بلاد اليونان عام (٤٨٠ ق.م)، مسلَّحة بالقوس والنُّشّاب والرماح الميدية[4]، كما أن المقاتلين الميد كانوا يشكّلون قوة ضاربة فى الجيش الفارسى، وكانت أهميتهم تأتى فى المرتبة الثانية بعد فرقة (الخالدين) الفارسية الأكثر تميّزاً، وكانت القيادة الفارسية تزجّ بهم فى المعارك ضد الأعداء الأشدّاء.

وقال دياكونوف يصف شجاعة المقاتلين الميد:

---

١ – المرجع السابق، ص ٣٤٣.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ١٨٥، ٢٧٩.

٣ – المرجع السابق، ص ١٨٥، ٢٧٩.

٤ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥١٧.

"إن الميديين، بالنسبة إلى الفرس والسكايين، كانوا معروفين بالشجاعة، ويُعتمَد عليهم، وهؤلاء كانوا القوة الضاربة الرئيسية فى جيش خَشْيارشاه"[1].

ولا تخفى أهمية الخيول فى الحروب القديمة، إن سلاح الفرسان- وعماده الخيول- كان القوة الأكثر فاعلية فى حسم المعركة لهذا الطرف أو ذاك، وكانت ميديا غنية بأنواع الخيول الأصيلة، ومرّ أن الخيول كانت أكثر ثروة الميديين، وكان الجواد الميدى مضرب المثل فى العالم القديم، قال دياكونوف:

"الخيولُ التى كانت تربّى فى أرض ميديا تُعتبَر مشهورة جداً، وكان الآشوريون يأخذون بدل الضرائب والجزية خيولاً فقط"[2].

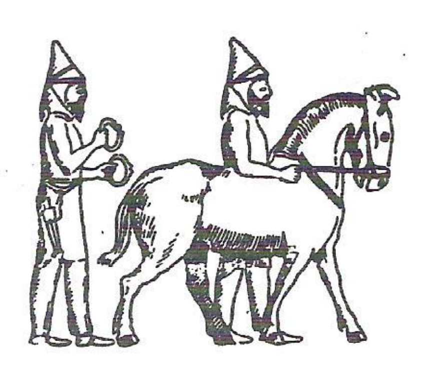
---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٤١٢.

٢ – المرجع السابق، ص ١٤٨.

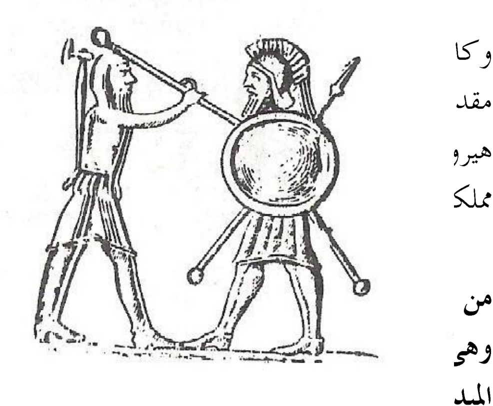


محاربان ميديان يصارعان اثنين من السكيث



فارسان من قبائل إلساكا ((السكيث))

وكا ...) أو (نيسِيان) فى ميديا، وتوصَف بأنها
مقد ... ندید الأهمية فى الميثولوجيا الميدية[1]. وقال
هيرو ... ن، خلال زحفه من (سارْدِيس) عاصمة
مملك ... رغزو بلاد اليونان عام (٤٨٠ ق.م):
... رجاء بلاد فارس كافة، وفى إثرهم ألفٌ
من ... من الجياد المقدسة المعروفة بالنيسيانية،
وهي ... بسيانية نسبة إلى سهل نيسيان فى بلاد
الميد ... لها فى العالم، وتلى الخيول عربة زيوس
المقد ... ناء موكب الملك، وهو فى عربة تجرها
خيو



محارب ميدي يحارب بأسلحة خفيفة محاربا يونانيا

مأخوذ من ختم القرن الخامس قبل الميلاد

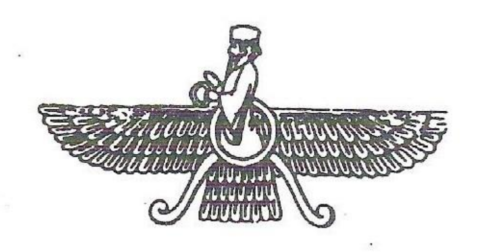
رابعاً– على الصعيد الديني:

للإحاطة بديانة الميديين لا بد من التذكير بديانة الشعوب الآرية، إنها كانت تقوم على عبادة قوى الطبيعة والعناصر والأجرام السماوية، فكانت هناك آلهة كثيرة (آهورات) عديدة- آهور يعنى إله- و لم يكن للدين صفة طبقية، لم يخدم طبقة معيّنة؛ لانعدام الطبقات فى فترة المشاعية البدائية، و لم يكن ثمة من أهمية لـــ (آهور أمزدا) إله الخير/إله النور، ولا لـــ (آهور آمن) إله الشر/إله الظلمة، بين العديد من الآلهة التى عبدها الآريون. ولكن بانتقال المجتمع الآرى من حالة التنقّل والترحّل، إلى الاستقرار ومزاولة بعض المهن، برزت مكانة الإله

١ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٦٨.

٢ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥٠٨. وزيوس Zeus كبير آلهة المجمع الإلهــى فـــى اليونـــان، والمقصود العربة الفارسية المقدسة.

(أمزدا)، ولذلک أُطلق على الديانة القديمة اسم (المَزْدية)، وبما أن الكهان المجوس كانوا يقومون على شؤون الدين تشريعاً وطقوساً وشعائر، أُطلق على المزدية اسم (المجوسية)[١].



آهـورا مـازدا

١ – حسين قاسم العزيز: البابكية، ص ١٣٠.

وكان رجال الدين (الكهنة) الرسميين في المجتمع الميدى، يسمّون (موغ)، وكانوا يتوارثون المناصب، ويشرفون على أداء الطقوس، وكانوا ينتمون إلى قبيلة موغى (ماجى) Magoi إحدى القبائل الميدية الست، ويبدو أن هذه القبيلة كانت متخصصة فى أمور الدين، وهم يماثلون سِبْط (قبيلة) لاوِى العبرانية، وهى قبيلة النبى موسى، وكانت متخصصة فى أمور الدين اليهودى، ويماثلون أيضاً قبيلة قُرَيش العربية فى مكة، وكان منها النبى محمد بن عبد الله.

وذكر دياكونوف أن الموغ كان يلبس قفطاناً، تتدلّى أكمامه على الجانبين خالية من الساعدين؛ وهذا يذكّرنا فى أيامنا هذه بالعباءة التى يرتديها الرئيس الأفغانى الحالى حميد كَرَزاى فى المناسبات الرسمية، إنه قفطان يضعه الرئيس على منكبيه، وفيه خطوط خضراء، وله كمّان طويلان، يتدلّيان من الجانبين، من غير أن يضع فيهما الرئيس ساعديه، ومعروف أن دعوة زردشت الدينية لقيت رواجاً فى مدينة بَلْخ، وهى تقع فى شمالى أفغانستان، وهذا يعنى أن أفغانستان كانت أولى البلدان التى انتشرت فيها الزردشتية، وانتشرت فيها تقاليد الموغ[١].

ونظراً للاحتكاك السياسى بين اليونان والفرس بدءاً من العهد الأخمينى (٥٥٠ – ٣٣٠ ق.م)، كان مؤرخو اليونان- وفى مقدمتهم هيرودوت- أكثر من تحدّث عن الميديين والفرس وعقائدهم، وأطلقوا على الموغ اسم Magos، حسب طريقتهم فى إضافة اللاحقة (s) بأسماء الأعلام، وشاعت صيغة (مجوس) فى ثقافات غربى آسيا بشكل عام، ودخلت إلى الثقافة العربية أيضاً، حتى إن كل دين من أديان الميديين والفرس بات يُعرَف بـــ (المجوسية)، وأطلق المؤرخون المسلمون على النبى زردشت لقب (نبىّ المجوس)، قال المقدسى بشأن زردشت: "**فى عهد كُشْتاسْب بن كيلهراسْب ظهر زَرْدَشْت نبىُّ المجوس، ودعا الناس إلى المجوسية**"[٢].

وكانت الزردشتية فى جوهرها حركة إصلاح داخل المزدية وتطوير لها، أو لنقل: هى مزدية جديدة، صاغها النبى الميدى زَرْدَشْت بما يتناسب والأوضاع والحاجات المعرفية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة فى ميديا خاصة، وفى آريانا (بلاد الآريين الشرقيين) عامة، وثمة كثير من الأدلة على أن الزردشتية هى سليلة المزدية، منها على سبيل المثال أن الإله الأكبر والأوحد (مَزْدا/أَمَزْدا)- وكان دينه يسمّى (مَزْدا- يَسْنا)- احتفظ بمكانته

---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٣٨٣.

٢ – جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٣١. المقدسى: البدء والتاريخ. ١٤٩/٣.

فى الزردشتية باسم (أهورا مَزْدا) Ahura Mazda إله النور والخير، والجديد الذى أضافه زردشت فى هذا المجال أنه اعتقد بوجود قوة خبيثة مهلكة سمّاها أهريمن (أهور أمن/ أَنْگِرامايْنِيُو)، تنشر الشرور فى العالم، وتقف عقبة فى طريق المشروع الأهورامزدى لتعميم الخير والنور فى العالم أجمع، وهذا ما لم يكن له وجود فى المزدية[1].

وجدير بالذكر أن زَرْدَشت (زارادشت/زاراتوشترا/زراوُستر) ميدى الأصل، ولد فى ميديا قرب بحيرة أورميا، وعاش بين سنتى (٦٦٠ – ٥٨٣ ق.م)، أو بين (٦٣٠ – ٥٥٣)، أو (٦٢٨ – ٥٥١) قبل الميلاد. وإذا أخذنا فى الحسبان أن مملكة ميديا أصبحت إمبراطورية بعد أن أسقطت إمبراطورية آشور سنة (٦١٢ ق.م)، اتضح أن فترة نبوة زردشت كانت معاصرة تماماً للعهد الميدى الإمبراطورى، وهو العهد الذى كثر فيه الثراء بين الميديين، وشاع البذخ، ونتيجة لذلك تعمّقت الفوارق الطبقية فى المجتمع الميدى، واستفحل المفاسد التى تمشى دائماً فى ركاب البذخ والصراعات الطبقية[2].

والأرجح أن دعوة زردشت الدينية كانت فى جوهرها مشروعاً وطنياً إصلاحياً شاملاً، إنه دعا إلى تعزيز قيم الخير والنور والتقدم والسعادة مرموزاً إليها بـــ (أهورامزدا)، ومحاربة قيم الشر والظلام والتخلف والبؤس مرموزاً إليها بـــ (أهريمن)، لكن كان من الطبيعى أن تقف الطبقة الميدية الحاكمة، وكذلك النخب السياسية والثقافية والاقتصادية السائدة، ضد دعوة زردشت الإصلاحية، واضطهدوه، فهاجر إلى مقاطعة باكْتِرْيا (باخْتِرْيا، فى شمال شرقى إيران، وشمالى أفغانستان)، واعتنق هيشتاسپ (فشتاسپ) Hyestaspes حاكم باكْتِرْيا الدين الجديد، وجاء فى أكثر من مصدر أن هَيشْتَاسْپ والد الملك الفارسى دارا الأول[3].

وثمة عدد من الأدلة تؤكد أن القادة الفرس اتخذوا الزردشتية أيديولوجيا للقضاء للهيمنة على إمبراطورية ميديا، وإزاحة الميد جانباً، والحلول محلهم فى قيادة الإمبراطورية، واتخذوها

---

١ – دياكونوف: ميديا، ص ٣٧٨. نورى إسماعيل: الديانة الزردشتية، ص ٣١.

٢ – صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٩٤. حامد عبد القـــادر: زرادشـــت نبـــى قـــدامى الإيرانيين، ص ٢٩.

٣ – دياكونوف: ميديا، ص ٣٤٠. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩١/١. هـــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٥٨/٢. أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٢٣٠.

منذ عهد دارا الأول (٥٢٢ – ٤٨٠ ق.م) ديناً رسمياً للدولة، وقال ول ديورانت فى الموضوع ذاته:

"ولعل دارا الأول حينما اعتنق الدين الجديد رأى فيه ديناً مُلهماً لشعبه، فشرع منذ تولّى المُلک يثير حرباً شَعْواء على العبادات القديمة وعلى الكَهنة المجوس، وجعل الزردشتية دين الدولة"[١].

خامساً – شهرة الميديين:

كانت شهرة الميديين كانت ذائعة فى العالم القديم، وكان زعماء الممالک المجاورة لإمبراطورية فارس تخاطب الملک الفارسى بلقب **"ملک الميديين"**، وكانت تعدّ الفرس إجمالاً ميديين، وظلت هذه النظرة سائدة حوالى قرن من الزمان بعد زوال إمبراطورية ميديا، بدءاً من عهد كورش الثانى (حكم سنة ٥٥٠ ق.م) إلى عهد أَحْشَوِيرَش بن دارا الأول (قتل سنة ٤٦٥ ق.م). ومن الأمثلة على شهرة الميديين أنه لما اعتزم كورش الثانى غزو بلاد ماسّاجيتاى (فى شرقى أفغانستان)، كتبت ملكة ماسّاجيتاى إليه رسالة تقول فيها: **"إلى ملک الميديين، قد بلغنا ما أنت عازم عليه، وإنا لمن الناصحين أن تُقلع عن هذا الأمر"**[٢].

واشتهر الميديون أيضاً بأزيائهم، ومعروف أنه فى أزياء كل شعب تتلخّص أمور ثلاثة: البيئة الجغرافية، والرؤية الجمالية، والقيم الخلقية، وهذا هو الملاحَظ فى الزى الميدى، إنه كان يتصف بالأناقة والجمال، بمقاييس ذلک العصر طبعاً، إلى درجة أنه كان معروفاً على النطاق الإقليمى والعالمى، وكان معظم الفرس يلبسون الملابس الميدية، ويتحلّون بالحلى الميدية، قال هيرودوت يصف الفرس:

"وليس هناک كالفرس شعبٌ يَنْزِع إلى الأخذ بمناهج مَن هو غريب عنه، فهم يرتدون أزياء الميديين مثلاً، لاعتقادهم بأن تلک الأزياء أكثر أناقة من أزيائهم "[٣].

ووصف هيرودوت لباس الفرس وعتادهم فى الجيش الذى قاده أَحْشَوِيرش بن دارا الأول لمهاجمة اليونان، فذكر أنهم كانوا يرتدون:

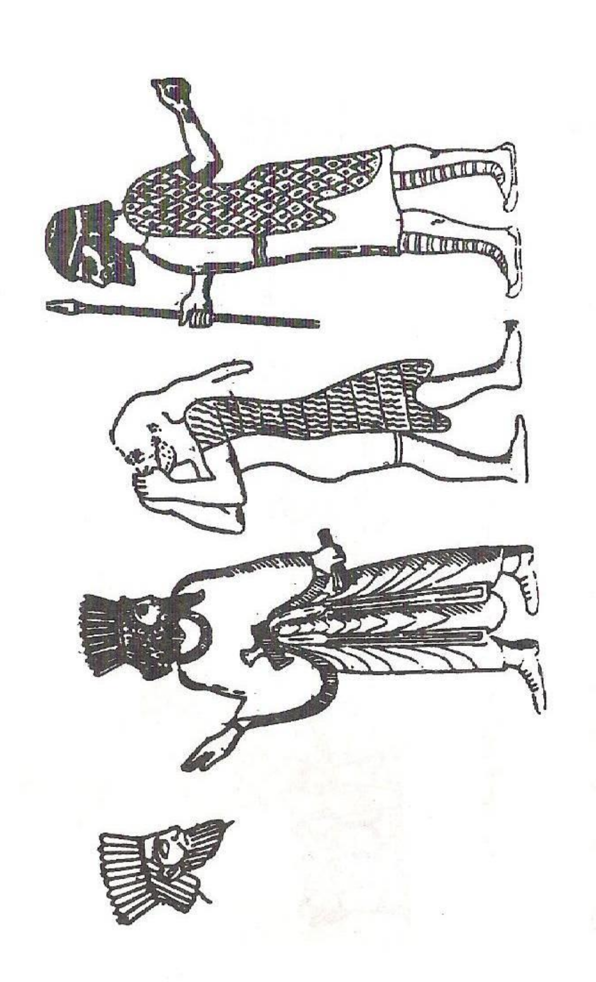
---

١ – ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٤٢٦.

٢ – دياكونوف: ميديا، ص ١٢٦.

٣ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٦.

"القبّعةَ المثلّثة وهى من اللبّاد الناعم، والقميصَ المطرّز مع أكمامه، وفوقه الدرعُ الذى يبدو كحراشف السمک، والسروالُ، وأمّا عتادُهم فهو التُّرسُ المصنوع من قضبان الصفصاف، وتحته المِقلاعُ والرمح القصير، والقوسُ القوية، والسهامُ



ملابس الميديين من اليسار إلى اليمين رأس أسير – واحد من نبلاء ميديا – رجل لولي – رجل ميدي
مأخوذ من نقش أنو بانيني, القرن الثامن إلى الخامس قبل الميلاد

المصنوعة من الخَيْزُران، والخنجرُ المربوط بالنطـــاق على الفخـــذ اليمنى"[1].

وذكر دياكونوف أن الزى الميدى كان يتألف من "**رداء طويل، له أكمام طويلة مرتفعة، وسروال مَطوىّ الثنايا، بأذيال طويلة، مع روب قصير من قطعة أخرى ملوّنة، ومصنوعة من الحرير، ويلبسون الطاقيات العالية، وكانت هذه أزياء الفرسان الأريزانت، وكان المواطنون فى ميديا الغربية والمركزية يستخدمون هذه الملابس فى النصف الأول من الألف قبل الميلاد، أما فى شرق هذه البلاد فإنهم كانوا يستخدمون هذه الملابس من القِدم، ... هذه الملابس للأقوام الميدية الشرقية كانت سائدة فى جميع أنحاء أراضى ميديا بشكل رسمى، وفى القرن السادس قبل الميلاد كان الفرس أيضاً يلبسون هذه الملابس"**[2].

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٥١٥.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٤٨ – ٣٤٩. والأريزانت قبيلة ميدية.

الخاتمـــة

التكوين الكوردي

من الأسلاف إلى الأحفاد

١
التكوين الكوردى

إن هذه الرحلة مع تاريخ أسلاف الكورد توصلنا إلى الحقائق التالية.

أولاً – العمق التاريخي الكوردي:

نتيجة لاتفاقية سايكس- پيكو، ولحملات التعتيم التى مارسها المنتفعون من تلك الاتفاقية على كل ما يتعلق بالكورد حاضراً وماضياً، وثقافةً وسياسةً، صار معظم شعوب الشرق الأوسط لا يعرفون شيئاً عن عراقة الكورد فى غربى آسيا، وكأن الكورد نبتوا من الأرض فجأة أو هبطوا من السماء، وفى أحسن الأحوال تقزّم الحضور الكوردى فى أنهم (مهاجرون) ليس أكثر. وظاهرة الجهل بحقيقة الحضور الكوردى فى غربى آسيا لا تقتصر على العامة من جماهير الشرق الأوسط، وإنما لاحظتها ولمستها مراراً عند كثير من المثقفين.

والحقيقة أن الحضور الكوردى عريق فى تاريخ غربى آسيا هو استمرار لحضور أسلافهم، وقد اتضح أن وجود أسلافهم زمانياً فى غربى آسيا لا يقتصر على بضعة قرون، وإنما يمتد إلى أكثر من عشرة آلاف سنة، بدءاً من العصر الحجرى القديم (الپاليوليثى) Paleolithic، ومروراً بالعصر الحجرى الوسيط (الميزوليثى) Mesolithic، فالعصر الحجرى الحديث (النيوليثى) Neolithic، فعصر حضارة حَلَف Halaf، فعصر ظهور الكتابة، فعصر الدول والإمبراطوريات فى غربى آسيا قبل الميلاد، فعصر الصراعات الفارسية الرومانية والبيزنطية بعد الميلاد، وانتهاء بعصر ظهور الإسلام، وتأسيس الإمبراطورية العربية الإسلامية.

ثانياً – الوطن الكوردي:

إن وجود أسلاف الكورد جغرافياً فى غربى آسيا عريق عراقة حضورهم التاريخى، وهم لم يغتصبوا البلاد التى أقاموا فيها من شعب آخر، بل إن شعوباً أخرى كانت تقتحم ديارهم، وتحلّ بينهم، وتتسلّط عليهم، ومن الأمثلة على ذلك قدوم الشعب الآشورى إلى سوبارتو التى عُرفت بعد ذلك باسم (آشور)، ومثال على ذلك أيضاً قدوم شعب السِّكيث من شمالى البحر الأسود إلى وطن أسلاف الكورد فى شمالى كوردستان الشرقية (شمال غربى إيران حالياً)، وتَسلُّطِ الفرس على وطن أسلاف الكورد بعد إسقاط إمبراطورية ميديا عام (٦١٢ ق.م)، بل إن العاصمة الإيرانية طَهْران نفسها تقع فى ميديا الشرقية، قرب المدينة الميدية العريقة (رَغَه) والمعروفة باسم (الرَّى)، أما بشأن حلول بعض القبائل العربية والتركمانية فى وطن أسلاف الكورد، تحت ظل الخلافات الإسلامية المتتابعة فحدّث ولا حرج.

إن الوطن الكوردى هو- فى معظمه- الوطن ذاته الذى عاش فيه أسلاف الكورد منذ فجر التاريخ، وهو على شكل مثلّث يشكّل جبل أرارات (على تخوم ققفاسيا) رأسه فى الشمال، وجبال زاغروس ضلعه الجنوبى الشرقى، وجبال طوروس ضلعه الشمالى الغربى، وتشكّل التخوم الشرقية لبلاد ما بين النهرين (ميزوپوتاميا) قاعدته فى الجنوب الغربى. وتقع كوردستان (وطن الكورد) بين خطّى الطول (٣٠ – ٤٠) درجة شرقاً، وبين خطّى العرض (٣٧ – ٣٨) درجة غرباً، وتُقدَّر مساحتها بحوالى (٢٠٠٠٠٠) مئتى ألف ميل مربَّع؛ أى ما يساوى مساحة فرنسا.

والطابع الغالب على الوطن الكوردى هو الطابع الجبلى، وأعلى جبل فيه هو أرارات (قمّة آغرى)، ويبلغ ارتفاعه (٥١٥٨) متراً، ويتراوح ارتفاع كوردستان بين (١٠٠٠ – ١٥٠٠) متر فوق سطح البحر، ويختلف مُناخها من منطقة إلى أخرى، ويتّصف بتوافر الأمطار شتاء وبالجفاف صيفاً، ويتراوح معدّل الأمطار فيها بين (٢٠٠ مم- ٤٠٠ مم)، وتمتاز معظم مناطق الوطن الكوردى بمصادر وفيرة للمياه، باستثناء بعض المناطق المتاخمة لسهول العراق وللبادية السورية.

وتنبع من جبال كوردستان أربعة أنهار كبيرة، هى آراس، وقِزِل أُوزون، وهما يصبّان فى بحر قَزْوِين، ودجلة والفرات، وهناك أنهار أخرى منها الزاب الكبير (الأعلى) والزاب الصغير (الأسفل)، وبَتْليس (بدليس)، وبُوتان، وسَيروان، وجَغْتو، ولذلك تمتاز كوردستان بأهمية كبيرة فى مجال الثروة المائية، وسيكون لها فى المستقبل دور فاعل بشأن الصراعات على المياه

فى غربى آسيا، وقد ظهرت بوادر تلك الصراعات منذ أكثر من عقدين بين تركيا وسوريا والعراق على مياه نهرى دجلة والفرات، ونظراً لغلبة الطابع الجبلى على كوردستان تتوافر فيها مختلف أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة، كما تتوافر فيها ثروة حيوانية ومعدنية وبترولية متنوّعة.

ثالثاً – الهوية الكوردية:

التكوين الكوردى نتاج الاندماج- عرقياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً- بين أقوام زاغروس القدماء والأقوام الآرية الوافدة خلال الهجرات الكبرى التى شهدها العالم القديم، وقد مر التكوين الكوردى بالمراحل ذاتها التى مرت بها بقية شعوب العالم، فكان على شكل جماعات فى العصور الحجرية، ثم صارت الجماعات قبائل، ثم توحّدت القبائل وتجانست ثقافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، وانتقلت إلى مرحلة تكوين (قوم/شعب/أمة) عُرف منذ ما قبل الميلاد باسم (كورد)، وهو تكوين قائم على الجغرافيا المشتركة، والتاريخ المشترك، واللغة المشتركة، والثقافة المشتركة؛ إضافة إلى قدر كبير من التجانس العرقى، وبهذا المعنى يختلف- قليلاً أو كثيراً- عن الشعوب الأخرى.

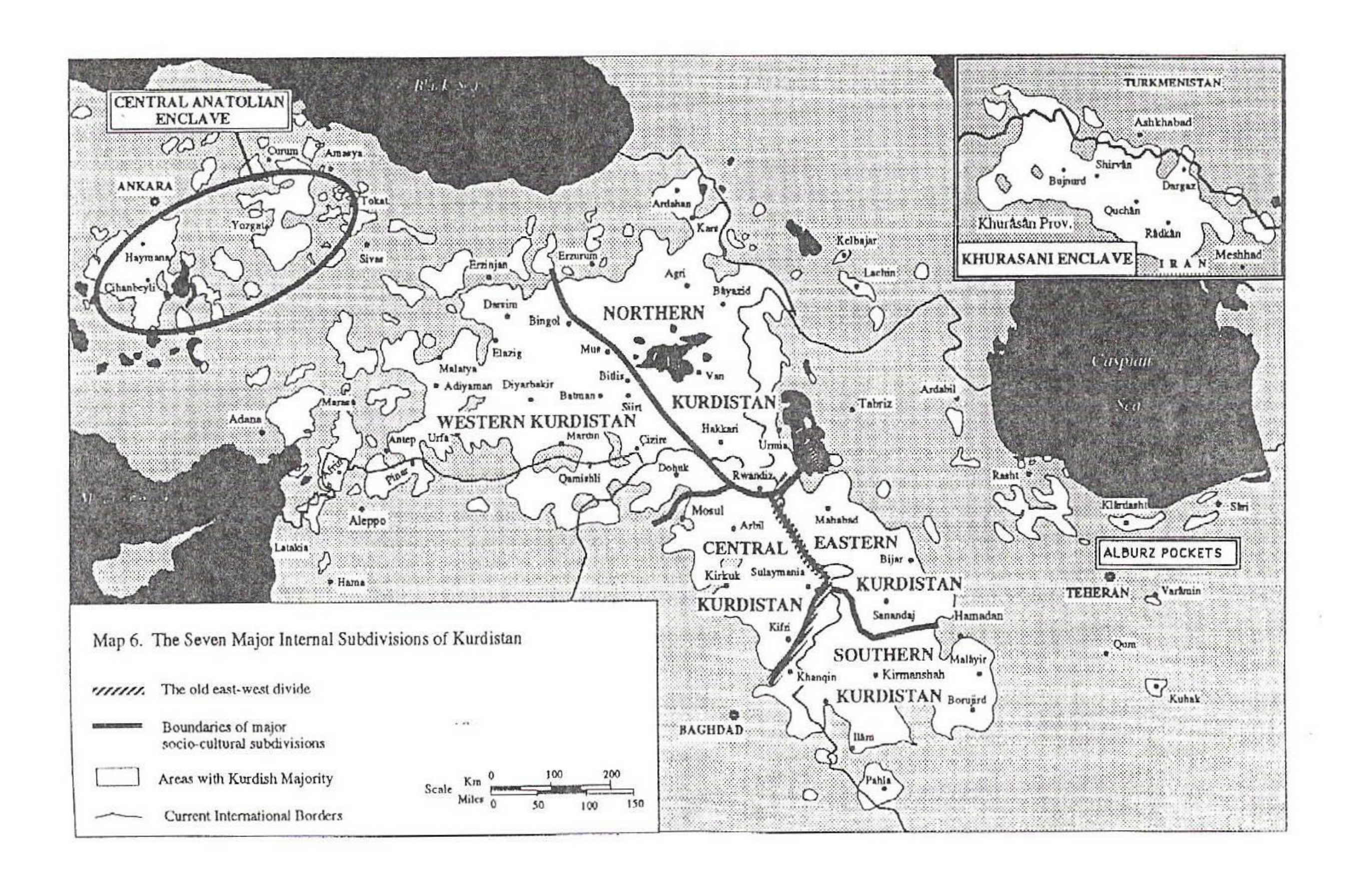
وقد وضع الفرع الگوتى، فى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، أُسس التكوين الكوردى، وحدث ذلك وفق قاعدة (التحدّى والاستجابة) التى فسّر بها أَرْنُولْد تُوينْبى فى كتابه (تاريخ البشرية)، وكان (التحدى) أن أقوام زاغروس واجهت، فى الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، ظهور دولة أكّاد الشديدة الطموح فى ميزوپوتاميا، ولم يكفّ ملوكها عن غزو سكان زاغروس مرة تلو أخرى، وتدمير قراهم ومدنهم، ونهب ثرواتهم، وتحويلهم إلى عبيد يباعون فى الأسواق؛ وكانت (الاستجابة) أن سكّان زاغروس توحّدوا تحت لواء فرع (گوتى)، وثاروا على إمبراطورية أكّاد، وقضوا عليها سنة (٢٢٣٠ ق.م)، وبسطوا نفوذهم على مواطن أسلاف الكورد، من لُورِسْتان جنوباً وشرقاً، إلى بحيرة أُورْمِيَه وبحيرة وان شمالاً، وإلى تخوم مَلَطِيا غرباً، وهيّأوا المناخ لانتشار ثقافة متجانسة فى تلك الجغرافيا.

ثم واصل الحوريون- بما فيهم الميتّانيون- ما بدأه الگوتيون بشأن استكمال ملامح التكوين الكوردى، فحوالى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد كان (التحدّى) الذى واجه أسلاف الكورد مزدوَجاً؛ ففى الشرق تسلّطت عليهم مملكة آشور، وفى الغرب تسلّطت عليهم المملكة

الحِثّية. وكانت (الاستجابة) أن تسلّم فرع (ميتّانى) الحورى دفّة القيادة، ووحّد أسلاف الكورد فى تكوين سياسى وثقافى متجانس، امتد من كركوك إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وقد سهّلت جهود الگوتيين سابقاً على الميتّانيين تحقيق ذلك التجانس، وأتاحت لهم تعميم الثقافة الآرية على مجتمعات أسلاف الكورد فى المناطق التى صارت تحت نفوذهم.

واستكمل الميديون ما أنجزه الگوتيون والميتّانيون، ففى أوائل الألف الأول قبل الميلاد كان (التحدّى) الذى واجه أسلاف الكورد يتمثّل فى عدوان إمبراطورية آشور الشرسة الباطشة، وكانت (الاستجابة) أن الميديين تولّوا قيادة أسلاف الكورد، وثاروا على إمبراطورية آشور وقضوا عليها، وأقاموا إمبراطورية تمتد من جبال هندوكوش فى أفغانستان إلى وسط الأناضول، ومن تخوم القفقاس إلى لُورِستان، وأهم إنجاز قاموا به هو تكريس الهوية الآرية بدلالتها الثقافية فى مجتمعات أسلاف الكورد بشكل نهائى، ولذلك يعتبر الميديون الأسلافَ الأكثر فاعلية فى صياغة التكوين الكوردى جغرافياً وثقافياً وحضارياً.

وبعد أن وضع الملك الفارسى قَمْبَيز Cambys ابن كورش الثانى وصيّته سنة (٥٢٢ ق.م)، مطالباً النخب الفارسية بالقضاء على كل محاولة لإحياء مملكة ميديا، تمّ تغييب اسم (ميد)، بقصد تفريغ الذاكرة الغرب آسيوية والعالمية من كل ما يذكّر بشهرة ميديا، وكرّس الملوك الفرس ذلك التغييب بزحزحة المجتمع الميدى من قلب حركة الحضارة إلى هامش التاريخ، عبر تحويله إلى مجتمع ريفى رَعَوى متخلّف، همّه الأساسى هو الحفاظ على البقاء. وفى إطار تلك الظروف غاب اسم (الميد)، وحل اسم (الكورد) محله، وبهذا الاسم عبر الكورد إلى العهود البارثية فالساسانية فالرومانية فالبيزنطية، ثم إلى عهد الدولة العربية الإسلامية منذ منتصف القرن السابع الميلادى، ومن بعدُ إلى العصور الحديثة.



Map 6. The Seven Major Internal Subdivisions of Kurdistan

٢

إشكالات وإضاءات

ثمة ثلاثة إشكالات تتعلق بالتكوين الكوردي، نستعرضها فيما يلي بإيجاز، ونقدّم الإضاءات التي نحسب أنها كفيلة بإزالة ما في تلك الإشكالات من لَبس.

أولاً – إشكال التكوين الكوردى:

لعل سائلاً يقول: ما الدليل التاريخى والعلمى على أن الزاغروسيين القدماء، والآريين الذين اندمجوا بهم، هم الأسلاف الحقيقيون للشعب الكوردى؟ لتوضيح ملابسات هذا الإشكال نقدم الإضاءات الآتية:

الإضاءة الأولى:

إن ظهور فجر الحضارة فى كوردستان أمر مؤكَّد عند جميع الباحثين الذين تناولوا تاريخ غربى آسيا القديم، شرقيين كانوا أم أوربيين، كما أنهم أكدوا أن السومريين الذى أقاموا صرح أول حضارة فى جنوبى ميزوپوتاميا (جنوبى العراق حالياً) قدِموا فى الأصل من الجبال الشمالية الشرقية (جبال جنوبى كوردستان حالياً)، وأكدوا أيضاً أن الأقوام الذين عُرفوا بأسماء: لُوللو، وگُوتى، وسُوبارى، وكاشُّو، وحُورى (مِيتّانى)، ومانناى، وخَلْدى (أورارتو)، وميدى (ماد)، عاشوا أيضاً فى ربوع البلاد التى عُرفت بعدئذ باسم (كوردستان).

ولم يذكر المؤرخون أية معلومة حول انقراض هؤلاء الأقوام، وبقاء البلاد التى كانوا يقيمون فيها (كوردستان بعدئذ) فارغة بلا سكان، بل على العكس ثمة معلومات كثيرة وموثّقة، تؤكد أن هذه البلاد كانت مأهولة بالسكان، منذ سقوط مملكة ميديا عام (٥٥٠ ق.م) وإلى يومنا هذا، وحسبنا دليلاً على ذلك ذكرُ الثورات التى كانت تنشب فيها ضد ملوك الفرس الأخمين، والأحداث التى جرت فيها طوال العهد السُّلوقى والبارثى (الأشگانى) والساسانى، كالصراعات التى دارت بين البارثيين والسلوقيين، وبين البارثيين والرومان، ثم بين الرومان والأرمن، ثم بين الساسانيين والبيزنطيين، ثم بين الساسانيين والعرب المسلمين[١].

وبعد هجرة الميد فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد، وهجرة السكيث Scythians إلى كوردستان فى الألف الأول قبل الميلاد، وكانوا يطاردون السِّيمِّريين (الكيمّريين Cimmerians)[٢]، لم يذكر المؤرخون أية معلومة عن أية هجرات كبرى، قام بها شعبٌ ما إلى كوردستان الحالية، وظل الأمر كذلك فى العهود الأخمينية، والسلوقية، والبارثية، والساسانية، والأرمنية فى عهد ديگران الكبير (توفّى ٥٥/٥٤ ق.م)، وكان هؤلاء جميعاً يتصارعون فيما بينهم لبسط نفوذهم على كوردستان ، ولم يقوموا بهجرات كبرى إليها، وبعبارة أخرى: كان هؤلاء مجرد جاليات حاكمة، وينحصر وجودهم فى حدود ضيقة جداً، كما هو الأمر فى كل بلد يخضع لسيطرة حكام أجانب.

الإضاءة الثانية:

حوالى منتصف القرن السابع الميلادى وصل العرب المسلمون بفتوحاهم إلى كوردستان ، وأزاحوا النفوذ الفارسى الساسانى، وحلّوا محلّهم، وكانوا- كمن سبقهم من الفاتحين- طبقة حاكمة، يستعينون فى الغالب بولاة من الكورد لتسيير الأمور الإدارية، وكان الفاتحون العرب

---

١ - انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٢٢/٢. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٢١٦/١. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ص ١٠٤ – ١٠٥. عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ١٥١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢٤٩/١ – ٢٥٠.

٢ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت ص ٢٩٨. دياكونوف: ميديا، ص ٢٥٠.

الأوائل يستقدمون بعض القبائل العربية، لرعى قطعانها فى المناطق المفتوحة المتاخمة لشبه الجزيرة العربية، ووصلت بعض القبائل إلى شمال غربى بلاد ما بين النهرين، ومن ضمنها أجزاء من كوردستان ، وما زال أثر ذلك باقياً فى اسم مدينة (ديار بَكْر) الكوردية بجنوب شرقى تركيا، نسبة إلى قبيلة (بَكْر) العربية، فالاسم التاريخى لهذه المدينة هو آمِد (آميد)، وكان فى العهود الإسلامية لقباً لكثير من الأعلام (الآمِدى)، أما حلول اسم (ديار بكر) محل اسم (آمِد) فكان فى العهد العثمانى ليس غير، وحلّ لقب (دِياربَكْرلى) محل لقب (آمِدى).

وتعرّضت كوردستان ، عام (٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م) لغزو طائفة من التركمان الغُز (أُوغُوز)، لكن القبائل الكوردية وحّدت صفوفها، وألحقت بهم هزيمة ساحقة، فتوجّه فريق منهم إلى أرمينيا، وتشتّت الآخرون فى مناطق غربى آسيا، ولم يتمكّنوا من الاستقرار فى كوردستان [١]. ثم جاء دور التركمان السلاجقة، فغزوا غربى آسيا، بما فيها كوردستان ، وبعد أن دخلوا بغداد عام (٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م) توغّلوا فى شمالى كوردستان ، وأخضعوا الدولة الدُّوْستِكِية (المَرْوانية) الكوردية لنفوذهم عام (٤٤٩ هـ)، ثم قضوا عليها عام (٤٧٨ هـ/١٠٨٦ م)، ومع ذلك لم يستقر السلاجقة فى كوردستان ، وإنما اتخذوها معبراً إلى آسيا الصغرى (غربى تركيا حالياً)[٢].

وبين عامى (٦٢٥ – ٦٢٨ هـ) تعرضت كوردستان - وخاصة المناطق الشرقية الشمالية- للغزو الخُوارِزْمى بقيادة السلطان جلال الدين خُوارزْمى، وكان هارباً أمام الزحف المغولى، لكنه قُتل فيها على يد أحد الكورد، وتشتّت جنوده[٣]. ثم تعرّض جنوبى كوردستان للغزو المغولى حوالى سنة (٦٥٥ هـ)، واتخذها المغول معبراً وقاعدة انطلاق نحو عاصمة

---

١ – أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة، ص ٢٥.

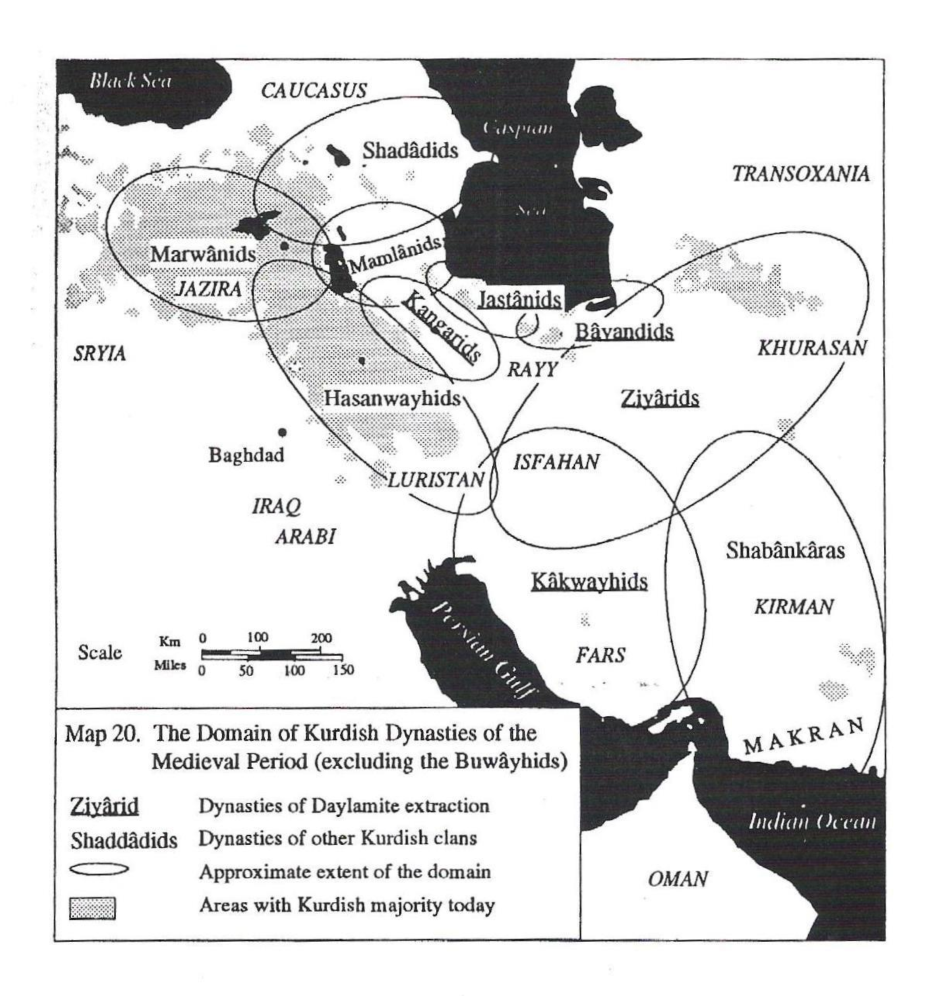
٢ – الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٤ – ١٥. الفارِقى: تاريخ الفارِقى، ص ٢٣٦.

٣ – الهمذانى: جامع التواريخ، ٢٨١/١ – ٢٨٣، ٢٩٠. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ٤٨١/١٢ – ٥٠٠.

الخلافة بغداد، من ناحية، ونحو سوريا من ناحية أخرى، وفى الحالين قاومهم الكورد، و لم يستقروا فى كوردستان [1].

---

١ - الهمذانى: جامع التواريخ، ٢٨١/١ - ٣٢٠.



Map 20. The Domain of Kurdish Dynasties of the Medieval Period (excluding the Buwâyhids)

وبعد الغزو المغولى صارت كوردستان عرضة للغزو التَّترى بقيادة تِيمُورلَنْگ بين عامى (٧٩٦ – ٨٠٥ هـ)، ولم يستقروا فيها، واتخذوها معبراً للهجوم على العثمانيين فى آسيا الصغرى[١]، كما أن كوردستان كانت ساحة قتال بين الجيوش العثمانية والصَّفَوية، منذ حوالى عامى (١٥٠٦ م)، إلى عام (١٦٣٩ م)، وهو العام الذى تقاسمت فيه الدولتان كوردستان بموجب (معاهدة تنظيم الحدود)[٢].

الإضاءة الثالثة:

كان هؤلاء الوافدون جميعاً فاتحين أو غزاة عابرين، ولم يقيموا فى كوردستان بشكل دائم، وإنما كانوا يديرون المناطق التابعة لهم من خلال زعماء الكورد التابعين لهم. وأقصى ما فعلته الدولة العثمانية هو زرع بعض الجاليات التركمانية على الطرق والمواقع الإستراتيجية فى تخوم كوردستان الغربية الجنوبية، لتستعين بها فى إحكام سيطرتها على البلاد، وهذا أمر مألوف عند معظم الفاتحين عبر التاريخ.

وخلال العهود الإسلامية- من القرن التاسع الميلادى إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى- تأسس عدد غير قليل من الحكومات فى كوردستان ، وكانت حكومات كوردية قادةً ورعيّة، نذكر منها: الحكومة الرَّواديــّة فى أذربيجان (٢٣٠ - ٦١٨ هـ)، والحكومة الحَسْنَوَيْهية فى هَمَذان (٣٣٠ - ٤٠٥ هـ)، والحكومة الدُّوسْتِكية (المروانية) فى كوردستان الوسطى (٣٥٠ - ٤٧٨ هـ)، والحكومة العَنازِيّة فى حُلْوان (٣٨٠ - ٤٤٦ هـ)، والحكومة اللُّورية الكبرى فى لُورِسْتان (٥٥٠ - ٨٢٧ هـ)، والحكومة اللُّورية الصغرى فى لُورستان (٥٧٠ – ١٢٥٠ هـ)، والحكومة الأَرْدِلانية فى جنوب غربى إيران (٦١٧ – ١٢٨٤ هـ)، وإمارة بَدْليس (قضى عليها العثمانيون عام ١٨٣٦ م)، وإمارة بابان فى جنوبى

---

١ – ابن عربشاه: عجائب المقدور فى نوائب تيمور، ص ٧٣ – ٧٦، ١٢٤، ١٢٨، ٣٩٨.

٢ – عبّاس إسماعيل صبّاغ: تاريخ العلاقات العثمانية – الإيرانية، ص ٤٦ –٤٧. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ٢١٩/١. منذر الموصلى: عرب وأكراد، ص ١٧٩، ١٩٦، ٢٠٢.

كوردستان (قضى عليها العثمانيون عام (١٨٥٠ م)، وإمارة الهكّارية فى كوردستان الوسطى (قضى عليها العثمانيون عام (١٨٤٥ م).

والسؤال الذى يفرض نفسه هو:

بما أن بلاد أسلاف الكورد لم تكن خالية قطُّ منذ سقوط مملكة ميديا عام (٥٥٠ ق.م)، ولم تصبح عرضة لهجرات كبرى، ولم يقم فيها الفاتحون بشكل يغيّر طابعها الديموغرافى الأصلى، وقامت فيها حكومات كوردية بقادها ورعيّتها، ولم نقرأ فى التاريخ أن ثمة أناساً هبطوا على كوردستان من كوكب آخر، أو انبثقوا من الأرض، إذاً من هو الشعب الذى أقام- وما يزال يقيم- فى كوردستان ؟ هل هناك تفسير تاريخى ومنطقى سوى أن الكورد الحاليين هم أحفاد أولئك الأسلاف القدماء؟

٢ – إشكال اسم الكورد

يتلخّص هذا الإشكال فى السؤال الآتى: ما حقيقة اسم (كورد/ أكراد)؟ وهل حمل أسلاف الكورد هذا الاسم؟ ولماذا لم يظهر إلا فى المصادر العربية الإسلامية فى القرن السابع الميلادى؟ لتوضيح هذا الإشكال نذكر الإضاءات الآتية:

الإضاءة الأولى:

إن ظهور أسماء الشعوب يخضع لعوامل بيئية واجتماعية وسياسية وإدارية متعددة، وعلى سبيل المثال: جاء اسم الآراميين فى نقش آشورى بصيغة (أَخْلامو) Akhlamu. وأطلق السومريون على البدو فى جنوب غربى ميزوپوتاميا اسم (الأموريين)، أى (الغربيون). واسم الفينيقيين مشتق من الكلمة اليونانية (Phoini)؛ أى أحمر أرجوانى، وأطلق المؤرخ البيزنطى بروكووپيوس (عاش فى القرن ٦ م) على العرب اسم (ساراسين) Saracine؛ أى (الشرقيون)، ويسمّيهم الكورد (تازى)، واشتهر الروس والصرب والبولونيون والتشيك عند الرومان باسم (سلاڤ) أى (العبيد)، لانحدار أغلب العبيد فى الإمبراطورية الرومانية من هذه الأجناس. وأطلق الفنلنديون على الألمان اسم (ساكسا) Saksa نسبة إلى الساكسون، والاسم

القومى للألمان هو (دُويچ)، ويسميهم الإنكليز (جرْمان)، ويسميهم الروس (نِيميتْس)، ويسميهم الفرنسيون (ألمان). والأمثلة كثيرة جداً[1].

الإضاءة الثانية:

خضع اسم (الكورد) لما خضع له أسماء كثير من شعوب العالم من تبديل، فقد سمّاهم السومريون بالاسم المركّب Kur- tu أو Kur-du، ويعنى بالسومرية (الجبلى، الجبليون)، وذكرهم الملك الآشورى تُوكُولْتى- نِينُورْتا الأول Tukulti Ninurta 1 (١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق.م) باسم شعب QÛrtî، و KÛr-ti-i أو QÛr-di -i، وإذا علمنا أن حرف (r) يُحذَف بعد حرف العلة (u) فى اللغات الهندو- أوربية، حسبما أكد أرشاك سافراستيان، اتضح أن للكلمات (گُوتى، كُوتى، كُورْتى) أصل واحد؛ والدليل على ذلك أن الملك الآشورى تِغْلات پلاسَر الأول Tiglathpileser 1 (١١١٤ – ١٠٧٦ ق.م) غزا بلاد الگوتيين، وسجل اسم السكان القاطنين فيها بصيغة QÛrti. وسمّيت الأراضى الواقعة على نهر الخابور، فى الألواح الحثية والبابلية القديمة، باسم Mat Kurda ki (بلاد الكورد)، باعتبار أن الكلمة السومرية (mat) تعنى (أرض)، واللاحقة (ki) هى للنسبة[2].

ولاحظ الكوردولوجى **مار** فى دراساته وجود صلات وثيقة جداً بين الكورد والميديين فى الوثائق الأخمينية، وقد بدا له الكورد فى جوانب كثيرة بمثابة حفدة مباشرين للميديين، ولعل الأمر يتضح أكثر إذا علمنا أن كلمة (ميد) تعود إلى الأصل (ماد)، وهذه الكلمة هى بدورها إحدى صيغ كلمة (mat) السومرية، والتى تعنى (أرض/بلاد) كما مر، وهكذا فإن اسم (مادى/ميدى) هو اسم جغرافى أصلاً، ثم تحوّل إلى اسم لشعب مكوّن من اتحاد قبائل كان

---

١ – سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة ص ١٧٧. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٢٣٧. أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١٠٧. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٧٤/١. مجموعة من الباحثين: كركوك، ص ١١٦.

٢ – أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ص ٣٠. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ١٥/٢، ١٧ – ١٨، ١٧٩/١ – ١٨٠.

يسكن تلك الأرض، وإذا ضممنا إلى هذه المعلومة أن سكّان تلك البلاد كانوا يسمّون قبل الميديين باسم (گوتى/كورتى/ قورتى/ كوردى) كما مر سابقاً، اتضح- دونما شک- أن (گُوتى/كُورْتى/ قُورْتى/ كُورْدى، ماد/ميدى) أسماء لشعب واحد[1].

الإضاءة الثالثة:

تنوّعت صيغ لفظ اسم الكورد عبر التاريخ، فقد عُرفوا عند السومريين باسم (كُوتى- جُوتى- جُودى- كورتو- كوردو)، وفى الكتابات العيلامية باسم (كُورْتاش) Kurtash، وعند الآشوريين والآراميين باسم (كُوتى- كُورْتى- كارْتى- كارْدو- كارْداكا- كارْدان- كارْداک)، وسمّاهم البابليون فى عهدهم الأخير (أُومان- مانْدا)، وسمّاهم اليونان والرومان (كارْدُوسُوى- كارْدُوخى- كارْدُوک- كوردوکى- كارْدُوكاى). واسمهم فى الفارسية: (كورد- كوردها). وفى التركية (كُورْت- كُورْتلَر) KÜrt. KÜrtler . ويسمّون عند الأرمن (كُوردُوئين- كُورجِيخ- كُورتِيخ- كُورْخى). وعند السُّريان باسم (قُورْدَنايه) ومفردها (قُورْدايه)، ومنها جاءت التسمية السريانية للمنطقة التى يقع فيها جبل جُودى باسم (بَقَرْدَى)، وذكر المؤرخون المسلمون أن أول قرية بُنيت بعد الطوفان كانت فى هذه المنطقة واسمها (ثَمانِين)[2].

وفى النهاية توحّدت الصيغ المتعددة لاسم أسلاف الكورد فى صيغة (كورد) Kord وجمعها (كوردان) Kordan، ويبدو من السياق التاريخى أن هذه الصيغة نشأت وشاعت فى النصف الأخير من العهد البارثى (٢٥٠ ق.م تقريباً- ٢٢٦ م)، وهذا واضح فى رسالة أَرْدِوان آخر ملوک البارثيين إلى أَرْدَشِير بن بابک بن ساسان أوّل ملوک بنى ساسان، مهدّداً وقائلاً له:

---

١ – باسيلى نيكيتين: الكورد، ص ٥٩.

٢ – انظر باسيلى نيكيتين: الكورد، ص٤٥، هامش (٣). دياكونوف: ميديا، ص ٨٣، ٣٠٥ – ٣١١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد فى التاريخ، ٢٢٧/١- ٢٢٩، ٥٨/٢. المقدسى: البدء والتاريخ، ٩٨/٤.

"أيها الكوردىّ المُرَبَّى فى خيام الأكراد، مَن أَذِن لک فى التاج الذى لَبِسْتَه, والبلادِ التى احتوَيتَ عليها، وغَلَبْتَ ملوكَها وأهلَها"[1]؟

وانتقلت الصيغة الأخيرة (كورد، كوردان) إلى العهد الساسانى (٢٢٦ – ٦٥١ م)، ولما حلّ العرب المسلمون محل الساسانيين فى حكم بلاد الكورد انتقلت صيغة (كورد) إلى العهد العربى الإسلامى، وكذلک صيغة (كوردان) بعد أن عُرّبت إلى صيغة الجمع (أَكْراد) على وزن (أَعْراب)، باعتبار أن الكورد كانوا قد زُحزحوا عن مركز حركة الحضارة فى غربى آسيا إلى هامشها، وتحوّلوا، بتأثير سياسات الإقصاء الفارسية إلى بداة وريفيين، جهدُهم الاحتفاظ بالبقاء كما سبق القول.

٣ – إشكال اسم كوردستان

ظهر اسم (كوردستان) فى عهد السلطان السُّلْجُوقى سَنْجَر بن مَلِكْشاه بن أَلْب أَرْسِلان (ت ٥٥٢ هـ، أو ٥٥٥ هـ)؛ إذ أطلق على جزء من بلاد الكورد المعروف بـقُوهِستان (إقليم الجبـال) اسم (كوردستان)، ويقع ذلک الجزء فى غربى إيران بين أَذَرْبيجـان شمالاً ولُورِسْتان جنـوباً، ويضم مناطق هَمَذان، ودِينَوَر، وكَرْمَنْشاه، وسِنَه[2]. ومعروف أيضاً أن اسم (كوردستان) ظهر فى خرائط الدولة العثمانية فى نهاية القرن السابع عشر، وكان يُطلَق على ثلاث ولايات هى: دَرْسِيم ومُوش وديار بَكْر[3].

والإشكال هو الآتى:

بما أن هذه البلاد كانت موطناً لأسلاف الكورد منذ ما قبل الميلاد طوال ثلاثين قرناً، وكانت موطناً لقوم عُرفوا باسم (الكورد) منذ العهد البارثى (الأشكانى) على أقل تقدير، وكذلک طوال العهد الساسانى، وطوال حوالى (٥٠٠) خمسمئة عام من العهد العربى الإسلامى، إذاً لماذا تأخر ظهور اسم (كوردستان) طوال تلک القرون؟ وما الدليل التاريخى والعلمى على أن الجغرافيا التى سمّيت (كوردستان) هى الجغرافيا ذاتها التى سكنها أسلاف الكورد من الزاغروسيين والآريين؟

---

١ – الطبرى: تاريخ الطبرى، ٣٩/٢.

٢ – شرف خان بدليسى: شرف نامه، ١٢/١. وانظر ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ٢٢٢/١١.

٣ – باسيلى نيكيتين: الكورد، ص ٧١.

لتوضيح ملابسات هذا الإشكال نقدم الإضاءات الآتية:

الإضاءة الأولى:

تخضع أسماء البلدان- كأسماء الشعوب- لعوامل بيئية وسياسية وإدارية متعددة، ولنأخذ على سبيل المثال (تركيا)، كان نصفها الغربى موطناً للحِثِّيين منذ حوالى عام (١٧٥٠ ق.م)، ثم قضى الفِريجيون القادمون من تَراقْيا على الإمبراطورية الحِثية حوالى عام (١٢٠٠ ق.م)، وأقاموا مملكة فِريجْيا بدءاً من نهر هاليس (قزِل إرْماق) شرقاً، ثم قضى عليهم السِّيمِّريون حوالى سنة (٦٩٦ ق.م)، ثم ظهر اللِّيديون فى تلك البلاد بين عامى (٦٧٠ — ٦٥٢ ق.م)، وهزموا السِّيمِّريين، وسُمّى القسم الأكبر من تلك البلاد (ليديا)، ثم احتلها الفرس عام (٥٤٧ ق.م)، ثم احتلها اليونان بقيادة الإسكندر المكدونى عام (٣٣٣ ق.م)، ثم صارت جزءاً من الدولة الرومانية، ثم صار اسمها (الدولة البيزنطية)، ثم صارت تسمى (دولة السلاجقة الصغرى)، ثم صارت مركز (الدولة العثمانية)، وفى الربع الأول من القرن العشرين، وبعد زوال الدولة العثمانية، صار اسمها (تركيا)؛ ومن هنا يمكن القول بأنه لا غرابة فى أن يكون للجغرافيا التى تسمّى الآن (كوردستان) أسماء متعدّدة ومختلفة[١].

---

١ – وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم،١/٨٢ – ٨٣، ٨٥، ٨٦. جرنوت فلـــهلم: الحوريـــون، ص ١٨. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٣٥. هـــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٢/٣٤٦- ٣٤٧.

الإضاءة الثانية:

يرجع اختلاف اسم كوردستان إلى أسباب أربعة:

أ- بعض تلك الأسماء كان من صنع الدول المجاورة لكوردستان ، ووصلتنا عبر الكتابات المسمارية والسجلات الرسمية التى تعود إلى تلك الدول.

ب- وصلتنا تلك الأسماء محرّفة عن لفظها الأصلى، بتأثير التبدّلات الصوتية التى كانت تطرأ عليها فى كل لغة- خاصة فى أحرف الكتابة- عند السومريين، والأكّاديين، والبابليين، والآشوريين، والعيلاميين، والفرس.

ج - تعرّضت تلك الأسماء قديماً مرة ثانية للتبدّلات الصوتية فى الكتابات اليونانية، واللاتينية، والمصرية (الهيروغليفية)، والأرمنية، والسُّريانية.

د - تعرّضت تلك الأسماء فى العصر الحديث مرة ثالثة للتبدّلات الصوتية؛ لأن الباحثين الذين نقلوها من الرُّقُم الطينية، ومن المصادر القديمة، كانوا من الألمان، والفرنسيين، والإنكليز، والأمريكان، والروس، والجورجيين، والأرمن، وغيرهم، ولما عرّبها الباحثون العرب أصبحت التبدّلات الصوتية أكثر اختلافاً.

الإضاءة الثالثة:

كانت مناطق كوردستان تسمى بأسماء اتحادات القبائل التى كانت تبرز فيها، وكانت الدلالة الجغرافية لكل اسم من تلك الأسماء تتوسّع وتتقلّص مع توسّع وتقلّص نفوذ تلك الاتحادات القبلية، فكان الجزء الجنوبى يسمى بلاد لوللو، ثم ظهر فى الجزء الأوسط اسم (گوتيوم) نسبة إلى (گوتى)، واسم (سوبارتو) فى الجزء الشمالى الغربى، واسم بلاد حُورى (خُورّى)، وسمّيت بلاد حورى بعدئذ (ميتّانى)، هذا إضافة إلى اسم مانناى و خلدى (أورارتو).

وعندما تشكّل الاتحاد القَبَلى الميدى، ظهر اسم (ميديا) فى السجلات الآشورية، وعندما قضى الميديون- بالتحالف مع الكلدان- على إمبراطورية آشور عام (٦١٢ ق.م)، وبسطت مملكة ميديا نفوذها على جميع أرجاء بلاد الأسلاف السابقين (لوللو، گوتى، سوبارى،

حورى،مانناى، خَلْدى)، دخلت بلاد أسلاف الكورد التاريخ باسم (ميديا)، وبهذا عُرفت بين الأمم الأخرى، وبعد سقوط مملكة ميديا فى أيدى الفرس سنة (٥٥٠ ق.م) صارت بلاد ميديا جزءاً من الدولة الفارسية، وكانت تشكّل مع إقليم بابل أهم سُتْرابَين (إقليمين) بعد إقليم فارس.

وظلت بلاد أسلاف الكورد تحمل اسم (ميديا) خلال غزو الإسكندر المكدونى، وفى عهد الدولة السُّلوقية، ويبدو أن هذا الاسم بدأ ينحسر فى العهد البارثى، ثم جرى تغييبه فى العهد الساسانى، وأصبح الاسم الذى يُطلق على الأجزاء الوسطى والجنوبية من بلاد الكورد هو (كُوهِسْتان)؛ أى (بلاد الجبال)، كما أن الساسانيين ضموا الجزء الشمالى من كوردستان إلى أرمينيا، وجعلوهما سُتْراباً (إقليماً) واحداً باسم سُتْراب (أرمينيا). ولمّا حلّ العرب المسلمون محلّ الساسانيين فى السيطرة على تلك البلاد، اعتمدوا على النظام الإدارى الساسانى، وتمّ تعريب اسم كُوهِسْتان (قُوهِسْتان) إلى (إقليم الجبال)، وظل الجزء الشمالى من كوردستان يعدّ إدارياً قسماً من أرمينيا[١].

والحقيقة أن سياسات الإقصاء والتغييب، التى انتهجتها السلطات الفارسية قبل الإسلام بشأن الكورد- تنفيذاً لوصية قَمْبَيز عام (٥٢٢ ق.م)- هى التى أدّت إلى تهميش الكورد، وتفريغ الذاكرة العالمية من أمجادهم فى العهد الميدى، وتلك السياسات هى التى أدّت إلى تبشيع صورهم، وتمزيق بلادهم، وإلحاقها بإقليم فارس جنوباً، وبإقليم أرمينيا شمالاً، وبإقليم بابل غرباً، والعمل بكل وسيلة للحؤول دون قيام تكوين سياسى كوردى مستقل.

---

١ – ول ديورانت: قصة الحضارة، مجلد١، ٤٢٢/٢. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٢١٦/١. دياكونوف: ميديا، ص ٤١٤ – ٤١٥.

فهرس المراجع

١. أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل فى العصور القديمة بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية، ترجمة وتعليق دكتور رشاد عبد الله الشامى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٢. الدكتور إبراهيم الفنى: التوراة (تاريخاً- أثرياً- ديناً)، دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٣. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٤. أحمد الدبش: موسى وفرعون فى جزيرة العرب، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٥. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.

٦. أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.

٧. أحمد كمال الدين حِلْمى: السَّلاجقة فى التاريخ والحضارة، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦م.

٨. أرشاك سافراستيان: الكورد وكوردستان ، ترجمة الدكتور أحمد محمود الخليل، مطبعة دار سَرْدَم للطباعة والنشر، سليمانية، كوردستان ، ٢٠٠٨م.

٩. أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.

١٠. أرنولد توينبى: مختصر لدراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شِبْل، الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

١١. الدكتور إسرائيل فنكلشتاين Israel Finklestin، نيل أشر سيلبرمان Neil Asher Silberman: التوراة اليهودية منكشفة على حقيقتها The Bible Unearthed، ترجمة سعيد رستم، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

١٢. الأَصْفــهانى: تاريخ دولة آل سَلْجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م.
١٣. أشيلى مونتاغيو: الدحض العلمى لأسطورة التفوق العرقى، تعريب المقدم حسن أحمد بسّام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
١٤. أڤستا، إعداد الدكتور خليل عبد الرحمن، مطبعة دار الحياة، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
١٥. إيمانويل فلايكوفسكى: عصور فى فوضى، ترجمة الدكتور رفعت السيّد، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
١٦. باسيلى نيكيتين: الكورد، ترجمة الدكتور نورى طالبانى، دار الساقى، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.
١٧. بونغارد – ليفين (إشراف): الجديد حول الشرق القديم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨م.
١٨. الدكتور توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسية القديمة من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق.م، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
١٩. جرنوت فلهلم: الحوريون تاريخهم وحضارتهم، ترجمة فاروق إسماعيل، دار جَدَل، حلب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٢٠. چفرى بارندر (مشرف على التحرير): المعتقدات الدينية لدى الشعوب ترجمة د. إمام عبد الفتّاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦م.
٢١. الدكتور جمال أحمد رشيد: ظهور الكورد فى التاريخ، دار آراس للطباعة والنشر، أربيل، كوردستان العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
٢٢. جيمس هنرى برستد: انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخرى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٥م.
٢٣. جيمس ميلارت: أقدم الحضارات فى الشرق الأدنى، ترجمة محمد طَلَب، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٢٤. جين بوترو، أوتو إدوارد، آدام فالكنشتاين، جين فيركوتر: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ترجمة عامر سليمان، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٦م.
٢٥. حامد عبد القادر: زرادشت الحكيم نبى قدامى الإيرانيين (حياته وفلسفته)، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٩٥٦م.

٢٦. حسن نعمة: موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبنانى، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٧. حسين قاسم العزيز: البابكية، دار المدى، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٢٨. الدكتور خليل جندى: الأيزدية والامتحان الصعب، دار آراس للطباعة والنشر، أربيل، كوردستان العراق، ٢٠٠٨ م.

٢٩. دياكونوف: ميديا، ترجمة وَهْبِيّة شَوْكَت محمد، رام للطباعة والتوزيع، دمشق.

٣٠. الدكتور رالف لنتون: شجرة الحضارة، ترجمة الدكتور أحمد فخرى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

٣١. رينيه لابات، موريس سنايزر، موريس فييرا، أندره كاكو: سلسلة الأساطير السورية، ترجمة مفيد عَرْنُوق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٣٢. الزَّبِيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العليم الطَّحاوى، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٤م.

٣٣. الدكتور سامى سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضارى، منشورات الجمعية التاريخية العراقية، بغداد، ١٩٧٥م.

٣٤. سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، ترجمة الدكتور السيّد يعقوب بكر، دار الرُّقى، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٥. شَرَف خان بَدْليسى: شَرَفنامه فى تاريخ الدول والإمارات الكوردية، ترجمة محمد على عَوْنى، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦م.

٣٦. القس صموئيل يوسف خليل: المدخل إلى العهد القديم (الكتب المقدسة)، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٣٧. صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ترجمة دكتور أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

٣٨. صمويل كريمر: من ألواح سومر، ترجمة الأستاذ طه باقر، مكتبة المُثَنّى، بغداد، ومؤسسة الخانْجى، القاهرة، ١٩٧٠م.

٣٩. الأستاذ طه باقر، الدكتور فوزى رشيد، الأستاذ رضا جواد هاشم: تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٩م.

٤٠. الطَّبَرى: تاريخ الطَّبَرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

٤١. الدكتور عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات فى التاريخ القديم، موجز تاريخ مصر وسوريا وبلاد اليونان والرومان القديم، بغداد، ١٩٧٨م.

٤٢. عبّاس إبراهيم صبّاغ: تاريخ العلاقات العثمانية- الإيرانية، دار النَّفائس، بيروت، ١٩٩٩م.

٤٣. ابن عَرَبْشاه: عجائب المَقْدُور فى نوائب تَيْمور، تحقيق على محمد عمر، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٩م.

٤٤. عبد الحكيم الذَّنون: الذاكرة الأولى (دراسة فى التاريخ السياسى والحضارى القديم لبلاد الرافدين)، دار المعرفة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٤٥. الدكتور عبد الحميد زايد: الشرق الخالد (مقدمة فى تاريخ وحضارات الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م)، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.

٤٦. الدكتور عبد اللطيف أحمد على: التاريخ اليونانى (العصر الهللادى)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١م.

٤٧. الفارِقى (ابن الأزرق): تاريخ الفارِقى، تحقيق بدوى عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٨. الدكتور فاضل عبد الواحد على: من سومر إلى التوراة، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

٤٩. الدكتور فاضل عبد الواحد والدكتور عامر سليمان: عادات وتقاليد الشعوب القديمة، جامعة الموصل، العراق، ١٩٧٩م.

٥٠. فِراس السَّوّاح: الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

٥١. د. فيليب حِتّى، د. أدوَرد جَرْجى، د. جبرائيل جَبّور: تاريخ العرب، دار غَنْدور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٩٠م.

٥٢. مجموعة من الباحثين: كركوك (بحوث الندوة العلمية حول كركوك) ٣-٥ نيسان ٢٠٠١، دار آراس للطباعة والنشر، أربيل، كوردستان العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

٥٣. محمد بَيُّومى مَهران: تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

٥٤. مروان المُدَوَّر: الأرمن عبر التاريخ، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

٥٥. المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م.

٥٦. المقدسى (مُطهِّر بن طاهر): البَدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٧٠م. (الكتاب منسوب إلى أبى زَيد أحمد بن سَهْل البَلْخى).

٥٧. مُنذِر الموصلى: عرب وأكراد، مطبعة دار العِلم، دمشق، الطبعة الثانية،١٩٩١م.

٥٨. م. نستورخ: أجناس البشرية، ترجمة يوسف ميخائيل أسعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١م.

٥٩. الدكتور نائل حَنّون: حقيقة السومريين ودراسات أخرى فى علم الآثار والنصوص المسمارية، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٦٠. نورى إسماعيل: الديانة الزردشتية، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ١٩٩٩م.

٦١. هادى رشيد الجاوُشْلى: تراث أربيل التاريخى، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٥م.

٦٢. هارڤى بورتر: موسوعة مختصَر التاريخ القديم، مكتبة مَدْبُولى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٦٣. هارى ساغز Hary Sags: عَظَمة آشور، ترجمة خالد أسعد عيسى، أحمد غسّان سِبانو، دار ومؤسسة رَسْلان، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٦٤. هـــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧- ١٩٧٢م.

٦٥. هَديب غزالة: الدولة البابلية الحديثة، الأهالى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٦٦. الهَمَذانى (رشيد الدين): جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت، محمد موسى هِنْداوى، فؤاد عبد المُعطى الصيّاد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٦٧. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله المَلاّح، المجمّع الثقافى، أبو ظبى، ٢٠٠١م.

٦٨. ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بَدْران، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، ١٩٦٨م.

٦٩. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٧٠. يِلْماز أُوزْتُونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، منشورات فيصل للتمويل، إستانبول، ١٩٨٨م.

- Mehrdad R. Izady: The Kurds, Crane RussakWashington, Philadelphia, London, 1992.